بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية غزة

الدراسات العليا

كلية الآداب- قسم التاريخ والآثار

الحج الشامي في العصر المملوكي

(648-923هـ/1250-1517م)

The Lavent Pilgrimage in the Mamluki Era:

(648-923 AH/1250-1517 AD)

إعداد الباحث:

عبد اللطيف شاكر الحشاش

الرقم الجامعي : 120120532

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور رياض مصطفى شاهين

1437ه – 2016م

قدم هذا البحث للحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza
مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا
هاتف داخلي 1150

ج س غ/35/
الرقم Ref .....
2016/04/27م
التاريخ Date .....

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **عبد اللطيف شاكر فريد الحشاش** لنيل درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/ قسم التاريخ**، وموضوعها:

الحج الشامي في العصر المملوكي (648 – 923هـ / 1250 – 1517م)

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الأربعاء 20 رجب 1437هـ، الموافق 2016/04/27م الساعة الحادية عشرة صباحاً بمبنى القدس، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. رياض مصطفى شاهين	مشرفاً و رئيساً	.....
د. إبراهيم أحمد أبو شبيكة	مناقشاً داخلياً	.....
د. نسيم زريق أبو شلوف	مناقشاً خارجياً	.....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/قسم التاريخ**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

شئون البحث العلمي والدراسات العليا
Research & Graduate Affairs

نائب الرئيس لشئون البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. عبدالرؤوف علي المناعمة

إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الحج الشامي في العصر المملوكي

(648-923هـ/1250-1517م)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى، وأن حقوق النشر محفوظة للجامعة الإسلامية- غزة.

Declaration

I hereby declare that this submission is my own work and that, to best of my knowledge and belief, it contains no material which to a substantial extent has been accepted for the award of any other degree of the university of any other institute, except where due acknowledgement has been made in the text. All copyrights are reserved to IUG.

Student's name:	عبد اللطيف شاكر فريد الحشاش	اسم الطالب:
Signature:	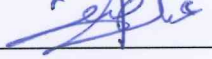	التوقيع:
Date:	2016/05/08	التاريخ:

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

سورة هود: آية 88

إهداء

أهدي هذه الرسالة إلى:

إلى أمي الغالية حفظها الله التي بفضل دعائها وفقني الله عز وجل .

إلى أبي العزيز رحمه الله تعالى وأسكنه الفردوس الأعلى .

إلى زوجتيّ الحبيبتان اللتان ساعدني ووقفتا بجانبي .

إلى أبنائي وبناتي الأحبة حفظهم الله جميعاً .

إلى الأكرم منا جميعاً . . . الشهداء .

إلى إخواننا بالسجون . . . الأسرى .

إلى من شغل وقته بالدراسة والبحث . . . طلاب العلم .

إليهم جميعاً أهدي هذا البحث المتواضع . . .

شكر وتقدير

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات وجعل رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى أتباعه الذين ختم لهم بكمال الحسنات ورفعة الدرجات، رضي الله عنهم وعن أتباعهم إلى يوم الدين.
وبعد:

انطلاقا من قوله صلى الله عليه وسلم: "من لا يشكر الناس لم يشكر الله"(1)، فإنني أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى كل من قدم لي يد العون والمساعدة لإتمام هذه الرسالة، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور: رياض مصطفى شاهين، الذي شرفني بقبوله الإشراف على هذه الرسالة، وأمدني بالنصائح والارشادات الهامة لإنجازها، وقد كان هو صاحب الفكرة الأولى التي انطلقت منها هذه الرسالة، كما وأخص بالشكر المعلم الكبير الأديب عبد الكريم الحشاش الذي زودني بالملاحظات والمراجع الهامة، كما ولا أنسى معلمي وأستاذي الفاضل غانم الحشاش لما لقيته منه من تشجيع ورحابة صدر وتوجيه لنصائح هامة، سائلاً المولى عز وجل أن يوفقهم ويحفظهم ويسدد خطاهم، وأن يجزيهم على ذلك خير الجزاء، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم يوم الدين، إنه سميع مجيب.

كما يسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذين المناقشين: الدكتور نسيم أبو شلوف مناقشاً خارجياً، والدكتور ابراهيم أبو شبيكة مناقشاً داخلياً؛ اللذين تحملا عناء قراءة هذه الرسالة، وقدما لي النصائح المهمة لتخرج في أفضل صورة، فجزاهما الله خير الجزاء.

عبد اللطيف

.....

(1)- رواه أحمد و الترمذي عن أبي سعيد، وصححه الالباني في صحيح الجامع (6541).

قال القطب الحنفي النهروالي العلامة والمؤرخ في كتابه الإعلام بأعلام بيت الله الحرام:

ولقد قيل لا يُعرى ذو كمال من نقص، ولا يخلو ذو نقص من كمال، فلا يمنعك نقص الكامل من استفادة كماله، ولا يرغبك كمال الناقص في الميل إلى نقصه، ولقد أرسل أستاذ البلغاء القاضي عبد الرحيم الفاضل البيساني إلى العماد الأصفهاني الكاتب معتذراً عن كلام استدركه عليه، وقد وقع لي شيء وما أدري أوقع لك أم لا ؟ وها أنا أخبرك به وذلك "إنّي رأيتُ أنَّه لا يكتُبُ إنسانٌ كتاباً في يومِه؛ إلاَّ قالَ في غَدِهِ: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسنَ، ولو زِيدَ كذا لكان يُستَحسَنُ، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضلَ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجملَ، هذا مِنْ أعظَمِ العِبَرِ، وهو دليلٌ على استيلاءِ النَّقصِ على جُملةِ البَشَرِ. فالأليق بالفاضل إذا عثر بشيء مما كبا فيه المؤلف وعثر أن يستر الزلل ويقيل العثار، ويسد الخلل والعوار، فالكريم غفار والحليم ستار.

القطب الحنفي النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص456. طبعة ليبزج سنة 1857م.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن موسم الحجّ السنوي مثّل جزءاً هامّاً من تاريخ أمتنا الإسلامية، والتي كانت رحلته الطويلة وطرقه المتعددة تعطي صورة لا مثيل لها من التواصل الاجتماعي والثقافي والاقتصادي بين المسلمين في الشرق والغرب، وقد فقدت هذه الوسيلة في العصر الحاضر بسبب سرعة المواصلات وتغيرها، والتي بسببها يتوجب على أبناء الأمة أن يحافظوا عليها، أو أن يوجدوا بديلاً لذلك التواصل الذي كان سائداً في ذلك العصر.

ومواسم الحج وطرقه وآثاره تمثل تراثاً حضارياً مهماً للمسلمين يجب أن يستخلصوا منه العبر والعظات والنتائج التي تفيدهم في الوقت الحاضر، وإن التغير في وسائل الاتصال الحديثة وسرعتها، لا يعني نسيان الماضي بكل أشكاله، بل لابد أن يحفّز المسلمين على إيجاد وسائل بديلة لذلك التواصل المتمثل في رحلة الحج الطويلة ذهاباً وإياباً.

ونحن من هذا المنطلق أقدمنا على خوض غمار البحث والكتابة في موضوع الحج من بلاد الشام أو الحج الشامي في العصر المملوكي، لعلنا نُسهم في إعطاء صورة للقارئ الكريم عن موسم الحج في ذلك الزمان وكيفية خروج الحجاج وما يلاقونه في طريقهم، واهتمامات سلاطين المماليك بهذا الركن، وآثار طريق الحج الشامي الحضارية المختلفة، ودورها في إيجاد التواصل والترابط بين أبناء الأمة الإسلامية.

أهمية الموضوع:

هذا الموضوع يتناول الحج من بلاد الشام في العصر المملوكي منذ عام 648هـ- 923هـ، 1258م- 1517م. وتتجلى أهميته في أنه يوضح جانباً مهماً من التاريخ المملوكي لم يركز عليه المؤرخون، وجاء مبعثراً في المصادر المعاصرة للتاريخ المملوكي، وهو بهذا العنوان لم يطرقه الباحثون حسب علم الباحث، ولم تكتب فيه رسائل علمية تشفي الغليل، إلا من بعض

الرسائل التي توضح بعض الجوانب مثل التي توضح طرق الحج ومرافقه، أو تتناول الحج وإمارته بصفة عامة.

وتكمن أهمية الموضوع أيضاً في أنه لم يتطرق إليه أي باحث في فلسطين، مع أنه كان لفلسطين دور هام في تسهيل رحلات الحج من بلاد الشام من خلال ركب الحج الغزاوي الذي شمل حجاج مدن وقرى فلسطين وساحل الشام ومن ينضم إليهم.

أهداف البحث:

- إثراء المكتبة الإسلامية بكتاب يجمع بين دفتيه أحوال الحج الشامي في العصر المملوكي.
- التعرف علي أعمال الملوك والأمراء في المراحل المختلفة من تاريخ وحضارة طرق الحج.
- إبراز الآثار الحضارية التي خلّفها الحج الشامي في عدة جوانب.

أسئلة يجيب عليها البحث:

- ماهي اهتمامات سلاطين المماليك بالحج وطرقه وبالحرمين، وهل اقتصر دورهم فقط على ارسال المحمل وكسوة الكعبة، أم تعدى إلى حفظ الأمن وتوفير الغذاء والمؤن والإصلاحات والتعمير في الحرمين.
- ما هي طرق الحج التي كان يسلكها الحجاج من بلاد الشام إلى الحجاز.
- كيف كانت قوافل الحج تسير في طريقها إلى الحجاز، وهل كان يرافقها موظفون.
- هل واجه الحجاج صعاب وعراقيل ومخاطر وهم في طريق أداء الحج.
- ما هي الآثار الحضارية التي تركها لنا الحج الشامي.

سبب اختيار الموضوع:

وسبب اختيارنا لهذا الموضوع هو أننا لاحظنا أن من كتبوا في تاريخ العصر المملوكي لم يهتموا كثيراً بأمر الحج وتاريخه، والذي هو ركن من أركان الإسلام الخمسة، والذي كان له دور في تماسك الأمة ووحدتها وأمنها ورخائها، وجاء حديثهم مبعثراً في أحداث السنين عن خروج

ركب الحاج، وعمن تولى إمرة موسم الحج، ولم يركزوا الحديث عليه، ولم يولوه اهتماماً كمثل حديثهم عن الشئون السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

وأغلب المصادر التاريخية اهتمت بالدور العسكري والسياسي والاقتصادي للدولة الإسلامية، وفي ثنايا حديثها كانت تتحدث عن بعض جوانب الحج وأمراءه، فوجدت نفسي مندفعاً للبحث في هذا الموضوع، وهو الأمر الذي جعلنا نختار موضوع رسالتنا لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي.

تحديد الزمان والمكان:

سبب تحديد الدراسة بالعصر المملوكي هو أن هذه الفترة – فترة العصر المملوكي– هي امتداد للعصور الوسطى والقديمة، والتي من خلالها يستطيع الباحث أن يعطي تصوراً عما كانت عليه أحوال الحج وقوافله وطرقه قبل عهد المماليك، وأيضاً هي فترة أسست لبعض العادات والتقاليد التي امتدت إلى العصور الحديثة ومازالت، مثل استقبال وتوديع الحجاج والمحمل، واتخاذ المطوفين، ونجدة الحجاج وإغاثتهم.

وسبب التحديد بالشام هو لسد فجوة نقص كتاب يتحدث عن هذا الموضوع، ولإعطاء دراسة متخصصة توضح الحج الشامي في العصر المملوكي، ولا يخفى على أحد أن الشام كانت محطة رئيسية لقوافل الحجيج على مر التاريخ بحكم موقعها الجغرافي وقربها من بلاد الحجاز، إلا في بعض العقود في فترة احتلال الصليبيين لبلاد الشام.

الدراسات السابقة:

سبق أن قام بعض الباحثين قبلي ببعض الدراسات العلمية القريبة من هذا الموضوع، ولكنها غطّت جوانب معينة من تاريخ الحج، ولم تتناولها بالصورة التي تطرقنا إليها في رسالتنا، وهي رسائل عامة وخاصة أمّا العامة فهي:

– إمارة الحج في العصر العباسي، خلال الفترة من سنة 132هـ– سنة 247هـ، لسليمان صالح كمال، وكما هو واضح فإنها تتناول الموضوع في الفترة العباسية.

– مرافق الحج والخدمات المدنية المقدمة من بداية الهجرة النبوية وحتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد؛ وهي دراسة بحثية للدكتور سليمان عبد الغني مالكي، وقد سلط فيها الضوء على الخدمات المقدمة للحجاج.

– قافلة الحج الشامي وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام، وهي رسالة ماجستير تبحث في الفترة العثمانية 1220هـ–1327هـ/1805–1909م، للباحث لورنس حسن البرهو السوسي بإشراف الدكتور يوسف نعيسة من جامعة دمشق. وهذه الرسائل عامة بحثت تاريخ الحج في عصور مختلفة.

أمّا الرسائل الخاصة التي لها علاقة بالتاريخ المملوكي موضوع البحث فهي:

- طرق الحج ومرافقه في العصر المملوكي، للباحثة آمنة جلال، وهي رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى سنة1987م، وركزت على طرق الحج ومرافقه والإصلاحات التي قام بها المماليك، وقد استفدنا منها في الدلالة على المصادر، وفي الفصل الثالث عند الحديث على طرق الحج.
- أمارة الحج في العصر المملوكي، للباحثة عائشة العبدلي، وهي رسالة ماجستير من جامعة أم القرى سنة1999م، وركزت الباحثة على أمارة الحج المملوكية بصفة عامة وتأثيراتها على الحجاز، وقد أفادت البحث في الدلالة على المصادر.
- أخيراً وأنا على وشك الانتهاء من فصول الرسالة حصلت على رسالة دكتوراه للباحثة هيام عيسى، بعنوان الحج إلى الحجاز في العهد المملوكي، من جامعة القديس يوسف ببيروت لبنان، وهي رسالة مليئة بالمغالطات حيث وصفت الخلافة العثمانية بالاحتلال التركي العثماني ص16، وفي صفحة 28 جعلت أبو العلاء المعرِّي بمنزلة الفقيه العالم، وفي آخر صفحة 64 جاءت بكلام عن ارشادات للحجاج – كأخذ الحقن الصحية والتأكد من الأوراق الثبوتية واختيار الحملة– وكأنها من العهد المملوكي، وجاء فيها خلط في التقاليد التي كانت متبعة في العصر المملوكي مع العصر العثماني، والرسالة تكلمت عن الحج بصفة عامة من جميع الأقاليم، وقد أفادت في الدلالة على بعض المراجع.

وبعد استعراضنا لهذه الرسائل العلمية يظهر لنا أن دراسة بحثنا للموضوع جاء بصورة علمية جديدة لم يتطرق إليها أي باحث من قبل وكما سيتضح.

منهج وخطة البحث:

كما هي عادة الباحثين؛ فقد اعتمدنا منهج البحث التاريخي، وقد ألجأنا البحث في موضوع هذه الرسالة لأن نجعل الخطة تشتمل على فصل تمهيدي وستة فصول كالتالي:

الفصل الأول التمهيدي تحدثنا فيه عن معنى الحج ومنزلته ومكانته وفضائله ومواقيته وشروط أمير الحاج، واهتمام الخلفاء بالحج وشئونه قبل العهد المملوكي.

أما الفصل الثاني فتحدثنا فيه عن اهتمام المماليك بالحج وشئون الحرمين؛ فيبدأ بتوطئة تاريخية عن قيام دولة المماليك، ثم بموضوع كسوة الكعبة وإرسال المحمل، ثم تطرقنا إلى تنظيم قيام ركب الحج من مصر والشام وفق مراسم خاصة، وتعيين أميرٍ للحج، والحفاظ على أمن الحجاج في مكة والطرق المؤدية إليها، ثم تناولنا تقديم التسهيلات للحجاج على امتداد الطريق، والقيام بعمل الإصلاحات اللازمة في الحرمين، والأعطيات المقدمة لأهالي الحرمين الشريفين.

والفصل الثالث تضمن وصفاً لطرق الحج الشامي وطرق الأمصار الأخرى، فتحدثنا فيه عن وصف طريق ركب الحاج الشامي التبوكي، وعن طريق الحج الشامي الغزاوي ووصفه، ثم وصفاً شاملاً لطرق الحج المصري والعراقي واليمني.

أمّا الفصل الرابع فتحدثنا فيه عن كيفية تسيير قافلة الحج الشامي في العهد المملوكي، وعن الاستعدادات لها وإعدادها، ثم أتينا على ذكر المرافقين من الموظفين لقوافل الحج عامة وقافلة الحج الشامي خاصة.

وفي الفصل الخامس تكلمنا غن المخاطر والعقبات التي واجهها الحج الشامي، فتناولنا الفتن والصراع السياسي في مكة والحجاز، وتعرضنا لاعتداءات العربان على قوافل الحجيج، ومعالجة المماليك لها، وذكرنا أمثلة الكوارث والغلاء ومشقات الطريق التي تعرض لها الحجاج.

والفصل السادس جعلناه للاطلاع على أخبار ركب الحج الشامي الخارج من دمشق وأمرائه في العصر المملوكي، وإمتاع القارئ بأحوال سفر ركب الحاج وعودته في ذلك الزمان.

وفي الفصل الأخير –الفصل السابع– تناولنا الآثار الحضارية للحج الشامي؛ فوضحنا الأثر الاقتصادي للحج الشامي، ثم الأثر الثقافي والعلمي، ثم الأثر الاجتماعي والسياسي والعمراني.

ثم ذكرنا الخاتمة وتشتمل على أهم نتائج البحث والتوصيات.

أما الملاحق؛ فاشتملت على ملحق رقم1 ويشتمل على ذكر سلاطين المماليك، وملحق رقم2 ويشتمل على ذكر أمراء مكة، وملحق رقم3 ويشمل خرائط طرق الحج، وملحق رقم4 ويحتوي صور عن المحمل وآثار طرق الحج.

دراسة مصادر الرسالة[1]:

وبالنسبة لمصادر هذه الرسالة فقد اعتمدنا في إعدادها على عدة مصادر أساسية جُمعت منها المعلومات وأفادت البحث، وهي كالآتي:

– المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، لأبي إسحق الحربي المتوفي عام 280هـ/894م، تحقيق حمد الجاسر، وقد فصّل المؤلف في هذا الكتاب الحديث عن طرق الحج، وركز حديثه على طريق الحج العراقي، واستعنا به في التعرف على منازل طرق الحج، وخاصة في الفترة العباسية وأعمال العباسيين فيها.

– الأحكام السلطانية والولايات الدينية لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي المتوفي عام 450هـ/1059م، وقد أفدنا منه في تعريف إمارة الحاج والشروط الواجب توافرها في أمير الحاج، والواجبات الملقاة على عاتقه في رحلة الحج.

– معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفي سنة 626هـ/1229م، وهو من أهم المصادر التي تحدثت عن الأماكن والتعريف بها، وقد أفادني كثيراً في التعريف بمعظم المواقع والمنازل الواقعة في طرق الحج من جميع الاتجاهات.

– ذيل مرآة الزمان لليونيني، لقطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (640 – 726هـ/1242–1326م)، وهو من بلدة يونين من نواحي بعلبك، وهو ذيل لكتاب مرآة الزمان

---

[1] – المعلومات عن هذه المصادر أخذت من خلال مطالعاتنا وقراءتنا لها، وبالنسبة لأسماء محققيها ولدار النشر وسنة الطبع يُنظر في قائمة المصادر والمراجع آخر الرسالة.

(سبعة وثلاثين مجلداً) لسبط ابن الجوزي المتوفي عام 654هـ/1256م، وقد كتب حتى أول القرن الثامن الهجري، والكتاب يحتوي على معلومات قيّمة في التاريخ العام والتراجم، وتضمن أحوال ركب الحجاج الخارج إلى مكة، وشمل سبعة مجلدات، تشتمل على وقائع ووفيات، أولها حوادث سنة 654هـ/1256م وهي السنة التي انقطع إليها سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان، وآخرها سنة 711هـ/1311م.

– تاريخ المقتفي على الروضتين "تاريخ أبي شامة"، لعلم الدين البرزالي المتوفى عام 739هـ/1338م، وقد سجل في كتابه أحداثاً يومية لما يحدث في الشام ومصر، وفي الشام خاصة، من وقائع سياسية وترجمة لشخصيات، وخروج لركب الحجاج وعودتهم، وعن طواف المحمل وأخبار أمراء الحج.

– تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، لابن الجزري المتوفي عام 739هـ/1338م، وهو مثل الذي قبله، سجل فيه مؤلفه أحداثاً يومية لما يحدث في الشام خاصة، ومن ضمنها طواف المحمل وخروج الركب الحجازي وعودته، وأخبار الحجاج وأمراء الحج، وهو معاصر وصديق للبرزالي.

– مسالك الأبصار إلى ممالك الأمصار، للعلامة ابن فضل الله العمري المتوفي سنة 749هـ/1348م، والكتاب عبارة عن موسوعة علمية حضارية في جميع المجالات وفي ثلاثين جزءاً، وقد نقل منه من جاء بعده في مؤلفاتهم، مثل القلقشندي الذي نقل عنه ما يتعلق بالوظائف في كتابه صبح الأعشى، والجزيري الذي نقل منه ما يتعلق بطرق الحج في كتابه الدرر الفرائد، وقد استعنا بكتاب المسالك في بيان طرق الحج، وخاصة في المجلد –الجزء– الثاني، وبيان ما كانت عليه محامل الحج المملوكية الخارجة من مصر والشام.

– البداية والنهاية؛ لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ/1372م)، وهو كتاب تاريخ يذكر أحداث كل عام، واستعنا به في ذكر أخبار الركب الشامي، وخاصة في الجزء الرابع عشر الذي ذكر فيه عن أحوال ركب الحج الخارج من الشام سنوياً، ويعتبر شاهداً على الفترة التي تلت وفاة البرزالي وابن الجزري، أي من سنة 739هـ وحتى وفاته سنة 776هـ.

– صبح الأعشى في صناعة الإنشاء؛ لشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، المتوفي عام 821هـ/1418م، وهو كتاب يتحدث عن النظم والوظائف في الدولة، وقد أفادنا في التعريف بأصحاب الوظائف والمناصب في فترة العهد المملوكي.

– كتابيّ شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، وكلاهما لعلامة مكة تقي الدين الفاسي المتوفي عام832هـ/1429م؛ وتحدث الكتاب الأول عن أخبار مكة وأمرائها وإصلاحات السلاطين في الحرمين وعن مواسم الحج، وأخبار خروج الركب الشامي والمصري، وعلاقة أمراء الحج بأمراء مكة، أما الكتاب الثاني فبالإضافة إلى تناوله أخبار وأحداث وقعت في مكة، فقد ترجم لكثير من الشخصيات التي سكنت مكة والشام ومصر، وكان لها دور سياسي وديني وعلمي، وخاصة في فترة العهد المملوكي.

– كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، وكتاب الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك، لأحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين المقريزي المتوفى سنة 845هـ/1441مـ، وهو شاهد عيان لتاريخ المماليك حتى وفاته، ففي كتاب السلوك معلومات هامة عما جرى من أحداث بين أمراء الحج المصري وأمراء مكة، وعن حجات السلاطين، وتحدث الكتاب بالإضافة إلى الأحداث السياسية؛ عن أحوال ركب الحج سنوياً وأخبار خروجه ورجوعه، وعن إرسال المحمل وكسوة الكعبة، وعن أعمال المماليك في الحجاز، وما تعرض له الحجاج من مخاطر. أمّا كتاب الذهب المسبوك فقد احتوى على ذكر معلومات عما يتعلق بحجات السلاطين والملوك وعن المحمل وتسييره.

– تاريخ ابن حجي، لابن حجي، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجي السعدي الحسباني الدمشقي الذي عاش في الفترة من (751هـ– 816هـ/1350م –1413م): وهو كتاب يقع في جزأين، وأرخ فيه للشام وخاصة في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري، وذكر أحداثاً مهمة للركب الشامي، وقد نقل منه تلميذه ابن قاضي شهبة.

– تاريخ ابن قاضي شهبة، لتقي الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي، 779هـ– 851هـ/ 1377/ 1448م؛ ويقع في أربعة أجزاء، واعتمد كثيراً على شيخه ابن حجي، والكتاب فيه أحداث مهمة عن الركب الشامي وخاصة أنه سد فجوة من تاريخ الشام في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري. وهذا الكتاب في التاريخ جعله مؤلفه مختصراً لتاريخه الذي

ذيل به على تواريخ من تقدمه من مؤرخي الشام؛ الذهبي، والبرزالي، وابن كثير، وغيرهم، ويبتدئ من سنة 741 هـ/ 1341م، وحتى 808 هـ/ 1405م، واستفدنا منه في تغطية أخبار الركب الشامي في أواخر القرن الثامن الهجري، وأوائل القرن التاسع.

– إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، للإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي سنة852هـ/1448م، وقد ذكر فيه حوادث تاريخية هامة بدأها من سنة مولده 773هـ/1371م وحتى سنة850هـ/1446هـ، وابن حجر بحكم كونه عالماً ومحدثاً ومؤرخاً فإنه يورد أخبار الحجاج في كتابه سنوياً وما يحصل لهم في الحج وفي الطرق من أحداث ومشاق.

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين المتوفى: 874هـ/1469م، وهو شاهد عيان لتاريخ الدولة المملوكية، وتكمن أهمية الكتاب في تغطيته للفترة التي تلت وفاة المقريزي، أي من سنة 845هـ –874هـ.

– إتحاف الورى بأخبار أم القرى، لمؤرخ مكة نجم الدين عمر بن محمد بن فهد المتوفى سنة 886هـ/1481م، وتحدث فيه عن أحوال موسم الحج، وأمراء الحج الشامي والمصري القادمين إلى مكة وأحوالهم، وتكمن أهميته في أنه غطّى أحداث الفترة التاريخية التي تلت وفاة الفاسي مؤلف كتابي شفاء الغرام والعقد الثمين.

– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى عام902هـ/1496م)، وهو كتاب تراجم مهم لكل باحث، وفيه مجموعة تراجم ضخمة لشخصيات عاشت في العهد المملوكي، وتكمن أهمية الكتاب في أن السخّاوي هو تلميذ لابن حجر المحدث والمؤرخ، وأنه جاور في مكة سنوات، ويذكر في كتابه أثناء الترجمة معلومات عن موسم الحج والمجاورين، وعن أخبار أمراء الحج المصري والشامي وأمراء مكة.

– تاريخ البصروي، لعلي بن يوسف بن علي بن أحمد، علاء الدين الدمشقيّ العاتكي الشافعي الشهير بالبصروي المتوفى عام905هـ/1499م والكتاب يسمى بصفحات مجهولة من تاريخ دمشق، وقد تحدث في ثنايا تاريخه عن أحوال ركب الحج الخارج من دمشق سنوياً.

– بدائع الزهور في وقائع الدهور لأبي البركات بن إياس المتوفي سنة 930هـ/1523م، وهو شاهد على الأحداث التي وقعت في أواخر عهد الدولة المملوكية، وأفدنا منه في التعرف على أحوال وأحداث ركب الحجيج أواخر العصر المملوكي.

– تاريخ حوادث الزمان في وفاة الشيوخ والأقران، لشهاب الدين أحمد بن محمد الحمصي المتوفي سنة 934هـ/1527م، وقد غطى فيه فترة مهمة من تاريخ المماليك، واستعنا به في التعرف على أخبار الركب في أواخر عهد المماليك والاعتداءات التي وقعت على الركب الشامي.

– مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لشمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي الذي عاش ما بين الفترة من سنة880هـ – 953هـ/1475–1545م، وقد عاصر جزءاً من الفترة العثمانية، وهو كتاب مهم، أرخ به ابن طولون لحوادث دمشق اليومية في أخطر مرحلة من تاريخها، وهي مرحلة الانتقال من العهد المملوكي إلى العهد العثماني. وكان لهذا الكتاب فائدة كبيرة للبحث، لأنه غطّى الفترة ما بين سنة 884هـ– سنة923هـ، حيث ركز على منطقة الشام والأحداث التفصيلية التي جرت خلال تلك الفترة، ونقل عن أحوال ركب الحج الشامي الخارج من دمشق وصفة المحمل، ويعتبر شاهداً على الأحداث التي حصلت أواخر العهد المملوكي.

– الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، عبد القادر الجزيري المتوفي عام976هـ/1568م، وهو كتاب هام تحدث عن طرق ومنازل الحج، وعن أحوال الركب المصري والشامي، وعن حجات السلاطين، وما قاموا به من أعمال في الحج، وعن القبائل القائمة بحراسة طريق الحج المصري، وتكمن أهمية الكتاب في أن والد المؤلف كان يشغل رئيساً لديوان إمارة الحج، ثم تولاها هو من بعده، وأنه عاصر نهاية الدولة المملوكية.

– الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، للمؤرخ قطب الدين الحنفي محمد بن أحمد بن علاء الدين النهروالي، المتوفي عام988هـ/1580م، وقد روى عن والده –الذي كان من علماء مكة– الأحداث التي وقعت في العصر المملوكي، وقد أفادنا الكتاب في الإصلاحات التي حدثت في عهد المماليك في مكة، وعن حجة قايتباي وما حصل في الحرمين أواخر العهد المملوكي، وهو

ما زال بطباعة قديمة طبعت في ليبزج بألمانيا منتصف القرن التاسع عشر سنة 1857م. بالإضافة إلى عدد من المصادر التاريخية التي سيطالعها القارئ في ثنايا هذه الرسالة.

كما أننا اعتمدنا على مجموعة من كتب الرحلات والتي سجل خلالها الرحالة ما شاهدوه في رحلات الحج وهي:

– رحلة ابن جبير، لابن جبير محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (المتوفى: 614هـ/1217م)، وقد سافر فيها على طريق الحج البحري المصري من قوص إلى عيذاب إلى جدة، ثم غادر مكة مع ركب الحاج العراقي، ووصل الشام أثناء قدوم الحجاج إلى دمشق وشاهد عادات أهل الشام في استقبال الحجاج.

– رحلة ابن رشيد، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة، لابن رشيد السبتي الاندلسي، وهي مصدر هام من مصادر الحج الشامي، لأن ابن رشيد سافر مع الركب الشامي الخارج من دمشق سنة684هـ/1283م، وعاد مع قوافل الحج السائرة على الدرب المصري والغزاوي، ووصف ما كان يحدث في الطريق من تلقي للعلم ونشره، ومن عادات للركب الشامي في السفر.

– رحلة العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري المغربي، المتوفي بعد سنة 700هـ/1300م، وهو لا يقل أهمية عن ابن جبير وابن رشيد وابن بطوطة الآتي، وقد كان العبدري عالماً في الفقه واللغة والتاريخ، وسجل ما كان يحدث في قوافل الحج ولا سيما أنه رافق قافلة الحج المصري سنة 688هـ/1287م، وأفدنا منه في وصف تسيير قوافل الحج، وما يحصل لهم في الطريق وفي مكة.

– رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة المتوفي سنة 779هـ/1377م، واحتوى هذا الكتاب على وصف للطريق الشامي، ووصف لما شاهده ابن بطوطة في رحلة الحج عام 726هـ، وعام 727هـ، وقد جاور ثلاث سنين بمكة حتى عام 731هـ، وهو عبارة عن جزأين.

– رحلة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، لخالد بن عيسى البلوي الأندلسي المتوفي سنة 768هـ/1367م، وقد سافر مع الركب الشامي بعد زيارته للقدس، والتقاه بالقرب من الكرك، وسجل أحداثاً ومشاهدات هامة في رحلته. وإضافة إلى ذلك فهناك عدد من كتب الرحلات الأخرى والتي سيطالعها القارئ في ثنايا الرسالة.

ومن المصادر الحديثة التي اعتمدنا عليها:

الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتنوني، وهو كتاب هام دوّن فيه مؤلفه رحلته إلى الحجاز في سنة 1327هـ/1909م وكان مرافقاً لعباس حلمي باشا والي مصر، وذكر فيه معلومات قيّمة عن نظام قوافل الحج قديماً وسيرها، وعن طرقها وعن الطرق الحديثة، ومعلومات عن مكة والمدينة.

تأريخ مكة، لأحمد محمد السباعي، وهي دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، وتضمن تاريخ مكة في مختلف العصور الاسلامية.

كما واستعنا ببعض الدراسات الحديثة، والتي لها أهمية في الدلالة على المصادر وهي:

طرق الحج ومرافقه في العصر المملوكي، آمنة جلال.

إمارة الحج في عصر الدولة المملوكية، عائشة العبدلي.

الحياة الدينية في الحجاز في العصر المملوكي، عبد الحفيظ السالمي.

وسيجد القارئ لهذه الرسالة الكثير من المصادر والمراجع غير التي ذكرناها جمعت منها المعلومات، وأفاد منها البحث.

صعوبات البحث:

وبالنسبة للصعوبات التي واجهتنا في البحث، فهي أولاً: تتمثل في صعوبة البحث في مثل هذه الموضوعات التي يجد الباحث لزاماً عليه أن يغوص في أعماق المصادر ليستخرج المعلومات الصحيحة المتعلقة بموضوع البحث من بين صفحات ومصادر عديدة، وقد واصلنا العمل في البحث ليلاً ونهاراً لإنجاز ذلك، وهو ما سيتضح للقارئ الكريم خلال تصفحه لرسالة البحث.

وثانياً: واجهتنا صعوبة الحصول على المصادر اللازمة والمتخصصة في معلومات موضوع الرسالة، ولا سيما أننا في حصار ظالم ولا يوجد في المكتبات الجامعية المحلية إلا القليل، وحتى المكتبة الالكترونية الشاملة تنقصها الكثير من مصادر رسالتنا، وقد تجاوزنا هذه العقبة بالحصول على الكتب المصورة بملف PDF من الانترنت.

وثالثاً: نواجه وما نزال صعوبات المعيشة القاسية من شح الأموال وقلة الرواتب، ومتطلبات الأسرة الكبيرة التي أعيلها، والانقطاع المتكرر للكهرباء، وكل ذلك بسبب الحصار الظالم الذي يضرب أطنابه على قطاع غزة، ونستعين ونتوكل في شأننا كله على الله العزيز الحكيم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في خدمة العلم والمعرفة، وفي إيفاء الموضوع حقه من البحث، تاركاً المجال للباحثين من بعدي لتناول جوانب أخرى من تاريخ الحج وحضارته.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول التمهيدي

منزلة الحج في الإسلام

واهتمام خلفاء المسلمين به

المبحث الأول: معنى الحج وفضله ومكانته، وتحديد مواقيته المكانية.

المبحث الثاني: أمير الحج وشروطه.

المبحث الثالث: اهتمام الخلفاء بالحج وشئونه قبل العهد المملوكي.

الفصل الأول التمهيدي

منزلة الحج في الإسلام واهتمام خلفاء المسلمين به

المبحث الأول: معنى الحج وفضله ومكانته، وتحديد مواقيته المكانية.

الحج لغة: هو القَصْدُ مُطْلَقاً[1]، وعن الخليل هو كثرة القصد إلى من تعظّمه[2].

وشرعاً: هو زيارة مكان مخصوص في زمان مخصوص بفعل مخصوص، والمراد بالزيارة الطواف والوقوف بعرفة، والمراد بالمكان المخصوص البيت الشريف والجبل المسمى بعرفات، والمراد بالزمان المخصوص، والزمن المخصوص هو أشهر الحج، وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، والعشر الأوائل من ذي الحجة، ولكل فعل زمن خاص، فالطواف من طلوع الفجر يوم النحر إلى آخر العمر، والوقوف بعرفة بزوال الشمس يوم عرفة إلى طلوع فجر يوم النحر، والفعل المخصوص هو أن يأتي مُحْرماً بنية الحج إلى أماكن معينة[3].

وورد أنه من الشرائع القديمة، وأنه ما من نبي إلا حجه، وأن أول من حج آدم عليه الصلاة والسلام، وإنه حج أربعين سنة من الهند ماشياً، وأنه لما حج قال له جبريل: إن الملائكة كانوا يطوفون قبلك بهذا البيت بسبعة آلاف سنة، وورد أيضاً أنه لم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا وقد حج البيت[4].

وتاريخ مشروعيته على الصحيح: أن الحج فرض في أواخر سنة تسع من الهجرة، وأن آية فرضه هي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾[5]، والتي نزلت عام الوفود آخر السنة التاسعة، وهو رأي أكثر العلماء، وأنه صلّى الله عليه وسلم لم يؤخّر الحجَّ بعد فرضه عاماً واحداً، وإنما أخّره عليه الصلاة والسلام

---

(1) – الزبيدي، محمّد بن عبد الرزّاق، تاج العروس من جواهر القاموس، ج3، ص314.

(2) – الخليل بن أحمد، العين، ج3، ص9؛ الزبيدي، تاج العروس، ج3، ص314.

(3) – ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ج2، ص330.

(4) – الخطيب الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، ج2، ص206.

(5) – سورة آل عمران، الآية97.

للسنة العاشرة لعذر، وهو نزول الآية بعد فوات الوقت، فكان حجه بعد الهجرة حجة واحدة سنة عشر، كما روى أحمد ومسلم[1].

أما العمرة فقال الزبيدي في تعريفها: "العمرة لغة مأخوذة من الاعتمار وهو الزيارة، وسميت بذلك لأن المعتمر يقصد الزيارة في موضع عامر، ويقال اعتمر فهو معتمر"[2].

وفي الشَّرع: هي زيارة البيت الحرام بشروط مخصوصة[3]، أو هي الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة[4].

أهمية الحج وفضائله:

والحج هو ركن من أركان الإسلام الخمسة، وفريضة واجبة على كل مسلم قادر مستطيع؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾[5].

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ] [6].

وبيّن مولانا عز وجل أن الحج يحقق منافع كثيرة لعباده، وأن رحلة الحج ليست مقصورة على تأدية المناسك بل تعدتها إلى منافع أخرى دينية ودنيوية.

فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ

---

[1] – الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج3، ص398.

[2] – الزبيدي، تاج العروس، ج7، ص261.

[3] – ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج3، ص297.

[4] – الزبيدي، تاج العروس، ج7، ص261.

[5] – سورة آل عمران، الآية97.

[6] – البخاري، الصحيح، ج1، ص11، برقم8. مسلم، الصحيح، ج1، ص45، برقم16.

الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

وجاءت الأحاديث النبوية مؤكدة لفضائل الحج:

فعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ[3] خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ] [4].

ومما جاء في فضله والتشويق إليه ما رواه أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءً إِلَّا الْجَنَّةُ"] [5].

وعن أبي هريرة قال: [سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ] [6].

وعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ ، ثمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ[7].

---

[1] – سورة الحج، الآية رقم27– 29.

[2] – سورة المائدة، الآية رقم 97 .

[3] – الرَّفَث: الْجِمَاع، وَيُطْلَقُ عَلَى التَّعْرِيضِ بِهِ, وَعَلَى الْفُحْشِ فِي الْقَوْل، وَقَالَ الْأَزْهَرِيّ: الرَّفَثُ: اِسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُرِيدُهُ الرَّجُلُ مِنْ الْمَرْأَة، والفسوق: أَيْ: لَمْ يَأْتِ بِسَيِّئَةٍ وَلَا مَعْصِيَة. ابن حجر، فتح الباري، ج5، ص157.

[4] – البخاري، الصحيح، ج3، ص11، برقم1723؛ مسلم، الصحيح، ج2، ص983، برقم 438– 1350.

[5] – مسلم، الصحيح، ج2، ص983، برقم 1349.

[6] – البخاري، الصحيح، ج2، ص133، برقم 1519؛ مسلم، الصحيح، ج1، ص88، برقم 83.

[7] – مسلم، الصحيح، ج2، ص975، برقم 1337.

وعن ابن عباس قال: [خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَقَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فَقَالَ: أَفِي كُلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: لَوْ قُلْتُهَا لَوَجَبَتْ وَلَوْ وَجَبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا وَلَن تَسْتَطِيعُوا، الْحَجُّ مَرَّةٌ فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ][1].

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً تُبَلِّغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلَمْ يَحُجَّ فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا}] [2].

وذكر أن عمر بن الخطاب قال: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَبْعَثَ رِجَالًا إِلَى هَذِهِ الْأَمْصَارِ فَيَنْظُرُوا كُلَّ مَنْ لَهُ جَدَّةٌ وَلَمْ يَحَجَّ فَيَضْرِبُوا عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ مَا هُمْ بِمُسْلِمِينَ[3].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ] [4].

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ[5].

وعن أبي رزين العقيلي أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ وَلَا الْعُمْرَةَ وَلَا الظَّعْنَ، قَالَ: «حُجَّ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِرْ»[6].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي] [7].

---

[1] – رواه أحمد، المسند، ج3، ص54، برقم2303؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج1، ص369.

[2] – رواه الترمذي، السنن، ج3، ص167، برقم 812.

[3] – الخلال، أبي بكر، السنة، ج5، ص44.

[4] – أبي داود، السنن، ج3، ص155، برقم 1732.

[5] – الترمذي، السنن، ج2، ص167، حديث رقم 810، النسائي، السنن، ج5، ص115، برقم 2630.

[6] – أحمد، المسند، ج26، ص105، برقم 16185؛ الترمذي، السنن، ج2، ص261، حديث 930.

[7] – مسلم، الصحيح، ج2، ص917، برقم1256.

فالحج في الإسلام واجب في حق من اجتمعت فيه شروط وجوبه، وهي الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والاستطاعة وتزيد المرأة شرطًا سادسًا وهو وجود المحرم[1].

والاستطاعة في حق الجميع ملك زاد يحتاجه في سفره ذهابًا وإيابًا من مأكول ومشروب وكسوة، وملك مركوب بشراء أو كراء يصلحان لمثله في منازل طريق الحاج لحصول المقصود[2]، لحديث جابر بن عبد الله قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا السَّبِيلُ؟ قَالَ: الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ[3].

ولأهمية الحج ومراعاة لمشقته؛ أجاز الإسلام الحج عن الضعيف: لحديث ابن عباس: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ خَثْعَمَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي أَدْرَكَتْهُ فَرِيضَةُ اللَّهِ فِي الْحَجِّ شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ[4].

ومن هنا فقد حرص المسلمون قديماً وحديثاً على أداء هذا الركن، ولم يمنعهم طول الطريق ومشقته وأخطاره عن أداء هذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

ولأهمية سفر الحج فقد اشترط الإسلام لسفره آداباً منها:

ينبغي لمن أراد الحج أن يشاور من يثق بدينه وخبرته وعلمه في حجه، وأن يستخير الله تعالى وهذه الاستشارة والاستخارة لا تعود إلى نفس الحج لأنه خيرٌ لا شك فيه، وإنما تعود إلى وقته واختيار الرفقة' وعليه أن يبادر بتوبة نصوح من كل المعاصي والمكروهات، ويجتهد في الخروج من مظالم الخلق بردها إلى أصحابها أو برد بدلها[5].

وأن يختار النفقة الحلال التي تكون من الكسب الطيب حتى لا يكون في حجك شيء من الإثم؛ فإن الذي يحج وماله من حرام لا يقبل حجه، وهو آثمٌ من جهة أخرى، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إذا خرج الحاج بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال، وراحلتك حلال، حجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الحرام الخبيثة ووضع رجله في الغرز فنادى: لبيك

---

[1] – المحرم هو زوج المرأة أو من تحرم عليه على التأبيد بنسب أو سبب مباح. ابن حجر، فتح الباري، ج4، ص77.

[2] – السلمان، أوضح المسالك، ص6.

[3] – الدارقطني، السنن، ج3، ص213، برقم 2438.

[4] – البخاري، الصحيح، ج5، ص176، برقم 4399؛ مسلم، الصحيح، ج4، ص101.، برقم3230.

[5] – السلمان، أوضح المسالك، ص13، ص14.

اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام، وراحلتك حرام، وحجك مأزور غير مبرور"[1].

ويستحب الالتزام بآداب السفر وأدعيته المعروفة ومنها دعاء السفر والتكبير إذا صعدت مرتفعاً والتسبيح إذا نزلت وادياً، ودعاء نزول منازل الطريق وغيرها، وعلى الحاج أن يختار الرفقة الصالحة؛ لأنهم خير معين له في هذا السفر؛ يذكرونه إذا نسي ويعلمونه إذا جهل ويحوطونه بالرعاية والمحبة[2].

وعلى الحاج أن يوطّن نفسه على تحمل مشاق السفر ووعثائه وصعوبته؛ فإن بعض الناس يتأفف من حر أو قلة طعام أو طول طريق، ولا سيما أنه يسافر إلى تأدية ركن من أركان الإسلام، وعليه أن يتذكر نعم الله الكثيرة عليه، فقد قال تعالى ممتناً على عباده: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(9)﴾[3].

وفوق هذه الآداب عليه أن يتحلى بمكارم الأخلاق، ويتجنب مساوئها، قال تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[4].

مواقيت الحج:

لما كان الحج عبادة بدنية ومالية تحتاج إلى سفر وشد رحال، فقد حدد الإسلام للحجاج القادمين إلى مكة مواقيت مكانية في كافة الاتجاهات، يحرمون منها للحج، ولا يجوز لهم تجاوزها.

والمواقيت هي مواضع وأزمنة معينة لعبادة مخصوصة وهي تنقسم إلى قسمين:

مواقيت زمانية وهي أشهر الحج للحج؛ شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة آخرها طلوع الفجر يوم العيد، قال جل وعلا: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾[5]، والعام كله للعمرة.

---

[1] – الطبراني، المعجم الأوسط، ج5، ص251، برقم5228.

[2] – السّلمان، أَوْضَحُ الْمَسالِكِ، ص21.

[3] – سورة النحل، الآيات من 5–9.

[4] – سورة البقرة، الآية رقم 197.

[5] – سورة البقرة، الآية رقم 197.

ومواقيت مكانية: ينقسم الناس فيها قسمين؛ أحدهما من هو بمكة أو دون المواقيت، فميقاته مكان إقامته لقوله صلى الله عليه وسلم: [وَمَنْ كَانَ دُونَهُنَّ(أي دون المواقيت المكانية) فَمِنْ أَهْلِهِ، وَكَذَا فَكَذَلِكَ، حَتَّى أَهْلُ مَكَّةَ يُهِلُّونَ مِنْهَا (أي من مكة)»][1].

والقسم الثاني الأفاقي وهو غير المقيم بمكة، وهو الذي يأتي من بلاد بعيدة ومواقيتهم خمسة[2]:

أحدها: ذو الحُلَيْفَةِ ميقات من توجه من المدينة المنورة (أي لأهل المدينة ومن مر بها)، ويبعد عن المدينة ستة أميال أو سبعة وبينه وبين مكة عشر مراحل.

الثاني: الجحْفةُ وهي قرب رابغ وبينها وبين مكة ثلاث مراحل وهي ميقات أهل الشام ومصر والمغرب.

الثالث: قرن المنازل وقرن الثعالب وهو ميقات المتوجهين من نجد والحجاز ومن نجد اليمن، وبينه وبين مكة يوم وليلة.

الرابع: يَلَمْلَمُ ويقال له أَلَمْلَم وهو ميقات المتوجهين من اليمن وبينه وبين مكة ليلتان.

الخامس: ذَاتُ عِرْقٍ وهو ميقات المتوجهين من المشرق كالعراق وخُراسان. وبينه وبين مكة نحو مرحلتين[3].

وهذه المواقيت لأهلها المذكورين ولمن مر عليها من غير أهلها؛ كشامي ومصري مر بذي الحليفة فيحرم منها لأنها صارت ميقاته.

والدليل على ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَّتَ لِأَهْلِ المَدِينَةِ ذَا الحُلَيْفَةِ، وَلِأَهْلِ الشَّامِ الجُحْفَةَ، وَلِأَهْلِ اليَمَنِ يَلَمْلَمَ، وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ المنازل، فَهُنَّ لَهُنَّ وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ مِمَّنْ كَانَ يُرِيدُ الحَجَّ وَالعُمْرَةَ، فَمَنْ كَانَ دُونَهُنَّ، فَمِنْ أَهْلِهِ حَتَّى إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يُهِلُّونَ مِنْهَا»[4].

وعن ابن عمر قال: [لَمَّا فُتِحَ هَذَانِ الْمِصْرَانِ أَتَوْا عُمَرَ فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم –حَدَّ لِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنًا وَهُوَ جَوْرٌ عَنْ طَرِيقِنَا وَإِنَّا إِنْ أَرَدْنَا قَرْنًا شَقَّ عَلَيْنَا. قَالَ: فَانْظُرُوا حَذْوَهَا مِنْ طَرِيقِكُمْ فَحَدَّ لَهُمْ ذَاتَ عِرْقٍ] [5].

---

[1] – مسلم، الصحيح، ج2، ص838، برقم1181.

[2] – السّلمان، أَوْضَحُ الْمَسالِكِ، ص26.

[3] – المرجع نفسه، ص26.

[4] – البخاري، الصحيح، ج2، ص134، برقم1529.

[5] – المصدر نفسه، ج2، ص135، برقم 1531.

وعن ابن الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن المَهَلِّ فقال: سَمِعْتُ، أَحْسِبُهُ رَفَعَ إلى النبي –صلى الله عليه وسلم –فقال: [مَهَلُّ أَهِّل الْمَدِينَةِ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ وَالطَّرِيقُ الْآخَرِ مِنَ الْجُحْفَةِ وَمَهَلُّ أَهْلِ الْعِرَاقِ مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ وَمَهَلُّ أَهْلِ نَجْدٍ مِنْ قَرْنٍ وَمَهَلُّ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ يَلَمْلَمَ] أخرجه مسلم[1].

ولهذا أصبحت طرق الحج تمر غالباً على هذه الأماكن؛ وهي ذي الحليفة المسمى أبيار علي، والجحفة أو رابغ، ويلملم، وقرن المنازل وتسمى السيل، وذات عرق.

[1] – السّلمان، أَوْضَحُ الْمَسالِكِ، ص26.

المبحث الثاني: أمير الحج في الإسلام ومهامه:

منذ أن فرض الله على المسلمين أداء فريضة الحج، وهم يخرجون إلى البيت العتيق في قوافل وركوب ومحامل عدة من شتى أرجاء المعمورة، وهذه القوافل تضم الآلاف من الحجاج سنوياً، فتحصل بينهم معاملات ومخاصمات تحتاج إلى حل أو تنظيم، وفوق ذلك فقافلة الحج تقطع مئات الأميال فهي تحتاج إلى حماية، مما يستلزم لذلك كله وجود أمير يتولى ذلك، ومن هنا نشأ في الاسلام ما يعرف بأمير الحج، والذي تقع على عاتقه عدة مهام، مثل تنظيم القافلة وتسييرها والعمل على تذليل الصعوبات التي تواجه الحجاج، وحمايتهم. وذلك كما سنرى بعد قليل في مهام أمير الحج.

والإمارة في الاسلام مأمور بها، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضِ فَلَاةٍ إِلَّا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ"[1]، فمن باب أولى أن يكون للحجاج البالغين أعداداً كبيرة أميرٌ يتولى أمورهم في كل عام، وقد كان أبو بكر الصديق هو أول أمير في الإسلام عندما ولّاه النبي صلى الله عليه وسلم[2]. وعادة يبدأ موسم الحج بالمناداة به امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾[3]، وتأسياً بإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وأوضح العلماء أن من حقوق الرّعية العشرة على السُّلطان: حق إِقَامة شعائر الإِسلام: كفروض الصَّلوات، والجمع والجماعات، والأذَان، والإِقَامة، والخطابة، والإمامة، ومنه النّظر فِي أَمر الصّيام والفطر، وأهلّته، وحج البيت الحرام وعمرته. ومنه: الاعتناء بالأعياد، وتسيير الحجيج من نواحي البلاد، وإِصلاح طرقها وأمنها فِي مسيرهم، وانتخاب من ينظر أُمُورهم[4].

مهام أمير الحاج:

أمير الحج له دور كبير في حفظ الحجاج في أعراضهم وأموالهم، وله دور في انجاح موسم الحج، ولما كان أمير الحج تقع عليه هذه المهام الجسيمة، فقد شرط الإسلام شروطاً لمن يتولى

---

(1) –أحمد، المسند، ج11، ص227، حديث رقم 6647.

(2) – المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص301.

(3) – سورة الحج، الآية رقم27.

(4) – ابن جماعة الكناني، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ص66.

أميراً على الحج، وسمّاها الإمام الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية؛ الولاية على الحج، وأوضح بأنها نوعان:

النوع الأول: أن تكون على تسيير الحجيج. وسنفصلها بعد قليل لأهميتها في رحلة وسفر الحج[1].

والنوع الثاني: على إقامة الحج، وهو فيه بمنزلة الإمام في إقامة الصلوات، فمن شروط الولاية عليه مع الشروط المعتبرة في أئمة الصلوات، أن يكون عالماً بمناسك الحج وأحكامه، عارفاً بمواقيته وأيامه، وتكون مدة ولايته مقدرة بسبعة أيام، تبدأ من اليوم السابع من ذي الحجة، وتنتهي في اليوم الثالث عشر من ذي الحجة[2].

والذي يختص بهذه الولاية ستة أحكام:

أحدها: إشعار الناس بوقت إحرامهم، والخروج إلى مشاعرهم؛ ليكونوا له متبعين، وبأفعاله مقتدين، والثاني: ترتيبهم للمناسك على ما استقر الشرع عليه؛ لأنه متبوع فيها فلا يقدم مؤخراً ولا يؤخر مقدما، سواء كان الترتيب مستحقا أو مستحبا، والثالث: تقدير المواقف بمقامه فيها ومسيره عنها، كما تقدر صلاة المأمومين بصلاة الإمام، والرابع: اتباعه في الأركان المشروعة فيها[3].

والخامس: إمامتهم في الصلوات في الأيام التي شرعت خطب الحج فيها، وجمع الحجيج عليها، وهن أربع، وهي خطبة في اليوم السابع من ذي الحجة؛ لإعلامهم بأحكام الحج وبيوم عرفة، وخطبة عرفة، وخطبة يوم العاشر أي يوم النحر بعد صلاة الظهر ليعلمهم أحكام التحلل، وخطبة يوم النفر في الثاني عشر من ذي الحجة لتعليم الحجاج بأن لهم نفرتين، والسادس: يحكم بين الحجيج فيما تنازعوه من غير أحكام الحج[4].

---

[1] – الأحكام السلطانية، ص172.

[2] – المصدر نفسه، ص175.

[3] – أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص112.

[4] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص176، ص177.

أما النوع الأول وهو الذي يهمّنا في هذه الدراسة؛ فهو تسيير الحجيج، والذي هو ولاية سياسة وزعامة وتدبير، والشّروط المعتبرة في المولّى (أمير الحج) أن يكون مطاعاً ذا رأي وشجاعة وهيبة وهداية.

والذي عليه في حقوق هذه الولاية عشرة أشياء:

أولاً: جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا، فيخاف النوى والتغرير.

ثانياً:: ترتيبهم في المسير والنزول بإعطاء كل طائفة منهم مقادا، حتى يعرف كل فريق منهم مقاده إذا سار، ويألف مكانه إذا نزل، فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه[1].

ثالثاً: يرفق بهم في السير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم[2]؛ روي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "الضعيف أمير الرفقة"[3]، يريد أن من ضعفت دابته كان على القوم أن يسيروا بسيره، وقال النبي –صلى الله عليه وسلم: "إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى[4].

رابعاً: أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها، ويتجنب أجدبها وأوعرها.

خامساً: أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت، والمراعي إذا قلت[5].

سادساً: أن يحرسهم إذا نزلوا، ويحوطهم إذا رحلوا، حتى لا يتخطفهم داعر، ولا يطمع فيهم متلصص[6].

سابعاً: أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير، ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال إن قدر عليه، أو ببذل مال إن أجاب الحجيج إليه، ولا يسعه أن يجبر أحداً على بذل الخفارة إن

---

[1] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 173.

[2] – المصدر نفسه، ص 173.

[3] – وفي رواية: "المضعف أمير الرفقة"، أي: يسيرون سير الضعيف لا يتقدمونه فيتخلف عنهم ويبقى بمضيعة. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص69.

[4] – رواه البيهقي، السنن الكبرى، ج3، ص27، حديث رقم4743.

[5] – أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص109.

[6] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 173.

امتنع منها، حتى يكون باذلاً لها عفواً، ومجيباً إليها طوعاً، فإن بذل المال على التمكين من الحج لا يجب[1].

ثامناً: أن يصلح بين المتشاجرين، ويتوسط بين المتنازعين، ولا يتعرض للحكم بينهم إجباراً، إلا أن يفوض الحكم إليه، فيعتبر فيه أن يكون من أهله، فيجوز له حينئذ الحكم بينهم، فإن دخلوا بلدا فيه حاكم جاز له ولحاكم البلد أن يحكم بينهم، فأيهما حكم نفذ حكمه، ولو كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد لم يحكم بينهم إلا حاكم البلد[2].

تاسعاً: أن يقوّم زائغهم ويؤدب خائنهم، ولا يتجاوز في التعزير عن الحد المشروع، وإن دخل بلداً فيه من يتولى إقامة الحدود على أهله نظر، فإن كان ما أتاه المحدود قبل دخول البلد؛ فوالي الحجيج أولى بإقامة الحد عليه من والي البلد، وإن كان ما أتاه المحدود في البلد فوالي البلد أولى بإقامة الحد عليه من أمير الحجيج[3].

عاشراً: أن يراعي اتساع الوقت حتى لا يفوّت عليهم أداء المناسك[4].

ثم يكون في عوده بهم ملتزماً فيهم من الحقوق ما التزمه في صدرهم، حتى يصل بهم إلى البلد الذي سار بهم منه، فتنقطع ولايته عنهم بالعود إليه[5].

فهذه هي شروط من يتولى إمرة الحج وواضح أنها لا تصح إلا لمن تتوفر فيه شروط تؤهله لذلك، وقد حرص الخلفاء والسلاطين على تولية أمير الحج في كل عام على مر العصور، منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ومروراً بعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي والعباسي، وفي العصر المملوكي كما سنرى، وكذلك استمر تولية أمير الحج في العصر العثماني، وفي زماننا هذا يتولى رئيس بعثة الحج الذي يمثل دولته.

---

[1] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 173.

[2] – أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص110.

[3] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص174.

[4] – أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص110.

[5] – الماوردي، الأحكام السلطانية، ص174.

المبحث الثالث:

اهتمام خلفاء وسلاطين المسلمين بالحج وشئونه قبل العهد المملوكي:

لقد جعل الله تعالى البيت الحرام مثابة للناس وأمنا منذ أن جدد بناءه سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأمره أن ينادي في الناس بالحج " وأذن في الناس بالحج .....الآية، ومنذ ذلك العهد والعرب يهتمون بأمر وشئون الحج، ويحاولون أن يظهروا بمظهر لائق عند مجيئ الحجيج الى مكة المكرمة حيث أنهم كانوا على دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام وإن كان دينهم قد دخل فيه الشرك، ولذلك فقد أكرم أهل مكة الحجاج وصنعوا الطعام لهم[1]. كما أنهم واهتماماً بالبيت الحرام فقد كسوا الكعبة الأنطاع والبرود والجلود والوصائل والثياب اليمانية الحبرة[2].

وعندما جاء الإسلام أصبح الحج إلى مكة فريضة على كل مسلم لمن استطاع إليه سبيلاً، فبدأ الاهتمام بأمر مكة والكعبة والحج منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كسا الكعبة بالثياب اليمانية، وعيَّن أميراً على موسم الحج وهو أبوبكر الصديق في السنة التاسعة للهجرة، وشرع النداء بأدائه لمن يريد السفر للحج، وكان صلى الله عليه وسلم ينادي للحج أول ذي القعدة [3].

ثم سار المسلمون على نهجه واهتم الخلفاء الراشدون والسلاطين والأمراء بشئون الحج على تعاقب القرون، فقد ورد أن عمر كسا الكعبة القباطي من بيت المال، وكان يكتب فيها إلى مصر تحاك له هناك، حيث كان يعمد على الكسوة القديمة فينزعها ويضع الجديدة، ثم يقسم القديمة على الحجاج[4].

وعندما اعتمر الخليفة عمر رضي الله عنه سنة سبع عشرة من الهجرة؛ قام بإصلاح وتوسيع المسجد الحرام، وعزم على قوم من أهل مكة أن يبيعوا دورهم، وعوضهم أثمانها من بيت

---

[1] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص155.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص 197، ص 200.

[3] – المقريزي، الذهب المسبوك، ص17، ص40.

[4] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص199.

المال وجدد أنصاب الحرم على يد مخرمة بن نوفل، وأثناء مروره بطريق الحج فكلمه أهل المياه أن يبتنوا منازل بين مكة والمدينة ولم يكن قبل ذلك بناء فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظل والماء[1].

واستمر عثمان بن عفان رضي الله عنه على نهج عمر[2].

وبعد عهد الخلفاء الراشدين اهتم خلفاء بني أمية بأمر الحج والكعبة فكان يخرج كل عام أمير الحج، وقدم معاوية بن أبي سفيان للكعبة كسوتين: كسوة عمر القباطي، وكسوة ديباج، فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء، وتكسى القباطي في آخر شهر رمضان للفطر، وأجرى لها معاوية وظيفة من الطيب لكل صلاة، وكان يبعث بالطيب والمجمر والخلوق في الموسم وفي رجب، وأخدمها عبيدًا بعث بهم إليها فكانوا يخدمونها، ثم اتبعت ذلك الولاة بعدها[3].

وكساها يزيد بن معاوية الديباج أيضاً وكذلك الحجاج بن يوسف ثم عبد الله بن الزبير الذي كان من عادته أن يكسوها يوم عاشوراء[4].

وبعد تضرر الكعبة من حصار الحجاج؛ أعاد عبد الله بن الزبير بناء الكعبة على أساس إبراهيم وجعل لها بابين، وجاء بعده الحجاج وهدمها وأعادها إلى ما كانت عليه قبل بناء عبد الله بن الزبير[5].

واهتماماً بالحرمين ورد أن الوليد بن عبد الملك طلب من ملك الروم تزويده بالذهب والفسيفساء وأرسل ذلك إلى المسجد النبوي في المدينة المنورة حيث أمر بتوسيع مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وعيّن عمر بن عبد العزيز مشرفاً على العمل، وعمل على إصلاح طرق

---

[1] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص69.

[2] – المقريزي، الذهب المسبوك، ص51.

[3] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص200.

[4] – المصدر نفسه، ج1، ص200.

[5] – الفاكهي، أخبار مكة، ج5، ص228– 230.

الحج، فكتب إلى أمراء البلدان في جميع البلاد بإصلاح الطرق وإنشاء الآبار في طريق الحجاج، فكتب إلى عمر أن يسهل الثنايا ويحفر الآبار بطريق الحجاز، ويصل عين الفوارة بالمدينة[1].

وأورد الأزرقي أن سليمان بن عبد الملك بن مروان كتب إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسري أن أجر لي عيناً تخرج من الثقبة، ويخرج من مائها العذب الزلال، حتى تظهر بين زمزم والركن الأسود والمقام، فعمل خالد بن عبد الله القسري البركة، فقيل لها بركة القسري، فعملها بحجارة منقوشة طوال، وأحكمها وأنبط ماءها في ذلك الموضع، ثم شق لها عيناً تسكب فيها من الثقبة، وبنى سد الثقبة وأحكمه، والثقبة شعب يفرع فيه وجه جبل ثبير، ثم شق من هذه البركة عينا تجري إلى المسجد الحرام، فأجراها في قصب من رصاص، حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام، وذلك لخدمة الحجاج، فلم تزل تلك البركة على حالها، حتى قدم داود بن علي بن عبد الله بن عباس مكة حين أفضت الخلافة إلى بني هاشم، فكان أول من أحدث بمكة، أن هدمها وصرف العين إلى بركة كانت بباب المسجد[2].

ومن بعد الأمويين، اهتم الخلفاء العباسيون بأمر الحج وعنوا به عناية كبيرة فقد اهتموا بالحرمين، وبالطرق المؤدية إليهما، وحفروا الآبار فيها، وشملت عنايتهم أيضاً فقراء الحرمين والمجاورين فيها، فقد ورد أن طريق الحج من العراق إلى مكة منذ عهد أبي العباس السفاح كانت تبنى فيه للخلفاء في كل منزلة ينزلونها دار وبرك ماء وقصور ومنازل للحجاج؛ لكي ينزلوا فيها لشرب الماء والتزود منه والراحة من مشقة السفر، وأنهم كانوا يعيّنون موظفاً خاصاً للإشراف على هذه المنازل والدور، ويسمى متولي المنازل[3]. وفي عهد الخليفة المهدي بنيت قصورٌ أوسع من التي بناها السفاح، كما أمر ببناء المصانع وهي أحواض تجمع ماء المطر، وتجديد الأميال، أي وضع العلامات على الطريق، وحفر الركايا، أي الآبار، وقد ظلت بعض الآبار والبرك تحمل اسمه بعد وفاته[4].

---

[1] – المقريزي، الذهب المسبوك، ص60.

[2] – أخبار مكة، ج2، ص107.

[3] – المقريزي، الذهب المسبوك، ص19.

[4] – المصدر نفسه، ص76.

وكان المهدي يشجع على حفر الآبار ويعوض المساهمين في ذلك، وفي عهده نزعت كسوات الكعبة بعد أن تراكمت أعدادها على الكعبة، فخوفاً على الكعبة من ثقل الكسوات شكا الناس إلى المهدي، فقدم ونزع الكسوات وألبسها كسوته التي عملت من الديباج المذهب[1].

وفي عهده أيضاً وفي حجة سنة160هـ/777مـ قدّم أموالاً كثيرة إلى مكة من مختلف الأقطار وفرقها على الناس في موسم الحج وكذلك فرق آلاف الثياب، ووسّع المسجد النبوي[2].

والجدير بالذكر أن المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي حج بالناس مرتين؛ الاولى سنة 160هـ/777م[3]، والثانية في سنة 164هـ/781م[4].

وفي كلتا حجتيه أمر بتوسعة المسجد الحرام؛ ففي الأولى جرد الكعبة مما عليها من الكسوة مخافة الثقل عليها، وكساها كسوة جديدة، وأنفق في حجته الأولى في الحرمين أموالا عظيمة لم يسمع بمثله أبدا، فقيل إنها ثلاثون ألف ألف درهم، وصل بها من العراق، وثلاثمائة ألف دينار وصلت إليه من مصر، ومائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن، ومائة ألف ثوب وخمسون ألف ثوب[5].

وكان المهدي أول خليفة حمل إليه الثلج إلى مكة، وأنه في سنة ست وستين ومئة هجرية، أمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن – بغالاً وإبلاً–ولم يكن هناك بريد قبل ذلك[6].

أما في عهد الخليفة هارون الرشيد فقد وصلت عناية العباسيين بالحج أوجها، حيث حج هارون الرشيد تسع مرات خلال فترة حكمه التي امتدت من عام 170هـ/787م–

---

[1] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص207، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص133.

[2] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج8، ص133. السخاوي، التحفة اللطيفة، ج2، ص501.

[3] – المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص204. ابن الأثير، الكامل، ج6، ص18.

[4] – الأزرقي، أخبار مكة، ج2، ص78 – 80؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص257.

[5] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص257. الدِّيار بَكْري، تاريخ الخميس، ج2، ص330.

[6] – المقريزي، الذهب المسبوك، ص76.

193هـ/809م[1]، وفي عام 170هـ/786م قسم أموالاً كثيرة في أهل الحرمين، وفعل ذلك أيضاً في حجة عام 174هـ/790م[2].

وفي عام 176هـ/792م شهد المشاهد كلها ماشياً ورجع من طريق البصرة ماشياً، أما في حجة عام 186هـ/802م فقد أعطى في المدينة ثلاث أعطيات هو وابنيه الأمين، والمأمون، وسار إلى مكة فبلغ عطاؤه في الحرمين ألف ألف وخمسين ألف دينار، وجعل في الكعبة العهد الذي عهده بين ولديه الأمين والمأمون، بعد أن عهد عليهما في الكعبة بالوفاء[3].

وفي عام 188هـ/804م حج راجلاً وقسم أموالاً كثيرة، وهي آخر حجة له، وكان إذا حج، حج معه مئة من الفقهاء، وإذا لم يحج أرسل ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة، والكسوة الطاهرة الفاخرة، ليؤدوا فريضة الحج، ولم ير خليفة أكثر عطاءً منه وقيل لو قيل للدنيا متى أيام شبابك لقالت أيام هارون الرشيد[4].

وبالنسبة للمنازل والبرك التي كان للرشيد فضل في بقاءها أو حفرها، فهي مثل قصر الخلفاء الذي كان الرشيد ينزل فيه، على طريق الحج العراقي بموضع يعرف بالمنتصفة[5] وفيه بئر يعرف بالبرود، وبركة مربعة في ذات عرق، وهناك عدة برك مياه متفرقة على طريق الحج العراقي أنشأها والي هارون الرشيد حسين الخصي، وكذلك آبار في مواضع الراحة[6] وبطان[7].

---

(1) – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص620– ص672. الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص257. ابن فهد، إتحاف الورى، ج 2، ص22. النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص: 111، ص112.

(2) – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج10، ص66، المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص403، المقريزي، الذهب المسبوك، ص78 – 80.

(3) – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص233. الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص258. المقريزي، الذهب المسبوك، ص81.

(4) – المقريزي، الذهب المسبوك، ص82.

(5) – موضع على مقدار ميل ونصف من منزلة الخزيمية الواقعة منتصف طريق الحج العراقي بين مكة وبغداد. الحربي، المناسك، ص300.

(6) – الراحة: موضع في بلاد خزاعة لبني المصطلق في طريق الحج العراقي. ياقوت، معجم، ج3، ص12.

(7) – بطان: منزل بطريق الكوفة بعد الشقوق من جهة مكة دون الثعلبية في طريق الحج العراقي، وهو لبني ناشرة من بني أسد، ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص446. الحربي، المناسك، ص296 وما بعدها.

وفي عهد الخليفة الرشيد اشتهرت زوجته زبيدة أم الخليفة الأمين واسمها أمة العزيز بنت جعفر المنصور شهرة واسعة بسبب اهتمامها بأمر الحج، ولَها آثار كثيرة في طريق مكة من مصانع حفرتْها، وبرك أحدثتها، وبذلها الأموال في سبيل توفير المياه في طرق الحج العراقي بين مكة والكوفة وخاصة في المناطق التي لا ماء فيها وفي الصحراء، وفي مكة والمدينة، حتى قيل إن ما أنفقته زبيدة من مال فِي ستين يومًا خلال حجها بلغ أربعة وخمسين ألف ألف درهم[1].

وعلى طول طريق الحج العراقي كان لها مآثر وآثار خلدها التاريخ تدلل على عنايتها بأمر الحج، ومنها إنشاء عدة برك على طريق الحج العراقي، ووصف لنا الإمام أبي إسحاق الحربي مؤلف كتاب المناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة قصراً لها، أصبح خرباً على أيامه زمانه[2].

وشهد أيضاً عهد الخليفة المأمون[3] إلى عهد المتوكل[4] عناية بطريق الحج وشئونه بإشراف الكاتب عمر بن فرج الذي أوكل إليه أمر العناية بطريق مكة، واسندت إليه في بعض الأوقات

---

[1] – الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج16، ص619.

[2] – الحربي، المناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة، ص288.

[3] – عبد الله بن هَارُون: أَمِير الْمُؤمنِينَ الْمَأْمُون عبد الله بن هَارُون أَمِير الْمُؤمنِينَ أَبُو الْعَبَّاس الْمَأْمُون بِاللَّه بن الرشيد ابْن الْمهْدي بن الْمَنْصُور ولد سنة سبعين وَمِائَة بَايعُوهُ أول سنة ثَمَان وَتِسْعين وَمِائَة، وَتُوفِّي سنة ثَمَان عشرَة وَمِائَتَيْنِ، فَكَانَت خِلَافَته عشْرين سنة وَستَّة أشهرٍ قَرَأَ الْعلم فِي صغر، وَكَانَ من أشد رجال بني الْعَبَّاس حزماً وعزماً وعلماً وحلماً ورأياً ودهاءً وشجاعةً وسؤدداً وسماحة، وَلما خلعه الْأمين غضب ودعا إِلَى نَفسه بخراسان فَبَايعُوهُ فِي ذَلِك التَّارِيخ وَأمه أم ولد اسْمهَا مراجل مَاتَت أَيَّام نفَاسهَا بِهِ، ودُعي لِلْمَأْمُونِ بالخلافة وَأَخُوهُ الْأمين حَيّ فِي آخر سنة خمسٍ وَتِسْعين وَمِائَة إِلَى أَن قتل الْأمين فَاجْتمع النَّاس عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَتْ عماله فِي الْبِلَاد وأقيم الْمَوْسِم سنة ستٍّ وَسنة سبعٍ باسمه وَهُوَ مقيمٌ بخراسان وَاجْتمعَ النَّاس عَلَيْهِ بِبَغْدَاد فِي أول سنة ثمانٍ وَكَانَ فصيحاً مفوهاً كَانَ يَقُول مُعَاوِيَة بعمره وَعبد الْملك بحجاجه وَأَنا بنفسي وَرويت هَذِه عَن الْمَنْصُور ختم فِي الرمضانات ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ختمةً، ومات ولم يرجع عَنْ فتنة خلق القرآن وصمم عَلَيْهَا فِي سنةٍ ثَمَان عشرَة وَمِائَتَيْنِ وأمتحن الْعلمَاء فعوجل وَلم يُمْهل وتوجه غازياً بالخلافة إِلَى أَرض الرّوم فَلَمَّا وصل إِلَى البدندون مرض وَأوصى بالخلافة إِلَى أَخِيه المعتصم وَلما مَاتَ نَقله أَخُوهُ المعتصم وَابْن الْمَأْمُون الْعَبَّاس إِلَى طرسوس فَدفن بهَا فِي دَار خاقَان خَادِم أَبِيه. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج17، ص350– ص352.

[4] – المتَوَكل على الله: هو جَعْفَر بن مُحَمَّد أَبُو الْفضل المتَوَكل على الله ابْن المعتصم بن الرشيد بن الْمهْدي بن الْمَنْصُور، بويِعَ لَهُ بالخلافة بعد موت أَخِيه هَارُون الواثق بمشاورة فِي ذَلِك فِي ذِي الْحجَّة سنة اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ ومئتين، ولد سنة سبع ومئتين وَقتل سنة سبع وَأَرْبَعين ومئتين، كَانَ أسمر مليح الْعين نحيف إِلَى الْقصر أقرب، وَأمه أم ولد اسْمهَا شُجَاع، وَلما اسْتخْلف أظهر السّنة وَتكلم بهَا فِي مَجْلِسه وَكتب إِلَى الْآفَاق بِرَفْع المحنة وَإِظْهَار السّنة وَبسط أَهلهَا ونصرهم، وَأقَام الْحَج للنَّاس سنة سبع وَعشْرين قبل الْخلَافَة. وَقَالَ إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد التَّيْمِيّ

مهمة بريد مكة، والذي قام بعمل أعلام على الطريق لهداية الحجاج ومواقيت لنفس الغرض وأصلح نحواً من عشرين بئراً عميقة وحفر بعض الحياض[1].

وممن عنوا بأمر الحج من خلفاء بني العباس الخليفة المتوكل على الله الذي حفر آباراً، وبنى قصوراً على طريق الحج[2].

وفي العهد العباسي أيضاً تميزت السيدة خالصة جارية الخيزران أم الخليفتين الهادي والرشيد باهتمامها بأمر الحج والحجاج، وعملت أعمالاً كثيرة، مازالت آثارها بطريق الحج العراقي تشهد لها بذلك[3]، والسيدة أم المتوكل شجاع، والسيدة أم شعب أم الخليفة المقتدر بالله المتوفية عام 321هـ/933م والتي كانت تمتلك أموالاً عظيمة، كَانَ يرتفع لها من ضياعها في كل عام ألف ألف دينار، وكانت تتصدق بأكثر ذلك، وكانت تواظب على مصالح الحاج وتبعث خزانة الشراب والأطباء معهم وتأمر بإصلاح الحياض الواقعة في طريق الحجاج[4].

ولم يهمل أمر الحج بقية الخلفاء العباسيين إلى آخر عهدهم فقد كانت قوافل الحج السنوي وأميره مستمرة حتى نهاية دولة الخلافة، فقد ورد أنه في عام 515هـ/1121م أن العرب من نبهان دخلوا فيد وهي احدى منازل طريق الحج العراقي وكسروا أبوابها وأخذوا ما كان لأهلها، فتوجع الناس لهم وعلموا أن خراب حصنهم سبب لانقطاع منفعة الناس من الحجيج، فبعث

قَاضِي الْبَصْرَة الْخُلَفَاء ثَلَاثَة أَبُو بكر الصّديق قَاتل أهل الرِّدَّة حَتَّى اسْتَجَابُوا وَعمر بن عبد الْعَزِيز رد مظالم بني أُمَيَّة والمتوكل محا الْبدع وَأظْهر السّنة، وَقَالَ مُحَمَّد بن عبد الْملك بن أبي الشَّوَارِب إِنِّي جعلت دعائي فِي الْمشَاهد كلهَا للمتوكل وَذَلِكَ أَن صاحبنا عمر بن عبد الْعَزِيز جَاءَ الله بِهِ يرد الْمَظَالِم وَجَاء الله بالمتوكل يرد الدّين، ويُقَال أَنه سلم عَلَيْهِ بالخلافة ثَمَانِيَة كل مِنْهُم ابْن خَليفَة مَنْصُور بن الْمهْدي وَالْعَبَّاس بن الْهَادِي، وَأَبُو أَحْمد بن الرشيد وَعبد الله بن الْأمين ومُوسَى بن الْمَأْمُون وَأحمد بن المعتصم وَمُحَمّد بن الواثق وَابْنه الْمُنْتَصر بن المتَوَكل وَكَانَ جواداً ممدحاً يُقَال مَا أعْطى خَليفَة مَا أعْطى المتَوَكل. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج11 ص101.

[1] – الحربي، المناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة، ص286.

[2] – المصدر نفسه، ص319– ص336.

[3] – المصدر نفسه، ص282، ص285.

[4] – ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج13، ص321.

الخليفة على الفور واليه موفق الخادم الخاتوني، ومعه أبواب من حديد حملت على اثني عشر جملاً برفقة الصنّاع لتركيب تلك الأبواب وتنقية الآبار، وعمل مصانع[1] الماء[2].

ومن قصص الاهتمام بشئون الحج في العصر العباسي ما ورد أنه في سنة 366هـ/976م؛ حجت جميلة بنت الملك ناصر الدولة بن حمدان، حجاً يضرب به المثل في التجمل وأفعال البر؛ لأنه كان معها أربعمائة محمل على لون واحد، ولم يعلم الناس في أيها كانت، وكست المجاورين في الحرمين، وأنفقت فيهم الأموال العظيمة، ولما شاهدت الكعبة نثرت عليها عشرة آلاف دينار من ضرب (سك) أبيها، ولم يحوج الناس إلى مأكول ولا مشروب، وحج معها الناس من أقطار الأرض، وأنفقت بمكة عشرين ألف دينار، وزوجت كل علوي وعلوية، وأنفقت بالمدينة مثلها، وكانت من أزهد الناس وأعبدهم وأجراهم دمعة؛ فكانت تقوم نافلة الليل وتسمع العظات وتكثر الصدقات[3].

ومن قصص الاهتمام بالحج أيضاً، والحفاظ على أمنه ما جاء في سنة 367هـ/977م؛ أنّ العزيز بالله العلوي صاحب مصر وإفريقية؛ سيّر باديس بن زيري أخا يوسف بلكين خليفته بإفريقية أميراً على الموسم ليحج بالناس، وكانت الخطبة له بمكة، فلما وصل إلى مكة أتاه اللصوص بها فقالوا له نتقبل منك الموسم بخمسين ألف درهم، ولا تتعرض لنا، فقال لهم: أفعل ذلك، اجمعوا لي أصحابكم حتى يكون العقد مع جميعكم، فاجتمعوا فكانوا نيفاً وثلاثين رجلا، فقال هل بقي منكم أحد؟ فحلفوا أنه لم يبق منهم أحد، فقطع أيديهم كلهم حداً؛ حفاظاً على أمن الحجاج[4].

---

[1] – يقول الفيروز آبادي: المصنعة هي مكان كالحوض يبنى من الطين يجمع فيه ماء المطر؛ والمصانع جمعها، ويقال لها أيضاً: الصِنْع وهي أيضاً مصنعة الماء. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص739. وفي المعجم الوسيط: المصنع هو شبه الحوض يجمع فيه ماء المطر ونحوه، وجمعه مصانع، ويقال لها المصنعة أيضاً، انظر صفحة: ص551.

[2] – ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج17، ص198.

[3] – اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج2، ص289. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج26، ص264، ابن الجوزي، المنتظم، ج7، ص84، ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص287. الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص267.

[4] — ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص362.

ومنها أنه في سنة 369هـ/979م شرع عضُد الدولة[1] ببناء المساجد، وأدار الأموال على العلماء والأئمة، والمؤذّنين، والفقهاء، والغرباء، والضعفاء، وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها، وجدَّد ما دثر من الأنهار، وأعاد حفرها، وتسويتها وأبطل مكوس الحجّاج، وأصلح طرق الحج من العراق إلى مكة، وأقام الصلات لأهل البيوتات، والشرف، والضعفاء المجاورين بمكة والمدينة[2].

ومنها أنه في سنة 455هـ/1063م حج علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن، وملك فيها مكة، وفعل فيها أفعالاً جميلة من العدل والإحسان، ومنع المفسدين، وأحسن إلى أهل مكة، وأظهر العدل فيها، وأن الحجاج كانوا آمنين أمناً لم يعهدوا مثله؛ لإقامة السياسة والهيبة حتى كانوا يعتمرون ليلا ونهاراً وأموالهم محفوظة، ورحالهم محروسة، ويقدم بجلب الأقوات، فرخصت الأسعار وانتشرت له الألسن بالشكر والدعاء، وأقام إلى يوم عاشوراء[3].

ومن السلاطين الذين اضطلعوا بحماية فريضة الحج؛ السلطان محمود الغزنوى، ثم السلطان ملكشاه السلجوقي، والذي أحيا وسائل حماية هذه الفريضة لمن بعده من السلاطين،

---

[1] — عضد الدولة بن بويه: هو فناخسرو بن الْحسن بن بويه بن فناخسرو بن تَمام أَبُو شُجَاع ابْن أبي عَليّ الملقب بعضد الدولة ابْن ركن الدولة كَانَ كَامِل الْعقل غزير الْفضل حسن السياسة شَدِيد الهيبة بعيد الهمة ذَا رَأْي ثاقب وتدبير صائب محباً للفضائل تاركاً للرذائل باذلاً فِي أَمَاكِن الْعَطاء حَتَّى لَا يُوجد بعده ممسكاً فِي أَمَاكِن الحزم حَتَّى كَأَن لَا جود عِنْده يستصغر الْأُمُور الْكِبَار ويستهون الْعَظِيم من الأخطار، وَكَانَ محباً للْعلم مشتغلاً بِهِ مقرباً لأَهله كثير المجالسة لَهُم مبالغاً فِي تعظيمهم، وَكَانَت لَهُ يَد فِي الْأَدَب متمكنة وَيَقُول الشّعْر الْجيد، وَكَانَ أَبوهُ قد قدمه على اخوته وولاه ملك فَارس وجمع بَين مملكة فارس وَضم إِلَى ذَلِك الْموصل وبلاد الجزيرة ودانت لَهُ الْبِلَاد والعباد، وَهُوَ أول من خُوطِبَ فِي الْإِسْلَام بِالْملكِ شاهنشاه وَأول من خطب لَهُ على المنابر بِبَغْدَاد بعد الْخَلِيفَة، وَكَانَ من جملَة ألقابه تَاج الْملَّة وَلما صنف ابو إِسْحَاق الصَّابِئ كتاب التاجي فِي أَخْبَار بني بويه أَضَافَهُ إِلَى هَذَا اللقب، وَكَانَ يدْخلهُ فِي كل سنة ثَلَاثمِائَة ألف ألف وَعشْرين ألف ألف فَقَالَ أُرِيد أَن أبلغ بهَا ثَلَاثمِائَة ألف ألف وَسِتِّينَ ألف ألف ليَكُون دَخَلنَا كل يَوْم ألف ألف دِرْهَم، وَلما احْتضرَ لم ينْطق إِلَّا بِتِلَاوَة مَا أغْنى عني ماليه هلك عني سلطانيه وَيُقَال إِنَّه مَا عَاشَ بعد هَذِه الأبيات إِلَّا قَلِيلا وَتُوفِّي بعلة الصرع يَوْم الِاثْنَيْنِ ثامن شَوَّال سنة اثْنَتَيْنِ وَسبعين وثلاثمائة بِبَغْدَاد وَدفن بدار الْملك ثمَّ نقل تابوته إِلَى الْكُوفَة وَدفن بمشهد عَليّ بن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ وعمره سبع وَأَرْبَعُونَ سنة وَأحد عشر شهرا وَثَلَاثَة أَيَّام. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج24، ص67.

[2] – النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج26، ص125.

[3] – ابن فهد، إتحاف الورى، ج2، ص469، ص470. الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص273.

فبنى أحواض الماء على طريق الحجاز، ورفع المكوس ورسوم الخفارة على طريق الحج، وزود الحجاج بالحراسة والنفقات التي تصرف على الحجاج، وأقطع أمراء الحرمين نظير ذلك الإقطاعيات والأموال، وكانوا يأخذون قبل ذلك من كل حاج سبعة دنانير ذهبية، وأنعم كذلك على عرب البادية وعلى مجاوري الكعبة بالإنعامات الطائلة[1] .

ونقل ابن الأثير في كتابه الكامل في أخبار سنة 462هـ/1070م: أنه ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم، ومعه ولده، إلى السلطان ألب أرسلان، يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله وللسلطان بمكة، وإسقاط خطبة العلوي، صاحب مصر، وترك الأذان بحي على خير العمل فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار، وخلعا نفيسة، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار، وقال: إذا فعل أمير المدينة مهنا كذلك أعطيناه عشرين ألف دينار، وكل سنة خمسة آلاف دينار[2].

وفي عهد نور الدين زنكي ظهرت جهوده الميمونة في الإحسان إلى الحجاج وإلى أهل مكة والمدينة، وبعث العساكر لحفظ المدينة النبوية، وأقطع أمير مكة إقطاعاً، وأقطع أمراء العربان إقطاعات لحفظ الحج فيما بين دمشق والحجاز، وأكمل سور المدينة النبوية، واستخرج لها العين، فدعي له بالحرمين على منبريهما بعد اسم الخليفة العباسي[3].

وفي عهده تولى نجم الدين أيوب كبير البيت الأيوبي؛ إمارة الحج الشامي منذ سنة 551هـ/1156م، وقد ورثه في هذا المنصب أخوه أسد الدين شيركوه، والذي أنفق من أمواله المبالغ الضخمة، في سبيل إقامة الشعائر الدينية والخيرية بالحرمين هو وصديقه الوزير جمال الدين وزير صاحب الموصل، وأوصى صديقه بأن يدفن في تربة بجوار المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وقد حققت له هذه الأمنية والوصية فيما بعد[4].

وفي عهد الأيوبيين بلغ الاهتمام بالحج وشئونه مبلغاً كبيراً رغم انشغالهم بالجهاد ضد الصليبيين؛ فعندما تعطل الطريق البري للحجاج، واضطر الحجاج – وخاصة ممن يأتون من

---

[1] – أحمد فؤاد السيد، تاريخ مصر الإسلامية، ص233، نقلاً عن الراوندي، راحة الصدور, ص205.

[2] – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص218.

[3] – المقريزي، الذهب المسبوك، ص 98.

[4] – أحمد فؤاد السيد، تاريخ مصر الإسلامية، ص204.

الغرب الإسلامي– إلى سلوك طريق طويل يبدأ من الإسكندرية إلى الفسطاط، إلى مدينة قوص بصعيد مصر ثم منها يخترق الحجاج صحراء عيذاب، حتى يصلوا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، ومنها يركبون السفن الصغيرة المعروفة بـ "الجلاب" حتى ميناء جدة؛ فكانت هذه الرحلة طويلة شاقة عانى منها الحجاج الأمرّين[1]، وحين استقرت السلطنة لصلاح الدين، جعل الكرك هدفاً لأول غزوة من مغازيه للفرنج ليصل طريق القوافل والتجارة عبر سيناء، بين مصر والشام، ويؤمن طريق الحج البري بعد انقطاعه، ولا شك أن حملة أرناط البحرية على البحر الأحمر ومحاولتها الوصول إلى الأراضي الحجازية، واختطاف جثمان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، كانت لتهديد أداء فريضة حج المسلمين إلى الأراضي الحجازية، ولم يقصّر لؤلؤ قائد الأسطول المصري في أسر هؤلاء الفرنج، وإدخالهم إلى القاهرة في هيئة مزرية، وعلى صورة من الذلة والمهانة وصفها لنا ابن جبير؛ ثم أرسل لؤلؤ بعض هؤلاء الأسرى إلى المدينة المنورة، حيث ذبحوا ذبحاً عقاباً لهم[2].

ومن اهتمامات الأيوبيين بشئون الحج ما ورد في أحداث سنة 581هـ/1185م، عندما وصل سيف الإسلام طغتكين ملك اليمن الأيوبي وأخ صلاح الدين بنفسه إلى الكعبة، ليمنع الآذان الشيعي بها بحي على خير العمل، وليمنع العبيد الموالين لأمير مكة من أخذ الحجاج؛ وطلب مفتاح الكعبة من أمير مكة، ليكون هو الحامي للحرم المكي من الناحية الفعلية؛ وذلك بعد أن حاول أمير مكة إغلاق باب الكعبة، وإعطاء مفتاحه لسدنته من بني شيبة، –الذين ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه سيبقى في أيديهم إلى يوم الدين–، حتى يرغم طغتكين على العودة دون طلب مفتاح الكعبة، فهدد طغتكين بأخذه قسراً، وهنا أذعن أمير مكة، وسلم المفتاح لطغتكين، الذي سلمه بدوره لبني شيبة[3].

وبعد ذلك داوم ملوك بني أيوب، على حماية طريق الحج وتأمينه، وحماية لواء الحج العراقي، الممثل لسيادة الخليفة الروحية على العالم الإسلامي[4].

---

[1] – ابن جبير، الرحلة، ص 38 – 53.

[2] –المصدر نفسه، ص 30 – 31.

[3] – الفاسي، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، ج5، ص 63.

[4] – ابن جبير، الرحلة، ص 80.

وإذا كان يلاحظ أن أحداً من سلاطين مصر الأيوبية، لم يحج بنفسه لانشغالهم الدائم بجهاد الصليبيين، فقد حج الملك المعظم شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين، وفاتح اليمن، وأول ملوكها وأحسن إلى الحجاج[1].

وللتخفيف عن الحجاج وتسهيل الحج إلى بيت الله الحرام؛ أمر صلاح الدين الأيوبي في سنة 572هـ/1176م بإبطال الغفارة، وإزالته للمكس الذي كان يؤخذ من المسافرين على طريق البحر الأحمر، ومقدارها سبعة دنانير ونصف على كل حاج، بعد أن كاد سبيل الحج أن ينقطع، ولم يعد في استطاعة الحجاج أداء فريضة الحج، وكان ذلك المكس يؤخذ وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين، وكان الحجاج يعانون في استيفائها عنتاً مجحفا، ويسامون فيها العذاب، وجعل صلاح الدين لصاحب مكة بدلاً من ذلك ألفا دينار وألفا إردب من القمح، ويحمل مثلها فتفرق في أهل المارستان بمكة، كما أوقف على الحجاج وعلى الحرمين الأوقاف وذلك للصرف على مؤنتهم إبان أداء الفريضة، كما أقطع أمير مكة الإقطاعات بصعيد مصر وبجهة اليمن بهذا الرسم المذكور، وعدّ هذا الأمر من مفاخر صلاح الدين وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا، ولولا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمر لا ينادي وليده ولا يلين شديده، وجعل عوض ذلك مالاً وطعاماً يأمر بتصويلهما إلى مكثر أمير مكة[2]. وداوم صلاح الدين على مكاتبة أمير مكة يوصيه برعاية الحجاج عند وصولهم إلى الحرم المكي، وتسهيل السبيل للحجاج على الرغم من انشغاله بالحروب ضد الصليبيين[3].

وكان من كُتب صلاح الدين إلى أمير مكة الأمير مكثر، ما ذكره ابن جبير حيث يقول: "أعلمنا بأن كتابه وصل إلى الأمير مكثر وأهم فصوله التوصية بالحاج والتأكيد في مبرتهم وتأنيقهم ورفع أيدي الاعتداء عنهم والإيعاز في ذلك إلى الخدام والأتباع والأوزاع، وقال إنه إنما نحن وأنت متقلبون في بركة الحاج فتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم، وإحسان الله

---

[1] – المقريزي، الذهب المسبوك ص15.

[2] – ابن جبير، الرحلة، ص30 –ص31، ص55. الغفارة: المعطف والجمع غفائر. وتقال أيضًا للضريبة التي يأخذها الأشرار الأقوياء من الباعة أو أصحاب الأراضي مقابل عدم التعدي عليهم. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص115.

[3] – ابن جبير، الرحلة، ص54.

يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده واعتناؤه الكريم موصول لمن جعل همته الاعتناء بهم والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين إنه ولى ذلك لا رب سواه"[1].

كما كاتب صلاح الدين أمير برقة من قبله، يوصيه بحماية الحجاج المغاربة والأندلسيين المارين بولايته[2]، كما حرص على تبادل السفارات الودية مع أمير المدينة النبوية وتعظيم رسوله والاعتزاز بهداياه، لكونها من قبله[3].

ومن اهتمامات صلاح الدين الأيوبي بموسم الحج، ما ذكره ابن شداد من استحداثه رسوماً خاصة بتلقي واستقبال موكب الحج الشامي، وذلك خلال إقامته بدمشق، فكان صلاح الدين يركب ركوباً عسكرياً ويلبس الكزاغند[4] لاستقبال الحجاج العائدين من الحج، وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم، وكان يخرج في احتفال عام، ويقطع به شوارع دمشق، سالكاً طرقاً محددة، ولما التقى الحجاج العائدين سنة 589هـ/1192م، استعبرت عيناه كيف فاته الحج، فلا عجب أن يلقب صلاح الدين بمنقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، وخادم الحرمين الشريفين فصلاح الدين لم يدخر وسعاً لاستمرار تأمين طرق الحج، حيث جعلها من أولى اهتماماته[5].

ومن الأيوبيين الذين حرصوا على شئون الحج الملك المعظم عيسى ابن العادل أبي بكر أيوب، صاحب دمشق، فقد حج سنة 611هـ/1214م، راكباً على الهجن[6]، وسار على طريق تبوك، وبنى البركة المشهورة ببركة المعظم، وعدة مصانع[7]، وتصدّق في الحرمين بمال عظيم، وحمل المنقطعين وزودهم وأحسن إليهم، وجدَّد البرك والمصانع، وراعى في حجه ما يطلب فعله،

---

(1) – ابن جبير، الرحلة، ص74.

(2) – القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص59–61. أحمد فؤاد السيد، تاريخ مصر الإسلامية، ص210.

(3) – أحمد فؤاد السيد، تاريخ مصر الإسلامية، ص210.

(4) – الكزاغند – أو القزاغند – (والجمع كراغنديات وقزغنديات) لفظ فارسى معناه المعطف القصير يلبس فوق الزردية، وكان يصنع من القطن أو الحرير المبطن المنجد. انظر: هامش كتاب ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج2، ص44.

(5) – ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 25، ص 359. أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص85.

(6) – الهِجانُ الخِيارُ من كل شيء والهِجانُ من الإبل الناقة الأَدْماء وهي الخالصة اللون والعِتْقِ من نُوق هِجانٍ وهُجُن والهِجَانةُ البياضُ ومنه قيل إبل هِجانٌ أي بيض وهي أكرم الإبل. ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص4626. والمقصود هنا أنهم سافروا على الابل السريعة.

(7) – المصانع مفردها مصنعة وهي مكان كالحوض يجمع فيه ماء المطر. الفيروز آبادي، القاموس، ص739.

ومما فعله في ذلك: أنه بات بمنى ليلة عرفة، وصلى بها الصلوات الخمس ثم سار إلى عرفة، وبعدما حج عاد إلى دمشق[1]، وكذلك حج الملك الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب الكرك[2].

ولا ننسى في هذا المقام سلاطين المغرب الإسلامي في عهد الموحدين والمرينيين والسعديين وفي سائر العهود، الذين اهتموا بموكب الحجاج كاهتمام باقي الخلفاء، وزودوه بالحراسة الكافية، وجمّلوه بالأعلام والطبول، واتخذوا موسم خروجه ويوم عوده مناسبة لفرجة الناس وفرحهم، وحملوا معه الهدايا والأموال الطائلة لفقراء وضعفاء الحجاج والحرمين والمجاورين فيهما[3].

وكثير من حكام المسلمين وملوكهم وأمرائهم وأغنيائهم اهتموا بأمر الحج ما استطاعوا، وسهلوا سفر حجاج بلادهم أينما كانت بعيدة أم قريبة، وحرصوا على إرسال الأموال والكسوة لأن ذلك يجلب لهم الحمد والشكر والدعاء[4].

وقد أطنبنا في بيان اهتمام الخلفاء والسلاطين بأمر الحج وطرقه لإعطاء صورة عن ذلك قبل عهد دولة المماليك، والذين كان لهم الاهتمام الكبير بشئون الحج والحرمين من خلال ما سنراه في الفصل الثاني.

---

[1] – ابن شامة، الذيل على الروضتين، ج5، ص134. الفاسي، العقد الثمين، ج7، ص44، شفاء الغرام، ج2، ص282، ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص19.

[2] – المقريزي، الذهب المسبوك ص112.

[3] – المنوني، من حديث الركب المغربي، ص10 وما بعدها.

[4] – فهد، بدري محمد، مقال تاريخ أمراء الحج، ص202.

الفصل الثاني

المماليك واهتمامهم بالحج وشئون الحرمين

المبحث الأول: عمل كسوة الكعبة وإرسال المحمل.

المبحث الثاني: تنظيم قيام ركب الحج من مصر والشام وفق مراسم خاصة، وتعيين أميرٍ للحج، والحفاظ على أمن الحجاج في مكة والطرق المؤدية إليها.

المبحث الثالث: القيام بعمل الإصلاحات اللازمة في الحرمين، وتقديم التسهيلات للحجاج على امتداد الطريق في الأراضي الحجازية.

الفصل الثاني

المماليك واهتمامهم بالحج وشئون الحرمين

توطئة تاريخية:

قامت دولة سلاطين المماليك مطلع النصف الثاني من القرن السابع الهجري سنة648هـ، ويوافق منتصف القرن الثالث عشر الميلادي سنة 1250م، وحكمت العالم الإسلامي ثلاثة قرون إلا ربعاً من سنة 648هـ- 923هـ، وفق 1250م -1517م، وشغلت زماناً من التاريخ الإسلامي وتركت بصمات واضحة جلية على مختلف بلدان العالم الإسلامي[1].

وقد بدأ ظهور طبقة المماليك في مصر منذ قيام الدولة الأيوبية على يد مؤسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 567هـ،1171م، حيث أكثر من شراء الرقيق "المماليك"، وتبعه في ذلك أخوه العادل أبو بكر ومن جاء بعدهم من أبناء البيت الأيوبي[2].

وينسب إلى الصالح نجم الدين أيوب (636-647هـ/1238-1249م) الإكثار من جلب المماليك الترك إلى الديار المصرية فكان عامة عسكره منهم، حيث تكونت منهم طبقة سلاطين المماليك الذين قاموا على حكم مصر فيما بعد، وجلب أعداداً كبيرة منهم؛ تفوق ما جلبه أسلافه من سلاطين الأيوبيين، وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينسبون إليه من نسب أو سلطان فمنهم العزيزية نسبة إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين، ومنهم الصالحية نسبة إلى الصالح أيوب، ومنهم البحرية نسبة إلى قلعة الروضة التي بناها الصالح بين فرعي نهر النيل، وكان هؤلاء البحرية شوكة دولته وعصابة سلطانه وخواص داره يعتمد عليهم في الشدائد بعد أن خذله الخوارزمية[3].

---

[1] – ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص286، ص303، ج5، 148. النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص380.

[2] – ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص428، قاسم عبده قاسم تاريخ الايوبيين والمماليك، ص153.

[3] – ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص430، المقريزي، السلوك، ج1، ص441. قاسم عبده قاسم، تاريخ الايوبيين والمماليك، ص154.

وكان معظم هؤلاء المماليك من التركمان والأرمن والروم والجركس وغيرهم إلا أن اسم الترك غالب على جميعهم لكثرتهم ومزيتهم، وينتمون إلى شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وفارس والتركستان وبلاد ما وراء النهر، إلى جانب المماليك الجراكسة الذين ينتمون إلى قبائل الجركس التي استوطنت المنطقة الواقعة إلى الجنوب من خوارزم[1].

ووجد هؤلاء المماليك الرعاية والاهتمام من جانب السلاطين القائمين على الحكم، فأنشئوا لهم مراكز تسمى الطباق لتربيتهم وتدريبهم وتعليمهم على أيدي المتخصصين في شتى المجالات؛ فمنهم المؤدب الذي يقوم بتقويمهم على الاخلاق والآداب والحشمة والحرمة، ومنهم المعلم الذي يقوم بتعليمهم اللغة العربية والكتابة والقراءة؛ والفقيه لتعليمهم القرآن الكريم وتلقينهم مبادئ وأصول الشريعة الإسلامية، وحضهم على ملازمة الأذكار والصلوات والتمسك بالفضائل الدينية؛ هذا فضلاً عن المتخصصين في مجال التعليم والتدريب على مختلف أعمال القتال وأساليب الحرب وفنون الفروسية[2].

ونتيجة لما لقيه المماليك من التعليم والتدريب والتربية الدينية؛ صار لهم شأن كبير في مجال الحرب والقتال، وظهرت غيرتهم الواضحة على بلاد الاسلام، وهي الظاهرة العامة التي اتسمت بها دولتهم فيما بعد، وتصدوا لأعمال الجهاد والدفاع عن الإسلام وحمايته من الأخطار الخارجية[3].

وكان أول عمل قام به المماليك؛ هو التصدي لهجوم التتار الذين قاموا باجتياح المشرق الإسلامي بقيادة هولاكو خان؛ بالرغم من أن دولتهم كانت لا تزال في بداية الخطوات الأولى لقيامها ونشأتها[4].

فبعد استيلاء المغول على بغداد –عاصمة الخلافة العباسية– سنة 656هـ/1258م، وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وولده، استولوا على مدن الشام التي سقطت في أيديهم

---

[1] – ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص428، قاسم عبده قاسم، تاريخ الايوبيين والمماليك، ص154.

[2] – المقريزي، السلوك، ج3، ص302، ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص428، النهروالي، الاعلام، ص 186. حمدي عبد المنعم حسين، دراسات في تاريخ الايوبيين والمماليك، ص156.

[3] – قاسم عبده قاسم، تاريخ الايوبيين والمماليك، ص157.

[4] – اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص349–ص361.

مدينة بعد أخرى، ولم يبق أمامهم في الميدان سوى دولة المماليك، فأرسل المغول إليهم كتب التهديد والوعيد لدفعهم إلى الاستسلام[1]، ولكن بالرغم من قسوة الظروف التي أحاطت بالمماليك؛ فإنهم لم يرضخوا للتهديد، وعقد السلطان سيف الدين قطز مجلساً للحرب، وتشاور مع أمراء المماليك؛ واتحدت كلمتهم على مواجهة التتار مهما كانت النتائج؛ دفاعاً عن الإسلام وحماية المسلمين من شرورهم، وأمر قطز بقتل رسل هولاكو خان، وطيف برؤوسهم في الأسواق استهزاءً وسخرية منه، وعلقت رُءُوسهم على بَاب زويلة؛ وانتقاماً لما فعله بالمسلمين في العراق أو الشام، وعلى الرغم من أن قتل الرسل محرم في الاسلام إلا أن الظروف المحيطة بالأمة الاسلامية جعلت قطز يقدم على ذلك، واستعد المماليك لمواجهة التتار ومبادرتهم بالقتال[2].

وسار السلطان سيف الدين قطز الى لقاءهم واختار أرض المعركة لتكون في عين جالوت في شمال فلسطين في أيام مباركة من شهر رمضان (25 رمضان سنة 658هـ/3سبتمبر 1260م).

وفي أثناء سير الجيش المصري الاسلامي كان سكان فلسطين والشام عندما رأوا صدق التوجه نحو الجهاد ينضمون إليهم، فارتفعت المعنويات؛ حباً ورغبةً في الجهاد والذود عن الإسلام، وفي عين جالوت وبعد معركة عنيفة بين قوات الجيش الاسلامي بقيادة قطز، وقوات التتار بقيادة كتبغا نوين، انكسرت ميسرة المسلمين كسرة شنيعة فحمل الملك المظفر رحمه الله في طائفة عظيمة من المسلمين، فكسرهم كسرة عظيمة أتت على معظم أعيانهم وأصيب كتبغا نوين، قيل قتله الأمير جمال الدين آقوش الشمسي فولوا الأدبار لا يلوون على شيء، واعتصم منهم طائفة بالتل المجاور لمكان الوقعة فأحدقت بهم العساكر وصابروهم حتى أفنوهم قتلاً وأسراً، وتنزل النصر على جنود الرحمن، وأخذ أهل بلاد الشام يتخطفون من نجا منهم[3]، وفي أثناء

---

[1] – أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص312–ص315. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص218. المقريزي، السلوك، ج1، ص514، ص515.

[2] – المقريزي، السلوك، ج1، ص515.

[3] – اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص361. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص256.

المعركة نزل السلطان قطز عن فرسه، ومرغ وجهه على الارض وقبلها، وسجد شكراً لله على ما منحهم من النصر[1].

وقد قال فيه المؤرخ أبو شامة الدمشقي صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين والذيل عليه، والذي عاصر الفترة المملوكية في آخر حياته:

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد جنسهم ولكل شيء آفة من جنسه[2].

ونتج عن هذا الانتصار الذي حققه المماليك على التتار، أن أحيت الأمل في نفوس المسلمين، وكسرت شوكة التتار، وأدركوا بأن هناك زعامة قوية للمسلمين يمكنها التصدي لحمايتهم وصيانة مقدساتهم من العبث، وصار المماليك هم فرسان الحلبة بلا منازع؛ خاصة بعد أن أجبروا بقايا التتار على الفرار من الشام[3].

ولم يقتصر دور المماليك على التصدي لهجمات التتار على العالم الإسلامي فقط؛ بل حرصوا على مواصلة أعمال الجهاد والذود عن الإسلام ضد الصليبيين المتربصين لاحتلال القدس بعد أن حررها صلاح الدين، والذين هددوا أمن وسلامة مكة المكرمة والمدينة المنورة، والحجاج القادمين إليهما[4].

ومنذ بداية حكمهم حرص المماليك أولاً على إضفاء الصبغة الشرعية على سلطانهم بإحياء الخلافة العباسية، وذلك باستضافة أحد أبناء الخلفاء العباسيين، وتنصيبه صورياً في القاهرة سنة 659هـ، 1261م، والحصول على تفويض من الخليفة بالحكم، واعتبر ذلك من أهم مراسم تقليد السلطنة، واستمر هذا الأمر طيلة حكمهم[5]. وبهذه الطريقة آل إليهم حكم البلاد الإسلامية.

---

[1] – المقريزي، السلوك ج1، ص517.

[2] – الذيل على الروضتين، ج5، ص318.

[3] – المقريزي، السلوك، ج1، ص517. ابن العماد، شذرات، ج5، ص293.

[4] – قاسم عبده قاسم، تاريخ الايوبيين والمماليك، ص228. محمد التهامي، الاصلاحات المملوكية في الاراضي الحجازية، ص84.

[5] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج13،ص 268، المقريزي، السلوك، ج1، ص547. السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج2، ص53، وما بعدها.

وحرصوا ثانياً على بسط سيطرتهم على الحجاز، وتقديم يد العون والمساعدة لحماية المسلمين والتيسير عليهم لأداء مناسك الحج، وإجراء الاصلاحات اللازمة في الحرمين الشريفين، وارسال المحمل وكسوة الكعبة[1].

وقد قاموا بالأمانة خير قيام، واهتموا بشئون الحرمين، وقدموا الأعمال والتسهيلات الكثيرة للحجاج، وأجروا الإصلاحات العديدة في الأماكن المقدسة في الأراضي الحجازية والطرق المؤدية إليها؛ تيسيرًا على المسلمين في أداء مناسكهم وقضاء فريضة حجهم في أمن وطمأنينة، والتي تتجلى في مظاهر عديدة، كما سنرى في الصفحات التالية إن شاء الله، والتي سنتناولها في مباحث كما يلي:

المبحث الأول: كسوة الكعبة وإرسال المحمل.

المبحث الثاني: تنظيم قيام ركب الحج من مصر والشام وفق مراسم خاصة، وتعيين أميرٍ للحج، والحفاظ على أمن الحجاج في مكة والطرق المؤدية إليها.

المبحث الثالث: القيام بعمل الإصلاحات اللازمة في الحرمين، وتقديم التسهيلات للحجاج على امتداد الطريق في الأراضي الحجازية.

[1] – المقريزي، السلوك، ج1، ص526، قاسم عبده قاسم، في تاريخ الايوبيين والمماليك، ص219.

المبحث الأول: كسوة الكعبة وإرسال المحمل:

كسوة الكعبة المشرفة والحجرة النبوية الشريفة:

من اهتمامات المماليك بالحرمين وبالحج الاهتمام بكسوة الكعبة المشرفة والحجرة النبوية الشريفة، وقد حرصوا على إرسالها كل عام.

وقد كانت الكعبة تكسى منذ القدم فقد ذكر الأزرقي أن أول من كسى الكعبة الملك تبع الحميري[1]، وقد كساها الأنطاع[2] والوصائل وهي ثياب حبرة من عصب اليمن [3].

وفي الاسلام كساها النبي صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية، وكساها أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم القباطي[4]، ثم كساها معاوية رضي الله عنه الديباج والقباطي والحبرات فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء، والقباطي في آخر رمضان[5]. وكساها عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه أولاً القباطي ثم الديباج[6].

وكساها المأمون الديباج الأحمر والديباج الأبيض والقباطي، فكانت تكسى الديباج الأحمر يوم التروية، والقباطي يوم هلال رجب، والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان[7].

وهكذا كانت تكسى في زمن المتوكل العباسي، ثم في زمن الناصر العباسي كسيت السواد من الحرير، واستمر الاهتمام والعناية بها إلى آخر العهد العباسي[1].

---

[1] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص249. وتبع الحميري هو: حسان بن أسعد أبي كرب الحميري: من أعاظم تبابعة اليمن في الجاهلية، عاش في القرن العاشر قبل الهجرة (الرابع قبل الميلاد)، وكان له انتصارات على بلاد فارس وكان يكره عبادة الأوثان، ويقال أنه أول من كسا الكعبة. الزركلي، الأعلام، ج2، 175.

[2] – الأنطاع: جمع نطع وهو ما يتخذ من الأَدَمِ وهو الجلد. ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص356.

[3] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص249. والوصائل: هي البرود الحمر. ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص327.

[4] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1،ص253. والقباطي: القبطية هي الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء وكأنه منسوب إلى القبط وهم أهل مصر. ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص373.

[5] – الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج1، ص165.

[6] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص 254.

[7] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص255، ص256، الصباغ، تحصيل المرام، ص153.

وكان حكام مكة خاضعين للخلافة العباسية، ولذلك نجد أن شيخ الحرم عفيف الدين منصور بن منعة البغدادي يمتنع عن قبول كسوة الكعبة في عام 643هـ/1245م؛ من صاحب اليمن الملك المنصور عمر بن رسول، عندما أراد أن يكسوها على إثر هبوب ريح شديدة مزقت كسوة الكعبة، فبقيت الكعبة عارية، وقال لا يكون ذلك إلا من الديوان يقصد الخليفة العباسي، فاقترض ثلاثمائة مثقال[2]، واشترى بها ثياباً، وصبغها بالسواد، وركب فيها الطرز القديمة التي كانت في كسوة الكعبة، وكساها بذلك[3].

وعندما ضعف أمر العباسيين صارت ترسل تارة من سلاطين اليمن وأخرى من ملوك مصر، إلى أن استقرت في سلاطين مصر المماليك، حيث يعتبر الظاهر بيبرس أول من كساها من سلاطين مصر المماليك سنة 661هـ/1263م[4]، حيث أمر بعمل كسوة الكعبة على العادة وحملت على البغال، وطيف بها في القاهرة ومصر وركب معها الخواص وأرباب الدولة والقضاة والفقهاء والقراء والصوفية والخطباء والأئمة، وسفرت إلى مكة في العشر الأوسط من شوال صحبة ركب الحج المصري من الطريق البري عبر سيناء[5]، وحرص سلاطين المماليك من بعده على إرسال الكسوة إلى الكعبة المشرفة في كل عام، وكان يقام لها احتفال سنوي في القاهرة، علي نحو ما سنذكره عند الحديث على المحمل.

وبالنسبة إلى كسوة الحجرة النبوية فقد ورد أن أول من كساها الخيزران، أم هارون الرشيد عندما قدمت معه في الحج، وزارت المدينة الشريفة عام 170هـ /786م، فأمرت بأن يخلّق مسجد النبي صلّى الله عليه وسلّم، وحينها قام إبراهيم بن الفضل بن عبيد الله بن سليمان مولى هشام بن إسماعيل، فقال للجارية مؤنسة التي تولت العمل: "هل لكم أن تسبقوا من بعدكم وأن

---

(1) – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص256، البتنوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، ص135. الصباغ، تحصيل المرام، ص154.

(2) – هو وزن مقداره درهم وثلاثة أسباع درهم. مجمع، المعجم الوسيط، ج1، ص98.

(3) – ابن كثير؛ البداية والنهاية، ج3، ص171، ص172، الفاسي؛ شفاء الغرام، ج1، ص168، ابن فهد، إتحاف الورى ج3، ص 62، 63. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص374.

(4) – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص220.

(5) – المقريزي، السلوك، ج1، ص562؛ البتنوني، الرحلة الحجازية، ص136؛ الصباغ، تحصيل المرام، ص154، ص155.

تفعلوا ما لم يفعل من كان قبلكم؟ قالت له مؤنسة: وما ذلك؟ قال: تخلّقون القبر كله"، ففعلوا وخلّقوا الحجرة بأقمشة الحرير، فصارت عادة السلاطين والملوك بعد ذلك في المواظبة على كسوة الحجرة النبوية"[1].

وأصبحت كسوة الكعبة والحجرة النبوية عادة الملوك والسلاطين في العصر المملوكي، يسارعون إلى كسوتها كل عام لكونها تكسبهم الشرف الديني والسياسي، ومن أجل ذلك أوقفوا لها الأوقاف وعملوا على كسب حكام مكة، ورفضوا أن تكسى من غيرهم من الملوك، على نحو ما سنتكلم عنه بعد قليل.

وبالنسبة لمكان صنع الكسوة فقد كانت منذ عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، تصنع في مصر كما ذكر الأزرقي[2]، ولكنه لم يذكر مكان صنعها فيها.

وقد ذكر الفاكهي ما يشير إلى أن كسوة الكعبة كانت تصنع في تنيس[3]، لأنه سمّى الثياب التي تكسى بها الكعبة بالقباطي[4] والحبرات[5] والديباج[6] الأبيض[7] ، والتي كان مصدرها

---

[1] – السمهودي، وفاء الوفاء، ج2، ص139. السمهودي، خلاصة الوفا، ج2، ص155.

[2] – الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص253.

[3] – تنيس: هي جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيّها، وبها تعمل الثياب الملونة والفرش البوقلمون، وقيل إن الأوزاعي رأى بشر بن مالك يلتبط في المعيشة فقال: أراك تطلب الرزق، الا أدلك على أمّ متعيّش قال: وما أمّ متعيّش؟ قال: تنيس ما لزمها أقطع اليدين إلا ربّته، قال بشر: فلزمتها فكسبت فيها أربعة آلاف، وقيل: إن المسيح، عليه السلام، عبر بها في سياحته فرأى أرضا سبخة مالحة قفرة والماء الملح محيط بها، فدعا لأهلها بإدرار الرزق عليهم. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص51–ص52.

[4] – القبطية: ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر وهي منسوبة إلى القبط، والجمع قباطي، وفي حديث أسامة: كساني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قبطية. ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص373.

[5] – الحبرة: ضرب من برود اليمن منمر، والجمع حبر وحبرات. وبرود حبرة أي ضرب من البرود اليمانية. ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص159.

[6] – الديباج: وهي الثياب المتخذة من الإبريسم، وهو لفظ فارسي معرب. ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص262.

[7] – الفاكهي، أخبار مكة، ج5، ص232، ص233.

مدينة تنيس التي اشتهرت بصناعة الثياب والمنسوجات في ذلك العهد، حتى قيل إنه ليس في الدنيا منزل إلا وفيه من ثوب تنيس ولو خرقة[1].

وبقي الأمر على ذلك حتى عام 624هـ/1226م، عندما أمر السلطان الكامل الأيوبي بتخريبها –والتي لم يكن بديار مصر أحسن منها–بسبب قربها من مدينة دمياط وتعرضها للخطر الصليبي[2]، فانتقلت صناعة كسوة الكعبة المشرفة إلى مشهد الحسين في القاهرة[3].

ولم تزل الملوك يتداولون كسوتَها إلى أَن وقف عليها الصَّالح إسماعيل بن النَّاصر قلاوون في سنة ثلاث وأَربعِين وسبعمائة قرية من نواحي القاهرة يقال لها بيسوس[4] كان اشترى الثّلثين منها من وكيل بيت المال ثُّم وقفها كلَّها على هذه الجهة[5]، وهناك قرية أخرى يقال لها سندبيس[6]، ووقفت أموال هذه القرى على كسوة الكعبة للإنفاق عليها منها، ولم تزل تكسى من هذا الوقف إلى سلطنة الملك المؤيد شيخ فكساها من عنده سنة 828هـ/1424م، لضعف وقفها ثم فوض أمرها إلى بعض أمنائه، وهو القاضي زين الدين عبد الباسط الذي بالغ في تحسينها[7].

واستمرت سلاطين المماليك ترسل كسوة الكعبة في كل عام، وحرصوا طوال عهدهم؛ على إرسال كسوة الكعبة الخارجية، والتي كانت تنسج من الحرير الأسود الذي يغطي الكعبة من أعلى إلى أسفل، ولها طراز مدور من جهة الأرض عرضه ذراعان تكتب عليه آيات قرآنية[8]، بكتابة بيضاء في نفس النسيج فيها: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ[9]... الآية[1].

---

(1) – الكندي، عمر، فضائل مصر المحروسة، ص11.

(2) – المقريزي، السلوك، ج1، ص347، والذهب المسبوك، ص84.

(3) – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص58؛ حسين باسلامة، تاريخ الكعبة المشرفة، ص255.

(4) – بيسوس هي قرية تقع على بعد خمسة أميال من المنيا. الادريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص330.

(5) – ابن حجر، فتح الباري، ج3، ص460.

(6) – النهروالي، الإعلام، ص 69. سندبيس: من قرى القليوبية. انظر: النهروالي، الإعلام، ص214.

(7) – المقريزي، السلوك، ج7، ص117. ابن حجر، فتح الباري، ج3، ص460. القلقشندي، صبح الاعشى، ج4، ص59. السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص26.

(8) – الفاسي، شفاء الغرام، ج1، ص125، والقلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص258.

(9) – سورة آل عمران، الآية 96.

وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك بقوله: وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان، وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض، قال تعالى: (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي..)الآية (سورة المائدة، الآية رقم(97)، وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائح مشرق من سوادها[2].

واستقرت هذه الكتابة صفراء مشعرة بالذهب في عهد السلطان الظاهر برقوق؛ 784-801هـ/ 1382- 1398م[3].

وذكر النهروالي أن هناك كسوتين أخريين ترسلان عند تجدد كل سلطان مع الكسوة السوداء التي تكسى لظاهر البيت الشريف كسوة حمراء من الحرير لداخل الكعبة، وتكتب فيها بعض الآيات القرآنية، وكسوة خضراء للحجرة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام[4].

ولكن السمهودي في كتابه وفاء الوفا يذكر: "أن الكسوة الداخلية وكسوة الحجرة ترسل كل خمس سنين مرة، ونقله عن التقي الفاسي في شفاء الغرام، ونقل أيضاً عن الزين المراغي أنه قال في كسوة الحجرة تكسى في كل ست سنين مرة تعمل من الديباج الأسود مرقوماً بالحرير الأبيض، ولها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عيها إلا كسوة المنبر فإنها بتفصيص أبيض، ثم قال وما ذكراه من المدة المذكورة بالنسبة إلى الحجرة كأنه كان معمولاً به في زمانهما -أي زمان الفاسي والمراغي-، وأما في زمان السمهودي- فيمضي عشر سنين ونحوها ولا تعمل، نعم كلما ولي ملك بمصر فإنه يعتني بإرسال كسوة"[5].

ونحن نرى أن الأمر كان اجتهاداً من السلاطين، ولم تكن هناك قاعدة أو سنة جارية تحكم إرسال الكسوة الداخلية وكسوة الحجرة النبوية الشريفة.

---

[1] – القلقشندي، صبح الاعشى، ج4، ص59.

[2] – ابن بطوطة، الرحلة، ص78.

[3] – القلقشندي، صبح الاعشى، ج4، ص59.

[4] – الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص 69.

[5] – ج2، ص140، الصباغ، تحصيل المرام، ص157.

ولعل السبب في ذلك أن كسوة الكعبة الخارجية تتعرض لحرارة الشمس كما تتعرض للتلف فتفقد زهاء لونها، بخلاف ما يحدث للكسوة الداخلية وكسوة الحجرة النبوية الشريفة فإنهما كانتا تكسيان كل ست سنوات، لأن هذه الكسوة لم تكن تبلى لعدم تعرضها لأشعة الشمس فلا تجدد حتى تبلى[1].

والسلطان الذي يرسل الكسوة يعتبر صاحب الزعامة على الأماكن المقدسة، ولذلك رفض سلاطين المماليك بشدة أي محاولة من جانب أي من الملوك، سواء من ملوك اليمن أو من سلاطين التتار، لإرسال الكسوة إلى الكعبة، فعندما حج ملك اليمن الملك المجاهد علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول في سنة 742هـ/1341م عزم على أن يكسو الكعبة ويقلع بابها ويركب باباً من عنده؛ فلم يمكّنه الأشراف من ذلك[2].

ثم أعاد الملك المجاهد محاولة كسوة الكعبة عندما حج ثانية في سنة 751هـ/1351م، وأراد أن يدخل إلى مكة تحيطه فرقة من جيشه، فمنعه أمراء المماليك المصاحبون لقافلة الحج المصري، وقامت بين جيش اليمن المرافق للمجاهد وأمراء المماليك مناوشات، انتهت بالقبض على الملك المجاهد الذي لم يسع إلى القتال، ولعله راعى في ترك القتال حرمة الزمان والمكان، وحمل أسيراً إلى مصر، وبقي بها إلى أن أطلق سراحه وعاد إلى اليمن[3].

وهناك محاولة أخرى قام بها سلطان المغول شاه رخ بن تيمور لنك[4]، إذ أرسل كتاباً يستأذن السلطان برسباي في سنة 833هـ/1429م، يعرض فيه رغبته في أن يكسو الكعبة، ولكن طلبه قوبل بالرفض بالرغم من الهدايا الثمينة المغرية التي قدمت له[5].

---

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص306.

[2] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص298.

[3] – ابن فهد، اتحاف الورى، ج3، ص248– 252.

[4] – شاه رخ بن تيمور الطاغية معين الدين صاحب هراة وسمرقند وبخارى وشيراز وما والاها من بلاد العجم وغيرها، بل ملك الشرق بعد ابن أخيه خليل بن أميران شاه وحمدت سيرته وقدم رسله لمصر غير مرة وراسله ملوكها، ثم وقع بينه وبين الأشرف برسباي استيحاش لكونه طلب كسوة البيت وفاء لنذره فأبى الأشرف وخشن له في الرد. السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج3، ص297.

[5] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص722.

يقول ابن حجر المعاصر للحادثة: وحاول ملك الشرق شاه روخ في سلطنة الأشرف برسباي أن يأذن له في كسوة الكعبة فامتنع، فعادت رسله بأن يأذن له أن يكسوها من داخلها فقط فأبى فعاود بإرسال رسله بأن يرسل الكسوة إليه ويرسلها إلى الكعبة ويكسوها ولو يوماً واحداً واعتذر بأنه نذر أن يكسوها ويريد الوفاء بنذره فاستفتى أهل العصر فتوقفت عن الجواب، وأشرت إلى أنه إن خشي منه الفتنة فيجاب دفعاً للضرر، وتسرع جماعة إلى عدم الجواز ولم يستندوا إلى طائل بل إلى موافقة هوى السلطان ومات الأشرف على ذلك[1].

وقد عاود سلطان المغول إظهار هذه الرغبة في عهد السلطان المملوكي جقمق[2] سنة 848هـ/1444م، ووافق جقمق في البداية بقوله: "إن هذه قربة يجوز أن يكسو الكعبة كائن من كان، وكَحَلٍّ وسطٍ رضي بأن يعلق كسوة الكعبة الداخلية، ولكن أمراء المماليك والعامة غضبوا، وهاجموا البيت الذي نزل فيه رسل سلطان المغول حتى حيل بينهم وبين العامة، فعاد السلطان جقمق ورفض قبول الكسوة، وأصدر مرسوماً في 7 من رمضان 856هـ/1452م بنزع ما بداخل الكعبة الشريفة من كسوة تنسب إلى شاه رخ، والاقتصار على الكسوة المنسوبة إليه[3].

وهناك محاولة أخرى صدرت أيضاً من العراق في عام 877هـ/1472م، في إرسال كسوة إلى الكعبة مع المحمل العراقي، وتصدى لها شريف مكة، وقبض على أمير المحمل، وأرسل إلى سلطان مصر الأشرف قايتباي الذي أمر بسجنه في برج القلعة[4].

إرسال المحمل:

منذ بداية حكمهم حرص سلاطين المماليك على إرسال المحمل وتسييره، وارسال كسوة الكعبة، وعند إرساله حرصوا على دوران المحمل "المخصص لحمل كسوة الكعبة المشرفة" وسط احتفال كبير يقام لهذه المناسبة، ورأوا أن ما يقومون به تجاه بيت الله الحرام واجباً مقدساً؛ ولذا بذلوا ما في وسعهم لراحة الحجاج والاهتمام بالكعبة المشرفة، وحرصوا على بذل غاية جهدهم في

---

[1] – فتح الباري، ج3، ص460.

[2] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص138.

[3] – تولى الحكم من سنة 842هـ– 857هـ. انظر الملحق رقم1، ص309.

[4] – ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص84.

الاهتمام بركب الحجاج وقوافلهم، وتسهيل تأدية المناسك للمسلمين، واهتموا بتنظيم الاحتفالات المؤثرة التي تهز المشاعر كما في تسيير المحمل والذي سنتكلم عنه قريباً ان شاء الله.

وللدلالة على ذلك ننقل كلام أحد المؤرخين المعاصرين للعصر المملوكي – العلامة بن فضل الله العمري– حيث يقول: "فإن المحامل السلطانية وجماهير الركبان تخرج من مصر ودمشق؛ ولله الحمد بسبيل لا ينقطع في كل سنة، ويخرج الركب من كل من مصر ودمشق بالمحمل السلطاني والسبيل المسبل للفقراء والضعفاء المنقطعين بالماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير والدريقات والمعاجين والأطباء والكحالين والمجبرين والجرايحية في أكمل زي وأتم أبهة، وبالأعلام والكوسات السلطانية والأدلاء والأئمة والمؤذنين والأمناء ومغسلي الموتى والأمراء والجند والقاضي والشهود والدواوين، بطليعة وساقة وضويّة في أوائل الركب ووسطه وآخره، كل هذا ليسهل الطريق إلى بيت الله الحرام وزيارة مدينة النبي محمد صلى الله عليه وسلم[1]..... إلى أن يقول: والحجاج في غاية الطمأنينة والأمن والدعة، كأنهم قعود في بيوتهم في وسط مدينة ذات أسوار وأعلاق ومرافق واسواق، بل أكثر أمنا وأوسع رزقا لتولي أهل تلك الأرض لحراستهم واستعدادهم طول السنة للبيع عليهم في ذلك الوقف المقدر المعلوم، فكثرت الرغبة في الحج وتعهد تلك الأماكن الشريفة والأرض المطهرة، ...ثم يقول: وهذا شيء لم يعهد مثله فيما تقدم بعد الصدر الأول من دول الخلفاء الأول قدس الله سرائرهم، ونحن نسأل الله المزيد، ودوام مسبب هذه النعمة، وإمتاع الأمة برونق عصره السعيد"[2].

من هذا النص التاريخي الوصفي لذلك المؤرخ المعاصر للعهد المملوكي ابن فضل الله العمري المتوفي عام 749هـ/1348م؛ نستطيع أن نقف على كثير من التفاصيل المتعلقة بقافلة الحج المملوكي المرسلة من الشام أو مصر، وسيمر معنا تفاصيل أخرى عند الحديث عن تسيير قافلة الحج.

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار إلى ممالك الأمصار، ج2، ص338.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص339.

المحمل:

من اهتمامات المماليك بالحرمين وبالحج الاهتمام بالمحمل، والمِحْمَل- بكسر الميم الأولى وفتح الثانية هو آلة كالمحفّة إلا أنه يحمل على أعلى ظهر الجمل[1]، أو هو أعواد من خشب على شكل الهودج، شكله مربّع، ذو سقف، يأخذ في الارتفاع من الجوانب إلى الوسط الذي فيه قائم، ينتهي بهلال، وفي العادة يسدل على ذلك الهيكل الخشبي كسوة قد تكون من الحرير وقد تكون من غيره، ويوضع أثناء السفر على ظهر جمل[2]، ويكون مخروطياً من أعلاه وتوضع فيه الهدايا وكسوة الكعبة المهداة الى مكة، وتطور المحمل على مر السنين، فصار ما يحمل على جمل من الكسوة والهدايا يحمل في صناديق كثيرة على جمال أخرى تسير مع القافلة[3].

والمحمل تاريخه قديم فمنذ أن شرع الله الحج على الناس منذ عهد إبراهيم عليه السلام والناس يقدسون الكعبة ويهدون إليها الطيب والمجامر والهبات الجليلة والحلي الفاخرة، وقبل وبعد الإسلام لازال السلاطين والامراء والملوك في كل زمن وعصر يرسلون إليها المحامل التي تحمل الهدايا النفيسة والكسوة والطيب، واستمر ذلك إلى أواخر العصر العباسي[4].

وهناك روايات تذكر بأن الحجاج بن يوسف الثقفي أول من سير المحامل الى مكة[5]. وقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى رد هذه الرواية ولكن ذلك لا يقوى أمام ما جاء في المصادر من تسيير الحجاج محمل إلى بيت الله الحرام[6].

وورد أيضاً عن بداية ظهور المحمل أن شجرة الدر حجت على هودج[1]، ومعها جمل فيه كسوة الكعبة، ورافقتها قافلة تعظيماً لشأن الكعبة[2]. ولكن هذه الرواية تعوزها الدقة لأنها لم تثبت في أيٍ من المصادر التاريخية المعتبرة.

---

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص145.

[2] – رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين، ج2، ص304؛ الغازي، إفادة الأنام، ج2، ص525.

[3] – البتتوني، الرحلة الحجازية، ص141.

[4] – الجزيري، الدرر الفرائد، ج1، ص186. البتتوني، الرحلة الحجازية، ص133، ص134، ص135.

[5] – ابن قتيبة، المعارف، ص553. الزبيدي تاج العروس ج14، ص 141.

[6] – انظر: ابراهيم حلمي، كسوة الكعبة وفنون الحجاج، ص106.

وفي بداية عهد المماليك أرسل الظاهر بيبرس المحمل مع قافلة الحج سنة663هـ/1255م، وجعله تقليداً سنوياً متبعاً سار عليه من جاء بعده من سلاطين المماليك[3].

والذي نخلص إليه مما تقدم أن إرسال المحمل كان مشتهراً قبيل العهد المملوكي كفكرة؛ وهي ارسال الهدايا والأموال والكسوة إلى الكعبة، ولهذا كان الخلفاء وحكام المسلمين منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم يرسلون إليها الهدايا والأموال سنوياً، ولكنه ظهر بصورته المتطورة والمعهودة منذ بداية العصر المملوكي في عهد الظاهر بيبرس كما سنذكر ان شاء الله، وأصبح تقليداً متبعاً استمر في صورته الى ما بعد العهد المملوكي، وهذا هو مجمل القول في تاريخ المحمل ونشأته.

واللافت للنظر أن المحمل في عهد المماليك أخذ صورة جديدة عما سبق؛ حيث أصبحت تعقد له الاحتفالات والمراسم والحفاوات؛ اهتماماً منهم بتعظيم بيت الله الحرام والحج ركن الاسلام، وايذاناً بأمن الطريق العسكري والغذائي[4].

وكان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري كما أسلفنا هو أول من جهز المحمل في مصر وأداره بهذه الطريقة، واضعاً بذلك مراسم احتفال النداء بالحج، ودوران المحمل إيذاناً بقيام قافلة الحج المتوجهة للأراضي الحجازية، وتقوية لعزيمة الناس بأن يشدوا الهمة للحج، وصار إرسال كسوة الكعبة إلى مكة تقليداً سنوياً اتبعه سلاطين المماليك منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس عام 661هـ/1262م[5].

---

(1) – الهودج: مركب للنساء مقبب وغير مقبب، ويصنع من العصي ثم يجعل فوقه الخشب فيقبب، وفي التوشيح الهودج: محمل له قبة تستر بالثياب يركب فيه النساء. الزبيدي، تاج العروس، ج3، ص515.

(2) – البتتوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية، ص140.

(3) – المقريزي، الذهب المسبوك، ص17، ص40.

(4) – البرزالي، تاريخ المقتفى على الروضتين، ج4، ص230، ص375. المقريزي، السلوك، ج6، ص392، ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج3، ص73، ص194، ص197. القلقشندي، صبح الاعشى، ج4، ص59. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص232، ص300، ص407.

(5) – المقريزي، الذهب المسبوك، ص17، ص40. المقريزي، السلوك ، ج2، ص32. رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين، ج2، ص308.

وقد جرت العادة أن يدور المحمل مرتين في السنة وسط مظاهر الاحتفال والحفاوة في مصر والشام؛ الأولى في النصف الثاني من شهر رجب عند بدء النداء بالحج يحمل وينادى لأصحاب الحوانيت التي في طريق دورانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام، ويكون دورانه في يوم الاثنين أو الخميس لا يتعدّاهما، ويحمل المحمل على جمل وهو في هيئة لطيفة، وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر، وبأعلاه قبّة من فضة مطلية، أما الدورة الثانية فتكون في النصف الثاني من شهر شوال عند بدء قيام ركب الحج متوجهاً إلى الحجاز[1].

ويعتبر يوم دوران المحمل من الأيام المشهودة في القاهرة أو دمشق حيث يركب فيه أهم الشخصيات في المجتمع المملوكي، ومنهم القضاة الأربعة؛ ووكيل بيت المال والمحتسب وأعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة، كما يقوم أصحاب الحوانيت بتزيينها على امتداد الطرق التي يمر منها الركب ويُلعب فيه بالرماح[2]. كما يسير أمام المحمل؛ الأمير المعين للإشراف على سفر ركب الحج إلى الحجاز في تلك السنة وهو أمير الحج، وبصحبته مجموعة من الأعوان القائمين على حراسة الركب وتأمين سلامة الحجاج ومعهم السقاؤون على جمالهم، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل والحداة يحدون أمامهم، فعند ذلك تهيج العزمات وتتبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد ويكون ذلك في كلتا الدورتين في رجب وفي شوال[3].

أما فيما يتعلق بمراسم استقبال المحمل في المدينتين المقدستين فذكر أن من المهام المكلف بها شريف مكة؛ طاعة السلطان، والقيام في خدمة أمير الرّكب، والوصيّة بالحجّاج، والاحتفاظ بهم والخروج لاستقبال المحمل السنوي المصري، وتقبيل خف الجمل على اعتبار أنه

---

[1] – ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج3، ص73، ص194، ص197. القلقشندي، صبح الاعشى، ج4، ص59.

[2] – ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص87.

[3] – ابن بطوطة الرحلة، ج1، ص33. ص156. البرزالي، ج4، ص323، ص336؛ الجزري، حوادث الزمان، ج2، ص391، ص398، ج3، ص765، ص769.

المحمل الرئيسي الذي ترافقه كسوة الكعبة الشريفة[1]، وقد أصبح هذا تنظيماً متبعاً، وهو يحمل دلالة مهمة، هي طاعة شريف مكة للسلطة الحاكمة في مصر.

وكان امتناع شريف مكة عن استقبال المحمل أمراً مرفوضاً لأنه يشكل رفضاً للسيادة المملوكية، ففي عام 817هـ/1414م، امتنع شريف مكة حسن بن عجلان عن ملاقاة المحمل السنوي، ولكن أمير الحج المصري جقمق المؤيدي[2]؛ أصرّ على حضوره لاستقبال المحمل فحضر[3].

وفي سنة 843هـ/1439م، أصدر السلطان المملوكي جقمق أمراً بإعفاء أمير مكة بركات بن حسن بن عجلان من تقبيل خف جمل المحمل، فشكر له ذلك[4].

ولم يكن استقبال المحمل مقصوراً على شريف مكة، بل كان أهالي المدينتين المقدستين يتأهبون لاستقبال المحمل حيث ترسل الهبات والصدقات بصحبته، وكانت العادة أن يكلف شريف مكة والمدينة وينبع بوضع الحراسات في طريق المحمل، لحمايته من هجمات الأعراب وتقديم الأموال والمواشي للأعراب، لحراسة طريق المحمل[5].

وعند وصول المحمل إلى المدينة المنورة يدخل باحتفال كبير، فيترجل كامل الموكب إجلالاً لمقام الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا وصلوا إلى باب السلام (أحد أبواب المسجد النبوي) أتى شيخ المسجد النبوي، وتسلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصفة، وهناك يرفع المحمل ويوضع في مكانه داخل المسجد النبوي عند المنبر النبوي وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء، ويدخلونها الحجرة الشريفة من الباب الشامي

---

(1) – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص281، ج12، ص233، ج13، ص318.

(2) – هو سيف الدين جقمق المؤيدي، من أبناء التركمان، تنقل في الخدمة حتى تقرر دواداراً ثانياً للمؤيد شيخ، ثم تولى نيابة دمشق عام 822هـ/1419م، قتل عام 824هـ/1421، السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص74.

(3) – الفاسي، العقد الثمين، ج4، ص119، وابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص516، وعبد العزيز بن فهد، غاية المرام، ج2، ص299، والجزيري، درر الفوائد، ج1، ص696.

(4) – المقريزي، السلوك، ج7، ص453.

(5) – الجزيري، درر الفوائد، ج2، ص7–ص21.

ويتركونها في جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة رضي الله عنها ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها يوم سفر المحمل إلى مكة[1].

وظل هذا الاهتمام بالمحمل طيلة العصر المملوكي، بدليل أن السلطان المملوكي عماد الدين بن الناصر محمد بن قلاوون "أمر سنة 747هـ/1346م؛ بتجهيز ركب المحمل بأحمال الدقيق والحبوب وعلف الدواب، وبكثير من التجهيزات اللازمة، على الرغم من تردد الأمراء في السفر للحجاز؛ بسبب عام الجدب والغلاء الفاحش وقتها وندرة مياه النيل[2].

وبدليل أنه حتى في وقت انشغال المماليك بمواجهة العثمانيين في آخر عهدهم سنة 922هـ/1516م، لم يتوقف ارسال المحمل وكسوة الكعبة، فأرسل السلطان الطواشي[3] مرهف وصحبته كسوة الكعبة والصرر لأهل مكة والمدينة من طريق البحر[4].

---

[1] – الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج5، ص191.

[2] – المقريزي، السلوك، ج4، ص29.

[3] – هم المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص109.

[4] – ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص115.

المبحث الثاني: تنظيم قيام ركب الحج من مصر والشام وفق مراسيم خاصة، وتعيين أميرٍ للحج، وحفظ الأمن في الطرق وفي مكة والحجاز:

حرص المماليك منذ بداية دولتهم على الاهتمام بركب الحج وذلك على النحو التالي:

أولاً: تنظيم قيام ركب الحج من مصر والشام:

حرص المماليك على تنظيم قافلة الحج وتسييرها كل عام، حيث أن أولى خطواته تتمثل في تعيين أمير ركب الحج، والذي كانت مرتبته في المرتبة الثالثة من مراتب الدولة، والتي كان متوليها في عهد المماليك مرشحاً لأن يكون حاكماً للعاصمة التي هي أهم وظيفة بعد وظيفة الوالي والسلطان، وله كلمته المسموعة، وأمره النافذ في بلاد الحجاز وكان كثيراً ما يصدر أمراً بعزل وتولية أمراء مكة[1].

ثم يبدأ بعد ذلك النداء بالحج ودوران المحمل إيذاناً بقرب خروج الحجاج، ومعلوم أن النداء بالحج سنة مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، حيث كان ينادي بالمدينة المنورة بالحج في أول شهر ذي القعدة من كل عام، ويأمر الناس بالتجهز للحج[2].

وعلى اعتبار أن المسافة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة تستغرق عشرة أيام؛ فقدم النداء بثلاثة أمثالها، وكذلك كان الحال في تحديد الفترة الزمنية التي يستغرقها ركب الحج من مصر والشام إلى الحجاز؛ والتي قدرت بأربعين يوماً، ولذا كان النداء بالحج يتم في أوائل النصف الثاني من شهر رجب؛ سواء في مصر أو الشام[3].

وبعد أن يتم الركب دورانه بالقاهرة أو دمشق، يتجه إلى مكان التجمع انتظاراً لتجمع الحجاج الذي يكون في بركة الحاج بالقرب من القاهرة من جهة الشرق، أو الكسوة أو قبة يلبغا بالقرب من دمشق من جهة الجنوب؛ ومن ثم تبدأ القافلة في المسير إلى الأراضي الحجازية؛

---

[1] – البتنوني، الرحلة الحجازية، ص144.

[2] – ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص170.

[3] – المقريزي، الذهب المسبوك، ص40.

وغالباً ما يتحرك ركب الحج على دفعتين، حيث يسير ركب المحمل ومعه كسوة الكعبة المشرفة؛ ثم يتبعه ركب الحجاج[1]، وعلى كل منهما أمير لقيادة الركب[2].

وكان هناك ركب ثاني يسمى ركب الحجاج الرجبية والذي غالباً ما يخرج من مصر في شهر رجب، ويبقون في مكة ويقومون ببعض المهام كإصلاح العيون وتسهيل الطرق، ويؤدون فريضة الحج ويعودون مع الحجاج[3].

وتسيير ركب الحج وتأمينه على هذه الصورة؛ كان يمثل إحدى مظاهر الاهتمام الديني للمماليك بالحج وتسهيل أدائه، والظهور بمظهر الحماة للدين والحرمين.

ويظهر تنظيم ركب الحج في العصر المملوكي من خلال وصف حجات بعض ملوكهم التي توضح لنا مدى الاهتمام الكبير بالحج والحرمين والحجاج، وحتى أن المرء عندما يقرأ تجهيزاتهم للحج ليتمنى أن يكون مرافقاً لهم.

ومن ذلك حجة الظاهر بيبرس الذي حج من الشام سنة 667هـ/1268م سالكاً الطريق الشامي التبوكي، ورتّب التجهيزات في الطرق فجهز البشماط (الخبز المجفف) والدقيق والروايا والقرب والأشربة والعربان المتوجهين معه والمرتبين في المنازل، وجهز ذلك سراً حفاظاً على أمن الدولة، فلم يشعر به أحد، فسار من الكرك إلى الشوبك في السادس من ذي القعدة، وسبقه المجردون بيومين، ووصل السلطان إلى المدينة النبوية في الخامس والعشرين منه فلم يقابله جماز ولا مالك أميرا المدينة، بل فرّا منه، ورحل منها في السابع والعشرين من ذي القعدة، وأحرم فدخل مكة في خامس ذي الحجة وأعطي خواصه جملة من المال ليفرقوها سراً، وفرق كساوي على أهل الحرمين وصار كواحد من الناس لا يحجبه أحد ولا يحرسه إلا الله وهو منفرد يصلي ويطوف ويسعى، وقام بغسل الكعبة وصار في وسط الخلائق وكل من رمى إليه إحرامه غسله وناوله إياه، وجلس على باب البيت وأخذ بأيدي الناس ليطلعهم إلى البيت فتعلق بعض العامة

---

[1] – السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج1، ص176، ص262، ج2، ص34، ص99.

[2] – ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج3، ص28، ص161.

[3] – المقريزي، السلوك، ج4، ص76، ص121، ص389، ج5، ص432.

بإحرامه ليطلع فقطعه وكاد يرمي السلطان إلى الأرض، وهو مستبشر بجميع ذلك وعلق كسوة البيت بيده وخواصه وتردد إلى من بالحرمين من الصالحين[1].

ومن ذلك حجات السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والتي أظهرته بمظهر الحامي للحرمين ولديار المسلمين، فقد حج ثلاث حجات: إحداها سنة 712هـ/1312م، حيث خرج من الكرك ومعه نحو أربعين أميراً، وستة آلاف مملوك على الهجن، ومائة فارس، وطاف بالكعبة وعليه ثياب إحرام من صوف، وحوله جماعة من الأمراء[2].

والثانية حج سنة عام 719هـ/1319م؛ عندما اهتم السُّلطان بالحركة إلى الحجاز ليحج، فشرع في تجهيز الركب بكل ما يحتاج إليه طوال فترة الحج، حيث جمع سائر أصحاب الحرف المختلفة، وتقدم إِلَى أمراءه لتحضير ما يلزمه وتجهيز الإقامات والمعلوفات والحوائج خاناه وكتب لنائب الشَّام ونائب غزَّة بتجهيز ما يحتاج إِليه، فتوالت تقادم الأمراء والنواب من سائر البلاد الشامية، وأصدر تعليماته بتجهيز ما يحتاج إليه من أكوار[3] الذهب والفضة، وعمل قدور من فضة ونحاس لتحمل على البخاتي ليطبخ فيها، فعمل له مطبخ يطبخ عليه وهو محمول على الظهر، وكان يطبخ فيه، والجمل سائر فلا يصل إلى المنزلة إلا وقد تهيأ الطعام، وحمل له من ماء النيل ماء شربه مدة سفره ومقامه وعوده هو وجماعة ممن معه، وحملت الخراف المسمنة المعلوفة في المحاير على الجمال وهي تعلف وتسقى في طول الطريق في ذهابه ومقامه وعوده، وضحّى منها بمنى[4].

وأحضر الخولة[5]لعمل مباقل ورياحين وخضراوات فِي أحواض من خشب تحمل على الجمال، فتصير مزروعة وتسقى طول الطريق ويحصد منها ما تدعو الحاجة إليه فيها من البقل والكراث والكزبرة والنعناع والريحان وأنواع المشمومات شيء كثير، ورتب لها الخدم لتعهدها

---

(1) – ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص354، ص355. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج30، ص107؛ المقريزي، السلوك، ج2، ص61.

(2) – المقريزي، السلوك، ج2، ص482، الغازي، إفادة الأنام، ج2، ص691.

(3) – الأكوار: جمع كور، وهو الرحل يوضع على ظهر الإبل. انظر: المعجم الوسيط، ج2، ص804.

(4) – النويري، نهاية الأرب، ج32، ص234.

(5) – الخولة: القائمون على خدمة الخيل، أما الخولي فهو القائم على خدمة الحديقة. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص70.

وجهزت الأفران وصناع الكماج والجبن المقلي وغيره[1]، ويؤخذ منها كل يوم ما يحتاج إليه، وأعطى العربان أُجرة الجِمال التي تحمل العليق والشعير والبقسماط[2] والدقيق، وجهز مركبين في البحر إلى ينبع، ومركبين إلى جدة، وكان جملة الشعير المحمول مائة ألف وثلاثين ألف أردباً من الشعير، وجهّز من الشام خمسمائة جمل تحمل الحلوى والسكردانات[3]، والفواكه، وحضرت أيضاً حوائج خانات[4]على مائة وثمانين جمل تحمل حب الرمان واللوز، وما يحتاج إليه في المطبخ، سوى ما حمل من الحوائج خانات بالقاهرة، وجهّز ألف طائر من الأَوِزِّ، وثلاثة آلاف طائر من الدّجاج[5].

وفي يوم السفر تحرك في طريق الحج ومعه الأمراء ونائب الشام تنكز الذي جاء إلى الحجاز الشريف على الخيل والهجن بأكوار الذهب والفضة ومقاود الحرير، بتجمل وعظمة لم يعهد مثلها[6]، ولما قدم مكة أظهر من التواضع والذلة والمسكنة أمراً زائداً، ومنع الحُجَّاب من منع الناس أَن يطوفوا معه، وصاروا يزاحمونه، وهو يزاحمهم كواحد من الناس في نيّة طوافه وفي تقبيل الحجَر، وغسل الكعبة بيده، وأبطل سائر المكوس من الحرمين، وعوَّض أميري مكة والمدينة إقطاعاً بمصر والشام، وأحسن إلى أهل الحرمين وأكثر من الصدقات[7].

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج3، ص17.

[2] – البقسماط: هو خبز جاف هش يتزود به المسافر مثل الكعك، مربع بحجم البرتقالة. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص36.

[3] – السكردانات: جمع سكردان، وهي لفظ فارسي مركب، ومعناه: الوعاء المستعمل لحفظ الحلوى المحفوظة، أو هو الوعاء عامة، هامش السلوك، ج3، ص18.

[4] – الحوائج خاناة: معناها بيت الحوائج، منها يصرف اللحم الراتب (أي المقرر بشكل دائم وثابت) للمطبخ السلطاني والدّور السلطانية ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعمّمين، وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ أسماؤهم الدفاتر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص12.

[5] – المقريزي، السلوك، ج3، ص17، ص18؛ الذهب المسبوك، ص101 –102.

[6] – أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص91.

[7] – النويري، نهاية الأرب، ج32، ص235. المقريزي، السلوك، ج3، ص 18، ص19. الغازي، إفادة الأنام،ج2، ص691.

ثم حج الثالثة سنة 732هـ/1332م، ومعه نحو سبعين أميراً، وشرع أمراؤه في تجهيز الأموال، وطلب العربان لكراء الابل، وإعداد الإقامات من البقسماط والدقيق والشعير وغير ذلك، وتلقاه أشراف مكة والمدينة من ينبع[1]، وعمّ بصدقاته أهل الحرم[2].

ويظهر أيضاً في حجّة السلطان قايتباي من مماليك الجراكسة، سنة 884هـ/1479م، والذي حكم من سنة 872هـ/1467م–سنة902هـ/1497م، والذي طال في الملك لحسن تَدبيره وضبطه للممالك، والذي ترك الكثير من الآثار الجميلة في الحرمين الشريفين، ولم يحجّ من ملوك الشراكسة غيره، فأقام الأمير الكبير يشبك الداوادار نائباً عنه بمصر، وخرج بعد خروج الحاج بثلاثَة أَيَّام وكان أَمير الحاج الخارج بالمحمل الشريف خشقدم فخرج السُّلطان قاصداً للحجِّ والزيارة، ولما وصل إِلى ينبع عدل إِلى المدينة الشَّريفة وزارها وأحسن إِلى أهلها، ووصلت القُصَّاد[3]إِلى شريف مكة يومئذ الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وقاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن ظهيرة الشافعي، فتهيأ هو والشريف محمد بن بركات لملاقاة السلطان[4].

وفي أثناء الطريق علم الشريف محمد بن بركات من القصّاد أن السلطان عدل إلى زيارة النبي[5]، فتوجهوا إلى بدر[6]، وأقاموا بها منتظرين عود السلطان من المدينة الشريفة، وكان دخوله في المدينة المنورة يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة الحرام، وعرضت عليه رفع بعض البدع من المدينة فأمر برفع البدع، وطلبت منه رفع المكوس من المدينة فأمر بإزالتها، وجعل لأمير المدينة في مقابلة ذلك ألف أردب قررها له في كل عام، وفرّق بالمدينة على فقرائها

---

(1) – ينبع هي ميناء على طريق الساحل بها الينابيع الكثيرة, انظر ص118.

(2) – المقريزي، السلوك، ج3، ص157 – 160.

(3) – يفهم من سياق الكلام أن القصاد هم الخيالة المتقدمين لاستكشاف الطريق، وإيصال البريد، ووظيفتهم خدمة المهمات السلطانية. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص163.

(4) – ابن فهد، اتحاف الورى، ج4، ص645– ص649، النهروالي، الإعلام، ص229 – ص237. العصامي، سمط النجوم العوالي، ج4، ص58.

(5) – ابن فهد، اتحاف الورى، ج4، ص645– ص649، النهروالي، الإعلام، ص229 – 231.

(6) – بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، بينه وبين الجار. ويقال: إنه ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة. قال الزبير بن بكار: بدر بن قريش، به سميت بدر التي كانت بها الوقعة المباركة؛ لأنه كان احتفرها، وبهذا الماء كانت الواقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام، وفرق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة، ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص357 – ص358.

وفقهائها وعلمائها نحو ستة آلاف ذهب، وبرز في اليوم الثالث من المدينة الشريفة قاصداً حج بيت الله الحرام[1].

ولما وصل الخبر إلى بدر بخروج السلطان من المدينة الشريفة، تقدم الشريف محمد بن بركات ومن معه من بدر لملاقاة السلطان، فاجتمعوا به في منزلة الصفراء، وتلاقوا على ظهر الخيل وتصافحوا، ومشى الشريف عن يمين السلطان والقاضي برهان الدين بن ظهيرة عن يساره، وصار السلطان يلاطفهم ويسأل عن أحوالهم ويشكر مسعاهم ويطمِّن خواطرهم بالمكالمة، والملاطفة، وألبسهم خلعاً فاخرة وفارقوه من بدر، وتقدموا على السلطان إلى وادي مرّ الظهران، ورتبوا هناك سماطاً[2]حافلاً جميلاً للسلطان ولمن معه، فخلع السلطان قايتباي على الجميع، ومشوا قدامه في موكب عظيم وأبهة عظيمة[3]، ودخل بمكة إلى أن وصل إلى مدرسته، فترجّل الناس له وسلّم عليهم، ودخل إلى مدرسته ومدّ له بها الشريف محمد بن بركات سماطاً جميلاً، واستمر على ذلك يمد له صباحاً وليلاً الأسمطة الجميلة، ومكث السلطان بمدرسته يتصدق بالليل كثيراً، وقرر وظائف مدرسته لأهلها من المدرسين والطلبة، وقراءة صحيح البخاري، وقراءة الرَّبْعَة، وخادمها وخادم المصحف، والفرّاشين والبوّابين والوقّادين وأصحاب الخلاوي ونحو ذلك، وجعل لكل واحد كفايته من القمح والدراهم والزيت، وكتب بذلك وقفية أشهد على نفسه بذلك فيها، وعمل من الخيرات ما لم يُسبق إليه، وسافر السلطان في ظهر يوم السبت لأربع عشر ليلة خلت من ذي الحجة، وركب معه الشريف محمد بن بركات وأولاده وقاضي القضاة إلى الزاهر، ثم ردهم وودعهم وسار إلى مصر[4]. وكانت هذه الحجة ذات دلالة كبيرة على اهتمام سلاطين المماليك بالحج والحرمين.

---

[1] – ابن فهد، اتحاف الورى، ج4، ص645– ص649، النهروالي، الإعلام، ص229 – ص231.

[2] – السماط: هو مَا يمد ليوضع عَلَيْهِ الطَّعَام فِي المآدب وَنَحْوهَا. المعجم الوسيط، ج1، ص449.

[3] – النهروالي، الإعلام، ص229 – 231؛ الغازي، إفادة الأنام، ج2، ص708.

[4] –ابن فهد، اتحاف الورى، ج4، ص645– ص649، ابن اياس، بدائع الزهور، ج، ص160، الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص369 – 370؛ النهروالي، الإعلام، ص229 – 231.

نشأة الطوافة:

ومن الجدير بالذكر أنه في حجة السلطان قايتباي عام 884هـ/1479م، نشأت مهنة الطوافة، وذلك عندما حج السلطان ووصل مكة، فتقدم القاضي برهان الدين إبراهيم بن ظهيرة لتطويفه وتلقينه الأدعية في الطواف والسعي، بحكم عدم تمكنه في اللغة العربية، ولأنه كان يفضل أن يعتمد على من يخدمه ويدله على مشاعر الحج ويتلو أمامه أدعيته[1]. ومنذ تلك الحجة نشأت وتطورت مهنة التطويف والطوافة[2].

وقبل ذلك التاريخ لم يذكر أنه كان بالمسجد الحرام مطوفون يطوّفون حجاج بيت الله الحرام ويتخصصون بهذا العمل، حتى لسلاطين المماليك، فقد حج عدد منهم ومن أمرائهم ولم يكن أحد من العلماء والفقهاء يطوفهم، بل ورد أن بعضهم كان يطوف كواحد من المسلمين لا يحجبه عنهم أحد، كما حج الظاهر بيبرس عام 667هـ/1268م[3]، وكما في حجات السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي حج ثلاث حجات؛ الأولى عام 712هـ/1320م، والثانية عام719هـ/1319م، والثالثة عام 732هـ/1332م[4].

ويعتبر تطويف القاضي بن ظهيرة للسلطان قايتباي بداية لظهور مهنة الطوافة، حيث ورد عام 913هـ/1507م أن الفخري أبا بكر بن إسماعيل بن أبي يزيد المكي، طوّف ناظر الخاص[5]علاء الدين[6]علي عندما جاء معتمراً إلى مكة في منتصف شهر ربيع الثاني[7].

---

(1) – ابن فهد، اتحاف الورى، ج4، ص645– ص649، القطب النهروالي، الإعلام، ص234.

(2) – السباعي، أحمد، تاريخ مكة، ج1، ص383.

(3) – المقريزي، السلوك، ج2، ص61.

(4) – المقريزي، السلوك، ج3، ص159. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص482، ج9، ص105.

(5) – ناظر الخاص: هو الرجل المتولي النظر في أموال السلطان الخاصة. دهمان، محمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص150.

(6) – هو علاء الدين علي بن الإمام، عينته الدولة لحل المنازعات بين رجال الدولة في جدة وللمتابعة قفي تجهيز الجيوش لحرب البرتغاليين في سواحل الهند الغربية. ابن إياس، بدائع الزهور، ج4، ص116.

(7) – ابن فهد، بلوغ القرى، تحقيق عبد الرحمن أبو الخيور، رسالة ماجستير، ج3، ق1، ص309.

وفي عام 917هـ/1511م ورد أن أمير ركب الحج المصري الأول يلباي، عندما ذهب إلى الحجاز بادر الشيخ شهاب الدين الحرازي –من علماء مكة– بمرافقته في طوافه وسعيه وتعليمه الأذكار والمناسك، وفيه أن الشريف علي بن راشد طوّف أمير الحاج طومان باي[1] وسعّاه[2].

وفي عام 920هـ/1514م رافق قضاة وشرفاء مكة الأمير محمد بن السلطان قانصوه الغوري سلطان المماليك في طوافه وسعيه[3]. وفي عام 921هـ/1515م طوّف القاضي صلاح الدين بن ظهيرة –قاضي مكة– الشريف بركات عندما قدم مكة[4].

فمن خلال حجات سلاطين وأمراء المماليك بالحج ظهرت مهنة الطوافة، ثم بعد ذلك تطورت بشكل تدريجي، حتى إتخذ الحجاج لهم مطوفين يلقنونهم الأدعية، ولعل الدافع لذلك عدم التمكن من حفظ الأدعية المطلوبة في مناسك الحج[5].

وبعد ذلك العهد أخذت مهنة الطوافة في التطور فلم تقتصر على أداء المناسك فقط، بل شملت الإقامة والسكن في مكة والمشاعر، وأصبح لها قوانين تنظمها إلى يومنا هذا.

ثانياً: توفير الأمن للحجاج في طرق الحج:

من المعروف أن الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة تحفها المخاطر، وذلك لأن هذه الطرق تمر بمناطق صحراوية مقفرة يندر فيها الماء، وتسكنها قبائل بدوية تضعف لديها الناحية الدينية بحكم حياتها غير المستقرة، وبحكم انتشار الجهل بين أفرادها، وصعوبة عيشها، واشتداد حاجتهم إلى الطعام والمال، فتتخذ هذه القبائل من الغارات على قوافل الحجاج القادمة إلى مكة

---

[1] – هو طومان باي آخر ملوك الجراكسة تولى الملك بعد مقتل قانصوة الغوري في مرج دابق مع العثمانين وقاوم طومان باي السلطان سليم وحاربه في موقعة الريدانية فهزم وهرب إلى الصعيد، وعاد بجيش جهزه في الصعيد، فقاتل السلطان العثماني، في قرية (وردان) بقرب الجيزة، فأخفق واختفى، فدل عليه بعض الناس فاعتقل، وأمر به السلطان سليم فاقتيد إلى باب زويلة وأعدم شنقا عام923هـ/1517م، وكثر أسف الناس عليه، وكان محمود السيرة في سياسته مع الرعية، أبطل كثيرا من المظالم. ومدة سلطنته ثلاثة أشهر و 14 يوما. وبمقتله دخلت مصر في حكم الدولة العثمانية. الزركلي، الأعلام، ج3، ص234.

[2] – ابن فهد، بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى، تحقيق عبد الرحمن أبو الخيور، ج3، ق2، ص529.

[3] – ابن فهد، غاية المرام، ج3، ص299–ص300. ابن فهد، بلوغ القرى، ج2، ص665.

[4] – ابن فهد، غاية المرام، ج3، ص321–ص323.

[5] – السباعي، تاريخ مكة، ج1، ص383.

والمدينة وسيلة للرزق، وقد ترتكب بعض هذه القبائل أفعالاً شنيعة بالحجاج من قتل وسلب، مما يسبب انقطاع الحج لعدة سنوات.

وسنستعرض بعض الأمثلة لما كان يتعرض له الحجاج في الفصل الخامس عند الحديث عن اعتداءات العربان على قوافل الحجاج، ولكن ما يعنينا هنا هو كيف حرص المماليك على حماية قوافل الحجاج وتوفير الأمن لهم، فنقول إن حكومات المماليك قامت بأعمال جليلة لتيسير الطرق وحماية الحجيج منها:

أولاً: أوكلت السلطة المملوكية حراسة الطرق إلى عدد من القبائل القاطنين على الطريق مقابل مبالغ من الأموال والقماش والخلع لشيوخهم وأكابرهم عادة جارية لا تنقطع في كل سنة[1].

ثانياً: تسليح قوافل الحجاج، فكانت القوافل التي تخرج من مصر أو الشام يكون بصحبتها حامية عسكرية تحت قيادة أمير الحج، والذي حرص المماليك على إرساله كل عام؛ وقد يزاد عددها في أوقات اضطراب الأمن، وتسير معهم في أول ووسط ومؤخرة القافلة، مما يساعد في حفظ الأمن في طرق القوافل وفي الحجاز وفي مكة نفسها[2].

ثالثاً: دفع مبالغ من المال لبعض القبائل اتقاء شرها في عدم قطع الطريق، ومن ذلك ما قامت به حكومة المماليك من دفع مبلغ من المال لقبيلة زبيد القاطنة بالقرب من رابغ[3]، ويدفعها لهم أمير الحاج المصري أو الشامي كل عام مقابل عدم التعرض للحجاج[4].

رابعاً: التعاون بين سلطة الدولة المملوكية وأمير مكة على حفظ الأمن ومتابعة القبائل التي تهاجم قوافل الحجاج ومعاقبتها، ومن ذلك خروج أمير مكة السيد محمد بن بركات لمهاجمة قبيلة

---

[1] – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج2، ص103؛ العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص338؛ ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص265.

[2] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص338، ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص176. الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج1، ص290.

[3] – زبيد: بطن من بني مسروح الذين يملكون ثغر رابغ وقسماً كبيراً من الأرض التي منها درب الحجاج؛ عمر كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج2، ص465. ورابغ: موضع بين المدينة ومكة قريب من الجحفة وهو واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة، وهو مكان الإحرام لأهل مصر والشام. البكري، معجم ما استعجم، ج2، ص625؛ ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص11.

[4] – ابن فهد، إتحاف الورى، ج4، ص616.

حرب سنة 866هـ/1462م عندما هاجمت قوافل الحجاج وردّه لبعض ما أخذ من الحجاج إليهم[1]. وكذلك خروجه لقتال قبائل هذيل[2] عندما هاجمت حاج بجيلة، حيث استصرخ عليهم القبائل حتى أجبرهم على طلب الصلح خوفاً من جنود دولة المماليك[3]. ومن ذلك أيضاً معاقبة الأمير المملوكي سلار[4] لقبيلة بني سالم عندما نهبوا قافلة الحجاج، حيث قبض على خمسين فرداً منهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بعد أن استفتى العلماء فيهم[5].

خامساً: تجريد الحملات العسكرية على المعتدين، ومن ذلك تجريد حملة عسكرية على قبيلة بلي[6] سنة 843هـ/1439م، الذين هاجموا حجاج الركب الغزاوي في موسم حج عام 841هـ/1437م، وأدت هذه الحملة إلى قتل عدد من أفراد القبيلة، وأسر أربعين منهم نقلوا إلى القاهرة، فقتلوا جميعاً حداً[7]. ومنه أيضاً تجريد نائب الشام حملات عسكرية سنة907هـ/ 1501م على قبائل بني لام وبني صخر ضد الأعراب المعتدين على الحجاج فألحق بهم أضراراً فادحة من القتل والنهب، بحيث أنه أفقرهم، وقتلوا منهم خلقاً، ونهبوا منهم شيئاً كثيراً، نساءً وأولاداً وجمالاً وغنماً غير ذلك[8].

---

[1] – ابن فهد، إتحاف الورى، ج4، ص616.

[2] – هُذَيْل: من قبائل الحجاز المهمة، وتنقسم الى قسمين: شمالي وجنوبي. وتقع ديار هذيل الشمالي في أطراف مكة، من جهة الشرق والجنوب، وبالأخص في أطراف مكة والطائف بقرب جبل برد، وجبل ذكا المشهور. وأما القسم الثاني فيدعى هذيل اليمن ويسكنون فيه. كحالة، عمر، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج3، ص1213.

[3] – ابن فهد، غاية المرام، ج2، ص542–ص544.

[4] – هو الأمير سيف الدين التستري الصالحي المنصوري، كان من مماليك علاء الدين علي بن المنصور قلاوون ثم بعد وفاته اتصل بخدمة الأشرف، وعندما حكم الناصر محمد بن قلاوون أصبح من كبار الأمراء وولي نيابة السلطة عندما توجه الناصر إلى الكرك، وبعد تولي الناصر وعودته من الكرك اعتقله وقتله سنة 710هـ/1310م. الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص319؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج1، ص314.

[5] – المقريزي، السلوك، ج2، ص .378.

[6] – بلي: قبيلة عظيمة من قضاعة، من القحطانية، تنتسب إلى بلي ابن عمرو بن الحافي بن قضاعة، تقع مساكنها بين المدينة ووادي القرى، ومن ديار بلي: أمج، وغران، وهما واديان يأخذان من حرة بني سليم، وينتهيان في البحر، ولبلىّ دار بشغب، وبدا وتيماء والمدينة والجزال، الرحبة، والسقيا، هجشان، مدين، فران، خبين، الهدم، وذات السلاسل. عمر كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج1، ص105.

[7] – السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص247.

[8] – ابن طولون،، مفاكهة الخلان، ص183، ص198، ص199. اعلام الورى، ص212.

ثالثاً: بسط السلطة على الحجاز وكسب أشراف مكة، وتوفير الأمن فيها، والتخلص مما يعيق الحج:

وكما أن دولة المماليك حافظت على أمن وأمان طرق الحج، فقد حافظت أيضاً على الأمن في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، لينعم الحجاج به ويأمنوا على أنفسهم وأموالهم، ويؤدوا مناسك الحج بكل هدوء وطمأنينة.

ومن أجل ذلك شملوا أهل مكة والمدينة بالرعاية والحماية والعناية، وضمنوا لهم الأمن والاستقرار، ولهذا نجدهم كثيرا ما يتدخلون لتثبيت الاوضاع وتهدئتها في الحرمين الشريفين، عن طريق إرسال قوة من الجند لهذا الغرض ولفض النزاعات التي تحصل بين الولاة على الإمارة، والتي تتسبب في نشر الفوضى والفتن التي لا يسلم منها حتى المجاورين والعلماء، وقد ظهر ذلك في الأمثلة الآتية:

عندما حج الملك الظاهر بيبرس سنة667هـ/1268م، فدخل مكة ثامن ذي الحجة على تجريدة خيل (أي فرقة عسكرية) وقد صعد الناس إلى عرفات، ولم يبق غير الشريف أبي نمي، فلما بلغه وصوله خرج وتلقاه، ودخل به من باب السلام، وقصد به الطواف، وخرج به إلى المسعى، ثم صعدا إلى عرفات وحجّا[1].

ثم إن السلطان أمره بالعدل وترك المكس، وعوّضه بمالٍ عما كان يأخذه من الحج؛ لأنه كان له على كل جمل يماني ثلاثون درهماً، ومن الحاج المصري كل جمل خمسون درهماً، فأزال بيبرس ذلك المكس، وصالح بينه وبين الشريف إدريس وأشركه معه، وتصدق السلطان على أهل الحرم وأكرمهم، وعلق كسوة البيت بيده، وغسل الكعبة بماء الورد، وسأل عن المزارات، وعن الصالحين وزارهم ببيوتهم، ثم توجّه إلى المدينة فرأى الناس ملتصقين بالقبر النبوي الشريف، فقاسَ ما حوله بيده، وأرسل في العام الذي يليه درابزاناً خشباً حول القبر الشريف، وكان للسلطان بيبرس صدقات كثيرة للحرمين الشريفين، تقدر كل سنة بعشرة آلاف أردب[2] قمح[3].

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج2، ص61.

[2] – الأردب: مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً. المعجم الوسيط، ج1، ص13. أي ما يقارب60 كجم.

[3] – ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص356. المقريزي، السلوك، ج2، ص61، ص185.

وورد أن حكام الدولة المملوكية يطلبون من الشريف الذي تعينه حاكماً لمكة؛ أن يؤدي قسماً، يتضمن الاهتمام بالحجاج وتسهيل حجهم بكل ما يحتاجونه.

ومن ذلك تحليف السلطان سيف الدين قلاوون للشريف أبي نمي أمير مكة بأن يسهل للحجاج والمعتمرين أداء الشعائر وأن يهتم بأمنهم[1].

ومن ذلك عندما حدث نزاع بين الاميرين حميضة ورميثة سنة 713هـ/1313م، فسارع السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإرسال قوة عسكرية إلى مكة، وعزلهما وولى بدلاً منهما أخيهما أبي الغيث[2].

وكذلك في سنة 718/ 1318م، عندما طلب المجاورون من السلطان الناصر أن يحميهم من الفوضى الحاصلة من تنازع الامراء على الامارة، فسارع الى تلبية طلبهم، وأرسل قوة عسكرية من ثلاثمئة فارس للمرابطة في مكة للمحافظة على الامن بها، ومنعوا العبيد من حمل السلاح بمكة ، وأخرجوا المفسدين، ونادوا بالعدل[3].

ومن صور حرص المماليك واهتمامهم بالحرمين ما جاء في تعيين الشريف رميثة بن أبي نمي سنة 731هـ/1331م، حيث تضمن قوله: "فلذلك رسم بالأمر الشّريف أن تفوّض إليه إمرة مكّة المشرّفة، على عادة والده، فليتقلّد ما فوّضناه إليه من الإمرة والنيابة بمكة المعظّمة، شاكراً ما أنعم الله به عليه من مراضينا التي لا نجاة لمن لم ينل منها نصيبا موفوراً، ولا فوز لمن لم يدرك منها حظّا كبيراً، وليشرع في تمهيد البلاد من إزالة المظلمة، وليطهّرها من كلّ مجتريء على الله تعالى في البقعة المحرّمة، ولا يقرّب من في قلبه مرض فيعديه، ولا يرجع لمن فيه شقاق ظاهر في صفحات وجهه وفلتات فيه، وليعلم أن هذا بلد حرام حرّمه الله يوم خلق السّموات والأرض، وصيّر حجّ بيته على مستطيعه من الفرض، وجعله للنّاس معادا ومعاذا، وقال صلّى الله عليه وسلّم يوم عرفة: «إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»، فليمنع الدّماء من أن تراق، والأموال من أن تؤخذ بغير استحقاق؛ والظّلم في البلد الحرام حرام، وبنو حسن أحقّ باتباع سنّة الإسلام؛ واتّق الله لتلقاه بالوجه الأبيض والعمل

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج2، ص 157.

[2] – المقريزي، السلوك، ج2، ص488. ابن فهد، اتحاف الورى، ج3، ص138.

[3] – ابن فهد، اتحاف الورى، ج3، ص159.

الأغرّ، واتّبع سنّة جدّك؛ فعلى اتّباعها حثّ وأمر، والق وفد الله في البرّ والبحر بالحسنى فهم أضيافه، وأمّن الحجّ ليتمّ نسكه وطوافه"[1].

ففي هذا النص عدة دلالات من ظهور سيطرة المماليك على الحرمين، والأمر بالوصية بأمن الحجاج وإكرامهم، وإقامة العدل ورفع الظلم، والوصية باتباع السنة والشريعة.

ولحفظ الأمن في مكة؛ كانت الدولة المملوكية ترسل سنوياً قوة عسكرية ترابط في مكة المكرمة قدرها50 جندياً تحت قيادة أحد الأمراء لحفظ الأمن في مكة، وكان لإرسال هذه القوة هدفان: أولهما حفظ الأمن العام في مكة، والثاني حسم التنازع الذي يقع بين أفراد أسر حكام مكة، حيث يقع بينهم كثير من النزاع على السلطة، مما يؤدي إلى انتشار الفوضى وانعدام الأمن، وكانت هذه القوة ترسل باستمرار[2].

ولحفظ الأمن أيضاً أقامت الدولة المملوكية الحدود الشرعية على اللصوص وقطاع الطرق ومن ذلك ما حكاه بن بطوطة في رحلته، أنه جيء لأمير الحاج بلص سرق الحجاج وأفسد في مكة، وذلك عام 729هـ/1329م، فأقام عليه الحد وقطع يده؛ تنفيذاً للشريعة الحنيفة فيمن يتعرض للحجاج بالسرقة والنهب[3].

ولحفظ الأمن أيضاً كان أمراء المماليك يتشددون في منع حمل السلاح في مكة المكرمة في موسم الحج ، لكونه حرماً آمناً، ولكون حمل السلاح يؤدي إلى حدوث المناوشات والفتن[4].

وللتسهيل على الحجاج حرص سلاطين المماليك على إلغاء ما يفرض على الحجاج من مكوس وضرائب، حيث كانوا يطلبون إلغاءها بشكل مستمر بل خصصوا مبالغ مالية سنوية لحاكم مكة وأقطعوهم الإقطاعات الزراعية بمصر والشام، مقابل إلغاء الضرائب والمكوس عن

---

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص 231. محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية، ص264.

[2] – المقريزي، السلوك، ج2، ص 488، ج7، ص111، ج7، ص178. ابن فهد، اتحاف الورى، ج4، ص50، ص233؛ السخاوي، التبر المسبوك، ص43.

[3] – ابن بطوطة، الرحلة،، ص115.

[4] – ابن فهد، اتحاف الورى، ج3، ص516.

الحجاج والتجار، حتى يسهلوا للحجاج أداء نسكهم، وكتبت المراسيم بذلك في أساطين المسجد الحرام[1].

ومن ذلك ما خصصه السلطان الظاهر بيبرس حيث حدد مبلغ 20ألف درهم سنوياً لحاكم مكة[2]، ومطالبة أبي نمي بالتخفيف حتَّى صار يؤخذ من حَاج مصر مبلغ ثلاثين درهماً على كل جمل بدلاً من خمسين كما أسلفنا[3]. وكل ذلك للتسهيل على الحجاج لأداء مناسكهم والحفاظ على أمنهم.

وفي سنة 766هـ/1364م، أسقط السلطان الأشرف شعبان بن حسين المكس المأخوذ على جميع المأكولات بمكة، وخصص 1600ألف درهم سنوياً، وألف إردب من القمح سنوياً مقابل إلغاء المكوس عن الحجاج، ونقر ذلك على دعائم المسجد الحرام بالقرب من الصفا[4].

ومثال ذلك أن السلطان برقوق بعث بخلعة[5] لعلي بن عجلان سنة 794هـ/1392م، وأمره بالعدل والاحسان إلى الرعية في مكة عندما بلغه أن علياً تعرض لأخذ شيء من المجاورين بمكة، فقرئ الكتاب بالمسجد الحرام بعد لبسه الخلعة، وكان الذي حمله على أخذه من المجاورين؛ فقده لما كان يعهد من النفع بميناء جدة، ومطالبة بني حسن له بالعطاء[6].

ومما يذكر للمماليك في التسهيل على الحجاج أن السلطان المملوكي المؤيد شيخ المحمودي الذي حكم دولة المماليك من 815هـ-824هـ/1412-1421م، قام برفع المظالم عن الحجَّاج، عندما نظر الملك المُؤَيد شيخاً من أَعلَى قلعة الجبل في القاهرة فشاهد خياماً مضروبة بالريدانية خارج القاهرة فسأَل عنها، فَقيل له إن العادة أَن ينصب نَاظر الخاص[7] عند قدوم الحاج خياماً هنَاك ليجلس فيها مباشرو الخاص وأعوانه، حتّى يأخذوا مكس ما مع الحجاج من البضائع،

---

(1) – ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص356؛ المقريزي، السلوك، ج5، ص55.

(2) – ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص 93.

(3) – المقريزي، السلوك، ج2، ص185.

(4) – الفاسي، العقد الثمين، ج1، ص196،ج5، ص11. السنجاري، منائح الكرم، ج2، ص375.

(5) – الخلعة: ما يلبس من الثياب، ويقال خلع عليه خلعة: أي أعطاه أو ألبسه إياها. مجمع، المعجم الوسيط، ج1، ص259.

(6) – الفاسي، العقد الثمين، ج6، ص213. العز بن فهد، غاية المرام، ج2، ص235.

(7) – ناظر الخاص: هو الرجل المتولي النظر في أموال السلطان الخاصة. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص150.

فقال: والله إنّه لقبيح أَن يعامل الحاج عند قدومه بهذا، واستدعى بعض أعيان الخاصكية وأمره أَن يركب حتى يأتي تلك الخيام ويهدمها على رءوس من فيها ويضربهم حتى يحملوها وينصرفوا ففعل ذلك، ولم يتعرّض للحجاج أحد[1].

وفي سنة 835هـ/1431م منع السلطان حجاج الرجبية من الذهاب إلى مكة خوفاً عليهم من قطاع الطرق، وحرصاً على سلامتهم[2].

ومما تقدم يتبين لنا مدى اهتمام المماليك بالحج، وتعهدهم وحمايتهم للحجاج ولأهل الحرمين طيلة فترة حكمهم، وقاموا جهدهم برفع الظلم عن حجاج بيت الله الحرام.

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج7، ص129.

[2] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص450.

المبحث الثالث

القيام بعمل الإصلاحات في الحرمين والأعطيات لأهله، وتقديم التسهيلات للحجاج على امتداد الطريق في الأراضي الحجازية:

التسهيلات للحجاج على امتداد الطريق إلى الأراضي الحجازية:

تيسيراً على الحجاج في طريقهم إلى الحجاز، لم يدخر المماليك وسعاً في القيام بالإصلاحات التي تسهل على جموع المسلمين تأدية فريضة الحج في يسر وأمان؛ فحرصوا على ارسال مجموعة ضخمة من الموظفين لخدمة القافلة وأميرها[1]، وعلى توفير إمدادات الغذاء والماء المرافقة لقوافل الحجاج أينما حلوا، في ذهابهم وفي عودتهم، وجرت العادة ان ترسل من القاهرة أو دمشق قافلة من الشعير والبشماط والزاد لإغاثة الحجاج في طريق عودتهم[2].

ومن الأمثلة في هذا المقام ما قام به أمير الحج الشامي بدر الدين الصوابي[3] سنة 681هـ/1282م، عندما دفع من ماله ما كانت تطلبه العربان من الحجاج مقابل المرور ببلادهم[4].

ومن ذلك **أن** السلطان برقوق كان كثير الصَّدقَات على الحجاج، وأوقف نَاحية بهبيت من الجيزة، سحابة تسير مع الركب إِلَى مكة في كل عام ومعها جمال تحمل المشاة من الحاج ويصرف لهم ما يحتاجون إِليه من الماء والزاد ذهابا وإياباً، وكان يفرق في كل سنة ثمانية آلَاف

---

(1) – انظر: الفصل الرابع، المبحث الثالث.

(2) – ابن رشيد، الرحلة، ج5، ص279–281، المقريزي، السلوك، ج3، ص24، ج5، ص59. ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص491. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص199، ص222–223، ص234.

(3) – هو الخادم الأمير الكبير بدر الدّين بدر الحبشي، كان أميرا على مائة فارس بدمشق، وأقام في الإمرة نحوا من أربعين سنة. وكان خيّرا، ديّنا، معمرا، موصوفا بالشجاعة والعقل والرأي، توفي سنة 698هـ/1298م، وحمل إلى قاسيون فدفن بتربته، وهو أول من أبطل ما كان يجبى من الحجّاج في كل سنة لأجل العربان، وهو على كل جمل عشرة دراهم، أقام ذلك من ماله، وأبطل الجباية، وذلك سنة إحدى وثمانين، فبطل ذلك إلى الآن. ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج7، ص770.

(4)– اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج5، ص220؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، ج1، ص447.

أردب قمحاً على أهل الخير وأرباب السّتر، ويبعث في كل سنة إلى الحجاز ثَلَاثَة آلَاف أردب قمحاً تفرق بالحرمين[1].

ومن ذلك ما فعله الزيني عبد الباسط ناظر الجيش[2]، وناظر أوقاف[3] كسوة الكعبة عندما حج سنة826هـ/1422م، ومعه الكسوة؛ أنه كانت له سحابة للفقراء الحجاج تنصب لهم في الطريق ليستظلوا تحتها، ويحملهم على جمال في شقادف أعدها لهم، وكان يسقيهم الماء العذب، كلما احتاجوا اليه، ويطعمهم الخبز الطري والبقسماط، وكان يطبخ لهم في المناهل ويذبح الغنم في الذهاب من مصر الى مكة وفى مدة الاقامة بها والعودة منها الى مصر، مع الاحسان اليهم والى غيرهم، وقام بإصلاح كثيرٍ من دروب الحجاج في الحجاز[4]. وكل ذلك من أجل تسهيل أداء الفريضة.

وحرص المماليك أيضاً على تسهيل وتذليل عقبات الطريق، فمن ذلك ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة 732هـ/1332م، من تكليف الأمير أيمتشى (أحد أمراء السلطان)، بالتوجه إلى عقبة أيلة– ملتقى حجاج الشام ومصر والسودان وبلاد المغرب والأندلس–وبصحبته مائة رجل من الحجارين لتوسيعها وإزالة وعرها وتسهيل صعودها على الحجاج، وتيسير السير فيها[5].

وحرصوا أيضاً على توفير المياه على امتداد الطريق إلى الحجاز؛ والعمل على حفر الآبار والبرك وبناء خزانات الماء في منازل طرق الحج وصيانتها وجعلها صالحة لخدمة المسلمين، خاصة تلك التي كانت تصادف ركب الحج في أماكن ومحطات استراحة الحجاج للتزود منها بما يلزمهم من الماء العذب.

ومن الأماكن المهمة التي حظيت بالعناية لتوفير المياه؛ منزلة نخل، وعقبة أيله التي يستريح الركب بها يومين أو ثلاثة، وتقام بها الأسواق، وعيون القصب التي يأخذ فيها الحجاج

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج5، ص446.

[2] – ناظر الجيش: هو الذي يتحدث في أمر الجيوش وضبطها. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص150.

[3] – ناظر الأوقاف أي مديرها والمشرف عليها. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص95.

[4] – السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج4، ص26؛ النهروالي، الاعلام، ص214. الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج3، ص560.

[5] – المقريزي، السلوك، ج2، ص353.

قسط من الراحة بعد مسيرة خمس أيام حيث يتوافر بها ماء جار عذب، والوجه حيث يتوقف الركب للتزود منها بمائها العذب الطيب بعد مسيرة خمسة أيام أخرى، والحوراء بعد مسيرة ثلاثة أيام، والتي فيها يتلقى أهل ينبع ركب الحاج بالتمر، وكذلك بدر ورابغ وخليص، وهذا في الطريق الساحلية[1].

أما في الطريق الشامية فمن الأماكن المهمة التي حظيت بالعناية لتوفير الماء فيها المزيريب والأزرق والكرك والحسا، وهي أماكن يتوفر فيها الماء طبيعياً لا يحتاج إلى إعداد ولكن يحتاج إلى رعاية وإصلاح، أما المواضع التي تحتاج إلى إعداد للماء لتزود الحجاج فهي معان وذات حج وتبوك ووادي الأخيضر وهدية، فهذه وجدت رعاية كبيرة، وحظيت الآبار والبرك الموجودة في هذه الأماكن بالاهتمام والصيانة من سلاطين المماليك، حرصاً منهم على توفير الماء والأزواد للحجاج[2]. وورد أن الشيخ عمرو بن جامع السلامي قدم إلى دمشق بعد أن عمّر عين تبوك وأصلحها وصانها من نزول الإبل فيها وتسهيل أمرها للحجاج بمساعدة نائب الشام تنكز[3]، ويذكر ابن كثير أنه في سنة 731هـ/1331م، مر بعين تبوك وهو في طريقه إلى الحج، وأن المماليك أصلحوها في هذه السنة، وصينت من دوس الجمال والجمالين، وصار ماؤها في غاية الحسن والصفاء والطيب[4].

وفي سنة745هـ/1344م خرج ركب الحاج من مصر صحبة أمير من أمراء المماليك يدعى فَارس الدّين ومعه عدد من مماليك الأمراء، وحملوا معهم الأموال لعمارة عين جوبا بمكَّة، ودفعوا مبلغ عشرة أُلَّاف درهم للعرب بسبب العين المذكورة، ورسم أَن تكون مقررة لهم في كل سنة[5].

---

[1] – العبدري، الرحلة، ص340-345.

[2] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص445.

[3] – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج2، ص465.

[4] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص177.

[5] – المقريزي، السلوك، ج3، ص425.

وفي سنة 827هـ/1424م، وصل إلى الحجاز الأمير كزل العجمي –من أمراء المماليك–، والذي عمّر وأصلح مناهل وبرك وآبار بدرب الحجاز[1].

كما حرص المماليك على إصلاح آبار المياه الواقعة بين مصر والشام من جانب، ومكة المكرمة من جانب آخر، ففي سنة 834هـ/1431م أرسل الأشرف برسباي الأمير شاهين الطويل إلى طريق الحجاز الشريف ومعه كثير من الناس والفعلة والحجارين والآلات والزواد والأمتعة في نحو مئة بعير لإصلاح المياه التي بين مكة والقاهرة، وحفر الآبار في الأماكن المعطشة، وحفر بئرين في مكان يقال له زاعم وقبقاب، وأمر أيضاً القاضي عبد الباسط بحفر بئر في عيون القصب من طريق الحجاز فعم النفع بها، وعاد على الحجاج بالنفع الكثير نتيجة لحفر تلك الآبار[2].

وفي سنة 835هـ/1431م عمّر أحد التجار الدمشقيين وهو سراج الدين بن المزلق الدمشقي عين حنين المعروفة بعين بازان، فأجراها في شهر رمضان ودخلت مكة ووصلت لبركة الماجن بأسفلها، فعم بها النفع لشدة احتياج الناس إليها لقلة الماء بمكة، وكان مصروفه عليها خمس مئة دينار فقط وذلك لحسن وعظم نيته، فإن بعض الناس قالوا له لا تعمرها فإنها تستهلك منك أموالاً كثيرة ولا ينتفع بها، فلم يلتفت إليهم وقال أصرف عليها جميع ما معي من المال، فأعانه الله عليها وأجراها[3].

وكَانَ السلطان قانصوه الغوري الذي تولى السلطنة في سنة 906هـ/1500م محباً للعمارة، فأكثر من بناء المساجد، وله آثَار جميلة في طريق الحاج وفي عقبة أيلة، ومآثر بمكَّة المشرفة وغيرها[4].

ومن ذلك الاهتمام بالأسواق على طول الطريق للتزود بالطعام والراحلة، لإمدادهم بالمؤن وما يحتاجون إليه؛ فقد حرص المماليك على الاهتمام بالأسواق على طول الطريق من الشام ومصر إلى الحجاز؛ وكانت هذه الأسواق تعتبر بمثابة أماكن لتجمع واستراحة الحجاج،

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص445.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص448، ص449.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص450.

[4] – النهروالي، الاعلام، ص240. العصامي، سمط النجوم العوالي، ج4، ص61.

وفي نفس الوقت إمدادهم بما يلزمهم من المؤن والزاد، وفي ذلك ما يحقق النفع والفائدة للمسلمين، وكان أول هذه الأسواق يقع في مكان تجمع الحجاج في الكسوة أو بركة الحبش، حيث يستكملون منه جهازهم وما يلزمهم[1]، كما وجد في عقبة أيلة سوق كبير عامر بالطعام وما يلزم الحجاج في سفرهم، خاصة وأن ركب الحج الشامي الجنوبي ينضم إلى ركب الحج المصري في هذه المدينة، ومن ثم كان التجار يذهبون مبكرين إليها، وبصحبتهم مختلف أنواع التجارات اللازمة للحجاج[2]، هذا فضلاً عن أسواق المزيريب، ومعان وتبوك والحوراء وينبع، ورابغ، والأسواق الرئيسية التي كانت توجد في مكة والمدينة وعرفة ومنى والتي تزداد ازدهاراً في موسم الحج[3].

الإصلاحات بالحرم المكي والحرم النبوي؛ وتخصيص الأوقاف للإنفاق على القائمين بهما:

حظي بيت الله الحرام بمكة المكرمة –مقصد الحجاج وقبلة المسلمين بجانب كبير من اهتمام سلاطين المماليك، حيث بذلوا له الرعاية التامة وحرصوا أشد الحرص على صيانته كلما أصابه ضرر من الحريق أو السيول[4].

واعتبر سلاطين المماليك ما يقومون به من إصلاحات لبيت الله الحرام واجباً مقدّساً؛ ولذا بذلوا ما في وسعهم لراحة الحجاج والاهتمام بالكعبة المشرفة، وظهر ذلك جلياً عندما حج الملك الظاهر بيبرس سنة 667هـ/1268م، وفي حجته هذه قام بتعليق كسوة البيت بيده، وفتحت له الكعبة وقام بغسلها بماء الورد وطيبها بيده، ثم وقف بباب الكعبة وتناول أيدي الناس ليدخلوها وهو بينهم، وقد تكرر ذلك عدة مرات في حجات السلاطين طوال العصر المملوكي[5].

وذكر ابن بطوطة أن السلطان المملوكي يبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة[6].

---

[1] – العبدري، الرحلة، ص330.

[2] – المصدر نفسه، ص339– ص340.

[3] – للاستزادة انظر الفصل السابع عند الحديث عن آثار الحج الشامي الاقتصادية، المبحث الأول.

[4] – ابن العماد، شذرات،ج7، ص13.

[5] – المقريزي، السلوك، ج2، ص61.

[6] – الرحلة، ص78.

وحتى في الأوقات التي يصعب فيها خروج ركب رسمي من الشام أو مصر فإنهم حرصوا سنوياً من الشام ومصر على إرسال الزيت الذي يضيء القناديل في الحرمين الشريفين في مكة والمدينة[1].

وفي سنة 733هـ/ 1333م، قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بعمل باب من خشب السنط الأحمر وصفحه بفضَّة زنتها خمسة وثلاثون ألف درهم وثلاثمائة درهم، ومضى به الأمِير سيف الدّين برسبغا الساقي _ أحد أمراء السلطان– إلى مكَّة فقلع باب الكعبة العتيق وركب هذا الباب على باب الكعبة المشرفة وأخذ بنو شيبة الباب العتيق وكان من خشب الساسم المصفح بالفضَّة فوجدوا عليه ستين رطلا من فضَّة تقاسموها[2].

ومن خيرات السلطان فرج تعميره المسجد الحرام من الحريق الواقع به ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال سنة802هـ/1399م، وسببه ظهور نار من رباط[3] رامشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد في الجانب الغربي منه، ورامشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية (للعلم والعبادة والمبيت) في سنة 529هـ/1134م، فوشت النار من سراج تركه في الخلوة فاحترق ما في الخلوة وعلق الحريق من شباك الخلوة إلى سقف المسجد فاشتعل سقف المسجد وعجزوا عن إطفائه لارتفاع السقف فاحترقت الأروقة من ابتداء الحريق إلى باب العجلة فأرسل السلطان فرج الأمير بيسق[4] سنة 803هـ/1400م إلى مكة وكان هو أمير الحاج المصري فعمر المسجد الحرام في مدة يسيرة، وأبدل من الأعمدة الرخام المحترقة أعمدة من الحجر الصوان المنحوت، وأحضر إليه الأخشاب من مصر والشام، وشكر الناس للأمير بيسق صنيعه وهمته، وكملت العمارة في أواخر شعبان سنة 804هـ/1401م، ومن جملة خيراته أنه لما رأى رباط رامشت وما آل إليه بعد الحريق من

---

(1) – البرزالي، تاريخ، ج3، ص442.

(2) – المقريزي، السلوك، ج3، ص169.

(3) – الرباط: هو موضع المرابطة وملجأ الفقراء من الصوفية. مجمع، المعجم الوسيط، ج1، ص 323.

(4) – بيسق الشيخي هو أمير اخور الظَّاهِرِيّ برقوق، وَله آثَار بِمَكَّة كعمارة الرواق الغربي لِلْمَسْجِدِ الْحَرَام. وانقلب عليه النَّاصِر فنَفَاهُ إِلَى بِلَاد الرّوم وَقدم فِي الدولة المؤيدية فَلم يقبل الْمُؤَيد عَلَيْهِ ثمَّ نَفَاهُ إِلَى الْقُدس، ثم مَاتَ بها بطالا فِي جُمَادَى الْآخِرَة سنة إِحْدَى وَعشْرين. السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج3، ص22.

الخراب حتى صار سباطة بذلك المحل أمر بإعادته رباطاً كما كان وصرف عليه من ماله إلى أن عاد أحسن مما كان[1].

وتيسيراً على الحجاج بالأراضي الحجازية، أصدر السلطان الأشرف برسباي الدقماقي مرسوماً سنة 830هـ/1427م، قرئ في مكة المكرمة، بمنع الباعة من بسط البضائع أيام المواسم في المسجد الحرام، ومن ضرب الناس الخيام بالمسجد على مصاطبه وأمامها ومن تحويل المنبر من مكانه إلى جانب الكعبة لأنه عند جره على عجلاته يزعج الطائفين حول الكعبة إذا أسند إليها فأمر أن يترك مكانه مسامتاً لمقام إبراهيم عليه السلام ويخطب الخطيب عليه هناك وأن تسد أبواب المسجد بعد انقضاء الموسم إلا أربعة أبواب من كل جهة باب واحد وأن تسد الأبواب الشارعة من البيوت إلى سطح المسجد، وذلك حرصاً منه على راحة وسلامة حجاج بيت الله الحرام[2].

وفي سنة 843هـ/1439م تقرر أن الفتاوي الذي تقدم ذكرها بسبب أخذ العشور من التجار بجدة قرئت بالمسجد الحرام على رؤوس الأشهاد، وقرىء مرسوم سلطاني أيضاً بألا يؤخذ من التجار الواردين في البحر إلى جدة سوى العشر فقط ويؤخذ صنفاً لا مالاً من كل عشرة واحد، وأن يبطل ما كان يؤخذ سوى العشر من رسوم المباشرين ونحوهم فكان هذا من جميل ما فعل، ورسم أيضاً بأن يمنع الباعة من المصريين الذين سكنوا مكة وجلسوا بالحوانيت في المسعى وحكروا المعايش وتلقوا الجلب من ذلك وأن يخرجوا من مكة فشكر له ذلك؛ لأن هؤلاء البائعين كثر ضررهم وإستقووا بحماية المماليك لهم فغلوا الأسعار وأحدثوا بمكة ما لم يعهد بها وعجز الحكام عن منعهم لتقوية المماليك المجردين لهم بما يأخذونه منهم من المال[3].

وَمن الاصلاحات المهمة ما حدث في عهد السلطان قايتباي حيث أنه فِي أول ولايته أرسل إلى شريف مكة بالمراسيم والخلع وهو الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان وإلى قاضي

---

[1] – النهروالي، الإعلام، ص194–ص196، العصامي، سمط النجوم العوالي، ج4، ص42، ص112.

[2] – المقريزي، السلوك، ج7، ص158، ص159.

[3] – المصدر نفسه، ج7، ص453.

القضاة إبراهيم بن علي بن ظهيرة تقليداً لقضاء مكة ومراسيم تتضمن الأمر بإبطال جميع المكوسات والمظالم وأن ينقر ذلك على أسطوانة من أساطين الحرم الشريف في باب السلام[1].

واجتهد في أيام سلطنته في بناء المشاعر العظام، وعمارة مسجد الخيف بمنى، ومسجد نمرة بعرفة، وقبة عرفة، والعلمين اللذين تميزت بهما عرفة، وسلالم المشعر الحرام بالمزدلفة، وبركة خليص، وذلك في سنة 874هـ/1469م ثم في السنة التي تليها عمّر عين عرفة بعد انقطاعها وكان الحجاج قبله يقاسون في يوم عرفة من قلة الماء، وعمّر أيضاً سقاية العباس، وأصلح بئر زمزم والمقام وعلو مصلى الحنفي، وجهز في سنة 879هـ/1474م إلى المسجد الحرام منبراً عظيماً، وعين للكعبة المشرفة كسوة كل سنة، وأنشأ بجانب المسجد الحرام عند باب السلام مدرسة بجانبها رباطاً للفقراء، يفرّق عليهم طعام الدشيشة[2] كل يوم[3].

وأنشأ بالمدينة المنورة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مدرسة، وبنى المسجد الشريف النبوي بعد الحريق وجدّده، وجدّد المنبر والحجرة، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم، ورتب لأهل المدينة المقيمين والواردين ما يكفيهم من البر والدشيشة، وجعل ببيت المقدس مدرسة، ورتب لكل واحد من الأيتام وأهل الخلاوي ما يكفيهم من القمح كل سنة وللمدرسين وقراء الربعة وأهل الخدم مبالغ من الذهب تصرف لهم كل سنة وبنى عدة ربوع ودور تغل في كل عام نحوا من ألفي دينار ووقف عليهم بمصر قرى وضياعاً كثيرة تغل حبوباً كثيرة تحمل كل عام إلى أهالي مكة وعمل من الخيرات العظيمة ما لم يعمله سلطان قبله، وقد صارت المدرسة سكنا لأمراء الحج إذا وصلوا مكة أيام الموسم، وكان كثير الخير فانياً في الصدقات، معظماً لأهل العلم والدين[4].

---

[1] – النهروالي، الإعلام، ص224–225، العصامي، سمط النجوم العوالي، ج4، ص54.

[2] – الدشيشة: طعام رقيق يصنع من القمح المدقوق، المعجم الوسيط ج1، ص284.

[3] – الطبري، على عبد القادر، الأرج المسكي في التاريخ المكي، ص280. وهو من علماء مكة في القرن الحادي عشر الهجري، وتوفي سنة1070هـ. انظر: المصدر نفسه، ص1.

[4] – النهروالي، الإعلام، ص229، العصامي، سمط النجوم العوالي، ج4، ص55. الطبري، الأرج المسكي، ص280.

وفي سنة 882هـ/1477م أَمر السلطان وكيله وتاجره الخوجا شمس الدّين محمَّد بن عمر الشهير بابن الزَّمن وشاد عمائره الأمير سنقر الجمالي[1] أَن يحصلا له موضعاً مشرفاً على الحرم المكي الشريف ليبني فيه مدرسة ليدرس فيها على المذاهب الأَربعة ورباطاً يسكنه الفقَراء ويعمل له ربوعاً ومسقفات يحصل منها ريع كبير يصرف منه على المدرسين وعلى القراء، وجعل فيه اثنتين وسبعين خلوة ومجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام وعلى المسعى وصير المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملون والسقف المذهب وقرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة وأَربعين طَالبا وأرسل خزانَة كتب وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها الْمدرسَة المذكورة[2].

كما حظيت المدينة المنورة ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بجانب كبير من اهتمام سلاطين المماليك، فعندما احترق المسجد النبوي في ليلة الجمعة مستهل شهر رمضان سنة 654هـ/1256م – من مسرجة القيم– وذهبت سائر سقوفه وبعض عمده، واحترق سقف الحجرة الشريفة، حرص السلطان الظاهر بيبرس على عمارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، فجهز في رمضان سنة 661هـ/1262م صنَّاعاً وأَخشاباً وآلاتٍ كثيرة لعمارة مسجد رسول اللَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بعد حريقه، فطيف بتلك الأخشاب والآلات بمصر فرحة وتعظيماً لشأنها، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية[3].

وأرسل لذلك الغرض الأمير جمال الدين محسن الصَّالحي –نائب دار العدل–وسير معه مبلغ عشرة آلاف درهم لعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما سيرت الغلال

---

[1] – يقول السخاوي: هو سنقر الجمالي ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم الزين أبو السعادات، ترقى حتى عمل الشادية على عمائر السلطان بمكة والمدينة بل وأضيفت له الحسبة بمكة وغيرها ودام مدة مع عقل وأدب وتودد ومداراة بحيث أكثر من التردد إلي بمكة وغيرها، وكان حبيب العلماء والصالحين ونسيب الأجلاء المعتمدين الفائق بتدبره وتعقله والرائق بتوده وتوسله من ندب في الأيام الأشرفية لخدمة الحرمين وانتصب لما تقربه العين، وسمعت من يقول من أعيان مكة أنه لم يقم عندنا تركي مثله. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج3، ص273.

[2] – النهروالي، الإعلام، ص226–228، العصامي، سمط النجوم العوالي، ج4، ص55.

[3] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص276.

والجرايات للصناع، وفرغ من عمل الإصلاحات اللازمة في أربع سنوات، وأرسل الشمع والبخور والزَّيت والطّيب[1].

وفي سنة 686هـ/ 1287م، أمطرت المدينة النبوية في ليلة الرابع من المحرم مطراً غزيراً، فوكفت منه سقوف المسجد النبوي والحجرة الشريفة وتأثر بنيان المسجد من ذلك، وخربت السيول البيوت والمزارع والنخيل وعيون المدينة، فكُتب بذلك إلى السلطان، فسارع السلطان سيف الدين قلاوون لنجدة أهل المدينة المنورة، وقام بعمل الإصلاحات اللازمة للمسجد النبوي الشريف، وأرسل الكسوة اللازمة للحجرة الشريفة والمنبر والروضة[2].

ومن أعظم ما وقع في أيام السلطان قايتباي للمسجد النبوي من الأمور المهولة؛ هو الحريق الذي شب في منتصف رمضان سنة 886هـ/1481م، فأرسل السلطان الأمير شمس الدين بن الزمن، وبصحبته أكثر من مائتي جمل ومائة حمار وأزيد من ثلاثمائة من الصناع، وغيرهم من الحمالين والمبيضين والسباكين والجباسين، وأمدهم بالإمدادات المتواصلة براً وبحراً، واستقبلوا أمر العمارة بجد واجتهاد، فعمّره رحمه الله أحسن عمارة وبنى المقصورة وأدار عليها الشبك الحديد جميعها، وعمّر السلطان المذكور بالمدينة أيضاً الكثير من المدارس والأربطة، وأوقف كتباً على طلبة العلم الشريف فأرسل مصاحف كثيرة وكتباً لخزانة المسجد الشريف عوضاً عما احترق[3].

ومن مظاهر الاهتمام بالحرمين والحجاز؛ نشر وازدهار الثقافة الإسلامية بالأراضي الحجازية، وبناء المدارس، وتشجيع العلماء، وتخصيص أموال الأوقاف المختلفة، وما يتحصل منها للإنفاق على القائمين بأمور الثقافة الإسلامية والعلوم الدينية ؛ فضلاً عن توفير الكتب بوجه عام مما كان له أثره البارز في ازدهار الحياة الثقافية بالأراضي الحجازية بعلومها المختلفة، وبصفة خاصة القرآن الكريم؛ كتابة وتلاوة وقراءة وحفظاً، وعلوم التاريخ والفقه؛ فضلاً عن التشجيع الدائب للعلماء مما ساعد على ازدهار العلوم الدينية بالأراضي الحجازية؛ وصارت مكة

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج2، ص9.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص199، ص 200.

[3] – السمهودي، وفاء الوفاء، ج2، ص179. النهروالي، الإعلام، ص229.

المكرمة والمدينة والمنورة من أهم المراكز لنشر الثقافة الإسلامية؛ وتزخر كتب الرحالة والمجاورين بأسماء العلماء الذين قاموا على بث العلوم الدينية من الأراضي الحجازية[1].

الاعطيات لأهالي الحرمين والحجاج والمجاورين والفقراء:

لم يكن اهتمام سلاطين المماليك بالأراضي الحجازية مقصوراً فقط على القيام بالإصلاحات اللازمة لتأمين الحج وراحة المسلمين، بل شمل أيضاً الإنفاق بسخاء على أهل الحرمين بمكة المكرمة والمدينة المنورة والمجاورين فيهما وعلى الحجاج عامة؛ فعندما قام السلطان الظاهر بيبرس بالحج سنة 667هـ/1278م؛ زار المدينة المنورة وأحسن إلى أهلها ونظر في أحوالها؛ كما تصدق على المجاورين بمكة المكرمة[2].

وكذلك السلطان قلاوون في حجاته الثلاث كما رأينا، وكذلك السلطان قايتباي الذي تصدق بمال كثير في مكة أثناء حجته، كما رأينا في خبر حجته، وكذلك قانصوه الغوري الذي له أعمال جليلة وكثيرة في مكة والمدينة وفي طرق الحج[3].

وعندما قام الأمير سلار[4] (كافل السلطان الناصر محمد بن قلاوون) بالحج سنة 703هـ/1303م؛ فعل في الحجاز أفعالاً جميلة منها أنه كتب أسماء المجاورين بمكة وأوفى عنهم جميع ما كان عليهم من الديون لأربابها وأعطى لكل منهم بعد وفاء دينه مئونة سنة ووصلت مراكبه إلى جدة سالمة ففرق ما فيها على سائر أهل مكة جليلهم وحقيرهم وكتب سائر الفقراء وجميع الأشراف وحمل إليهم الدنانير والدراهم والغلة بقدر كفاية كل منهم سنة فلم تبق بمكة امرأة ولا رجل ولا صغير ولا كبير ولا غني ولا فقير عبد أو حر شريف أو غير شريف إلا

---

[1] – ابن رشيد، الرحلة، ج5، ص ؛ النهروالي، الإعلام، ص225–ص229، الجابري، خالد محسن، الحياة العلمية في الحجاز في العصر المملوكي، ص111–136. التهامي، الاصلاحات المملوكية، ص91.

[2] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص296.

[3] – النهروالي، الاعلام، ص240. العصامي، سمط النجوم العوالي، ج4، ص61.

[4] – سلار بن عبد الله المنصوري، الأمير سيف الدين، نائب السلطنة بديار مصر؛ كان أميراً جليلاً، مهاباً شجاعاً، مقداماً، وكان فيه كرم وحشمة، ورئاسة، قيل: إنه حج مرة ففرق في أهل الحرمين أموالاً كثيرة، وغلالاً وثياباً. تخرج عن الوصف، حتى أنه لم يدع بالحرمين فقيراً، وبعد هذا مات وأكبر شهوته رغيف خبز. وكان في شونته من الغلال ما يزيد عن أربعمائة ألف أردب. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص8.

وعمه ذلك، ثم استدعى الزيلع[1] وفرق فيهم الذهب والفضة والغلال والسكر والحلوى حتى عم سائرهم وبعث مباشريه إلى جدة ففعلوا فيها كما فعل هو بمكة، وحمل ما بقي إلى المدينة النبوية فما بلغ وادي بني سالم وجد العرب قد أخذوا عدة جمال من الحجاج فتبعهم واخذ منهم خمسين رجلا، فأفتاه الفقهاء بأنهم محاربون فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وعم أهل المدينة بالعطايا كما عم أهل مكة فكان الناس بالحرمين يقولون: يا سلار! كفاك الله هم النار ولم يسمع عن أحد فعل من الخير كما فعل، وذلك لكثرة ما فعله من الخير بالأراضي الحجازية[2].

وفي سنة 721هـ/1321م، توجه الأمير سيف الدين بكتمر الجوكان دار، أمين جاندار من أمراء المماليك؛ إلى الحجاز الشريف؛ وتصدق بصدقات عظيمة، فيقال إنه أنفق في هذه السفرة خمسة وثمانين ألف دينار عيناً[3].

وفيها أيضاً سافر إلى مكة الأمير المملوكي الفخر ناظر الجيش إلى الحجاز، وكان قد سافر إلى مكة في مدة اثني عشر يوماً، وأكثر من أعمال الخير فتصدق في الحرمين باثني عشر ألف دينار[4].

وكذلك ما قام به الأمير المملوكي بشتاك عندما ذهب إلى الحج سنة 739هـ/1338م، فإنه لمّا قدم مكَّة؛ فرَّق الأموال على المجاورين بمكة المكرمة والأشراف وغيرهم من أهل مكة، ولم يبق أحد بمكة حتى أسدي إليه معروفاً، وأنفق في الحج أموالاً عظيمة، وكان صحبته على ما بلغنا ستمائة راوية، وكان جملة ما فرق من الأموال ثلاثين ألف دينار وأربعمائة ألف درهم؛ سوى مَا وصل إِليه فِي المراكب من الغلال، وعندما توجه إلى المدينة المنورة بعد قضاء نسكه؛ فعل بها خيراً كثيراً أيضاً، ومضى منها على طريق الحج الشامي التبوكي إلى الكرك ، فتَلقاه

---

[1] – أرض الزيلع: وهي تجاور الحبشة من الشمال إلى الجنوب من جهة الساحل، وهم أمم عظيمة والغالب عليهم الإسلام والصلاح والانقياد إلى الخير، ويطلق اسمها على ساحل بلاد الحبشة ويتصل ببربر وطول هذا البحر ألف وخمسمائة ميل وعرضه من أربعمائة ميل إلى ما دونها، ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص140؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص33.

[2] – المقريزي، السلوك، ج2، ص378.

[3] – النويري، نهاية الأرب، ج31، ص273.

[4] – المقريزي، السلوك، ج3، ص35.

الأَمِير شطى بن عبيَّة أَمير عرب آل عقبة في أربعمائَة فارس من عربه وأضافه، ثمَّ رافقوه إلى العقبة وودعوه هناك، وذهب إلى القاهرة[1].

وفي سنة 787هـ/1385م، حمل الأمير جركس الخليلي[2] قمحاً كثيراً إلى مكة والمدينة ليعمل منه في كل يوم بمكة خمسمائة رغيف، وبالمدينة في كل يوم خمسمائة رغيف تفرق على المحتاجين ونحوهم من الفقراء، وألا يقرر منها لأحد راتباً بل يأخذ من حضر، ولا يراعي أحد في التفرقة فعمّ النفع بها، ولم يبق بالحرمين من يسأل من جوع[3].

وفي سنة847هـ/1443م حج ناظر الاسكندرية السيد حسن، وفعل في مكة معروفاً كثيراً من التصدق بالذهب والقمح والدقيق والحلوى على الفقراء والمنقطعين بالحرم[4].

وختاماً في هذا الفصل يتضح مما تقدم أن سلاطين المماليك كانوا يرعون الحج حق رعايته، ويهتمون به أيّما اهتمام ويعدونه اجتماعاً سياسياً كبيراً، بالإضافة لمكانته الدينية، فاهتموا بكسوة الكعبة وارسال المحمل، وشمل اهتمامهم تنظيم ركب الحج وتأمينه، وتسهيل الطرق وتعمير الحرمين الشريفين وإكرام أهلهما، والحفاظ على تيسير أداء الحج وإزالة عقباته ومخاطره

---

(1) – أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص131. المقريزي، السلوك، ج3، ص263.

(2) – جاركس الخليلي791هـ –؟ – 1381م، جاركس بن عبد الله الخليل اليلبغاوي، أمير آخور الملك الظاهر برقوق وعظيم دولته. أصله من مماليك الأتابك يلبغا العمري، وتأمر جاركس الخليلي بعد أن قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، واستمر على ذلك إلى أن وثب برقوق على الأمر، وصار هو مدبر مملكة الملك المنصور علي بن الأشرف، وتدرج في الإمرة حتى أصبح أميراً آخورا كبيراً، ولما تسلطن برقوق بقي لجاركس كلمة نافذة في الدولة، وعمر الأملاك الكثيرة، منها: خانه بالقاهرة المعروف خان الخليلي، وندبه السلطان لقتال منطاش مع عسكر هائل، مع مجموعة من الأمراء المقدمين، وخرجوا من القاهرة في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الأول سنة أحدى وتسعين وسبعمائة، وكانت الوقعة بين الفريقين في يوم الإثنين حادي عشرين شهر ربيع الآخر، فقتل الأمير جاركس الخليلى في المعركة بالبرزة خارج دمشق في يوم الإثنين المذكور سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وحزن عليه الملك الظاهر. وكان رجلاً حسن الشكالة مهيبا، ذا همة واجتهاد، وعزيمة صادقة، وحسن اعتماد، وكان صاحب خير كثير سراً وجهراً، وكان رتب في كل يوم خميس بغلين من الخبز يدور بها أحد مماليكه في القاهرة ويفرقه على الفقراء والمساكين، وكل سنة كان يبعث في الحرمين الشريفين قمحاً كثيراً للصدقات، وكان يحب جمع المال، ويتاجر في سائر البضائع في سائر البلاد. ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج4، ص207.

(3) – المقريزي، السلوك، ج5، ص178.

(4) – المصدر نفسه، ج5، ص178.

بشتى الوسائل، وربما يعد العصر المملوكي من أكثر العصور التي تركت آثاراً واضحة على الحج والأراضي الحجازية خاصة؛ والعالم الإسلامي عامة.

وبعد بيان هذه الاهتمامات من المماليك بالحج والحرمين نشرع في بيان طرق الحج من بلاد الشام، وطرق الأمصار الأخرى في عهد المماليك، وهو ما سنقرأه في صفحات الفصل الثالث.

الفصل الثالث

طرق الحج الشامي وطرق الأمصار الأخرى

المبحث الأول: طريق ركب الحاج الشامي التبوكي "دمشق – تبوك – المدينة"

المبحث الثاني: طريق الحج الشامي الغزاوي " غزة – العقبة – ساحل البحر الأحمر – مكة.

المبحث الثالث: طريق الحج المصري والعراقي واليمني.

الفصل الثالث

طرق الحج الشامي وطرق الأمصار الأخرى

تمهيد:

الموقع الجغرافي لبلاد الشام:

تعد بلاد الشام من البلاد المباركة وموقعها متوسط بين البلدان، فهي تقع شمال الحجاز، فيحدها من الغرب البحر الأبيض المتوسط وحد مصر، ومن الشرق البادية من السماوة الى الفرات ثمّ من الفرات الى حدّ الروم، ويحده من الجنوب ومن جهة القبلة بر الحجاز وأيله، ومن الشمال بلاد الروم والثغور[1]، وتنقسم بلاد الشام إلى خمس أجناد وكور، وهى جند فلسطين وجند الأردنّ وجند حمص وجند دمشق وجند قنّسرين والعواصم والثغور الشمالية[2]. وبلاد الحجاز التي تضم مكة والمدينة تقع جنوب بلاد الشام، وبين مكة والشام مسافة 840 ميلاً تقريباً[3].

ومن هذا الوصف في كتب البلدان يتضح أن بلاد الشام تضم ما يعرف اليوم بفلسطين والأردن ولبنان وسوريا وجنوب تركيا وغرب العراق.

وجاء في وصف أرض الشام أنها أرض كثيرة الخيرات، جسيمة البركات ذي بساتين وجنات وغياض وروضات وفرج ومنتزهات وفواكه مختلفة رخيصة، وبها اللحوم الكثيرة، وأنها كثيرة الأمطار والثلوج[4].

---

[1] – الثغور: هى مدن وقرى بين الشام وبلاد الروم، وبصفة عامة هي المناطق الحدودية مثل ملطية والحدث ومرعش والهارونيّة والكنيسة وعين زربة والمصّيصة وأضنة وطرسوس والّذى يلى الشرقىّ والغربىّ مدن كثيرة جمعت الثغور الى الشام، وبعض الثغور تعرف بثغور الشام وبعضها تعرف بثغور الجزيرة وكلاهما من الشام، وذلك انّ كلّ ما وراء الفرات من الشام وانّما سمّى من ملطية الى مرعش ثغور الجزيرة لانّ اهل الجزيرة بها يرابطون وبها يغزون لا لأنها من الجزيرة؛ الاصطخري، المسالك والممالك، ص55، ص56. العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص225.

[2] – الاصطخري، المسالك والممالك، ص55، ص56.

[3] – العمري؛ بن فضل الله، مسالك الأبصار، ج2، ص305.

[4] – بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص97.

الطرق إلى مكة:

ارتبطت مكة التي شرفها الله ببيته الحرام منذ القدم بطرق مواصلات من مختلف أنحاء العالم، وسلكها الحجاج وصولاً الى غايتهم المنشودة، وتلبية لدعوة ابراهيم عليه السلام عندما أمره الله تعالى أن يؤذن في الناس بالحج، فيأتوه من كل فج عميق.

وكانت قوافل الحجاج المتجهة إلى مكة تصلها في العصر المملوكي عامة من أربع جهات مشهورة هي طريق الحج الشامي (بقسميه الداخلي والساحلي كما سيمر معنا)، وطريق الحج المصري، وطريق الحج العراقي، وطريق الحج اليمني[1].

وقد تناول المؤرخون هذه الطرق في مؤلفاتهم، فقد وصفها أبو اسحق الحربي المتوفي في القرن الثالث الهجري، في سنة 285هـ تقريباً [2]؛ في كتابه "المناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة"، وركز على توضيح طريق الحج العراقي.

ووصفها بن فضل الله العمري المتوفي سنة 749هـ/1349م في كتابه "مسالك الأبصار إلى ممالك الأمصار"، الجزء الثاني والذي فصّلها خير تفصيل، وأخذ عنه الجزيري المتوفي سنة 975هـ في وصفه لطرق الحج في كتابه "الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة"، وأضاف عليها بعض المدن والمحطات الجديدة على الطريق.

وكذلك وصف بعضها الرحالة ابن جبير وابن رشيد وابن بطوطة في رحلاتهم إلى الحجاز في القرون السادس والسابع والثامن الهجرية، وقد اعتمدنا على وصف بن فضل الله العمري وابن رشيد وابن بطوطة والجزيري؛ المعاصرين للعهد المملوكي، لأنه قد تكون هناك مدن وقرى اندثرت أو أنشئت بعد عهد أبو اسحق الحربي في القرن الثالث الهجري.

ولأن عنوان دراستنا هو الحج الشامي فإننا نجعل هذا الفصل في تمهيد وثلاثة مباحث كالآتي:

---

[1] – العمري؛ بن فضل الله، مسالك الأبصار، ج2، ص338.

[2] – الحربي، المناسك وطرق الحج، ص254.

المبحث الأول: طريق ركب الحاج الشامي التبوكي "دمشق– تبوك– المدينة".

المبحث الثاني: طريق الحج الشامي الغزاوي " غزة– العقبة– ساحل البحر الأحمر–مكة.

المبحث الثالث: طريق الحج المصري والعراقي واليمني، لإعطاء صورة للقارئ الكريم عن طرق الحج الآتية من الأمصار الأخرى.

ومن المفيد قبل الخوض في تفصيل هذه المباحث، أن نشير إلى أن قريشاً في جزيرة العرب، ومنذ القدم قد اعتادت التنقل والترحال من مكة وإليها عبر طرق ومسالك متعددة وفي أوقات مختلفة، ولعل من أشهر رحلاتها رحلتا الشتاء والصيف والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ(1) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4)[1].

والمقصود في هذه السورة برحلة الشتاء التجارة الى اليمن، وبرحلة الصيف التجارة إلى الشَّام[2].

وقد كانت القوافل تصل من الحجاز الى الشام من خلال طريقين:

الأول: الطريق الداخلي المسمى بالطريق التبوكية؛ وتخرج فيه القافلة من مكة فالمدينة فالعلا فتبوك ثم الى معان ثم بصرى الشام فدمشق، وقد سلكه الجيش الاسلامي بقيادة يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة عند فتوح الشام[3].

الثاني: طريق ساحل البحر الأحمر (بحر القلزم) المسمى بطريق المُعْرِقَةُ؛ وتخرج فيه القافلة من مكة سالكة ساحل البحر الأحمر الى عقبة أيله ثم إلى غزة فساحل فلسطين، وتسمى بطريق المعرقة، وقد سلكه الجيش الاسلامي بقيادة عمرو بن العاص عند فتح الشام[4]. وكما يقول ياقوت هي الطريق التي كانت قريش تسلكها إذا أرادت الشام وهي طريق تأخذ على ساحل البحر

---

[1] – القرآن الكريم، سورة قريش.

[2] – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص466.

[3] – البلاذري، فتوح البلدان، ص112.

[4] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج2، ص331، ص332. آمنة جلال؛ طرق الحج ومرافقه، ص94.

وفيها سلكت عير قريش حتى كانت وقعة بدر، وإياها أراد عمر بقوله لسلمان: أين تأخذ إذا صدرت على المعرقة أم على المدينة[1]؟

وسيأتي الحديث عنه بعد قليل.

ومن المعروف أن جد النبي صلى الله عليه وسلم هاشماً توفي في غزة عندما كان يمارس التجارة ودفن فيها[2].

ومن خلال المصادر كما سيمر معنا يتضح أن حجاج الشام كانوا يسلكون طريقين أثناء ذهابهم وإيابهم الى الحجاز؛ الطريق الاول من دمشق الى الحجاز ويسمى الطريق التبوكي، يسير فيه الحجاج من دمشق ثم إلى معان ثم تبوك ثم إلى العلا ثم إلى المدينة[3]. ثم يحرمون من ميقاتها ذي الحليفة لأن المار من المدينة يحرم من ميقاتها كما ذكرنا عند الكلام على مواقيت الحج

والطريق الثاني من جنوب الشام (فلسطين ومدن الساحل)، ويسمى الطريق الغزاوي أو درب غزة، حيث يخرج الحجاج من مدن الشام الجنوبية ويتجمعون في غزة ثم يتجهون الى العقبة ثم يسلكون ساحل البحر الأحمر مع حجاج مصر، وقد كان هذا الطريق معروفاً قديماً للتجارة والقوافل، وقد وقّت النبي صلى الله عليه وسلم الجحفة أو "رابغ" لأهل الشام ومصر وجعلها مكان إحرامهم، وهذا دليل على أن هذه الطريق كان يسلكها أهل الشام منذ الجاهلية، وقد مر هذان الطريقان بفترة حرجة إبّان الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، حيث سيطروا على المدن الهامة في بلاد الشام مثل دمشق والقدس وغزة وعقبة أيلة وأنشأوا فيها قلاع صليبية، منعت الحجيج من السفر إلى الحجاز، بل ووصل الأمر إلى أن أحد قادة الصليبيين وهو أرناط قاد حملة إلى الحجاز عبر البحر الأحمر، وقام بتهديد مكة والمدينة وأنه سيمنع الحجاج من الحج، بل واعتدى على قوافل الحجاج وصادر عدة مراكب لهم[4].

---

[1] – ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص155.

[2] – ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص88. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص40.

[3] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص340–ص345.

[4] – المقريزي، السلوك، ج1، ص185، ص190.

وهناك بعض الطرق الفرعية الأخرى التي قد تستعمل في بعض الأوقات مثل الطريق على صرخد "السويداء" على تيماء إلى المدينة النبوية، وهي أقصر من التبوكية، وكانت تستخدم طريقاً للحجاج قديماً، وقد تستخدم في أوقات الضرورة أو حين توفر الماء فيها، وهي أقرب بنحو ستة أيام، وقد يستخدم الحجاج السالكين للطريق الساحلي جزءاً من الطريق الداخلي وخاصة عند إرادتهم زيارة المدينة المنورة، سواء في طريق الذهاب أو الإياب، أو يحدث العكس بأن يستخدم الحجاج السالكين الطريق الداخلي جزءاً من الطريق الساحلي، وذلك في منطقة وادي القرى شمال المدينة الشريفة، ولولا وجود التعرجات الكثيرة، والمسافات الزائدة عن سواء الطريق، واضطرارهم للمرور من مواضع الماء وزيارة المدينة الشريفة، لقُطعت المسافة بين دمشق ومكة في اثنين وعشرين يوماً بدلاً من اثنين وأربعين يوماً[1].

والآن بعد هذا التمهيد نشرع في تفصيل مباحث هذا الفصل.

[1] – العمري، مسالك الأبصار ج2، ص301، الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص45.

المبحث الأول: طريق الحج الشامي التبوكي:

كان هذا الطريق مستخدماً منذ القدم، وكانت قريش تستخدمه في رحلتها التجارية إلى الشام، وقد سلكه النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان يتاجر مع عمه أبو طالب، وفي مال خديجة وسافر منه إلى الشام[1]، وفي العهد الأموي وجد العناية من الأمويين، وكذلك في العصر العباسي، وقد تعطل في عهد الحروب الصليبية، ثم عاد إلى الشهرة في عهد المماليك، حيث كانت قافلة الحج الشامي تخرج سنوياً من دمشق وتسير فيه إلى مكة[2].

وصف طريق الحج الشامي التبوكي:

كانت دمشق الشام مكاناً يجتمع فيه حجاج من بلاد الترك والقوقاز وبخارى والقرم، وبلاد الشمال الاسلامي وجزائر البحر الأبيض[3]، وينطلق منها ركب الحج الشامي فيشق قرى الشام إلى أن يقطع عرض البلقاء حتى يخرج إلى البر في التوجه، وهكذا يشقها في العود حتى يدخل دمشق[4].

فأمّا في التوجه؛ فإن ركب الحج الشامي يخرج من دمشق، ثم ينزل في مكان يدعى الكسوة[5]، والتي تتميز بنهر جار ومرج أفيح، فيقيم بها يوماً أو يومين، ثم يرحل من الكسوة إلى قرية تعرف بالصنمين عظيمة فينزل فيها[6]، ثم يرحل فينزل على زرع ويقيم عليها يومين، وهي بلدة صغيرة من بلاد حوران[7]، ويكون قد أخذ الركب من دمشق إلى زرع في ثلاث مراحل[8]، ثم

---

(1) – ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص115، ص119. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص83.

(2) – آمنة جلال، طرق الحج ومرافقه، ص94، ص95.

(3) – البرزالي، تاريخ، ج4، ص117. ابن كثير، ج14، ص121؛ ابن حجي، تاريخ، ص727؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج7، ص223؛ البصروي، تاريخ، ص105؛ السباعي، أحمد، تاريخ مكة، ج1، ص251.

(4) – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. الجزيري: درر الفرائد، ج2، ص58 – ص59.

(5) – الكسوة: قرية من قرى ركب الحاج الشامي ينزل الركب بها ليتجمع باقي ركبان الحج فيها. ياقوت، معجم البلدان، ح3، ص461.

(6) – الصنمين: قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران بينها وبين دمشق ستة فراسخ ياقوت: المعجم، ح3، ص321؛ الحربي: المناسك، ص653. ابن بطوطة، الرحلة، دار الشرق العربي، ج1، ص83.

(7) – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص83.

(8) – المرحلة: المسافة يقطعها السائر في نحو يوم أو ما بين المنزلين، وجمعها مراحل. مجمع، المعجم الوسيط، ج1، ص335.

يرحل إلى بصرى[1] ويأخذها في ثلاث مراحل، ويقيم بها ثلاثة أو أربعة أيام ومن عادة الركب أن يقيم بها أربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه ويتزود الحاج منها، وإلى بُصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة في تجارة خديجة، وبها مبرك ناقته قد بنى عليه مسجد عظيم، ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها[2].

ثم يرحل إلى الزرقاء[3]، فيأخذ إليها في مرحلتين ويقيم بها يوماً أو يومين[4]، ثم يرحل ركب الحج الشامي ويواصل سيره إلى زيزا[5]مسافة مرحلتين ويقيم بها ثلاثة أو أربعة أيام[6]. ثم يرحلون إلى اللجون وبها الماء الجاري[7]. واللجون هي قرية كبيرة تقع قرب الكرك، وهي منزلة الحجاج[8].

ثم يرحل إلى الكرك[9] في خمس مراحل فيقيم بها ثلاثة أو أربعة أيام في مكان يعرف بالثنية، والكرك من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها، ويسمى بحصن الغراب والوادي يطيف به من جميع جهاته[10]، ثم يرحل إلى الحسا[11] بمسيرة مرحلتين وهو أول ماء يعد لأن جميع ما قبله قرى عامرة، ذوات ماء وأسواق وجلابة، فيرد ماءه[12].

---

(1) – بصري: تقع في كورة حوران وهي من محطات ركب الحاج الشامي نزل فيها الجيش الإسلامي حينما قدم خالد بن الوليد مداداً لجيش الشام وفتحت صلحاً، ياقوت، معجم، ح2، ص441.

(2) – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص84.

(3) – الزرقاء: موضع بالشام قرب معان، الحربي: المناسك، ص653، ياقوت: معجم، ح3، ص137.

(4) – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص58 – ص59.

(5) – زَيزاء: من قرى البلقاء كبيرة يطؤها الحاج ويقام بها لهم سوق وفيها بركة عظيمة، وأصله في اللغة المكان، ياقوت: معجم، ح3، ص163.

(6) – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. ابن بطوطة، الرحلة، ص84؛ الجزيري، الدرر، ج2، ص61.

(7) – ابن بطوطة: الرحلة، ج1، ص84.

(8) – أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص152.

(9) – الكرك: كلمة أعجمية وهي اسم لقلعة حصينة في طريق الشام، من جهة البلقاء تقع بين ايله وبحر القلزم، –البحر الأحمر–. ياقوت: معجم، ح4، ص453.

(10) – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص84. الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص61.

(11) – الحسا من أعمال الكرك، وفيه نهر لطيف ومكان ملاقاة الحاج. كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص232.

(12) – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343.

ثم يرحل الركب إلى معان[1] بمسيرة مرحلتين، ويمكث فيها ثلاثة أيام، وتعتبر سوقاً هاماً للحجاج ومنها يرجع المودع وهي آخر بلاد الشام وأول الحجاز[2].

ثم يسير ركب الحج الشامي بثلاث مراحل إلى العقبة المعروفة بعقبة الصوان[3]، وصفتها أنها منحدر على مسافة نصف ميل، ويجد الحاج صعوبة في الإقامة بها، ولا ماء بها، وإنما هي مذكورة لشهرتها، وهي عقبة سهلة[4]. قال ابن بطوطة، وهو في طريقه إلى الحجاز مع الركب الشامي، بعد خروجه من معان: "ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها: داخلها مفقود وخارجها مولود"[5].

ثم يستمر ركب الحج الشامي في سيره حتى يصل إلى ذات حج[6] بعد مسيرة مرحلتين، وهي جفار، ماؤها عذب سائغ يستطاب فيرد ماءه[7].

ثم يرحل الركب إلى تبوك بمسيرة أربع مراحل, فيرد ماءها ويقيم عليها يوماً ليستعد للمفازة الكبرى ويحمل من ماء تبوك، وهو ماء يسرع فساده إذا حمل ويتغير طعمه، وتبوك هي التي

---

[1] – معان: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. الحربي، المناسك، ص653؛ ياقوت، معجم، ج5، ص153.

[2] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. ابن بطوطة، الرحلة، ص84. الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص61.

[3] – عقبة الصوان هي منزلة في طريق الحج الشامي بين معان وذات حج، وليست هي عقبة أيلة الواقعة على خليج العقبة، وتبعد عن عقبة أيلة حوالي مئة كيلو متر جهة الشرق، وعلى بعد ستين كيلو متراً جنوب معان وتسمى محطة عقبة الحجاز، وصفتها أنها منحدر متعرج من الصخور على مسافة نصف ميل، وبها أحجار القدح الجيدة، التي لا يكاد يوجد مثلها، ومنها تنقل للهدية، وإذا نزل عنها الركب أناخ أسفلها ليتكامل، فيخرجون أنواع الحلوى المعدودة لذلك ويفرقونها على بعضهم، فلذلك يقال لها عقبة الحلوى. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص84، كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص232.

[4] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. الجزيري: درر الفرائد ، ج2، ص61.

[5] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص84.

[6] – ذات حج: موضع بين المدينة والشام. ياقوت، معجم، ح2، ص204، وهي بلدة كانت محطة للحجاج، وتقع شمال تبوك بنحو 75كم، وجنوب حالة عمار بنحو 26كم. البلادي، معجم معالم الحجاز، ص393.

[7] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص61.

غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها نخل قليل، ويقام بها للحجاج سوق[1]، وفيها عين ماء كانت تنبض بشيء من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك أخذوا أسلحتهم وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينزل الركب الشامي على هذه العين فيتزودون منها جميعهم، ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك، ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملئون الروايا والقرب ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم، وسواهم من الناس متفق مع السقائين على سقي جمله وملأ قربته بشيء معلوم من الدراهم[2].

ثم يرحل ركب الحج الشامي من تبوك ويدخل المفازة الكبرى إلى العلا[3] أحد مدن الحجاز، وأطلق على ما بين تبوك والعلا اسم المفازة الكبرى التي يضرب بها المثل، لأنه لا يوجد فيها ماء إلا في وسط المفازة في مكان يعرف بالوادي الأخيضر، وفم البئر ضيق حرج لا يحمل نصب المساقي لسقي الحجيج، ولا يعرف هذا البئر إلا بالوادي فيقال بئر الوادي الأخيضر، واعتنى بعض التجار الشاميين بعمله واصلاحه، وأما ما سوى ذلك فهو مواجن الامطار من برك عملت وشعاب وقرارات أودية يمسك فيها فواضل المطر قد يوجد فيها وقد لا يوجد، والواثق فيها مغتر، ومن أشهرها بركة المعظم أمر ببنائها الملك المعظم عيسى بن العادل[4]، ومسيل الصاتي، وهو على يسرة المتوجه إلى المدينة، ومنه الجنيب وهو شعب جبل على يمنة المتوجه ومنه فويق وهو مسجد الورود وهو من عجائب الأرض، وهو على يمنة المتوجه يسلك إليه من رأس المشجر

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343.ابن بطوطة، الرحلة، ص84، الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص61.

[2] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص84، ص85.

[3] – العُلا: هو موضع ناحية وادي القرى بينها وبين الشام، نزله رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى تبوك وبني مكان مصلاه مسجداً، ياقوت: معجم، ح4، ص144، وهي اليوم إحدى مدن المملكة العربية السعودية في منتصف المسافة بين تبوك والمدينة، البلادي: معجم، ح6، ص154. وهي منطقة غنية بالمياه العذبة كما هو واضح من كلام العمري وابن بطوطة، وهي إحدى المحطات الكبيرة على درب الحج الشامي.

[4]– العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص344.

المعروف بدبسة الأثل وصورته أن يصعد إليه من نقب جبل متسع حتى ينتهي فيه إلى رحبة فسيحة تظلها قنة جبل فيصعد فيه بدرج منحوتة في ذيل ذلك الجبل إلى أن يصعد إلى مكان نقر في الجبل يكون سعته أربع مئة ذراع طولا في ستين ذراعاً، وفي أثنائه مغارات منحوتة، وقد قني من الجبل إلى هذا النقر وما فيه من المغارات، والذي إذا امتلأ هذا المكان من مياه الأمطار يكفي تهامة والحجاز سنة كاملة، وورد بن فضل الله العمري هذا الماء أثناء توجهه إلى الحجاز سنة اثنتين وعشرين وسبع مئة، وكان يتفهق ملؤه ماءً[1].

ويصف بن بطوطة السير في المفازة الكبرى بين تبوك والعلا[2] فيقول: ويجدّون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية، وفي وسطها الوادي الأخيضر كأنه وادي جهنم أعاذنا الله منها، وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك في بعض صخور الوادي، ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهي ضخمة نسبتها إلى الملك المعظم عيسى من أولاد أيوب ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين وربما جف في بعضها[3].

وقبل وصولهم إلى العلا بيوم يمرون بحجر ثمود "مدائن صالح" وهي كثيرة الماء ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك فأسرع براحلته وأمر أن لا يستقي منها أحد ومن عجن به أطعمه الجمال، وهناك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت أن في ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه [4].

---

[1]– العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص344.

[2] – تقدر المسافة بين تبوك والعلا ب300كم تقريباً، وتقطعها القوافل بحسب سيرها ما بين ستة إلى عشرة أيام تقريباً. البلادي، معجم معالم الحجاز، ص257، ص1191.

[3] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص85.

[4] – المصدر نفسه، ج1، ص85.

وبعد مسيرة اثنتي عشرة مرحلة من تبوك يصلون إلى العلا أحد مدن الحجاز، وبها ماء جار ونخل وزرع، فإذا وصل الركب إلى العلا أقام بها يومين أو ثلاثة، وبها يودع الحجاج بها أزوادهم للعودة[1].

ويصفها ابن بطوطة بقوله: والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويغسلون ثيابهم، ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب أمانة وإليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها ويبايعون الحجاج الزاد وسواه[2].

ويلاحظ أن العمري والجزيري يقدّران المسافة بين تبوك والعلا باثنتي عشرة مرحلة[3]، بينما ذكر ابن بطوطة في رحلته أن الركب الشامي قطعها في أقل من ستة أيام[4]، ونحن نرى أن المسافة تقطع بحسب سير الركب، ولا سيما أنها تقدر بـ300كم تقريباً، والركب المجد في السير قد يسير في اليوم مسافة لا تقل عن خمسين كيلو متراً.

وبعد إقامة الحجاج في العلا لمدة يومين أو أكثر يرحلون مسيرة خمس مراحل إلى هدية[5]، ويرد ماءها وهو رديء غير سائغ للشاربين، وقد يكون صالحاً عند انكشاف السيول، وهدية تشرف على وادي يؤدي إلى أكرى وهي محطة من محطات طريق الحج الساحلي.

ثم يرحل الركب إلى عيون حمزة مسيرة خمس مراحل أخرى، والمسافة بين هدية وعيون حمزة شاقة هلك فيها الحاج في سنين كثيرة بسبب السيول المباغتة والحر الشديد، وقد أوضح لنا بن فضل الله العمري هذا بقوله: "وقد تأتي في مضائقه سيول إن لم يتحرز منها بالنزول في سفوح الجبال والأنشاز العالية؛ وإلّا ما يؤمن أن تبادرهم بوادره، وتحتجفهم سيوله، فأما إذا كان القيظ

---

[1] العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص344؛ الجزيري، درر الفرائد ، ج2، ص63.

[2] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص85.

[3] العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص344؛ الجزيري، درر الفرائد ، ج2، ص63.

[4] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص85.

[5] هدية: بلفظ ما يهيد، كانت محطة للجمال ثم صارت محطة لسكة الحديد في وادي الطبق وتقع على 169 كيلاً شمال المدينة بينها وبين العلا. البلادي: معجم، ح9، ص169.

منعتهم الجبال أن يستروحوا بنسيم، وتقدحت رماله، وأحجار الصوان بها ناراً تتوقد، وهبت من فجاجه ريح السموم فنشفت القرب وأهلكت الناس والإبل"[1].

فإذا وصل الركب إلى عيون حمزة؛ يكون بذلك قد أشرف على دخول المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فيتأهب لدخولها، وفيها يتمتع الزائر بطيب الملتقى ويقيم فيها الركب ما يقدر له ثم يتجه إلى ذي الحليفة[2]، ويسميه العامة (بئر علي)، وهو ميقات الحج المديني، ومن مر بها، وهو على نصف مرحلة منها، وبه آبار كثيرة، ومنه يحرم الحجاج ويهلون يالتلبية[3].

ثم يرحل إلى الصفراء[4] بثلاث مراحل، ثم يشق الوادي بمرحلة واحدة حتى يصل بدراً، ويرد ماءها، وهي مدينة حجاز وبها عيون نضاخة وجداول متسلسلة، وأرض بمخضر الزروع مبقلة، ونخيل ملء الحدائق، وفيها يلتقي بطريق قافلة الحج المصري[5].

ثم يرحل إلى رابغ، ويأخذ إليها في خمس مراحل، ويرد ماءها، وهو ماء مملوح، وهي بإزاء الجحفة ميقات الشام، وقد بقي لا يأتي عليه إلا أهل مصر ومن حج معهم، ومنها يحرم الحاج ويهلون بالتلبية، ثم يرحل إلى خليص، فيأخذ إليها في ثلاث مراحل، ويرد ماءها، وقد عمل بها الأمير العام أرغون الناصري رحمه الله بركة إرتفق بها الحاج، ثم يرحل إلى بطن مر (مر الظهران) فيأخذ إليه في ثلاث مراحل، ويرد ماءه ويتأهب لدخول مكة. وفي طريقه هذا بين

---

(1) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص345. الجزيري درر الفرائد، ج2، ص64.

(2) – ذي الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة ومنها يبدأ ميقات أهل المدينة. الحربي، المناسك، ص425، ياقوت: معجم، ح2، ص295.

(3) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص345. الجزيري درر الفرائد، ج2، ص65.

(4) – الصفراء: وادي الصفراء يقع ناحية المدينة وفيه نخل كثير وزرع وخير وفير في طريق الحاج، سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة، بينه وبين بدر مرحلة، ياقوت: المعجم، ح3، ص413، وعلى ستة مراحل من المدينة، الحميري: الروض، ص362.

(5) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص345. الجزيري درر الفرائد، ج2، ص65.

خليص وبطن مر، يمر على عسفان[1] وهو بئر ماؤه عذب سائغ شرابه، ثم يرحل من بطن مر إلى مكة المعظمة مرحلة واحدة، ويقيم عليها ما يقدر له أن يقيم[2].

ثم يرحل ركب الحجاج من عسفان وينزل بطن مر ويسمى أيضا مر الظهران[3]: وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر إلى مكة شرفها الله تعالى ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها[4].

وبعد أداء مناسكهم وفي منتصف ذي الحجة يعود الحجاج إلى بلادهم، وفي عودتهم يمر الركب الذي جاء من طريق تبوك مرة ثانية بالمدينة المنورة، ولذلك فهو الركب الوحيد الذي تشرف بزيارة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم مرتين، ومنها يسير عائداً في الطريق التبوكية ماراً بالعلا وتبوك، ثم إلى معان ثم الحسا ثم زيزا ثم يرحل إلى الزرقاء ثم يأخذ يساراً على أذرعات[5] أو يميناً في الطريق الوسطى ماراً على سحاب[6] ثم ينتهي إلى دمشق [7].

ويلاحظ في طريق العودة إسراع الحجاج بحيث لا يعرجون على بعض المنازل التي مر بها في طريق التوجه، لكي يعجلون إلى بلدهم وأهليهم ولا يتأخرون.

وطريق الحجاج من دمشق إلى مكة فيه تعرجات كثيرة، ومسافات زائدة عن سواء الطريق، لأن الركب يخرج من دمشق ويسير في التوجه على زرع على بصرى، على زيزا على الكرك على معان على عقبة الصوان على تبوك على العلا، على المدينة الشريفة على ساكنها

---

[1] – عسفان: هي منزلة على مرحلتين من مكة على طريق المدينة والجحفة ويقال لها الأبواء. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص122.

[2] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص342. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص57.

[3] – مر الظهران: موضع على مرحلة من مكة بينه وبينها خمسة أميال له ذكر في الحديث. وقيل: المر: اسم القرية، والظهران: اسم الوادي. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص104.

[4] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص98.

[5] – أذرعات: من بلاد دمشق بالشام. الحميري، الروض المعطار، ص19.

[6] – سحاب: بلدة تقع جنوب شرق عمان بالقرب منها. انظر: لويس المعلوف، المنجد في الأعلام، خريطة المملكة الأردنية، ص716.

[7] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص345. الجزيري، درر الفرائد، ج2، 65.

أفضل الصلاة والسلام، إلى مكة المعظمة ، ثم يأخذ إلى دمشق من مكة إلى المدينة الشريفة إلى العلا إلى تبوك إلى عقبة الصوان إلى معان إلى زيزا إلى دمشق ولا يمر على الكرك ولا بصرى ولا زرع، ويأخذ هذه المسافة في العود في أقل من مسافة التوجه بقليل[1].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أنّ طريق الحاج من دمشق قد تغيّر خلال العصور الإسلامية، وتبدلت منازله، وأماكن استراحاته، تبعاً لظهور مدن ومنازل جديدة، وبحثاً عن موارد ماء، بسبب نضوب موارد المياه الواقعة على الطريق، ففي أواخر الدولة المملوكية، كانت درب الحاج ومنازله تختلف عما كانت عليه في أوائلها.

ففي النصف الأول من عهد الدولة المملوكية وكما أوضح العمري في مسالكه، وابن بطوطة في رحلته، كان الحاج الشامي ومن انضم إليه من حاج فارس وشمال العراق والشام، يجتمع في دمشق ثم يخرج إلى الكسوة[2]، ثم إلى الصنمين[3]، ثم إلى ازرع فيقيم بها يومين، ثم يرحل عنها إلى بصرى، فينزل الحاج بها ثلاثة أو أربعة أيام[4] حتى يلحق به من تخلّف من الحجاج بدمشق[5]، ثم يرحل إلى الزرقاء ثم إلى زيزا[6]، ثم إلى الكرك، حيث يقيمون في مكان يعرف بالثنية، خارج الكرك، فيقيمون به عدة أيام[7]، وينضمّ إليهم الحاج الكركي، ثم يسيرون جميعاً إلى الحسا[8]، ثم ينتقلون بعدها إلى مدينة معان[9] آخر بلاد الشام[10]. ثم بعد معان يتجهز الحاج

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص301، الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص45.

[2] – الكسوة: قرية من قرى دمشق. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص461.

[3] – الصنمين: قرية في أول حوران تبعد عن دمشق مسافة يومين. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص431.

[4] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص343. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص58 – ص59.

[5] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص83.

[6] – زيزا: قرية من قرى البلقاء. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص163.

[7] – العمري؛ مسالك، ج2، ص343. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص84. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص61.

[8] – الحسا: اسم مكان في طريق مؤته. الحميري، الروض المعطار، ص205.

[9] – معان: مدينة في طرف الشام وهي أول الحجاز تابعة للبلقاء، ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص153.

[10] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص129.

منها لدخول البرية باتجاه عقبة الصوان ثم إلى ذات الحج، ومنها إلى تبوك[1]، وهكذا إلى المدينة المنورة، فمكة المكرمة[2].

هذا عن طريق الحاج الشامي حتى أواسط الدولة المملوكية، أما في أواخر عقود الدولة المملوكية، فيظهر من خلال وصف الجزيري وابن طولون أن ركب الحاج الشامي أوائل القرن العاشر الميلادي[3] يسير على النحو الآتي:-

يتجمع ركب الحاج الشامي عند قبة يلبغا جنوب دمشق، حيث تُعدّ أول مراحله، فيقيم بها يومًا أو يومين ليلحق به من تخلف من الركب، ليتجه الحاج بعدها إلى قبة الحج فينزل فيها يومان، ثم جسر الكسوة، ثم خان ذي النون[4]، ثم كتيبة التي بها خان ويقام فيها سوق يجلب للحجاج فيها الكثير، ثم يرحل إلى المزيريب المنزلة التي تقع حولها القرى الكثيرة التي يقام بها سوق يباع فيه على الحجاج شتى أنواع البضائع[5]، وكان الحاج يقيم بها عدة أيام، وهناك يتبعهم من تأخر من الحجاج، كما ينضم إليهم حجاج تلك المناطق، ويعقد فيها سوق كبيرة في هذا المكان، إذ يخرج إليهم التجار ومعهم أصناف البضائع، فيشتري منهم الحاج ما يلزمهم من الأقوات والسلع ويعود المودّعون منها وسموا في ذلك العصر بالمزيريبية[6]، ومن المزيريب يبدأ تقطير الركب عند الرحيل أول النهار والتي يسافرون فيها إلى أذرعات، ثم يرحل إلى المفرق ثم الزرقاء ثم رأس بلاطة وخان القطراني، ثم يرحل إلى اللجون ثم الحسا ثم عنيزة ثم معان ثم يستقيم على طريق الحجاز التي ذكرناها[7]، والملاحظ هنا يرى أن الطريق تغيرت قليلاً وبتعريجات صغيرة، والهدف منها الحصول على الماء والتيسير على الحاج.

---

(1) – تبوك: موضع بين وادي القرى والشام. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص14.

(2) – العمري؛ مسالك، ج2، ص343. ابن بطوطة، الرحلة، ص84، الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص61.

(3) – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص65–ص67.

(4) – خان ذي النون: نسبة إلى علاء الدين علي بن ذي النون الاسعردي أحد كبار التجار توفي بدمشق في ذي القعدة 778هـ/آذار(مارس) 1377م. المقريزي، السلوك، ج5، ص23.

(5) – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص65، ص66.

(6) – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص144، ص145.

(7) – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص65، ص66.

المبحث الثاني: طريق ركب الحج الشامي الغزاوي:

يسير الحجاج على هذا الطريق من جنوب الشام من القدس والمدن الداخلية والساحلية لفلسطين ويتجمعون في غزة، أو بالقرب منها، ثم يتجهون إلى العقبة في عدة مراحل مارين بعدة منازل للتزود منها بالماء مثل عين القصيمة ومشاش الكنتلا على ما سنذكره فيما بعد، إلى أن يصلوا إلى العقبة، وهناك يلتقون بحجاج مصر والمغرب العربي، ويسيرون سوياً بحذاء ساحل البحر الأحمر، مع تميز كل ركب بشارة حتى يسهل الاتصال بين الحجاج[1].

وكان هذا الطريق مسلوكاً منذ الجاهلية، وسلكته قوافل الحجيج والتجارة منذ الفتح الإسلامي لبلاد الشام، في العصر الأموي والعباسي، وظل مسلوكاً في العصر المملوكي والعثماني.

وبسبب اهمال ذكر هذا الطريق في الأبحاث العلمية، وعدم التطرق إليه من الباحثين؛ فإننا تتميماً للفائدة سنورد أدلة ونصوصاً تاريخية تؤكد على أهمية هذا الطريق، وأنه كان مستخدماً في كافة العصور ولم يتوقف استعماله إلا فترة وجيزة إبان الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، وتوقف استعماله أيضاً منذ الاحتلال الصهيوني لفلسطين حتى وقتنا الحاضر.

ومما يدلل على ذلك ما قاله اليعقوبي عند التعريف عن مدينة أيلة: ومدينة أيلة مدينة جليلة على ساحل البحر المالح، وبها يجتمع حاج الشام وحاج مصر والمغرب، وبها التجارات الكثيرة، وأهلها أخلاط من الناس[2].

وأيلة والعقبة تعتبر بلدين متلاصقين ومتقاربين وساحلهما واحد، وفي بعض العصور تهمل واحدة وتزدهر الأخرى[3]، وهي الحدّ بين الحجاز والشام وسميت بعقبة أيله[4]، وإن كانت قسمت في هذا العصر الذي نعيشه حيث استولى اليهود على الجزء المسمى أيلة، وبقيت العقبة تحت السيادة الأردنية.

---

[1]– العبدري، الرحلة، ص 334؛ العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص341.

[2]– اليعقوبي، البلدان، ص178. الغازي، إفادة الأنام، ج6، ص233.

[3]– المهلبي، المسالك والممالك، ص21؛ ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص292؛ كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص20.

[4]– الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص70.

وقد يكون اجتماع الحجاج فيها من خلال الاتيان إليها من طريقين؛ طريق الكرك العقبة، وطريق غزة العقبة، وهو الطريق الأسهل.

وهناك نص ورد في مقامات الحريري حيث جاء فيه:

"حكى الحارثُ بنُ همّامٍ قال: كنتُ في عُنفُوانِ الشّبابِ، ورَيْعانِ العيْشِ اللُّبابِ، أقْلي الاكتِنانَ بالغابِ، وأهْوى الانْدِلاقَ منَ القِرابِ، لعِلْمي أنّ السّفَرَ ينفِجُ السُّفَرَ، ويُنتِجُ الظّفَرَ، ومُعاقَرَةَ الوطَنِ، تَعْقِرُ الفِطَنَ، وتحْقِرُ مَنْ قطَنَ، فأجَلْتُ قِداحَ الاستِشارَةِ، واقْتدَحْتُ زِنادَ الاستِخارَةِ، ثمّ استجَشْتُ جأشاً أثْبَتَ منَ الحِجارَةِ، وأصْعَدْتُ إلى ساحِلِ الشّامِ للتّجارَةِ، فلمّا خيّمتُ بالرّملَةِ، وألقَيتُ بها عَصا الرّحلَةِ، صادَفْتُ بها رِكاباً تُعَدّ للسُّرى، ورِحالاً تُشَدّ إلى أمّ القُرى، فعصَفَتْ بي ريحُ الغَرامِ، واهْتاجَ بي شَوْقٌ إلى البيتِ الحَرامِ، فزمَمْتُ ناقَتي، ونبذْتُ عُلَقي وعَلاقَتي.....ثم يقول: فلمْ نزَلْ بينَ إدْلاجٍ وتأوِيبٍ، وإيجافٍ وتقْريبٍ، إلى أنْ حبَتْنا أيْدي المَطايا بالتُّحْفَةِ، في إيصالِنا إلى الجُحْفَةِ، فحلَلْناها متأهّبينَ للإحْرامِ، مُتباشِرِينَ بإدْراكِ المَرامِ، فلمْ يكُ إلا أنْ أنَخْنا بها الرّكائِبَ، وحطَطْنا الحقائِبَ"[1].

ففي هذا النص يورد الحريري أن هناك ركاباً تتهيأ للحج في مدينة الرملة، لتسير على الطريق الغزاوي، ثم يسيرون مع ساحل البحر الأحمر ثم يحرمون من الجحفة (رابغ)، ولاشك أن الرملة قريبة من غزة على مسافة مرحلة واحدة منها. وهذا يثبت أن الطريق استخدم وما يزال مستخدما على مر العصور، ولم يتعطل إلا عندما استولى اليهود على فلسطين.

وهو أيضاً دليل على أن قوافل الحجاج من بلاد الشام الجنوبية –فلسطين وجنوب الأردن وساحل الشام–كانت تسلك الطريق الغزاوي، وذلك لأنه أسهل الطرق الى الحجاز بالنسبة إلى تلك البلاد، وتلتحم مع الحجاج الآتين من المغرب العربي ومصر، ولا يخفى أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل ميقات رابغ لأهل الشام ومصر والمغرب، ولم يتعطل الطريق الشامي بقسميه إلا إبان فترة الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، وعاد الى سابق مجده في العهد الأيوبي والمملوكي، ثم في العهد العثماني أصبح هو الطريق الرئيسي للمسافر من الشام إلى مكة، وسمي الطريق الشامي

[1]– الحريري، مقامات، ص234، ص235.

التبوكي في العهد العثماني بالدرب السلطاني بسبب قافلة الحج السلطانية القادمة من القسطنطينية[1].

ورجوعاً إلى موضوعنا نجد أن الاصطخري في كتابه المسالك والممالك؛ –وهو من المصادر التي دونت في العصر العباسي– يوضح أنه لم يفرد لمصر والمغرب طريقاً لأنه يلتقى بأيلة مع طريق أهل فلسطين الذي وصفه، فيصير الطريقان سوى[2].

ثم يقول: ولأهل مصر وفلسطين إذا جاوزوا مدين طريقان: أحدهما إلى المدينة على ضبا وشغب[3]، حتى ينتهى إلى المدينة، وطريق آخر يمضى على ساحل البحر حتى يخرج بالجحفة "رابغ"[4]، فيجتمع بها طريق أهل العراق ودمشق وفلسطين ومصر[5]. فالاصطخري يلحق طريق مصر والمغرب بطريق أهل فلسطين التي هي جزء من بلاد الشام.

وفي العهد المملوكي كانت قوافل الحج الشامي تأتي في المرتبة الثانية، بعد قافلة الحج السلطانية المملوكية التي تخرج من القاهرة.

وكان ركب الحج الغزاوي يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة لقافلة الحج الشامي، لأن القافلة الرئيسية تخرج من دمشق، ولكنه في بعض السنين التي لا تخرج فيها قافلة الحج من دمشق لسبب من الأسباب كفتن أو حروب أو كوارث؛ فإن الحجاج والتجار ينضمّون إلى قافلة ركب الحج الغزاوي كما سنرى.

وقد ذكر الطريق الغزاوي، وركب الحج الغزاوي كثيراً في مصادر العصر المملوكي التاريخية. فقد ذكر التقي الفاسي أنه في بعض السنين ينضم حجاج وتجار من دمشق الى قافلة

---

(1)– أيوب صبري باشا، مرآة جزيرة العرب، ص160، ص171–ص180.

(2)– الاصطخري، المسالك والممالك، النص28.

(3)– قرية بالبادية كان بنو مروان أقطعوها الزّهري وبها قبره. الاصطخري، المسالك والممالك، النص28.

(4)– رابغ: موضع بين المدينة ومكة قريب من الجحفة، وهو واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة، وهو مكان الإحرام لأهل مصر والشام. البكري، معجم ما استعجم، ج2، ص625. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص11.

(5)– الاصطخري، المسالك والممالك، النص28.

الحج الغزاوي، وهو ما ورد ذكره في عام 700هـ/1300م، حيث ورد أنه لم يحج فيها أحد من الشام؛ إلا أنه خرج من دمشق جماعة إلى غزة، ومن غزة إلى أيلة، وصحبوا المصريين[1].

ومن ذلك: أنه في سنة 709هـ/1309م لم يحج من الشام أحد على العامة إلا أن طائفة يسيرة من التجار وأهل الحجاز، خرجوا من دمشق إلى غزة، ومنها إلى أيلة واجتمعوا بالمصريين وصحبوهم[2].

ومن ذلك: أنه في سنة 808هـ/1405م لم يحج الشاميون على طريقتهم المعتادة ولا حج لهم محمل؛ وإنما حج فيها من الشام تجار، جاؤوا من دمشق إلى غزة، ومنها إلى أيلة، ومنها إلى مكة[3].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره المقريزي في أحداث سنة810هـ/1407م من أَن حجاج المغاربة فِي طريق عودتهم من مكة انضمَّ إِليهم حاج الإسكندريَّة وغزة والقدس فنهبوا جميعاً ونزل بالمغاربة بلاء كبير[4]. وما ذكره في معرض حديثه عما تعرض له الحجاج الغزاويين في أوائل سنة 842هـ/1438م بعد موسم حج سنة841هـ قائلاً: "وَفِي ثَانِي عشرين من شهر الْمحرم: قدم الركب الأول من الْحجَّاج وَقدم الْمحمل فِي يَوْم الْخَمِيس ثَالِث عشرينه بِبَقِيَّة الْحجَّاج بَعْدَمَا نزل بالحاج بلَاء عَظِيم وَهُوَ أَن ركب الغزاويين وَمن انضم إِلَيْهِم من أهل الرملة وَمن أهل الْقُدس وبلاد السَّاحِل تعرضوا لبلاء عظيم بوادي عنتر قريب من الأزلم الواقع على ساحل البحر الأحمر"[5].

وسنورد هذا الحدث كاملاً عند الحديث عن الاعتداءات على الحجاج ان شاء الله، ولكن أوردنا هذا الكلام للدلالة أن هناك ركب ثاني للحجاج الشاميين يخرج من فلسطين –أهل الرملة

---

[1]– الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص292.

[2]– الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص294. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص146.

[3]– الفاسي، العقد الثمين، ج1، ص197، الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص304، ابن فهد إتحاف الورى، ج3، ص449.

[4]– المقريزي، السلوك، ج6، ص19.

[5]–المصدر نفسه، ج7، ص372.

وأهل الْقُدس وبلاد السَّاحل–، ويتجمع في غزة أو بالقرب منها متجها الى عقبة أيلة ثم يسلك ساحل البحر الأحمر مع طريق الحج المصري إلى الحجاز.

وورد أيضاً أنه في سنة 916هـ/1510م، وفي يوم الثلاثاء خامس صفر دخل إلى دمشق حج كثير، أتى صحبة الغزاوي، وأخبروا بأن الرخص بمكة كثير، إلا أن الماء قليل، وأن الوقفة كانت يوم الأربعاء، وأن القماش الأبيض كان قليلاً[1]. حتى أنه في عام923هـ/1517م نودي بدمشق بمرسوم من مصر، بأن يتأهب الناس من أهل الشام للحج من الطريق الغزاوي[2].

وكل من يؤرخ قديماً وحديثاً يذكر أن العقبة كانت محطة من محطات الحج الشامي والمصري، وأن القوافل في العقبة تصعد وتنيخ في مدينتها للراحة، وأن حجاج الشام يأتونها بدرب غزة فيجتمعون فيها مع قافلة الحج المصري، ويجيء مع حجاج الشام مجموعة من التجار من بلدان الشام الجنوبية ومن غزة، ومعهم الحبوب والملابس وأنواع الفاكهة والخضر والمأكولات بقصد بيعها على الحجاج في الذهاب والإياب، ولكن مع انقطاع درب الحاج المصري سنة 1885م عن البر فقدت تلك الأهمية، ولم يعد من يمر بها من الحجاج الشوام إلا من ندر ولا يطرقها سوى بعض تجار الإبل بين الحجاز والشام[3].

وسميت هذه الطريق بدرب غزة وبالطريق الشامية لأنها تؤدي إلى بر الشام من الحجاز، وكان لهذه الطريق أهمية كبيرة إذ كان قسم من الحاج الشامي يأتي من خلالها فيلاقي الحاج المصري في العقبة[4]، ويعود جزءٌ كبير من حجاج جنوب الشام منها، فهذا هو عيسى البلوي عندما قام برحلته وحج سنة 738هـ/1338م، عاد من الطريق الغزاوي، وزار الخليل والقدس ثم عاد إلى بلاده في المغرب العربي[5].

---

[1]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص276.

[2]– المصدر نفسه، ص368.

[3]– نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث، وجغرافيتها، ص269– ص270. الغازي، إفادة الأنام، ج6، ص246. الكردي، التاريخ القويم، ج2، ص324. الجوهري، رفعت، سيناء أرض القمر، ص91.

[4]– الجوهري، رفعت، سيناء أرض القمر، ص91. نعوم بك شقير، تاريخ سيناء، ص269– ص270.

[5]– البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص86.

وكذلك أبوبكر عبد الله العياشي في رحلته سنة1074هـ-1076هـ/ 1661م- 1663م، حين نوى زيارة القدس بعد رحلة الحج، وذكر بالتفصيل طريقه من العقبة إلى غزة، وأنه قطعها مع قافلة الحج الغزاوي في غضون سبعة أيام تقريباً، وفي اليوم الثامن وصلوا إلى غزة، ثم بعد أن مكث فيها أياماً ذهب إلى الخليل والقدس[1].

وفي العهد العثماني كانت قافلة الحج الشامي حينما تكون محملة بالبضائع؛ تتحول عادة إلى الطريق الغزاوي من منزلة ذات حج في طريق العودة من الحجاز، وذلك خوفاً من غارات البدو، وكان هذا الطريق أكثر أمنا لأنه يشكل جزءاً من الطريق التجاري المؤدّي إلى مصر، ونتيجة لذلك يتأخر عودة قافلة الحج إلى دمشق من أسبوعين إلى شهر، وبدوره فإن ذلك يؤدي إلى تنشيط الحركة التجارية نتيجة للبيع والشراء الكثير، وهو ما يعود على أهالي غزة بالفائدة الاقتصادية الكبيرة[2].

وقد أتينا بهذه الأدلة والنصوص التاريخية للتأكيد على أهمية هذه الطريق وحيويتها قديماً وحديثاً والتي لم تنقطع إلا بعد الاحتلال الصهيوني البغيض.

وصف مسار الطريق الغزاوي:

يتجه حجاج ساحل فلسطين والقدس ومدن الشام الجنوبية إلى الجنوب الغربي متجهين نحو غزة أو بالقرب منها شرقاً، حيث سهولة الطريق، مبتعدين عن الجبال الوعرة الحزنة الخشنة الواقعة بين القدس والعقبة[3].

---

[1]- انظر العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص405-ص408.

[2]- عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي، قافلة الحج الشامي وأهميتها، ص206. لورنس الحسن البرهو السوسي، قافلة الحج الشامي وآثارها، ص113.

[3]- اليعقوبي، البلدان، ص168.

وإذا خرجت جماعة حجاج من دمشق للسير على الدرب الغزاوي، فإنهم يسيرون من دمشق إلى الكسوة إلى الصنمين إلى طفس ثم درعا[1]، ثم إلى اربد[2] ثم إلى بيسان إلى عين جالوت ثم إلى حطين ثم جنين ثم اللد[3] إلى بيت دراس ثم إلى غزة[4].

وتسير القوافل في هذه الطريق بعد تجمعها في غزة إلى العقبة وتقطعها في تسع مراحل (تسعة أيام) أو أقل، بحسب سير القوافل؛ حيث يسير ركب الحج الخارج من غزة جنوباً مرحلة واحدة (أي يوماً واحداً) من غزة قاطعاً وادي الشريعة إلى بئر الصني، ثم يسير يوماً إلى وادي الأبيض جاعلاً جبل القرن عن اليمين وخرائب الرحيبة عن اليسار، ثم يسير ركب الحاج الغزاوي ومن يرافقه من الحجاج والتجار من وادي الأبيض قاطعاً مقطع وادي الحسنة ووادي الحفير والعوجا ووادي الصبحة والقديرات يوماً كاملاً حتى يصل إلى عين القصيمة[5] فيشرب من ماءها ويتزود منه، ثم يسير مرحلة قاطعاً عدة أودية حتى يصل إلى وادي الجرور، ثم يوماً آخراً إلى وادي القريَّة، وآخراً حتى يصل إلى وادي ومشاش الكنتلة فيبيت فيها ويتزود منها من الماء حيث يوجد بها آبار ماء، فيكون قد قطع ست مراحل في ستة أيام[6].

ثم يسير ركب الحاج الغزاوي من الكنتلا[7] مرحلة واحدة قاطعاً وادي الأغاديرة ووادي الحرافي حتى يصل قرب جبل سويقة، ثم يسير مرحلة أخرى ماراً بجبال الصفراء إلى جبال الحمرة فيبيت فيها، ثم يسير مرحلة في طريق متعرجة إلى عقبة أيلة، وقد جعلوا في هذه الطريق

---

(1)– المدن المذكورة من دمشق إلى درعا تقع في الأراضي السورية اليوم وأخرها درعا التي تقع بالقرب من الحدود السورية الأردنية. انظر الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص66.

(2)– أَرْبَدُ: بالفتح، ثم السكون والباء الموحدة: قرية بالأردنّ، قرب طبرية، عن يمين طريق المغرب، ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص 136.

(3)– مدن بيسان وجنين تقع جنوب بحيرة طبريا، واللد تقع وسط فلسطين قرب بيت المقدس. انظر ياقوت، معجم، ج1، ص527، ج5، ص15.

(4)– ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص119.

(5)– موضع بين العقبة ورفح جنوب بئر السبع على الحدود الشمالية من سيناء. كرد علي، خطط الشام، ج3، ص146.

(6)– نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث، ص269– ص270.

(7)– الكنتلا هي موضع فيه ماء على ثلاث مراحل غرب العقبة، ويقع بين القصيمة والعقبة. نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، ص270.

رجوماً وعلامات من الصخور لهداية المارة[1]. فتكون القافلة قد قطعت تسع مراحل من غزة إلى العقبة.

وفي العقبة يرد ركب الحاج ماءها، ويقيم بها أربعة أيام أو خمسة ويكمل منها الظهر والزاد، وهو مكان مقصود تأتي إليه أجلاب الشام وتقام فيه الأسواق العظيمة الممتدة المتشعبة التي لا توجد في أمهات الأقاليم وكبار المدن، ولعل أنه لا يعدم فيها موجود من الخيل والإبل والغنم والدقيق والشعير والعلف وأنواع المآكل والمشارب والمحامل والأكوار والرحال والسلاح والقماش والفرش والأمتعة وغير ذلك، وأيام إقامة الحاج بها أيام مواسم[2].

وفيها يجتمعون مع ركب الحج المصري والمغربي، ولكن بصورة مستقلة مع تميزهم بشارات حتى يسهل الاتصال بينهم[3]. ولأن ركب الحج المصري كان في عهد المماليك هو الركب الرئيسي، فإنهم كانت لهم قيادة الركوب المتجمعة السائرة في هذا الطريق، والتي كان يتولاها أمير الحج المصري، والركب الغزاوي وإن كان له أمير يقوده إلا أنه يكون تحت الإمرة العامة لأمير الحج المصري.

وبعد العقبة يرحل ركب الحاج الشامي الغزاوي ومن يرافقه من الركب المصري والمغربي إلى حقل[4] مرحلة واحدة، ويرد ماءه، وهو أعذب ماء من أيلة وهو على ساحل القلزم، ثم يرحل إلى بر مدين[5]، ويأخذ إليه في أربع مراحل، ويرد ماء مغارة شعيب، وماؤها رديء، قليل النبع وهي منسوبة إلى شعيب عليه السلام، ويقال: إنه هو الذي سقى عليه موسى عليه الصلاة والسلام غنم بنات شعيب[6].

---

(1)– نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث، ص270. الغازي، إفادة الأنام، ج6، ص246.

(2) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص341.

(3) – العبدري، الرحلة، ص 334.

(4) – حقل قرية على مرحلة من أيلة على ساحل البحر، ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص278.

(5) – مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى، عليه السلام، لسائمة شعيب. ياقوت، معجم البلدان،ج5، ص77.

(6) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2 ، ص55.

ثم يرحل على عيون القصب[1]، ويأخذ إليها في مرحلتين ويرد ماءها وهي عيون سارحة ضعيفة النبع ينبت عليها القصب، وماؤها لا يستطاب، وإن كان عذباً، ويقيم يومه كله هناك، ويجد به الحاج هناك رفقاً للاغتسال وغسل القماش[2]. ثم يرحل إلى النبك وتسمى المويلح[3]، وهو على ساحل القلزم، ويأخذ إليه في ثلاث مراحل، ويرد ماءه، وهو ماء ملح ردئ لا يكاد يسيغه الشارب، ومن شربه أفرط به الإسهال لشدة ما في مائه من البورقية والملح[4].

ثم يرحل ركب الحاج الشامي الغزاوي ومن يرافقه من الركب المصري والمغربي إلى الأزلم[5]، فيأخذ إليه في أربع مراحل، وهو ماء لا يبعد مما قبله، وهناك يودع للحاج للمرجع بعض أزواده وعلف جماله في خان بناه الأمير المقدم الكبير الحاج آل ملك الجوكندار أثابه الله، ووكل بحفظه ناسا أجرى لهم رزقا عليه، وعمل هناك بئراً انتفع به الناس[6].

ثم يرحل إلى الوجه[7] في خمس مراحل، وهو جفار في واد يسح ماؤها ليلا ويشح نهارا، يرد ماءه كأنه ماء النيل والفرات، وكثيرا ما يحصل للحاج على منهله العذب زحام، ويقع بينهم بسببه مشاجرات وخصام[8].

ثم يرحل ركب الحاج الشامي الغزاوي ومن يرافقه من الركب المصري والمغربي إلى أكرى[9] ويسمى فم الضيقة، ويأخذ إليه في مرحلتين هما أصعب ما في هذه الطريق ويرد ماءه وهو جفار

---

[1] – عيون القصب، وهو موضع بين مدين والمويلحة في طريق الحج إلى مكة، وبه ماء نابع وأجمة قصب نابتة فيها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص432.

[2] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص55.

[3] – هو منزل للحاج في طريق الحجاز، وقد وصفه كبريت بأنه ساحل رَاقَ ماؤه وصفا، وطاب به العيش حتى كأنَّه ما ذاق طعم الجفا، كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص 17.

[4] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

[5] – الأزلم باللام بدل النون، وهو منزلة في طريق الحجاز، وبه آبار بها ماء رديء يطلق بطن من شربه، لا يسقى منه غالبا إلا الجمال، وهي نصف الطّريق– ثم منها إلى رأس وادي عنتر، القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص432.

[6] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

[7] – الوجه منزلة في طريق الحجاز، وبه آبار قليلة الماء، وما هو داخل الوادي يعزّ الماء فيه غالبا ولا يوجد فيه إلا حفائر، ويقال: إنه إذا طلعت الشّمس عليه نضب ماؤه. القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص432.

[8] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

[9] – منزلة في طريق الحاج الشامي والمصري بين الوجه والحوراء. العمري، مسالك، ج2، ص341.

نباع في مسيل واد بعيد المنتهى، ماؤه غزير سائغ[1]. ثم يرحل إلى الحوراء[2]، وهي على ساحل القلزم، ويأخذ إليها اربع مراحل، ويرد ماءها، وهو شبيه بماء البحر، لا يكاد يشرب، وإنما ترده الإبل[3]، ثم يرحل إلى نبط[4]، ويأخذ إليه في مرحلتين، وهو جفار عذب سائغ يغسل صدأ القلوب ببرد مائه[5].

ثم يرحل ركب الحاج الشامي الغزاوي ومن يرافقه من الركب المصري والمغربي إلى ينبع[6]، فيأخذ إليه في خمس مراحل، فيرد ماءه ويقيم عليه ثلاثة أيام، ويصادف به أجلاب البر والبحر، ويودع فيه[7]. ثم يرحل إلى الدهناء[8]، مرحلة واحدة، ويرد ماءها ماء جار عذب، وبها نخل وزرع[9].

ثم يرحل على بدر[10]، فيأخذ إليها في ثلاث مراحل، ويرد ماءها، وهي مدينة حجاز وبها عيون نضاخة وجداول متسلسلة، وأرض بمخضر الزروع مبقلة، ونخيل ملء الحدائق وأشجار

---

(1) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

(2) – الحوراء هذه منزلة تشتمل على أشجار ملتفة وبها شجر الأراك، وأطيار متنوعة، إلا أن ماءه في غاية الكدورة، مفرط في الإسهال. كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص: 14.

(3) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

(4) – هي منزلة للحجاج في طريق الحجاز بين الحوراء وينبع، نوَبْط بفتح النون وسكون الموحدة مفازة عرضها الميل وطولها سواء، وهي شرقي الجنوب، بها الآبار عذبة المياه، كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص: 12.

(5) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

(6) – الينبع مدينة وميناء على ساحل البحر في طريق الحجاز، وهي قريبة من طريق الحاج الشامي، أخذ اسمه من الفعل المضارع لكثرة ينابيعها، معجم البلدان، ج5، ص450، وهي النّصف والرّبع من الطريق، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها، وبها يودع الحجّاج ما ثقل عليهم إلى حين العود، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص 432.

(7) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

(8) – منزلة في طريق الحاج الشامي والمصري بين ينبع وبدر، بها ماء جار عذب، وبها نخل وزرع. العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص341.

(9) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

(10) – بدر هي ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصّفراء بينه وبين الجار، وهو قريب من ساحل البحر مسافة ليلة، ويقال: إنه ينسب إلى بدر بن قريش، وبه سميت بدر التي كانت بها الوقعة المباركة، لأنه كان احتفرها، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرّق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة. ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص357، 358.

أخر، قليل عددها، وبها الجار فرضة المدينة الشريفة[1]. ثم يرحل ركب الحاج الشامي الغزاوي ومن يرافقه من الركب المصري والمغربي إلى رابغ[2]، ويأخذ إليها في خمس مراحل، ويرد ماءها، وهو ماء مملوح، وهي بإزاء الجحفة [3]ميقات الشام.

ومن رابغ يحرم الحاج ويهلون بالتلبية[4]، ثم يرحل إلى خليص[5]، فيأخذ إليها في ثلاث مراحل، ويرد ماءها، وقد عمل بها الأمير العام أرغون الناصري رحمه الله بركة إرتفق بها الحاج، ثم يرحل إلى بطن مر[6] فيأخذ إليه في ثلاث مراحل، ويرد ماءه ويتأهب لدخول مكة[7].

وفي طريقه هذا بين خليص وبطن مر، يمر على عسفان[8] وهو بئر ماؤه عذب سائغ شرابه، ثم يرحل من بطن مر إلى مكة المعظمة مرحلة واحدة[9].

وعند العود يرحل ركب الحاج الشامي الغزاوي ومن يرافقه من الركب المصري والمغربي من مكة ثم يرجع في العود في المنازل المتقدّمة الذّكر إلى وادي بدر على عكس ما تقدّم[10].

---

(1) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص342. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

(2) – رابغ، وهو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مصر، ومنها يحرم الحجّاج. القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص432.

(3) – بالضم ثم السكون، والفاء: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمرّوا على المدينة، فإن مرّوا بالمدينة فميقاتهم ذو الحليفة، وإنما سميت الجحفة لأن السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الأعوام، وهي الآن خراب، وأصبح الحجاج يحرمون من رابغ بدلاً منها، وبينها وبين ساحل الجار نحو ثلاث مراحل، وبينها وبين أقرن موضع من البحر ستة أميال، وبينها وبين المدينة ست مراحل، وبينها وبين غدير خمّ ميلان، وقال السكري: الجحفة على ثلاث مراحل من مكة في طريق المدينة. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص111.

(4) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص342. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص56.

(5) – حصن بين مكة والمدينة. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص387.

(6) – هو مرّ الظهران: موضع على مرحلة من مكة له ذكر في الحديث، وقال عرّام: مرّ القرية، والظهران هو الوادي، وبمرّ عيون كثيرة ونخل وجميز وهو لأسلم وهذيل وغاضرة، وقال الواقدي: بين مرّ وبين مكة خمسة أميال. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص104.

(7) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص342. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص57.

(8) – عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص121.

(9) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص342. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص57.

(10) – القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص433.

حتى إذا أتى إلى بدر سار من يزور منهم النبي صلى الله عليه وسلم من بدر المقدمة الذكر التي ذكرها الله في كتابه العزيز، ونصر بها نبيه صلى الله عليه وسلم وفتح له الفتح الوجيز، وكان يومها أول مواقفه التي انعشت حقب الإسلام، واتعست عقب الأصنام، وهي قرية ذات ماء ونخل وزرع[1].

ثم يأخذ الحاج الذي يرغب في زيارة المدينة من بدر إلى الصفراء[2] في واد متصل كله خضل خضر تتفجر عيونه ويرف نخيله وتتراكم زروعه وتتكاثف ظلاله، فيأخذه في مرحلة واحدة، ثم يرحل إلى ذي الحليفة[3]، فيأخذ إليه في ثلاث مراحل، فيرد ماءه ثم يرحل إلى المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مرحلة واحدة، ويقيم عليها ما يقدر له، وعند العودة من المدينة يرجع الركب إلى الصفراء، ويأخذ بين جبلين في فجوة تعرف بنقب على حتى يأتي الينبع في ثلاث مراحل، ثم يستقيم على طريقه بساحل البحر الأحمر إلى العقبة، وأما من لا يزور منهم فإنه من بدر يأخذ على طريقه التي أقبل فيها حتى يأتي الدهناء، ثم يأتي الينبع فيسير على طريقه إلى العقبة ثم إلى غزة ثم إلى مدن الشام[4].

فهذه هي طريق الركب الشامي الغزاوي في الصدور والورود، ومسافاته المحررة بالسير المعتاد، ويلاحظ أن هذه الطريق –طريق ركب الحاج الغزاوي–هي نفس طريق الحاج المصري والمغربي، وخاصة بعد منزلة أيلة العقبة.

---

[1] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص342. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص57.

[2] – وادي الصّفراء، على مسافة مرحلة عن بدر باتجاه المدينة، وبه عيون تجري وحدائق وأشجار. القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص433.

[3] – ميقات أهل المدينة ومن مر بها وهو على مسافة ثمانية أميال جنوب المدينة، ويسمى أبيار علي ووادي العقيق. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص139.

[4] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص343. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص57.

المبحث الثالث: طريق الحج المصري والعراقي واليمني:

أولاً: طريق الركب المصري:

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين إلى حج بيت الله الحرام، وكانوا إذا قصدوا الحج إلى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم إلى مصر بحراً أو براً، ولهذه الغاية كان يقصدها كثير من أهالي الشام، ومن بلاد الترك، والقوقاز، والقرم، وبخارى، وقازان، وغيرهم من مسلمي الشمال الاسلامي، وجزائر البحر الأبيض المتوسط، ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان، ثم يسيرون منها إلى الحجاز[1].

ومجيئهم إلى مصر لهذه الغاية ليس بالأمر المستغرب لأن قافلة الحج المصري في العهد الأيوبي والمملوكي كانت هي قافلة الحج الآمنة إلى مكة ولا سيما في العصر المملوكي؛ نظراً لاهتمام المماليك بها، ووجود قافلة الحج السلطانية ومرافقة الأمراء لها، ووجود الحراسة الكافية ومرافقة المحمل وكسوة الكعبة لها، ووجود التأمين الغذائي على الطريق، ولذلك ليس غريباً ما ورد آنفاً من أن هناك حجاجاً جاءوا إلى مصر من بلاد الشرق أو الشمال الاسلامي، فضلاً عن حجاج المغرب العربي المارين بمصر[2].

وقبل منتصف القرن السابع الهجري، ونظراً لتعطل الطريق البري المار بعقبة أيلة والمحاذي لساحل البحر الأحمر بسبب الوجود الصليبي، فإن الحجاج كانوا يتوجهون من القاهرة إلى قوص[3]، يقطعونها براً، أو من النيل في نحو عشرين يوماً، ثم تسافر قوافلهم منها في الصحراء الشرقية مدة خمسة عشر يوماً إلى عيذاب[4] أو إلى القصير[5] المتجاورين على ساحل البحر

---

[1]– الغازي، إفادة الأنام، ج6، ص222، ص223. السباعي، تاريخ مكة، ج1، ص251.

[2]– انظر: الفصل الثاني، المبحث الثاني والثالث.

[3] – قُوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً، وهي محطّ التجار القادمين من عدن، وهي شديدة الحرّ؛ لقربها من البلاد الجنوبية، ياقوت، ، معجم البلدان، ج4، ص413.

[4] – عَيْذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم (البحر الاحمر)، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص171.

[5] – القصير: موضع قرب عيذاب، بينه وبين قوص قصبة الصعيد خمسة أيام، وبينه وبين عيذاب ثمانية أيام، وفيه مرفأ سفن اليمن، ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص367.

الأحمر، وهما ميناءين قديمين لمصر على ساحل البحر الأحمر، ثم يركبون الجلاب[1] إلى جدة، وهي رحلة طويلة شاقة جداً[2].

ومازال طريق عيذاب أو القصير هو الطريق الوحيد للحاج المصري منذ الاحتلال الصليبي لبلاد الشام إلى أواخر عهد الايوبيين حيث انتقل بالتدريج الي طريق السويس العقبة فساحل بحر القلزم، وفي سنة 660هـ/1262م، بداية العصر المملوكي؛ سيّر الظاهر بيبرس البندقداري قافلة الحج عبر صحراء سيناء إلى العقبة، وأرسل معها الكسوة التي عملها للكعبة والمفتاح الذي أمر بصنعه لبابها الشريف، ثم عني المماليك بتنظيم السير في هذا الطريق عما كان في عهد الايوبيين، ومن ثم أخذ يقلّ ذهاب الحجاج عن طريق عيذاب وفقدت اهميتها، ولكنها استمرت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب[3].

وبعد ذلك العام أصبح الركب الحجازي يخرج من القاهرة مدينة مصر، فينزل بركة الحاج[4] مرحلة واحدة، فيقيم عليها ثلاثة أيام أو أربعة، ويرد ماءها وهو جفار عذب سائغ[5].

ويتم ترتيب ركب الحاج على هذا الطريق عند رحيلهم من البركة فكان إذا وصل الركب إلى عجرود [6]–وهي محطة قبيل السويس– يأمر أمير الحج بكتابة أكابر الحاج، ويرتب كلاً في مكان معين من القافلة بجماله وذويه وخدمه، ثم يجمع الركب من الطليعة إلى الساقة، ويضبط أطرافه ونواحيه بجماعة من العساكر، بعد أن يسير أصحاب الحمول والأموال والنساء في وسط الركب[7].

---

[1] – هي نوع من السفن التجارية خاصة بالبحر الأحمر. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص53.

[2] – ابن جبير، الرحلة، ص47؛ ؛رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين، ج2، ص307؛ البتنوني، الرحلة الحجازية، ص29. الغازي، إفادة الأنام، ج6، ص223.

[3] – المقريزي، الذهب المسبوك، ص17، ص40، السلوك، ج2، ص32. البتنوني، الرحلة الحجازية، ص31.

[4] – هي منزلة شرق القاهرة لتجمع حجاج مصر في طريقهم إلى الحجاز. العمري؛ مسالك، ج2، ص340.

[5] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص340. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص54.

[6]– عجرود: منزلة من منازل الحاج على طريق الحاج المصري غرب السويس على مسافة عشرين كيلو متر منها، ومن هناك كان يرجع المرضى والمنقطعون والمشيعون. البتنوني، الرحلة الحجازية، ص110.

[7]– الغازي، إفادة الأنام، ج6، ص225، ص226.

ثم يرحل ركب الحاج المصري إلى السويس[1]، فيأخذ إليه في خمس مراحل، ويرد ماءه، وهو ماء ملح لا يكاد يسيغه الشارب ويقيم بقية يومه[2].

والطريق بين السويس والعقبة شاق تسوخ في رماله خفاف الجمال، ويتيه في بيدائه المسافرون فلا يهتدون الا بأنصاب من الحجر بنيت علي الطريق لهدي المسافرين، ويعاني الحجاج فيه من قلة الماء، حيث أن المسافة بين السويس والعقبة تقدر بـ300 كيلو متراً تقطعها قافلة المحمل وهي أسرع القوافل سيراً في عشرة أيام[3].

وفي منتصف الطريق بين السويس والعقبة، وبعد مسيرة خمس مراحل ينزل ركب الحاج المصري في منزلة نخل[4]، ويرد ماءه وهو أعذب مما قبله، ولا بكثير، وكلاهما مما عمل الأمير المقدم الكبير الحاج إلى الملك الجوكندار المنصوري أحد أمراء المشور آجره الله، حيث عمل بها بركا، واتخذ لها مصانع واستأجر أناسا تدبرها طول السنة حتى يملأ البرك لأجل الحاج في ورودهم وصدورهم، فيقيم الحاج بنخل بقية يومه[5].

ثم يرحل إلى أيلة[6] فيأخذ إليها في خمس مراحل، وفي آخرها على رأس أيلة العقبة العظمى المشقة الصعود والهبوط المذكورة في أقطار الأرض، وهي تؤخذ في مرحلة كاملة، فينزل

---

(1)– السويس: مدينة على الجانب الغربي لخليج السويس، المسمى بالبحر الأحمر، وثغر من ثغور مصر، واقعة شرقي القاهرة، وهي ميناء أهل مصر إلى مكة والمدينة، ويحمل إليه الميرة من مصر على الظهر ثم تطرح في المراكب، ويتوجه بها إلى الحرمين. ياقوت، معجم، ج3، ص286، المقريزي، الخطط، ج12، ص69.

(2) – العمري؛ بن فضل الله، مسالك الأبصار ، ج2، ص340. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص54.

(3)– الغازي، إفادة الأنام، ج6، ص225، ص226. الكردي، التاريخ القويم، ج2، ص324.

(4) – سمي بنخل مع أنه لا نخل فيه، لأنَّه لا يخلو من السافي الناعم الذي كأنَّه منخول، وبه بئر وفسقية تملأ منها، وقد بناه الغوري، وقيل نَخِر بفتح النون وكسر الخاء المعجمة بعدها راء، كأنَّه مأخوذ من قولهم ما بالدار ناخر أي أحد، أو من العظام النخرة إذا دخل فيها الرياح لكثرة تهابها. كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص22.

(5) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص340. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص55.

(6) – أَيْلَة: بالفتح: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، ويقال لها عقبة أيلة، وهي آخر الحجاز وأول الشام، وهي مدينة عامرة بها زرع يسير، وهي مدينة لليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير، وتعدّ في بلاد الشام، وقدم يوحنّة بن رؤبة على النبي، صلى الله عليه وسلم، من أيلة وهو في تبوك فصالحه على الجزية وقرّر على كل حالم بأرضه في السنة دينارا فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار، واشترط عليهم قرى من مرّ بهم من المسلمين، وهي مدينة جليلة على لسان من البحر الملح وبها مجتمع حاج مصر والشام، وخراج أيلة ووجوه الجبايات بها نحو ثلاثة آلاف دينار. ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص292.

الركب منها إلى حجز بحر القلزم (البحر الأحمر)، ويمشي على حجزه حتى يقطعه من الجانب الشمالي إلى الجانب الجنوبي، فينزل في العقبة ويرد ماءها، ويقيم بها أربعة ايام أو خمسة، والعقبة هي ملتقى الحجاج المصريين مع الشاميين الآتين من غزة أو من مدن الشام الأخرى، ويكمل منها الظهر والزاد[1].

وبعد العقبة يسير ركب الحاج المصري والمغربي في نفس الطريق الغزاوي على ساحل البحر الأحمر، والتي أوضحناها في المبحث الثاني، ويردون في نفس المنازل ذهاباً وإياباً حيث أن أمير الحج المصري هو الذي يتولى قيادة الركوب المجتمعة التي تسير جنباً إلى جنب، وفي العودة يسيرون عائدين من العقبة إلى نخل ثم السويس ثم القاهرة، وكانت هذه الطريق هي الطريق الرئيسية للحجاج المصريين في العصر المملوكي والعثماني أيضاً كما مر.

الطريق البحري:

وهناك أيضاً طريق بحري للحاج المصري من السويس الى الطور الى ينبع ثم الى رابغ ثم إلى جدة، وأول ما استخدم هذا الطريق سنة 828هـ/ 1425م، عندما أنشئ ميناء جدة البديل عن عدن، وكانت عدن هي الميناء الذي ترسو فيه مراكب تجار الهند، ولم يعرف قطّ أَنَّها تعدت بندر عدن شمالاً، فَلَمَّا كان سنة 825هـ/1422م خرج من الهند أمير اسمه إبراهيم، ومعه مراكب محملة بالتجارة، فَلَمَّا مر على بَاب المندب اتجه شمالاً ولم ينزل في عدن بسبب سوء معاملة صاحب عدن للتجار، فأخذ الشريف حسن بن عجلان ما معه من البضائع وطرحها على التُّجَّار بمكَّة، وفي سنة 826هـ/1423م قدم إبراهيم المذكور على المندب ولم يدخل عدن وتعدى جدة وأرسى بِمَدِينَة سواكن ولقي معاملة سيئة، فعاد في سنة 827هـ/1424م وجاوز عدن ومر بجدة يريد ينبع، وكان بمكَّة الْأَمِير قرقماس فما زال يتلطف به حتَّى أرسى على جدة بمركبين فعامله معاملة حسنة، وعاد فِي سنة 828هـ/1425م ومعه أربعة عشر مركباً محملة بالبضائع، وَقد بلغ السُّلْطَان برسباي خَبره أحب أَخذ مكوسها، فأرسل أحد أمرائه الأمير أرنبغا[2]– أحد أُمراء

---

[1] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص341. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص55.

[2] – هو أرنبغا بن عبد الله اليونسي الناصري، الأمير سيف الدين، أحد المماليك الناصرية فرج، وتنقلت به الخدم إلى أن صار في الدولة الأشرفية برسباي أمير عشرة ورأس نوبة، ودام عَلَى ذَلِكَ دهراً، وجاور بمكة مقدماً عَلَى المماليك السلطانية سنين، إلى أن أنعم الله عليه الملك الظاهر جقمق في سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة بزيادة عَلَى إقطاعه القديم وجعله في جملة الطبلخاناه، توفي ليلة الجمعة تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة سبع

العشرات – في تجريدة عسكرية إلى مكَّة ومعه مائَة مملوك، وتوجه معهم سعد الدّين إبراهيم بن المرة – أحد كتاب المماليك – لأخذ مكوس المراكب الواصلة من الهند إلى جدة[1].

ومنذ ذلك العام تطور ميناء جدة في الحجاز، وأنشئ ميناء السويس في مصر، فصنعت الأغربة[2] في القاهرة، وهي السفن الصغيرة، وحملت على الجمال إلَى السويس، لتركب في بحر السويس، لأجل حمل الغلال ونحوهَا إلَى جدة فمكَّة، مددا للمجردين[3].

وهذا الطريق كان يستخدم لإرسال المدد للحجاج من الغلال والمؤن، وقد سافر فيه الرحالة القلصادي سنة 851هـ/1447م إلى الحج، حيث سافر من القاهرة إلى الطور ثم ركب السفينة إلى الينبع في عشرين يوماً، ثم سار من ينبع إلى رابغ ثم إلى جدة ثم إلى مكة[4]. ومنذ ذلك العام 828هـ/1425م استمر استخدام هذا الطريق إلى ما بعد العصر المملوكي.

ثانياً: طريق الركب العراقي

كان طريق الركب العراقي موضع اهتمام الأمويين والعباسيين الذين اهتموا بتزويده بالمرافق والخدمات كالآبار والحصون وتسهيل الطرق والثنايا وسمي في العصر العباسي بدرب زبيدة لحرصها على توفير راحة الحجاج، وفي الفترة الممتدة من استيلاء المغول على بغداد في سنة656هـ/1258م، حتى بداية القرن العاشر الهجري؛ اضطربت أحوال العراق وأثرت على خروج الركب العراقي، ففي سنين عديدة لا تسير قافلة للحج إلا عندما تستقر الأمور، وفي أعوام عدة كان حجاج العراق وفارس وخراسان وبقية حجاج المشرق الاسلامي يخرجون إلى الشام ليرافقوا قافلة الحج الشامي[5].

ولقد وصف طريق الحج العراقي بن فضل الله العمري في موسوعته الحضارية مسالك الأبصار إلى ممالك الأمصار، في الجزء الثاني الذي تحدث فيه عن الأقاليم والبحار والقبلة والطرق، ونقل عنه الجزيري في كتابه درر الفرائد، ولأن الجزيري لم يضيف شيئاً على كلام

وخمسين وثمانمائة، عن نيف وستين سنة، رحمه الله تعالى. ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج2، ص337.

[1] – المقريزي، السلوك، ج7، ص111.

[2] – الغِراب: سفينة حربية قديمة مدببة الحيزوم ذات أشرعة و مجاديف. دهمان، معجم الألفاظ، ص115.

[3] – المقريزي، السلوك، ج7، ص115.

[4] – القلصادي، الرحلة، ص129– ص131.

[5] – آمنة جلال، طرق الحج ومرافقه، ص115.

العمري فإننا ومن باب رد الفضل لأهله نقتصر هنا على كلام العمري في بيان طريق الحج العراقي واليمني، مع بيان الصفحات التي أورد فيها الجزيري ذكر الطريقين.

وتفصيل طريق الركب العراقي إلى مكة المعظمة، هو أنه يخرج الركب من بغداد إلى صرصر[1] مرحلة واحدة، ثم يرحل إلى فراشة[2]، ويأخذ إليها في مرحلتين، ويرحل إلى شط النيل[3]، ويأخذ إليه في مرحلة، ويرحل إلى الحلة[4]، ويأخذ إليها في مرحلة ويرحل إلى بئر سلامة[5]، ويأخذ إليها في مرحلة، ويرحل إلى الكوفة[6] جماعات ومثنى وفرادى، وفيها تجتمع رفقتهم، وتلتئم فرقتهم، وجميع ما بين بغداد والكوفة قرى عامرة، ومياه متصلة، وأسواق قائمة، وخيرات وافرة[7].

ثم يرحل الركب العراقي من الكوفة، فمنهم من ينزل مشهد أمير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، وهو عن الكوفة دون المرحلة، وإنما ينزل به من ينزل للتبريز إليه استظهارا على السفر، أو لقصد زيارة ذلك المشهد المبارك، ومنهم من لا ينزل إلا القادسية[8]، وهي مرحلة كاملة من الكوفة، ويقيم الركب بها يوماً[9].

---

[1] – منزلة في طريق الحاج من بغداد قد كانت تسمّى قديما قصر الدير. ياقوت، معجم، ج3، ص401.

[2] – قرية مشهورة في سواد بغداد ينزلها الحاجّ. ياقوت، معجم، ج4، ص243.

[3] – منزلة في طريق الحاج العراقي بين فراشة والحلة. العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص345.

[4] – مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمّى الجامعين. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص294.

[5] – منزلة في طريق الحاج العراقي بين الحلة والكوفة. العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص345.

[6] – المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق ويسمّيها قوم خدّ العذراء، قال أبو بكر ابن القاسم: سميت الكوفة لاستدارتها أخذا من قول العرب: رأيت كوفانا وكوفانا، بضم الكاف وفتحها، للرميلة المستديرة، وقيل: سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم: قد تكوّف الرمل، ، ياقوت، معجم، ج4، ص490.

[7] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص345. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص72.

[8] – منزلة بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا، وبينها وبين العذيب أربعة أميال، قيل: سميت القادسية بقادس هراة، وقال المدايني: كانت القادسية تسمى قديسا، وروى ابن عيينة قال: مرّ إبراهيم بالقادسية فرأى زهرتها ووجد هناك عجوزا فغسلت رأسه فقال: قدّست من أرض، فسميت القادسية، وبهذا الموضع كان يوم القادسية بين سعد ابن ابي وقّاص والمسلمين والفرس في سنة 16 من الهجرة. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص291.

[9] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص346. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص72.

ثم يرحل على العذيب[1]، ويأخذ إليه في مرحلة، وهو أول منازل البر من هذه الطريق، فيرد منه ماءه، ويحمل منه لمفاوز البر، ثم يرحل إلى الرحبة[2] ويأخذ إليها في مرحلتين، ويرد ماءها ثم يرحل إلى سلمى[3]، ويأخذ إليها في أربع مراحل، ويرد ماءها وهي نفس منزلة فيد المشهورة التي تقع في منتصف الطريق بين العراق ومكة[4].

ثم يرحل الركب العراقي على واقصة[5]، ويأخذ إليها في أربع مراحل ويرد ماءها، وهي من أشهر منازل الطريق العراقي، وفيها آبار وبرك وماء، ويكون قد مر في طريقه بالقرعاء[6]، وفيها بئران، ثم يرحل إلى خاديت[7]، ويأخذ إليها في اربع مراحل ويرد ماءها[8].

---

[1] – العُذَيبُ: هو ماء بين القادسية والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلا، وهو من منازل حاج الكوفة. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص92.

[2] – قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجّاج إذا أرادوا مكّة، وقد خربت الآن بكثرة طروق العرب، لأنّها في ضفّة البرّ ليس بعدها عمارة. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص33.

[3] – سَلْمى: بفتح أوّله، وسكون ثانيه، مقصور وألفه للتأنيث: وهو أحد جبلي طيّء، وهما أجأ وسلمى، وهو جبل وعر به واد يقال له رك به نخل وآبار مطويّة بالصخر طيّبة الماء، والأرض رمل، بحافتيه جبلان أحمران يقال لهما حميّان والغداة، وبأعلاه برقة يقال لها السّرّاء، وقال السّكوني: سلمى جبل بقرب من فيد عن يمين القاصد مكّة، وهو لنبهان لن يدخله أحد عليها، وليس به قرى إنّما به مياه وآبار وقلب عليها نخل وشجر تين، ولا زرع فيه، وأدنى سلمى من فيد إلى أربعة أميال وهو جبل رمل، وليس بسلمى رمل. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص238.

[4] – فيد: مدينة في نصف طريق الحاجّ من الكوفة إلى مكة، وهي أثلاث: ثلث للعمريّين وثلث لآل أبي سلامة من همدان وثلث لبني نبهان من طيّء، وبين فيد ووادي القرى ستّ ليال، وليس من دون فيد طريق إلى الشام، ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص282، وأهلها من طيء، وهي في أصل جبلهم المعروف بسلمى, وهما جبلان أجأ وسلمى. الحميري، الروض المعطار، ص443.

[5] – واقصة: منزل بطريق مكة بعد القرعاء نحو مكة وقبل العقبة لبني شهاب من طيّء ويقال لها واقصة الحزون وهي دون زبالة بمرحلتين وإنما قيل لها واقصة الحزون لأن الحزون أحاطت بها من كل جانب. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص354.

[6] – هو منزل في طريق مكة من الكوفة بعد المغيثة وقبل واقصة إذا كنت متوجها إلى مكة، وبين المغيثة والقرعاء الزّبيدية ومسجد سعد والخبراء، وبين القرعاء وواقصة على ثلاثة أميال بئر تعرف بالمرتمى، وبين القرعاء وواقصة ثمانية فراسخ، وفي القرعاء بركة وركايا لبني غدانة، ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص325.

[7] – منزلة في طريق الحاج العراقي بين القرعاء وزرود. العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص346.

[8] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص346. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص72.

ثم يرحل إلى زرود[1]، ويأخذ إليها في ست مراحل، ويرد ماءها، ثم يرحل إلى أجفر[2]، ويأخذ إليها في مرحلتين، ويرد ماءه ثم يرحل إلى مرشيت[3]، ويأخذ إليه في ست مراحل، ويرد ماءه، ثم يرحل إلى تخت سليمان[4]، ويأخذ إليه في أربع مراحل، ويرد ماءه، ثم يرحل إلى عاج[5] ويأخذ إليها في اربع مراحل، ويرد ماءها ثم يرحل إلى بويرات[6]، ويأخذ إليه في ثماني مراحل، ويرد ماءه[7].

ثم يرحل إلى ذات عرق[8]، ويأخذ إليها في ست مراحل، ويرد ماءها، وهي ميقات العراقي، فمنها يحرم الحاج ويهلون بالتلبية، ثم يرحل الركب إلى وادي نخلة[9]، ويأخذ إليه في أربع مراحل، ويرد ماءه، ويستعد لدخول مكة، وهو من أحسن وديان مكة وأنضرها، وأمتع في عين من تمتع بنظرها، ثم يرحل إلى مكة المعظمة ويأخذ إليها في مرحلة واحدة[10].

---

[1] – منزلة رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة، وتسمى زرود العتيقة، وفي زرود بركة وقصر وحوض، وهي خمسة أجبل: جبلا زرود وجبل الغرّ ومربخ، وهو أشدّها، وجبل الطريدة، وهو أهونها، حتى تبلغ جبال الحجاز. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص139.

[2] – موضع بين فيد والخزيمية، بينه وبين فيد ستة وثلاثون فرسخا نحو مكة. ياقوت، معجم، ج1، ص102.

[3] – مرشيت: هي منزلة في طريق الحاج العراقي بعد منزلة الأجفر وقبل منزلة عاج، اشتهرت في العصر المملوكي. العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص346.

[4] – تخت سليمان: هي منزلة في طريق الحاج العراقي تقع قبل منزلة وادي عاج، واشتهرت في العصر المملوكي. العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص346.

[5] – واد في بلاد قيس في طريق الحاج العراقي. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص64.

[6] – لعلها منزلة بَوْلانُ: بفتح أوله، وهو موضع قريب من النّباج في طريق الحاجّ من العراق، ويقع قبل ذات عرق في اتجاه مكة. ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص511.

[7] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص346. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص73.

[8] – ذات عرق: مهلّ أهل العراق وهو الحدّ بين نجد وتهامة، ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص107.

[9] – نخلة على لفظ واحدة النّخل: موضع على ليلة من مكّة، وهى التي ينسب إليها بطن نخلة، وهى التى ورد فيها الحديث ليلة الجنّ. وقال ابن ولّاد: هما نخلة الشامية، ونخلة اليمانية؛ قالشامية: واد ينصبّ من الغمير، واليمانية: واد ينصبّ من بطن قرن المنازل، وهو طريق اليمن إلى مكّة. البكري، معجم ما استعجم، ج4، ص1304.

[10] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص346. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص73.

فهذه طريق الركب العراقي على مكة المعظمة في وقتنا هذا، ومنها كان يسير المحمل العراقي في أيام السلطان أبي سعيد[1] بهادر خان بن محمد خرابنده أولجا يتو بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكز خان، وجعل طريق الركب إلى المدينة الشريفة، وأخذ في طريقه إليها من أجفر[2]، فإنه لما ورد ماء أجفر رحل إلى فيد[3]، وأخذ إليه في خمس مراحل، وورد ماءه، وهو ماء عذب طيب[4]، ثم رحل إلى أميرون[5] وأخذ إليه في مرحلتين وورد ماءه، وهو ماء ظاهر الحلاوة، لذيذ الطعم، كأنه ماء النيل أو الفرات، ثم رحل إلى النقرة[6]، وأخذ إليها في

---

[1] – بوسعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، المغلي القان ملك التتار، صاحب العراق، وخراسان، وأذربيجان، والروم، والجزيرة. ملك بوسعيد نحو عشرين سنة. وكان مسلماً، قليل الشر، يكره الظلم، وينقاد للشرع. وأبطل في أيامه مكوساً كثيرة، وفواحش، وخموراً، وهدم كنائس بغداد، وخلع على من أسلم من أهل الذمة، وكان قبل موته بسنة قد حج ركب العراق من العراق، وكان المقدم عليهم بطلاً، شجاعاً، فلم يمكن العرب من قطع الطريق على الحاج. فلما كانت السنة الثانية خرج العرب على الركب ونهبوه، وأخذوا منهم شيئاً كثيراً؛ فلما عادوا شكوا إليه؛ فقال: هؤلاء العرب في مملكتنا، أم في مملكة الناصر محمد بن قلاوون؛ فقالوا له: لا في مملكتك، ولا في مملكة الناصر، وإنما هم في البرية لا يحكم عليهم أحد، يعيشون بقائم سيفهم ممن يمر عليهم؛ فقال: هؤلاء فقراء، كم مقدار ما يأخذون من الركب؟ نحن نحمله إليهم من بيت المال من عندنا في كل سنة، ولا ندعهم يأخذون من الرعية شيئاً؛ فقالوا له: يأخذون ثلاثين ألف دينار؛ ليراها كثيراً؛ فيبطلها، فقال: هذا القدر ما يكفيهم، اجعلوها في كل سنة ستين ألف دينار، وتكون تحمل من بيت المال كل سنة إليهم، فمات بوسعيد في تلك السنة بأذربيجان في شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وسبعمائة، وله نيف وثلاثون سنة. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص203؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، 443.

[2] – أجفر: موضع بين فيد والخزيمية، بينه وبين فيد ستة وثلاثون فرسخا نحو مكة. وقال الزمخشري: الأجفر ماء لبني يربوع، انتزعته منهم بنو جذيمة. ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص102.

[3] – فيد هي مدينة في نصف الطريق من الكوفة إلى مكة عامرة إلى الآن يودع الحاجّ فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ووهبوا لمن أودعوها شيئا من ذلك، وهم مغوثة للحاجّ في مثل ذلك الموضع المنقطع، ومعيشة أهلها من ادّخار العلوفة طول العام إلى أن يقدم الحاجّ فيبيعونه عليهم. البكري، معجم ما استعجم، ج3، ص1033؛ ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص282.

[4] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص346. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص73.

[5] – أميرون: هي منزلة بين فيد والنقرة على بعد مرحلتين منهما. العمري؛ مسالك، ج2، ص347.

[6] – النقرة: منزلة بطريق مكة يجيء المصعد إلى مكة من الحاجر إليه وفيه بركة وثلاث آبار: بئر تعرف بالمهدي وبئران تعرفان بالرشيد وآبار صغار للأعراب تنزح عند كثرة الناس وماؤهن عذب ورشاؤهن ثلاثون ذراعا، وعندها تفترق الطريق فمن أراد مكة نزل المغيثة ومن أراد المدينة أخذ نحو العسيلة فنزلها، ويقال لكل أرض متصوّبة في وهدة نقرة. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص298، ص299.

مرحلتين، وورد ماءها، وهو ماء مملوح لا يستطاب وأكثره ماء ترده الإبل، ثم رحل إلى وادي العروس[1]، وأخذ إليه في خمس مراحل، وهو ماء عذب.

ثم رحل إلى المدينة الشريفة صلوات الله وسلامه على ساكنها، وأخذ إليها في أربع مراحل، ثم سلك إلى مكة المعظمة جادة الطريق المعروفة، وهذه هي الطريق التي كان الركب العراقي يسلكها آخراً وهي مذكورة في حجازيات شعراء ذلك الحين[2].

فهذه جملة ما يتعلق بالطريق العراقي، ومسافات طرقه.

ثالثاً: طريق الركب اليمني

وأما طريق اليمن إلى مكة المعظمة، فكان الركب يخرج من تعز[3] فينزل البيتر[4]، وهو في ذيل الجبل، ويأخذ إليه في مرحلتين، ويرد ماءه، ثم يرحل إلى وادي الحنا[5]، ويأخذ إليه في ثلاث مراحل، ويرد ماءه، ثم يرحل إلى وادي الموز[6]، ويأخذ إليه في مرحلة واحدة، وهو واد كثير الموز والشراب المسكر، وفيه العواهر ويرد ماءه، ثم يرحل إلى جبل القليعة[7]، ويأخذ إليه في أربع مراحل، ويرد ماءه[8].

---

[1] – وادي العروس: هو واد فيه ماء بين النّقرة والرّبذة، ويسمى ماوان غلب عليه الماء فسمي بذلك الماء ماوان، وكانت منازل عبس فيما بين أبانين والنقرة وماوان والربذة. معجم البلدان، ج5، ص45. العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص346. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص73.

[2] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص347. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص73.

[3] – بالفتح ثم الكسر: قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص34.

[4] – هي منزلة قريبة من تعز وتحد أول المراحل للحاج اليمني بعد تعز. العمري؛ مسالك، ج2، ص347.

[5] – وادي على طريق الحاج باليمن مجاور للحقل. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص343.

[6] – وادي الموز: منزلة بها واد تنبت فيه أشجار الموز التي تحتاج إلى الماء والحرارة العالية، وهي متوفرة في هذا الوادي.

[7] – القُلَيْعَةُ: بلفظ تصغير القلعة: موضع في طرف الحجاز من الجنوب على ثلاثة أميال من الغضاض. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص396.

[8] – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص347. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص82.

ثم يرحل إلى زبيد[1]، ويأخذ إليها في مرحلتين، وإنما يجئ إلى زبيد قصداً، لأنها دار الملك، وبها يجتمع شذاذ الركب ويتكامل[2].

ثم يرحل إلى حديدة زبيد[3]، ويأخذ إليها في مرحلتين، ويرد ماءها ويرحل إلى المعازبة[4]، ويأخذ إليها في أربع مراحل، ويرد ماءها، ويرحل إلى فشال[5]، ويأخذ إليها في خمس مراحل، ويرد ماءها[6].

ثم يرحل إلى القحمة[7]، ويأخذ إليها في أربع مراحل، ويرد ماءها، ويرحل إلى المهجم[8]، ويأخذ إليه في أربع مراحل، ويرد ماءها ويرحل إلى جازان[9]، ويأخذ إليه في أربع مراحل ويرد ماءه، ويرحل على بياضة[10]، ويأخذ إليها في اربع مراحل، ويرد ماءها، ويرحل إلى حرض[11] ويأخذ إليها في اربع مراحل، ويرد ماءها، ثم يرحل إلى المحالب[12]، ويأخذ إليها في ست مراحل، ويرد ماءها[13].

---

(1) – اسم واد به مدينة يقال لها الحصيب ثمّ غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلّا به، وهي مدينة مشهورة باليمن أحدثت في أيّام المأمون وبإزائها ساحل غلافقة وساحل المندب، وهو علم مرتجل لهذا الموضع، ينسب إليها جمع كثير من العلماء، ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص131.

(2) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص348. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص82.

(3) – منزلة للحاج اليمني بالقرب من زبيد. العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص348.

(4) – المعازبة: هي منزلة للحاج اليمني في منتصف المسافة بين فشال وزبيد. العمري؛ مسالك، ج2، ص348.

(5) – قرية كبيرة بينها وبين زبيد نصف يوم وهي عاصمة قرى وادي رمع. ياقوت، معجم، ج4، ص266.

(6) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص348. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص82.

(7) – القَحْمَةُ: بليدة قرب زبيد وهي قصبة وادي ذوال، بينها وبين زبيد يوم واحد من ناحية مكة، وهي للأشاعرة فيها خولان وهمدان. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص311.

(8) – المَهْجَمُ: بلد وولاية من أعمال زبيد باليمن، بينها وبين زبيد ثلاثة أيام، ويقال لناحيتها خزاز، وهي منزلة من منازل الحج اليمني. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص229.

(9) – جَازَانُ: موضع في طريق حاجّ صنعاء. ياقوت، معجم البلدان،ج2، ص94.

(10) – البياض: حصن باليمن من أعمال الحقل قرب صنعاء. ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص518.

(11) – هو بلد في أوائل اليمن من جهة مكة، نزله حرض ابن خولان بن عمرو بن مالك بن حمير فسمّي به، وهو اليوم بين خولان وهمدان. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص243.

(12) – بليدة وناحية دون زبيد من أرض اليمن. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص59.

(13) – العمري؛ مسالك الأبصار ، ج2، ص348. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص82.

ويرحل إلى حلي[1]، وهو حلي ابن يعقوب، ويأخذ إليه في ست مراحل، ويرد ماءه، ويرحل على حازة[2]، ويأخذ إليها في أربع مراحل، ويرد ماءها، ويرحل إلى ملتقى الواديين[3]، ويأخذ إليه في اربع مراحل، ويرد ماءه، ويرحل إلى الحسنة[4]، ويأخذ إليها في اربع مراحل ويرد ماءها[5].

ويرحل إلى يلملم[6] ميقات اليمن، ويأخذ إليه في مرحلتين ويرد ماءه ويحرمون منه، ويهلون بالتلبية، ويرحل الركب إلى البير[7]، ويأخذ إليه في اربع مراحل، ويرد ماءه ويرحل إلى بئر علي[8]، ويأخذ إليه في ثلاث مراحل، ويرد ماءه، ثم يرحل إلى مكة ويأخذ إليها في مرحلة واحدة[9].

فهذا ما يتعلق بطريق الركب اليمني.

ويتضح مما تقدم أن الطرق إلى مكة تأتيها من أربع جهات، وأن الحجاج من بلاد الشام سلكوا طريقين في ذهابهم إلى الحج الطريق الشامي التبوكي والطريق الغزاوي، وأن حجاج مصر شاركوا الحج الغزاوي في طريقهم البري إلى الحج وكان لهم طريق بحري من السويس إلى ينبع

---

(1) – حلي مدينة باليمن على ساحل البحر، بينها وبين السرّين يوم واحد، وبينها وبين مكة ثمانية أيام، ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص297.

(2) – حازّةُ: بتشديد الزاي، حازّة بني شهاب: مخلاف باليمن. وحازة بني موفّق: بلد دون زبيد قرب حرض في أوائل أرض اليمن. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص205.

(3) – منزلة للحاج اليمني بين حازة والحسنة، كما هو واضح من كلام العمري، وهو واد باليمامة لبني هزّان في أعلى المجازة من أرض اليمامة كثير النخل والزرع، قال أحمد بن محمد الهمذاني: أول ديار ربيعة باليمامة مبدأها من أعلاها أولا دار هزّان وهو واد يقال له برك وواد يقال له المجازة أعلاه وادي نعام واسم الوادي نفسه نعامة، ويقال له أيضا ملتقى الواديين ونعام. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص292، ص293.

(4) – قيل هو واد بينه وبين السّرّين مسيرة ليلة من جهة اليمن. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص258. وقيل حسنة : جبال بين صعدة وعثّر من أرض اليمن في الطريق إلى مكة. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص260.

(5) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص348. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص82.

(6) – يَلَمْلَمُ: ويقال ألملم، والململم المجموع: موضع على ليلتين من مكة وهو ميقات أهل اليمن وفيه مسجد معاذ بن جبل. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص441.

(7) – ماء في ديار طيّء. ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص525.

(8) – بئر علي هو منزلة قريبة من مكة في طريق الحاج اليمني. العمري؛ مسالك، ج2، ص348.

(9) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص348. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص83.

إلى جدة، وكان حجاج العراق يمرون في عدة منازل من بغداد إلى الكوفة إلى مكة كما ذكرنا، وكذلك حجاج اليمن لهم منازل يمرون عليها في طريقهم إلى مكة.

وبعد التعرف على منازل الحج في طرقه المختلفة، نتعرف في الفصل القادم على كيفية تجهيز قوافل الحجاج من بلاد الشام وتسييرها في العصر المملوكي بوسائل المواصلات التي كانت موجودة آنذاك، والتي لا تتجاوز ظهور الدواب من إبل وخيل وبغال وحمير.

الفصل الرابع

كيفية تسيير قافلة الحج الشامي في العهد المملوكي والمرافقون لها

المبحث الأول: كيفية الاستعداد والإعداد لقافلة الحج الشامي.

المبحث الثاني: تسيير وعودة قافلة الحج الشامي.

المبحث الثالث: المرافقون لقافلة الحج الشامي.

الفصل الرابع

كيفية تسيير قافلة الحج الشامي في العهد المملوكي والمرافقون لها

اضطررنا في أثناء البحث في موضوع هذه الرسالة أن نجعل هذا العنوان فصلاً كاملاً، وذلك تتميماً للفائدة العلمية، وتشويقاً للقارئ الكريم حتى يطّلع على كيفية تسيير قوافل الحج عامة، وعلى قافلة الحج الشامي في عهد المماليك خاصة، وعلى المرافقين لقوافل الحجاج في ذلك الزمان.

وقد جعلناه في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: كيفية الاستعداد والإعداد لقافلة الحج الشامي.

المبحث الثاني: تسيير وعودة قافلة الحج الشامي.

المبحث الثالث: المرافقون لقافلة الحج الشامي، ولخدمة الحجيج.

وقبل الدخول في مباحث الفصل نؤكد أن الحج إلى بيت الله الحرام كانت له أهمية خاصة عند الخلفاء، ومنهم سلاطين المماليك فقد كانوا يعنون به، ويعدون له قبل موعد موسم الحج بفترة كافية، ويتم تجهيز القافلة بكل ما يلزم، ويزيدون على ذلك حفاوة بالاحتفالات التي كانوا يجرونها لهذه المناسبة كما ذكرنا في الفصل الثاني.

المبحث الأول: كيفية الاستعداد والإعداد لقافلة الحج الشامي.

كانت الشام في عهد المماليك الاقليم الرئيسي الثاني بعد مصر، وقد قسَّمها المماليك إلى ست نيابات؛ الأولى: نيابة دمشق وهي كبرى النيابات الشامية وأرفعها في الرتبة ونائبها يسمى ملك الأمراء[1]، لأن النيابات الشامية الأخرى كلها تتبع له، ويتبعها نيابات وولايات صغرى مثل غزة والقدس وصرخد وعجلون وبعلبك وحمص ومصياف والرحبة، وصارت غزة نيابة قائمة بنفسها في القرن الرابع عشر الميلادي، والنيابات الأخرى بعد نيابة دمشق: هي نيابة حلب وهي النيابة الثانية وتتمتع بأهمية خاصة لوقوعها على الأطراف الشمالية، ونيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة صفد، ونيابة الكرك[2].

وكان المحمل السلطاني والركب الشامي يخرج من دمشق ومعه حجاج بلدان الشام والنيابات الشمالية، وينضم أهل نيابة الكرك وما حولها من القرى إلى قافلة الحجاج، عند مرورها ببلادهم، أما حجاج النيابات الجنوبية ومدن الساحل وحجاج القدس فيخرجون من غزة بعد تجمعهم، ويسيرون على الطريق الغزاوي.

ومما يجدر ذكره أنه في بعض الأعوام خرجت محامل للحج من مدن شامية، مثل خروج محمل مع الركب الشامي من ماردين بسبيل وصدقات، في سنة694هـ/1294م حيث حجت عمة صاحب ماردين[3] مع الركب الشامي، وكان لها محمل كبير وسبيل كثير، وتصدقت بمال كثير، وانتفع بها أهل الحرمين وأمراء مكة والمدينة[4]، ومثل خروج محمل وسبيل من حلب مع

---

[1] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص35، ص39، ص50، ص74، ص190، ص221، ص316.

[2] – القلقشندي، صبح الأعشى ج4، ص240–ص242. عاشور، العصر المماليكي، ص 207، ص208.

[3] – صاحب ماردين هو الملك السعيد شمس الدين داود ابن الملك المظفر فخر الدين ألب أرسلان. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص58. وماردين هي مدينة من ديار ربيعة بعمل الموصل، بينها وبين مدينة دارا نصف مرحلة، وهي في سفح جبل في قنته قلعة لها كبيرة، وهي من قلاع الدنيا الشهيرة. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص518.

[4] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص292، ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص127.

الحجاج الشاميين سنة787هـ/1385م[1]، واستمر من سنة 797هـ-799هـ/1395م-1397م لمدة ثلاث سنين متوالية[2]، وكذلك خروج محمل من الكرك كما حدث سنة869هـ/1465م[3].

ونحن نرى أن خروج هذه المحامل من عدة مدن شامية في بعض السنين هدفه ديني أكثر منه سياسي؛ لأن ولايات الشام كانت وحدة سياسية واحدة تحت سلطة المماليك، فكان الهدف هو التنافس في التصدق والإهداء إلى الحرمين والفقراء في رحلة الحج.

وكان الصالحون والأفاضل ممن سبقونا يحرصون على سفر الحج بالرغم من مشاقه وأهواله في مشارق ومغارب العالم الاسلامي، ويسترخصون ما ينفقونه فيه، وقد ورد عن الإمام الشافعي في مدح السفر أبيات من الشعر نذكرها لإفادة القارئ:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

فان قيل في الأسفار هم وغربة وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد

فموت الفتى خير من مقامه بدار هوان بين واش وحاسد[4]

ومن أفضل ما يسافر له المسلم هو أداء فريضة الحج وزيارة المدينة الشريفة، وعلى الرغم من مشاق السفر وصعوباته قديماً؛ فإن الحجاج قطعوا المسافات الشاسعة للحج إلى بيت الله الحرام؛ طلباً للأجر والثواب، ووجدوا فيه متعة عظيمة، كيف لا والرسول أخبر بأن الحج يقارن بالجهاد في الأجر، ولهذا فقد كانوا يحجون لله، غير طالبين لدنيا فانية، ولا متعة زائلة، وكانوا في استعداد وتوقع للموت في أية لحظة، وكانوا يجمعون الأموال سنوات من أجل إنفاقها والتصدق بها في رحلة الحج، وليس كما يفعل البعض اليوم ممن يحج للدنيا والجاه وجمع المال مما نراه

---

[1] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص303، ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص395.

[2]– ابن حجي، تاريخ، ص299. ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج3، ص661.

[3] – ابن فهد، اتحاف الورى، ج3، ص461. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص466.

[4] – الجزيري، الدرر الفرائد، ج1، ص87.

في وقتنا الحاضر، وقد صدق رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم الذي أخبر بأنه يأتي على الناس زمان يحجون فيه للدنيا[1].

لذا نجد أن حجاج الأندلس والمغرب العربي يتجهزون للسفر قبل موعد الحج بعام ونصف ليؤدوا الفريضة[2].

وبالرغم من قرب المسافة بين الشام ومكة بالنسبة إلى غيرها من البلدان، إلا أنها تعد مسافة شاقة، وتوجد بينهما المفاوز والقفار، وتستغرق رحلة القافلة من مدن الشام إلى مكة مدة لا تقل عن أربعين يوماً ذهاباً ومثلها إياباً في أحسن الأحوال[3].

ومع هذه المشقة فقد كان المحمل الشامي، وأهل الشام يحرصون سنوياً على الخروج بمحمل لأداء فريضة الحج، وينضم إليهم حجاج آسيا والشمال الاسلامي[4]، قاطعين مئات الأميال، لا يهمهم سوى أداء الفريضة والفوز بالأجر والغنيمة.

وقد خضع إعداد قافلة الحج في العصر المملوكي إلى تقاليد ثابتة بقي معمولاً بها حتى في أثناء العصر العثماني، وحرص المماليك على تسيير وتيسير سبل خروج الركب من الشام سنوياً، وإرسال المحمل المعد له، مع ملاحظة أن المحمل الشامي هنا لا يحمل كسوة الكعبة التي تصنع في مصر وترسل مع محمل الركب المصري، وإنما هو عبارة عن جمل يحمل مصحف وهدايا وصرر وأموال لأهل مكة والمدينة وسبيل للفقراء[5]، وعليه حرير مطرز بشكل بديع[6]، وهدفه

---

[1] – روي عن أنس مرفوعاً بلفظ: يأتي على الناس زمان يحج أغنياء أمتي للنزهة وأوساطهم للتجارة وقراؤهم للرياء والسمعة وفقراؤهم للمسألة. أخرجه الخطيب (296/10) والديلمى (444/5 رقم 8689)، أنظر جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطي، ص25693. والحديث وإن كان قد ضعفه العلماء إلا أنه يتعاضد مع أحاديث أخرى في الحث على الإخلاص والبعد عن الرياء في جميع الأعمال، ومنها الحج.

[2] – حسين مؤنس، أطلس تاريخ الاسلام، ص395.

[3] – العمري، مسالك الأبصار ج2، ص301، الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص45.محمد حسن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، رحلة فارتيما، ص254.

[4] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص108، ص233.

[5] – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج2، ص77، ص121، ص530؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج3، ص587. ابن صصري، الدرة المضية، ص26، ص70.

[6] – نقولا زيادة، دمشق في عهد المماليك، ص100.

سياسي وهو إظهار بأن للمماليك السيادة على الحرمين، واهتماماً منهم بالحج وشعائره، وإعلاماً للناس بأمن الطريق.

اختيار الأمير ودوران المحمل ووضع الصنجق:

تبدأ الاستعدادات لسفر الحجاج باختيار أمير الحج برتبة كبيرة، والذي يتم اختياره كل عام، وقد كان المماليك يختارون أمير الحج المصري في القاهرة ليلة المولد النبوي باحتفال رسمي، وذلك بعد اجتماع السلطان وأمراء المماليك ومقدمي الألوف لسماع تلاوة القرآن وقصة المولد، وبعد ذلك تصدر من السلطان إشارة لطيفة، وهي إعلام بإحضار المشروب فيبدأ الساقي فيناول السلطان كأساً ليشرب منه ما تيسر، ثم يشير السلطان إليه بإعطاء باقي مشروبه إلى من عينه أميراً على الحاج في تلك السنة، فعند وصول ذلك إليه يفهم الإشارة ويقوم على أقدامه مسرعاً لتقبيل يد السلطان، وتهنئه الأمراء باستقراره في هذا المنصب الجليل، ويشرع في أسبابه ومهماته لتلك السنة فقط على حسب ما تقتضيه همته ومروءته[1].

أما في دمشق فيتم تعيينه بمرسوم سلطاني شريف يصدر بتسمية أمير القافلة أو أمير الركب الشامي، ويقرأ عند وصوله في دار السعادة في دمشق باحتفال رسمي، يجري لتعيين أمير الحج[2]، حيث يتولى نائب دمشق إلباس الأمير الجديد خلعة إمرة الحج، وفي بعض السنين كان يستبدل به أمير آخر في اللحظة الأخيرة[3].

ومن خلال البحث في إمرة الحاج الشامي في الفترة المملوكية يتبين أنه في بعض الأعوام يتولى نائب الشام "دمشق" إمرة الحاج، وأن هذه الوظيفة تناط بالأمراء والمماليك الذين هم دون النائب في المرتبة، ولم يعين لهذه الوظيفة أحد من أبناء الشام الأصليين العرب[4].

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص170.

[2] – البصروي، تاريخ البصروي، ص 153.

[3] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص128، ص190، ص233، ص305، ص383، ص407.

[4] – ابن الجزري، حوادث، ج2، ص77، البصروي، تاريخه، ص 153. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص219. وللمزيد أنظر تتبعنا لأمراء الحج الشامي في الفصل السادس.

وقد يتكرر إختيار الأمير نفسه لأعوام أخرى إذا شكرت سيرته، وكان ذا كفاءة، وغالباً ما يكون اختياره في الأشهر من ربيع أول إلى شهر رجب[1].

وكان أمراء المماليك يتنافسون للحصول على هذه الوظيفة وخاصة في أواخر العصر المملوكي؛ لما كانت تدره عليهم من أموال، فمن أجل القافلة كانوا يجمعون الأموال من السكان عن طريق الرميات والدورة، وكان أمير الركب يصادر الحجاج ويرث المتوفين منهم، وهو الأمر الذي أدى إلى أن يجتمع علماء ووجهاء دمشق في الجامع الأموي؛ لمناقشة ظلم أمير الحاج، مثل ما حصل من أمير الحاج الشامي يلباي من ظلم الحجاج في الطريق، خصوصاً الأغراب، من جهة الاستيلاء على ميراث الحاج المتوفي وعدم تركه لأقاربه، وحصلت احتجاجات لشكاية الحجاج عليه بسبب ذلك[2].

وبعد الاختيار يبدأ الأمير في جمع المال اللازم للرحلة، والتهيئة لأمور السفر، وتبدأ الرميات وهي المبالغ المقررة على كل حي وحارة، ويفرض على كل حارة مبلغ معيّن يقوم مساعدوه بجمعه، وفي بعض السنين أساء المماليك استغلالها وصاروا يبالغون في جبايتها ويرهقون الأهالي، حتى أن بعض الناس دعوا على الحجاج بألا يرجعوا من كثرة ما جرى عليهم من الظلم بسبب ذلك[3].

ثم تبدأ أول أعمال الحج بالمناداة بالحج والتهيؤ له، وذلك بوضع الصنجق (العلم) السلطاني على الباب الأوسط من أبواب الجامع الأموي تحت قبة النسر اعتباراً من جمادى الآخرة وأحياناً في شهر رجب؛ إعلاماً للناس بالتهيؤ لأمر الحج، واجتماع شروط السفر، وأمان الطريق وبأن القافلة ستنطلق في هذا العام [4]. وقد جرى هذا التقليد سنوياً اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي أمر ونادى في الناس بالتجهز للحج في أول ذي القعدة[5].

---

[1] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص300، ص407.

[2] – المصدر نفسه، ص32.

[3] – المصدر نفسه، ص233، ص236.

[4] – البرزالي، تاريخ المقتفي، ج4، ص230، ص375. المقريزي، السلوك، ج6، ص392، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص232، ص300، ص407.

[5] – ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص170.

وعلى اعتبار أن المسافة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة تستغرق عشرة أيام؛ فقدم النداء بثلاثة أمثالها، وكذلك كان الحال في تحديد الفترة الزمنية التي يستغرقها ركب الحج من الشام إلى الحجاز؛ والتي قدرت بأربعين يوماً، فعند التقديم بثلاثة أمثالها يكون النداء بالحج في النصف من شهر رجب في الشام سنوياً[1].

وكان وضع الصنجق يتم باحتفال كبير يحضره القضاة والأعيان والوجهاء والأئمة والقراء والعسكر[2]، والذي كان بلون أصفر من حرير أطلس، بطراز مزركش بشراريب، وهلاله من ذهب، وكان على حد تعبير ابن طولون أكثر بهجة من صنجق العثمانيين الأحمر ذي الهلال الفضي[3]. وفي العادة يوضع الصنجق[4] في الجامع الأموي في الباب الأوسط؛ إعلاماً للناس بالتهيؤ لأمر الحج، واجتماع شروط السفر، وأمان الطريق[5]. وهو ما يشبه اعلانات وزارات الاوقاف عن التسجيل للحج كل عام في زماننا هذا.

وبعد نصب الصنجق يبدأ دوران المحمل في شهر رجب على العادة[6]، والمحمل عبارة عن صندوق خشبي مربع يعلوه هرم مزين بالحلي والنفائس ويحمله جمل قوي وجميل مزين هو الآخر بمختلف الحلي ومغطى بفاخر القماش، وكان يحمل معه مصحفاً شريفاً مغطى بالحرير.

وفي بعض السنين يتزامن اختيار الأمير ودوران المحمل ووضع الصنجق فيكونان في وقت واحد في شهر رجب، ويخرج معه القضاة والأعيان والأمراء والفقهاء والقراء، ويخرج الناس للتفرج ورؤية المحمل[7].

---

[1] – المقريزي، الذهب المسبوك، ص40.

[2] –البرزالي، تاريخ، ج4، ص323. ابن الجزري، حوادث، ج2، ص391، ج3، ص671، ص765، 869.

[3] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص371.

[4] –الصنجق: هو راية تتخذ كالعلم. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص300، ص407.

[5] – ابن الجزري، ج2، ص329؛ المقريزي، السلوك، ج6، ص392، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص232، ص300، ص407.

[6] – ابن صصري، الدرة المضية، ص65؛ ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج3، ص475. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص220، ص232، ص305، ص385.

[7] – البرزالي، تاريخ المقتفى، ج4، ص75، ص147، ص230، ص375. ابن الجزري، حوادث، ج3، ص1025. ابن صصري، الدرة المضية، ص65.

وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤون على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل، والحداة يحدون أمامهم؛ فعند ذلك تهيج العزمات وتتبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد[1].

وبعد احتفال دوران المحمل فإنه يعود إلى دار السعادة ومعه الصنجق، ويبقى في دار السعادة حتى لحظة خروج الركب الحجازي للسفر[2].

وفي حالة وجود خطر على الحجاج في سنة ما أو في طريق ما، فإن السلطان يصدر أمراً بمنع الناس من الذهاب إلى الحج على ذلك الطريق أو في تلك السنة، ويكلف من ينادي في الأسواق لإبلاغ جميع الناس بذلك[3].

ويصل الأمر في تجهيز المحمل أن ينفق عليه مبالغ كبيرة، ففي سنة 806هـ/1404م في شهر رجب عمل الْأَمِير شيخ نَائِب الشَّام محمل الْحَاج المكي، وأداره بِدِمَشْق فِي ثَانِي عشرين رجب حول الْمَدِينَة قبل أن يصبح سلطان المماليك في مصر؛ وَكَانَ قد انْقَطع من سنة ثَمَانمائَة وثَلَاث، وأنفق عليه مبلغ خَمْسَة وَثَلَاثِينَ ألف دِرْهَم فضَّة، وذلك ليصرف على ثوب الْمحمل، وَهُوَ حَرِير أصفر مَذْهَب، فاهتم النائب بأمره وجهزه وطيف به في شهر رجب على العادة، وَنُودِيَ بِخُرُوج الْحَاج على طَرِيق الْمَدِينَة النَّبَوِيَّة، وعين لإمرة الحاج فَارس دوادار الأَمِير تنم، ورافق الركب في سفر الحج الأمير برشباي أحد الأمراء، والأمير يحيى بن لاقي وكان نقيب الجيش[4].

ولا يحتاج الحاج العادي إلى إذن خروج أو تأشيرة دخول أو جواز سفر، إنما إلى نية وإرادة وزوّادة، أما الأمراء والقضاة وموظفي الدولة المملوكية وجنودها، فلا يسمح لهم بالخروج إلا بإذن السلطان أو نائبه، ومن يخالف يعاقب[5].

---

[1] – ابن بطوطة الرحلة، ج1، ص33.

[2] – ابن طولون، مفاكهة الخلان مفاكهة الخلان، ص385، ص408.

[3] – المقريزي، السلوك، ج6، ص392، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص372؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص450.

[4] – ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج4، 3ص252. المقريزي، السلوك، ج6، ص104، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص686، ص687. ابن حجر، إنباء الغمر، ج5، ص 152.

[5] – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج1، ص538.

وفي الأشهر التي تسبق شهر شوال –وهو الشهر الذي تخرج فيه قافلة الحج–؛ ينشط الخطباء والعلماء والوعاظ في المساجد؛ لتحريك عواطف الناس إلى أداء هذه الفريضة، وحثهم وترغيبهم فيها، كما يحصل اليوم في زماننا[1]. وكذلك يدور الشعراء في البلاد بالطبل والنشيد والغناء، لتشويق الناس إلى الحج وغناء الحجيج مباح لما فيه من التشويق إلى الحج وأداء الفريضة وشهود المشاعر[2].

إعداد قافلة الحج:

قافلة الحج كانت تمكث في رحلتها من بلاد الشام إلى الحجاز قرابة ثلاثة أشهر ونصف ذهاباً وإياباً، ولذلك فقد زودت بكل وسائل الراحة من مركوبات ومأكولات، فيُجهز لها الإبل والخيل والبغال والحمير لركوبهم وأحمالهم وهي نعمة من الله يجب ألا نغفل عنها في كل عصر مهما استغنينا بوسائل مواصلات أخرى؛ قال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[3].

وتوفر لهم الدولة المملوكية أيضاً جميع احتياجات المعيشة من مأكل ومشرب وملبس وسبيل للفقراء، فعند خروج الركب من دمشق بالمحمل السلطاني، فإنه عادة ما يخرج معه سبيل مسبل للفقراء والضعفاء المنقطعين بالماء والزاد والأشربة وعلف للدواب[4].

والمؤرخون في عصر المماليك لا يفتأون يكررون في أحداث كل سنة قول إن الركب الشامي خرج ومعه سبيل على جاري العادة[5].

---

[1] – البتتوني، الرحلة الحجازية، ص162.

[2] – النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج4، ص161.

[3] – سورة النحل، الآيات من 5–9.

[4] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص338. المقريزي، الذهب المسبوك، ص100 –102.

[5] – انظر البرزالي، أحداث سنة 690هـ؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، حوادث سنة 690، ج1، ص61، سنة 691، ج1، ص122، سنة692، ج1، ص159، سنة725، ج3، ص77، سنة727، ج3، ص193، سنة735، ج3، ص769. ابن صصري، الدرة المضية، ص140، ص160.

وحرص المماليك على تزويد القافلة بأصحاب الحرف والصنائع المختلفة التي يحتاج إليها الحجاج في الحل والترحال، وكذلك مجموعة من الأطباء والكحالين والمجبرين والجرايحية في أكمل زي وأتم أبهة، والذين يحملون معهم الأدوية والعقاقير والدريقات والمعاجين اللازمة للعلاج، ويرافق القافلة أيضاً الأدلاء والقاضي والأئمة والمؤذنين ومغسلي الموتى وغيرهم، والمختص برعاية الدواب ورجل الإعلام والشعراء، بالإضافة إلى الحرس الرافعين للأعلام والحاملين للكوسات والطبول السلطانية، ممتثلين لنداء "لبيك اللهم لبيك"، وكل هذه الاجراءات ليسهل الطريق إلى بيت الله الحرام[1].

وهذا يشبه تماماً ما يحدث في وقتنا الحاضر من توفر بعثات طبية؛ للرعاية الطبية للحجاج وتقديم العلاج، وبعثات أخرى صحفية وادارية وارشادية وخدماتية مرافقة للحجيج.

وقبيل السفر يتم ترتيب الرجال الذين سيقومون على خدمة الركب، مثل المقوم الذي يقوم بتقديم الجمال وغيرها من المطايا المطلوبة للركب في ذهابه وإيابه بحيث إذا هلك أحدها يقدم غيرها، وذلك لقاء أجرة معلومة، ومنهم من يأخذ من المقوم كفلاء لكي لا يقصر في واجبه، والعكام الذي يقوم على خدمة الجمال، والمهتار الذي يقوم بعلف الدواب والسقاة وناصبي الخيم والأجراء[2]. وغيرهم ممن يقوم بخدمة قافلة الحج، وسنتطرق ان شاء الله الى موضوع المرافقين لقافلة الحج وأميرها في المبحث الثالث من هذا الفصل.

وفي حالة حج سلطان من سلاطين المماليك فإن تجهيزات قوافل الحج تكون أكثر تجهيزاً وتزويداً، ويتضح ذلك مما ورد في حجة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام 719هـ/1319م؛ عندما اهتم السُّلْطَان بالحركة إِلَى الْحجاز ليحج، فشرع في تجهيز الركب بكل ما يحتاج إليه طوال فترة الحج، حيث جمع سائر أصحاب الحرف المختلفة، وَتقدم إِلَى أمراءه لتحضير ما يلزمه وتجهيز الإقامات والمعلوفات والحوائج خاناه، وجهز عدَّة قدور من ذهب وَفِضة ونحاس تحمل على البخاتي ويطبخ فِيهَا، وأحضر الخولة لعمل مباقل ورياحين فِي أحواض من خشب تحمل على الجمال فَتَصِير مزروعة وتستقى ويحصد مِنْهَا مَا تَدْعُو الْحَاجة إِلَيْهِ فِيهَا من البقل والكراث والكزبرة والنعناع وَالريحَان وأنواع المشمومات شَيْء كثير ورتب لَهَا

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص338.

[2] – عبد العزيز العظمة، مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، ص114.

الخولة لتعهدها، وجهزت الأفران وصناع الكماج والجبن المقلي وَغَيره، والأفران والخبازين لعمل ما يحتاج إليه من خبز، وجهز الدقيق والروايا والأشربة، ودُفع إِلَى العربان أُجرَة الْأَحْمَال من الشّعير والدقيق والبقسماط، وجهز فِي بَحر الْملح مركبين إِلَى يَنْبع ومركبين إِلَى جدة وَكتب أوراق العليق للسُّلْطَان والأمراء، وحمل من دمشق خمسمائة حمل على الجمال ما بين حلوى وسكردانات وفواكه ومائَة وثمانون حمل حب رمان ولوز وما يحتاج إليه من أَصناف المطبخ، وجُهز ألف طَائِر من الأوز ومن الدَّجاج ثلاثة أُلَّاف طائر، وأكثر من الصدقات في طريق الحج وفي الحرمين[1].

وإذا حج أحد الأمراء من المماليك فإنه يصحب معه الكثير من الأموال ويتصدق بها، ويسير على الهجن في قافلة سريعة حتى لا تطول غيبته عن أمارته.

كما حصل في حج المؤرخ الأمير أبو الفداء صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، حيث استصحب معه ستة أرؤس من الخيل نجائب، وسار في صحبته عدة مماليك بالقسي والنشاب، وسبق الركب إلى المدينة الشريفة، وتمكن من الزيارة خلوة، وأقام حتى لحقه الركب، ثم سبق ووصل إلى مكة، وأقام بها وحج، ثم عاد إلى البلاد، وسبق الحجاج، ومر بتبوك ووصل إلى حماة، حادي عشر المحرم سنة أربع عشرة، وكان مسيره من مكة إلى حماة نحو خمسة وعشرين يوماً، أقام من ذلك في المدينة، وفي العلا، وفي بركة زيزا ودمشق، ما يزيد على ثلاثة أيام، وكان خالص مسيره من مكة إلى حماة، دون اثنين وعشرين يوماً، وكان مسيره على الهجن، وكان صحبته فرس وبغل[2].

استعدادات بداية الرحلة والمسير:

في شهر شوال يتم دوران المحمل في شوارع مدينة دمشق وحولها إيذاناً ببدء السفر وإعلاماً للحجاج بالتوجه إلى الحجاز، والذي غالباً ما يكون في الفترة من منتصف شوال إلى العشرين منه، وفي بعض السنين في مستهله، أي في الثلث الأول منه، ثم يبدأ سفر المحمل والركب الحجازي بعد تجهيزه واختيار موظفيه[3]. ومن عجيب أمر المحمل نراه يتكرر دورانه عدة مرات

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج3، ص17، ص18، الذهب المسبوك، ص101 –102.

[2] – أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص73.

[3] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص220، ص385، ص413.

خلال أسابيع، لتنبيه الناس وإعلامهم، حتى أننا نجد ابن طولون المؤرخ يتعجب من دوران المحمل في دمشق في شهر وأيام مرتين[1].

وبعد أن تتكامل الاستعدادات تخرج القافلة من دمشق في يوم مشهود، ويرافقها إضافة إلى أميرها، قاضي الركب، وحوالى مئة من الجند المماليك، يتقدمهم محمل الحج والمصحف الشريف والصنجق السلطاني، ويودّعها الناس ونائب دمشق وأعيان البلد فيها[2].

وفي يوم السفر يُقام احتفالٌ يحضره النائب، والقضاة وكبار رجال الدولة، وتدق الطبول والكوسات، وبعد أن يتم دوران المحمل وإقامة الاحتفالات اللائقة؛ تكون وجهة المحمل والركب إلى المكان الذي يتجمع فيه الحجاج مع أقرانهم من بلدان شمال آسيا وتركيا خارج دمشق، ويختلف مكان التجمع من وقت لآخر ففي أوائل العصر المملوكي كان التجمع في الكسوة على مسافة نصف مرحلة من دمشق[3]؛ وفي عهد المماليك الشراكسة كان مكان التجمع قبة يلبغا[4] بالقرب من الكسوة، وعرف ذلك بأنه إيذانٌ ببدء الرحلة الحجازية[5].

وبداية سفر الركب يكون في وقت الضحى، مصاحباً لدوران المحمل وخروجه، ويكون بطريقة مهيبة بحيث يخرج معه خيول ملبسة، وهجن مكورة، وجمال مرحلة، ورجالة مدرعة في مهيع عظيم، وحضور كريم من الأعيان والأهالي، ويخرج من دار السعادة[6].

وفي بداية مسير ركب الحج، يلتف الفرسان حول القافلة وهم يحملون المشاعل التي توقد ليلاً، كما أن الفرسان يستحثون من يتخلف عن الركب من الحجاج، ويساعدون من يحتاج إلى المساعدة، ويحرسونهم من اللصوص، وقطاع الطرق، ومن ثم تبدأ القافلة في المسير إلى الأراضي الحجازية، ويبدأ سفر ركب المحمل المكون من الأمراء والموظفون الرسميون، وغالباً ما

---

(1) – ابن طولون، اعلام الورى، ص178. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص220، ص221.

(2) – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص769، ص1031؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص69، ص177.

(3) – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص769.

(4) – هو يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري الْأَمِير الْكَبِير أحد أمراء المماليك، كَانَت له صدقَات كَثِيرَة على طلبة الْعلم ومعروف كثير فِي بِلَاد الْحجاز وَهُوَ الَّذِي حط المكس عَن الْحجَّاج بِمَكَّة وَعوض أمراءها بَلَدا بِمصْر ،قتل سنة 768هـ. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2، ص209.

(5) – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص177، ص182، ص413.

(6) – المصدر نفسه، ص385، ص408.

يكون الأكابر وذوو الوجاهة وأهل الدولة أول الركب، والتجار والأموال والمؤن والنساء والبضائع الثمينة في وسط الركب، ثم الحجاج العاديين في آخر الركب، تحت حراسة مجموعة من جنود وأمراء المماليك المرافقين والمحيطين بالقافلة من جميع الجوانب، حرس وجند بطليعة وساقة وضوية في أوائل الركب ووسطه وآخره[1]. ويكون يوم خروج المحمل السلطاني، يوماً مشهوداً تخرج له المخدّرات[2].

وبالنسبة لوسائل المواصلات ومركوبات الحجاج فإنهم يسيرون ممتطين ظهور الابل أو الخيل وقد تستخدم الحمر والبغال للركوب أو لحمل الأمتعة، ومن الحجاج التجار من يكون معه عدة جمال لحمل تجارته، ويتفاوتون في نوع مركبهم، فمن الحجاج الأغنياء وكبار القوم من يركب التختروان وهو عبارة عن غرفة خشبية صغيرة على قاعدة يحملها جملان، ويجلس فيه رجل واحد مرتاحاً، ومنهم من له مراكب على الإبل تسمى المحفة يستريح فيها الحاج المسافر وينام، والمحفة المتينة الصنع يكون راكبها في راحة تامة ينام ما شاء ويجلس ما شاء، ومنها ما يسمى بالهودج أو الشقدف أو المحارة تُحمل على جمل وتُغطى بأقمشة مزخرفة، ولها مقعدان يجلس ويرقد فيها حاجان معاً يلزم تعادلهما في الجسم أو راكب واحد يتعادل بأحمال، ولا يحملها الا عظيم الجمال, ويتناوب جملان علي حملها، ومنهم من يستأجر جملاً واحداً ويضع عليه أمتعته ويركب عليه بمركب يسمى شبرية[3]، يستظل بها خلال سفره[4].

ومن الحجاج من يركب على جمله بالغبيط[5] أو ركوباً عادياً، ومنهم من يسير مشياً على الأقدام إن لم يكن معه شيء وخاصة الفقراء[6]. ومنهم من ترافقه أسرته كالزوجة والأطفال، وقد بلغت أعداد الحجاج المغادرة مع ركب الحج الشامي عام 684هـ/1283م ما يقارب من 60

---

(1) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص338. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص143، ص144. محمد حسن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، رحلة فارتيما، ص254.

(2) – كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص 229. والمقصود بالمخدّرات النساء اللاتي في الخدور، أي الشابات.

(3) – شِبْرِيَّة: زنابيل على شكل رحل توضع على الإبل، يجلس في كل واحد منها شخص. رينهارت بيتر، تكملة المعاجم العربية، ج6، ص233.

(4) – عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، ص116.

(5) – الغبيط هو رحْل قَتَبُه وأَحْناؤه واحدة يوضع على الجمل ليركب عليه؛ ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص3210. وقيل الغبيط وهو أدنى مراكب الرحل الذي مثل أكف البخاتيّ. ابن قتيبة، الجراثيم، ج1، ص399.

(6) – العبدري، الرحلة، ص330–ص334؛ المقريزي، السلوك، ج7، ص212؛ الجزيري، ج2، ص156.

ألف راحلة دون الخيل والبغال والحمر وأنه يملأ السهل والحزن، وذلك في موسم حج سنة 684هـ/1284م[1].

بينما بلغ العدد سنة 908هـ/1503م، والتي حج فيها الرحالة فارتيما تحت اسم الحاج يونس الذي رافق رحلة الحج الشامي: حيث ذكر أنها كانت تضم 35000جمل، وحوالي 40000حاج، وهناك حرس في مقدمة القافلة وفي وسطها وفي مؤخرتها[2]. وقد يستمر خروج ركب الحجاج من دمشق لمدة يومين أو أكثر[3].

ومن خلال هذه الأرقام يمكن القول أن قافلة الحج الشامي الخارجة من دمشق سنوياً تقدّر في العصر المملوكي في المتوسط بعشرين ألف حاج إضافة إلى دواب أحمالهم، ويزداد هذا العدد وينقص حسب أحوال كل عام.

وفي حالة وجود خطر في الطريق الشامي التبوكي مثل انعدام الاحتياجات أو سقوط أمطار وثلوج، فإن الحجاج يسيرون على الدرب الغزاوي، ويلتقون مع المصريين في عقبة أيلة، ويسيرون مع الركب المصري[4].

ويسارع الحجاج الراغبون في الحج إلى اللحاق بقافلة الحج، وإن تأخروا عنها لأيام، لأن أمير الركب من عادته انتظار أكبر عدد من الحجاج، كما أن الحجاج يشترون ما ينقصهم من الجمال والخيول اللازمة لسفر رحلة الحج من أسواق المنازل الواقعة على الطرق[5].

ومن الحجاج من يسبق القافلة إلى بيت المقدس ليحرم منه ثم يلحق بالركب فيلاقيه عند الكرك[6]، أو يسير من القدس على الطريق الغزاوي[7].

---

(1) – ابن رشيد، رحلة ملء العيبة، ص6، ص280.

(2) – محمد حسن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، رحلة فارتيما، ص254.

(3) – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص769.

(4) – ابن حجي، تاريخ، ص727، ص993. الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص292، ص294؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص29.

(5) – محمد حسن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، رحلة فارتيما، ص254.

(6) – البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص60.

(7) – ابن حجي، تاريخ، ص183.

هذا بالنسبة لتجمع الحجاج وخروجهم من دمشق، أما خروجهم من الطريق الغزاوي فإنهم يخرجون من مدن الشام الجنوبي فلسطين ومدن الساحل، ويتجمعون في غزة ثم يتجهون إلى العقبة في عدة منازل، ومحطتهم الرئيسية بعد غزة هي العقبة، وفي حالة عدم خروج قافلة من دمشق لسبب ما من فتن أو حروب أو تزامنت مع شتاء قاسي؛ فإن الراغبين في الحج يسيرون من دمشق متجهين إلى غزة في السابع من شوال ليلحقوا بالركب الغزاوي الذي يخرج في منتصف شوال على العادة ، للذهاب منها إلى الحج[1].

ومما تقدم يتضح أن الاستعداد والإعداد لقافلة الحج الشامي يبدأ باختيار وتعيين الأمير ثم تجهيز لوازم الرحلة والقافلة والإعلان لها بدوران المحمل للتهيؤ للرحلة، ثم الإعلان ببدء يوم السفر والتوديع للحجاج باحتفالات رسمية، والتجمع ثم المغادرة من دمشق أو غزة.

[1] – ابن حجي، تاريخ، ص727. وللمزيد انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، مبحث طريق الركب الغزاوي.

المبحث الثاني: تسيير القافلة أثناء السفر وفي الحجاز والعودة من الحج(*):

أثناء السفر وفي الطريق تسير القافلة بسير الضعيف امتثالاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وقوله صلى الله عليه وسلم: الضعيف أمير الرفقة[1].

وعادة ما تستخدم عملية التقطير[2] للركب، لكي تسهل عملية السير في الطريق، وتسهيل النزول والرحيل في الطريق أثناء الرحلة، وهو أن يصففوا الجمال قطاراً واحداً أو قطارين بجوار بعضهما بحيث تربط الجمال في بعضها البعض من الخلف، فتصبح قافلة واحدة، ويلجأ إليه لحفظ الجمال من الضياع والسرقة وخاصة إذا كان عدد الحجاج كبيراً، وتبدأ عملية تقطير الركب من منزلة المزيريب في ضحى النهار بعد تجمع العدد الأكبر من الراغبين في الحج، ويستفاد من عملية التقطير في المضايق؛ فيقف أمير الحاج بنفسه ويعقبهم قطارا أو قطارين بحسب الحال حتى يخلصوا من المضيق، فيسيروا كيف شاءوا[3].

وكذلك فإنه يقسّم إلى عدة أقسام "ركوب"، على كل واحد منها أمير، وذلك ليسهل السير وضبط أمور السفر[4]. وتضع كل مجموعة داخل القافلة لنفسها علامة يتعارفون عليها وتميزهم عن المجموعات الأخرى، حتى لا يضل رفاقهم[5].

وهذا يشبه تماماً ما يحصل اليوم من بعثات مجموعات حجاج الدول الاسلامية، حيث تضع كل مجموعة علامة أو شارة يتعارفون عليها، وحتى لا يضل الحجاج عن رفاقهم.

(*)– الباحث عاش بداية حياته في البادية من طفولته حتى شبابه، وركب الإبل، وشاهد عن كثب سير أحمال الإبل، وسفرها.

[1] – انظر تخريج الحديث، الفصل الأول في واجبات أمير الحج.

[2] – التقطير هو أن ترتب رواحل وجمال الحجاج إلى صفوف طولية، قطاراً واحداً أو قطارين بجوار بعضهما بحيث تربط الجمال في بعضها البعض من الخلف، فتصبح قافلة واحدة ليسهل السير في الطريق، وحتى لا تضل. البتوني، الرحلة الحجازية، ص216.

[3] – المقريزي، السلوك، ج6، ص190؛ الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص65، ص66.

[4] – ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج7، ص468.

[5] – العبدري، الرحلة، ص 334.

وغالباً ما يتقدمها الأدلاء الذين يسيرون أمامها لهدايتها أثناء السير، وإرشادها إلى الطريق الصحيح والذين يوقدون المشاعل ليلاً للاهتداء بها [1].

وقد بلغ من خبرة الأدلّاء أنهم يوصون الحجاج قبل النزول في المنزلة القادمة بجمع جذل[2] الحطب لاستعمالها في وقود النار لطهي طعامهم، في مكان الإقامة الذي لا يوجد به الأشجار التي تنتج الحطب[3].

وفي طرق الحج عادة ما توجد أنصاب وعلامات من الحجر والصخور بنيت علي الطريق لهداية المسافرين، ولتوضيح اتجاهات الطرق، والتي وضعت في العصور المختلفة [4].

وتسير القافلة وفق نظام محكم؛ فلا ينزلون ولا يرحلون إلا بإذن أمير الركب عندما تدق الطبول لإنباء الحجاج بالنزول للراحة أو التحرك واستكمال المسير، فإذا نزلوا منزلاً أو رحلوا مرحلاً تدق الكوسات وينفر النفير ليؤذن الناس بالرحيل والنزول ويحصل بهذا الاستعداد والتأهب، فلا يعتاق أحد فيبقى عرضة لأن يؤذى أو يتخطف[5].

واعتاد ركب الحج أن يرحل من المنازل في النصف الأخير من الليل لاستغلال ذلك في قطع المفاوز، وضمان الوصول، وخاصة في أول الليل وآخره، ويتمثلون قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الأرض تطوى بالليل، فإذا كانت رحلتهم في فصل الصيف فإنهم بالسير ليلاً يتخلصون من حر النهار، وإذا كانت في الشتاء يستعينون به على قصر النهار[6].

وإذا سروا ليلاً قبل الفجر، أو ساروا نهاراً يمشي ورائهم من الجند من يحفظ ساقتهم من لصوص العرب وقطاع الطريق[7].

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص338.

[2] – جذل الحطب: أصل الشجرة وغيرها بعد ذهاب الفرع وجمعها أجذال وجذول. المعجم الوسيط، ج1، ص113؛ وهي أيضاً عيدان الحطب الغليظة. الباحث.

[3] – ابن رشيد، الرحلة المسماة ملء العيبة، ج5، ص7.

[4]– نعوم شقير، تاريخ سيناء، ص270.الكردي، التاريخ القويم، ج2، ص324.

[5] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص338.

[6] – العبدري، الرحلة ، ص334.

[7] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص338.

وزيادة في أمن القافلة فإن الأمراء وجند الحراسة كانوا في حالة نزول الحجاج وإقامتهم على يقظة لمهاجم يهاجم، أو مخالس يختلس، ففي المساء والليل تدور نقباء الشرطة على الركب من خارجه بزفة تشتمل على أضواء كثيرة توقد في المناورة، ويركب معها جند على الخيل، ويمشي معها رجال بالسلاح[1].

ويراعي أمير القافلة اثناء السير أن ينزل بالحجاج في أماكن الخصب، ويعطي الابل حقها من الرعي، كما هو واجب أمير الحج[2].

وأثناء السير إذا انحدر الركب عن العقبات والوهاد فإنه ينيخ أسفلها ليتكامل، حتى لا تتشتت القافلة[3].

وإذا مرت القافلة قرب بيوت قبيلة من القبائل يخرج كثيرٌ من أهل تلك القبيلة يبيعون على الحجاج البطيخ والخضروات واللحم الطازج والماء والخبز وكراء الابل، وفي حالة قطع مفازة أو طريق طويلة لا ماء بها، فإن الحجاج يتزودون بالماء الكافي ويجدّون السير على غير العادة في قطع المسافات الأخرى، حتى لا يطول بهم المكث في الصحراء بدون ماء، وفي هذه الحالة يتناولون الأطعمة الخفيفة التي لا تحتاج إلى جهد كبير في إعدادها للأكل، مثل التمر والعجوة والبشماط "الخبز المجفف"، وفي المحطات الصغيرة التي يوجد بها ماء ولا تطول الاقامة فيها يطبخون بعض الأغذية الجافة كالعدس والأرز، أمّا في المحطات التي يطول فيها النزول فيطبخون فيها اللحم الذي يشترونه من الأعراب، أو يذبحون من الأغنام المرافقة لهم في القافلة، ويعجنون ويخبزون[4].

وأثناء السفر يستظلون من الشمس في شدة الحر بأثوابهم، وفي زمان قوة سلطة الدولة يوجد سقاة على دواب سيّارة يتفقدون الحجاج ويرافقون الركب من أوله إلى آخره، وخاصة إذا كان الركب كبيراً وتقطيره طويلاً، وفي المراحل الطويلة التي لا يقوى الركب على قطعها دفعة واحدة، يجعلون في منتصف المسافة ساعة استراحة ينزل فيها الحجاج، ويقضون حاجاتهم، ويأكلون،

---

[1] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص338.

[2] – للمزيد انظر الفصل الأول في واجبات أمير الحج.

[3] – كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص232.

[4] – ابن رشيد، الرحلة، 279. العبدري، الرحلة، ص349، 351. البتنوني، الرحلة، ص216، ص219.

ويشربون، ويطعمون دوابهم، وإذا مر وقت صلاة يصلون[1]، أما إذا حان وقت الصلاة وهم في سفر وترحال فيقف الأمير بالركب، ويأمر المنادي أن يقول الصلاة يا حجاج، ويصلي بهم الامام المرافق، في وقت الصلاة وقد يجمع بين الصلاتين في وقت احداهما، وقد يصليهما جمعاً وقصراً، وفي حالة عدم وجود الماء أو عدم كفايته يتيممون[2]. ثم يرحلون على صوت ضرب الكوسات[3].

وفي أثناء السير يكون للركب أحياناً ضجيج بالاستغفار[4]، ويترنم الشعراء بالأشعار لإذهاب الملل والسآمة، ويكثرون من الحداء لحث الابل على السير وتجديد النشاط[5].

وبعد المسير الطويل المتواصل وعند وصولهم إلى منازل بها ماء، يصدر أمير القافلة أمراً بإشارات معينة بالتوقف لكل جماعة من جماعات القافلة، وأن تلزم مكانها، ويستريحون ويريحون الجمال من الأثقال، ويقيمون ويرتاحون لمدة يوم أو عدة أيام، ويغتسلون ويغسلون ثيابهم، ثم يعطي الأمير أمراً للقافلة بالمغادرة ومواصلة مسيرة سفرهم[6].

وعندما تكون التجهيزات لركب الحج جيدة فإنه قبل أن يصل الركب المرحلة المراد النزول فيها يكون المرافقون الموظفون للقافلة قد سبقوه إليها، وقد نصبوا الخيام وأعدوها على شكل مدينة صغيرة ذات أزقة متعددة ويكون هذا في المنازل التي يطول الاقامة لأكثر من يوم، ويهيئون فيها الماء والوقود وسائر وسائل الراحة، فينزل كل حاج في خيمته، ويعلم موقعها الذي لا يتبدل طول الطريق، وتربط الابل والدواب خلف الخيام وإلى جانبها الرحال والأحمال وتوقد المشاعل ليلاً، ويتوضأ الحجاج ويصلون، وفي هذه المنازل التي تطول الاستراحة فيها يتزاور الحجاج مع بعضهم ويتسامرون ويتحادثون، وجرت العادة أن يكون قيام الركب ونزوله بنظام تام، ومتجمعاً

---

[1] – عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، ص116.

[2] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص147–148.

[3] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص338.

[4] – كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص236.

[5] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص218.

[6] – محمد حسن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، رحلة فارتيما، ص255.

غير متفرق كي لا يضل أحد عن رفاقه، ويطلقون الكوسات والطبول للإعلام بالرحيل أو النزول بأمر الأمير[1].

وتنبيهاً للناس وإخبارهم بمكان نزولهم، فقد كلفت مجموعة وظيفتهم المناداة بأعلام الركب أين نزلوا، وفي أرض من هم من العرب، ويوصيهم المنادي بالاحتراز، وبما يستعد به لرحلتهم، وما يصلحهم في ذلك المكان لأمر سفرهم، فمن رأى ذلك ممن يريد النهب أو السرقة وعلم تيقظ الركب لأمورهم، ورأي أهل الشوكة فيهم، انكف طمعه وانقطع أمله[2].

وعندما ينزل الحجاج في محطات استراحتهم، يكثر الهرج والمرج والكلام، فترى أحدهم يقول: هذا خرجي ويقول الآخر ملابسي وغيره يصيح لحافي، وتسمع الأصوات في أنحاء القافلة بتمامها، فهذا يصيح يا حاج فلان، والآخر يا حاجة فلانة، وغيره يوهم بأنه يشاهد حرامي فيقول: شايفك، وآخرون يشتغلون بنصب خيامهم، ومنهم من يجلب الماء أو الحطب، وترى الصياح صاعداً في طرق الحج إلى عنان السماء، وفي هذه المنازل ينزلون أحمالهم وينصبون خيامهم ويمهدون فراشهم بين رحالهم ويجعلون الأمتعة والشقادف قريباً منهم تحت أنظارهم، والرفقاء منهم يتناوبون السهر على حراسة أمتعتهم، وخاصة في أوقات ضعف السلطة، ومن يسهر منهم تراه على الدوام يصرخ بكلمات التحذير لإيهام من تسول له نفسه بالسرقة أنه يراه[3].

وفي بعض منازل الإقامة المشهورة يودع الحجاج أحمالاً وعلفاً وطعاماً لسفر العودة، كالعقبة ومعان والعلا والأزلم، وذلك من باب الاحتياط، وللتخفف من الأحمال[4].

وأثناء نزول الحجاج في هذه المنازل وإقامتهم واستراحتهم بها، فإنهم يقضون حاجاتهم بين رحالهم وخيامهم في الغالب، ويكون أثناء قضاء الحاجة مستتراً بعباءته، والتي تروج تجارتها في موسم الحج، وإذا اضطر أحدهم للخروج وابتعد عن مكان الإقامة لقضاء الحاجة، لابد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه، وإلا فإنه لا يأمن أن يأتي لص ينقض عليه ويضربه في

---

[1] – عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، ص115.

[2] – العمري؛ مسالك الأبصار إلى ممالك الأمصار، ج2، ص338.

[3] – البتنوني، الرحلة الحجازية، ص219، ص278.

[4] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص341، ص344. الجزيري: درر الفرائد ، ج2، ص63.

رأسه بعصا يابسة ويسرق ما معه من مال، لأنه غالباً ما يكون المال محفوظا داخل ملابسه[1]. ولذلك فالحاج يأخذ أهبته وحذره دائماً.

ووفي أثناء الطريق يحتاط المماليك للحجاج بنصب برك وأحواض ماء مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملئون الروايا والقرب، ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم، ومن الحجاج من يتفق مع السقائين على سقي جمله وملأ قربته بشيء معلوم من الدراهم[2].

ويوكلون من يتعهد تلك الفساقي والبرك ويحرسها، ويكون نزول الحجاج معد سلفاً ببرنامج متكامل وتجهيزات وتحضير للماء[3].

واحتياطاً في المحافظة على أمن الحجاج فإن المماليك رتبوا لقبائل العربان في الطرق من الدراهم والقماش والخلع لشيوخهم وأكابرهم عادة جارية لا تنقطع في كل سنة، حتى يحافظوا على أمن الحجاج، ويؤمّنوا الطريق وموارد الماء، فإذا نزلوا أرض قوم، خرجت مشايخهم لتلقي المحمل السلطاني وقبلت الأرض وعقب الصنجق المنصور، ومشت في الخدمة السلطانية، وأودع من أهليهم وذوي قرابتهم وأهل المراتب فيهم أناس في السلاسل، ووكل بهم من يحفظهم، ويستمرون على هذا إلى أن يخرجوا من أرضهم، فيطلق سراحهم، ويخلع عليهم، وتوصل إليهم رسومهم[4].

وإنما يعمل هذا فيهم لاحتمال أن يؤخذ شيء للحاج فيطلبون به ويكونون رهائن عليه، فلا يستطيع أحد أن يتجاسر أو يعترض الحاج بأذية، وربما تبع الحاج قوم من غير أرض أولئك القوم وسرقوا فيحتاج هؤلاء أن يتبعوهم ويستعيدوا منهم الأخيذة بعينها أو الثمن عنها، وجرى هذا غير مرة، وصار للحاج بهذا أمن عظيم على أنفسهم وأموالهم، وأمام هذه التدابير المنظمة من جانب المماليك، والإجراءات الأمنية الموفقة؛ صار أفراد قبائل العرب الواقعة على طريق الحج يخرجون إلى الحجاج إذا حلوا في أرضهم ونزلوا ببلادهم متظاهرين نهاراً جهاراً بالماء والغنم

---

[1] – البتوني، الرحلة الحجازية، ص219.

[2] – ابن بطوطة، رحلة ، ج1، ص85.

[3] – ابن حجر، انباء الغمر، ج1، ص37؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص417.

[4] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص338، ص339.

واللبن والسمن والعسل والأقط والتمر والعلف والجمال للبيع والكراء[1]، ولا يتعرضون للحجاج بأي مكروه.

وتعقد في بعض منازل الحج كالعقبة وتبوك والعلا مجالس السمر والتسلية وإنشاد الشعر، وقد يجتمع أهل تلك المنزلة بالحجاج، وتنشأ بينهم علاقات المودة والصداقة[2].

وفي بعض المنازل المشهورة تقام الأسواق، كالمزيريب ومعان والعقبة وتبوك والعلا، وبسبب هذه الاجراءات أصبح الحجاج في غاية الطمأنينة والأمن والدعة، كأنهم قعود في بيوتهم في وسط مدينة ذات أسوار وأعلاق ومرافق واسواق، بل أكثر أمنا وأوسع رزقا لتولي أهل تلك الأرض لحراستهم واستعدادهم طول السنة للبيع عليهم في ذلك الوقف المقدر المعلوم، فكثرت الرغبة في الحج وتعهد تلك الأماكن الشريفة والأرض المطهرة[3].

ولكن في حالة ضعف الدولة المملوكية وتقصيرها في اتخاذ هذه الاجراءات أو تقصير أمير الحاج، أو عدم دفع شيئاً لهم؛ فإن الحجاج كانوا يتعرضون للاعتداءات والسرقات وربما إلى القتل بسبب انتشار الجهل بين أفراد هذه القبائل فضلاً عن حاجتهم إلى المال والطعام، كما سنراه في الفصل الخامس عند الحديث عن اعتداءات العربان على قوافل الحجيج[4].

عند وصول الحجاج إلى الحجاز:

من يزور من الحجاج المدينة في الذهاب وأغلبهم من الحجاج السالكين للطريق التبوكي، فإنهم بعد زيارتهم المدينة، ومكوثهم لأيام يخرجون منها متوجهين إلى مكة، وعليهم أن يحرموا من مسجد ذي الحليفة الواقع جنوب المدينة الشريفة، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم هن لهم ولمن مر بهن من غير أهلهن، فأهل الشام الذين يمرون بالمدينة يجب عليهم أن يحرموا من ذي الحليفة المسمى أبيار علي.

وهناك يتجردون من مخيط الثياب ويغتسلون ويلبسون ثوبي الإحرام الرداء والإزار، ويصلون ركعتين ويحرمون بالحج مفردين أو متمتعين أو مقرنين، ويتجنبون محظورات الإحرام،

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص339.

[2] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص120؛ كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص 238.

[3] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص339.

[4] – انظر الفصل الخامس، مبحث الاعتداءات على الحجاج.

ولا يزالون ملبّين في كل سهل وجبل وصعود وحدور إلى أن يصلوا مكة ويطوفون بالبيت، ثم يسيرون إلى بدر ثم من بدر إلى الصحراء المعروفة ببقاع البزواء –وهي برية يضل بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل– مسيرة ثلاثة أيام، وفي منتهاها وادي رابغ الذي يتكون فيه المطر غدران يبقى بها الماء زماناً طويلاً[1].

ومن رابغ يحرم حجاج أهل الشام السائرون على طريق الساحل، ومعهم حجاج مصر والمغرب العربي، ويفعلون كما يفعل المحرمون من ذي الحليفة[2].

ويسيرون من رابغ ثلاثاً إلى خليص ومروراً بعقبة السويق وهي على مسافة نصف يوم من خليص وهي ذات رمل كثير، والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام، ويسقونه الناس مخلط بالسكر والأمراء يملؤون منه الأحواض ويسقونها الناس، ويذكرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملها فأعطاهم إياه فشربوه سويقاً[3].

ثم ينزلون بركة خليص وهي في بسيط من الأرض كثيرة حدائق النخل لها حصن مشيد في قنة جبل، وفي البسيط حصن خرب بها عين فوارة صنعت لها أخاديد في الأرض سربت إلى الضياع، وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة ويجلبون إليها الغنم والتمر والأدام[4].

ثم يرحلون إلى عسفان ثم بطن مر الظهران، ثم يسيرون حتى يصلوا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة شرفها الله تعالى فيردون منها على حرم الله تعالى ومبوأ خليله إبراهيم ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويتهيئون لدخول البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنا من باب بني شيبة وعندما يشاهدون الكعبة الشريفة يقولون اللهم زد هذا البيت تعظيماً وتشريفاً وتكريماً، ثم يبدئون طوافهم وسعيهم، ويتحلل من كان نوى الحج متمتعاً[5].

---

[1] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص96، ص97.

[2] – العبدري، الرحلة، ص349.

[3] – المصدر نفسه، ص352. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص97.

[4] – العبدري، الرحلة، 351. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص97.

[5] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص98.

وعند وصول الحجاج إلى مكة فإن ركب الاقليم الواحد يقيم في خيام أو أربطة تنصب بالزاهر أو بالمعلاة أو بوادي المحصب "الأبطح"[1]، وبعضهم يسكن في بيوت أهل مكة كضيوف أو بأجر[2]، والعلماء والمجاورون يلقون حفاوة بالغة من علماء مكة والمدينة[3].

ويبقى نظام القافلة كما هو في ذهابها أثناء أداء مناسك الحج والوقوف بعرفة والمبيت بمنى، فأهل الركب الواحد يبقون مجتمعين مع بعضهم إلى أن يعودوا، ويكثرون من الصلاة في المسجد الحرام فترة مكوثهم في مكة، ومشاهدة الكعبة الشريفة والشرب من ماء زمزم، الذي هو لما شرب له[4].

فإذا كان اليوم السابع من ذي الحجة يخطب خطيب المسجد الحرام إثر صلاة الظهر خطبة يعلم الناس فيها مناسكهم ويُعلمهم بيوم الوقوف بعرفة وأحكامه، فإذا كان اليوم الثامن بكّر الناس كما هي السنة بالذهاب إلى منى، وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى، وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع، ولكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائماً –كما يقول ابن بطوطة– فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة[5] فيمرون في طريقهم بوادي محسر ويسرعون السير حتى يصلوا إلى عرفة[6].

وفي عرفة يصلون الظهر والعصر جمعاً وقصراً في وقت الظهر، ثم يخطب الخطيب بهم خطبة بليغة، يبين فيها أحكام الحج[7]، وبعد ذلك يجتهدون في الدعاء والذكر والتلبية حتى الغروب، يجب الإمساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس، ثم بعد غروب الشمس ينفرون ويسيرون إلى مزدلفة، وحالما يصلون إليها يصلون بها المغرب والعشاء جمعاً وقصراً، حسبما

---

(1) – العبدري، الرحلة، ص358.

(2) – المصدر نفسه، ص391. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص98.

(3) – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص113.

(4) – ابن بطوطة، ج1، ص98.

(5) – عرفة أو عرفات هو متسع من الأرض تحدق به جبال كثيرة وفي آخره جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص128.

(6) – العبدري، الرحلة، ص405. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص128.

(7) – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص129.

جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويبيتون فيها ويصلون الصبح في أول وقتها ويكثرون من الوقوف بالمشعر الحرام والذكر، ومزدلفة كلها موقف إلا وادي محسّر ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب، ومنهم من يلقطها من حول مسجد الخيف والأمر في ذلك واسع[1].

وبعد صبح يوم النحر "عيد الأضحى" وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، عند طلوع الشمس يسيرون من مزدلفة إلى منى، وعندما يصلون إلى مكان الجمرات يبادرون إلى رمي جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم يذبحون هديهم، ثم يحلقون ويحلون من كل شيء إلا النساء، حتى يطوفوا طواف الإفاضة، ومن الحجاج من يتوجه بعد ذلك إلى المسجد الحرام ويطوف طواف الإفاضة ومنهم من يؤجل الطواف إلى اليوم الثاني أو الثالث والأمر فيه سعة، ثم يبيتون ليالي التشريق في منى وجوباً، وفي اليوم الثاني يرمى الحجاج عند زوال الشمس الجمرات الثلاث فيبدأون برمي الجمرة الأولى بسبع حصيات، ثم الوسطى كذلك ويقفون للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بعد الدعاء يرمون جمرة العقبة كذلك ولكن بدون دعاء، وفي اليوم الثالث يباح للحجاج الاختيار بين التعجل والانحدار إلى مكة شرفها الله قبل الغروب، بعد أن يرموا الجمرات الثلاث، فيكمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة، وبين التأخر إلى اليوم الثالث عشر من ذي الحجة حتى يرموا سبعين حصاة، ثم يذهبون إلى مكة [2]. وبعد عودتهم إلى مكة من منى يطوف من لم يطف منهم طواف الحج "طواف الافاضة" ويسعون بين الصفا والمروة ويكملون شعائر الحج، وفي يوم مغادرتهم مكة يطوفون طواف الوداع الذي يسقط عن الحائض والنفساء، وفي العادة يكون سفر عودتهم وخروجهم من مكة في اليوم السادس عشر من ذي الحجة، فيعودون من نفس الطريق التي أتوا منها[3].

العودة من الحج:

بعد انتهاء مناسك الحج، يتجمع الحجاج في مكة استعداداً لمغادرتها للعودة إلى ديارهم، ثم يعودون من نفس الطريق التي أتوا منها كما أوضحنا عند الحديث على طرق الحج، وعند

---

[1] – ابن بطوطة، ج1، ص130.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص130.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص131.

زيارتهم المدينة المنوّرة يتجمعون حول المحمل والسنجق ويعودون في نفس الموكب الذي ذهبوا به، وعلى نفس الطريق[1].

وفي العودة إلى الشام منهم من ينوي زيارة القدس الشريف لتقديس حجته حسب ظنه قبل عودته إلى بلاده.

واحتياطاً في تأمين سلامة الحجاج حرص المماليك سنوياً على إرسال قافلة الجردة لملاقاة الحجاج قبل عودتهم في أواخر ذي الحجة، وهي قافلة إغاثة للحجاج ترسل من مدن الشام لملاقاة الحجاج، وتحمل البقسماط والمؤن والعلف للدواب، وما يحتاجه الحاج، ولحمل المنقطعين منهم وحمايتهم، وترسل من باب الاحتياط خوفاً من نفاذ ما في القافلة من ماء وزاد، وهذه القافلة تلاقي الحجاج غالباً في معان أو عقبة أيلة، وأحياناً في تبوك[2]. وقد أثنى الحجاج خيراً على نائب القدس لملاقاته الحجاج بعقبة أيلة بالزاد والأمتعة والمركوب، وحمل بعضهم إلى القدس الشريف، وكان الحجاج العائدين من موسم عام918هـ/1512م، قد عانوا من مشقات كثيرة من موت الجمال وغلو الأسعار، حتى أنهم أودعوا أحمالهم بالعلا لقلة الظهر ومشى في طريق الحج كثير من النساء الحاجات[3].

وبعد ذلك يترقب الناس كما هم اليوم عودة الحجاج بلهفة وشغف، ويتابعون ذلك من خلال كتب مبشر الحاج ومراسيل كتب الوفد، التي ترسل قبل قدوم الحجاج والتي تتضمن أخبارهم وأنبائهم، والتي تصلهم قبل أيام من وصول الحجاج وإذا اقترب موعد قدوم الحجاج يستعد بعض الناس لملاقاتهم مسيرة عدة أيام[4].

وحين يقارب وصولهم إلى بلادهم، تستعد السلطة المملوكية والأهالي لاستقبالهم باحتفالات لائقة، وغالباً ما يصلون في أوائل شهر صفر، ولا تقل الفرحة والبهجة بعودة المحمل والحجاج

---

(1) –العبدري، الرحلة، ص454؛ العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص345. الجزيري، الدرر، ج2، ص65.

(2) – ابن رشيد، الرحلة، ملء العيبة، ج5، ص279–281، المقريزي، السلوك، ج3، ص24، ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص491. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص199، ص222–223، ص234.

(3) – ابن الحمصي، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، ص491.

(4) – ابن الجزري، حوادث الزمان وأنبائه، ج3، ص662؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص139، ص198.

سالمين عن يوم السفر من قبل، وتدخل قافلة الحجاج بلدها، وتزدحم الشوارع بالناس الذين يحرصون على الاقتراب من المحمل ولمسه ثلاث مرات، ثم تقبيل أيديهم ومسح وجوههم تبركًا[1].

وقبل وصوله يقوم أهل الحجاج وذويهم بإعداد القرى والإكرام لهم، والاحتفاء بهم وبحاشيتهم، وبعض الأهالي يذهب لملاقاة الحجاج في طريقهم ومن من يصل إلى الزرقاء لهذا الغرض، ويعودون فرحين بلقائهم، وعند وصولهم تقام لهم الأفراح والليالي الملاح، ويأتي الناس والأقارب والجيران للسلام عليهم والتبرك بهم، ويقدم الحاج لهم الهدايا التي جلبها من الحجاز، مثل التمر وماء زمزم والسواك والطيب والحناء[2]. وعند قدوم قافلة الحج إلى دمشق قد يستغرق توافد الحجاج مدة يومين أو أكثر[3].

وقد وصف الرحالة الأوروبي لابركييه قافلة الحج الشامي العائدة سنة829هـ/1432م بقوله: "إنه شاهد قافلة الحج عائدة من مكة وقد قيل أنها تتألف من ثلاثة آلاف من الابل، والحق أنه استغرق دخولها لمدينة دمشق يومين وليلتين، وقد كانت هذه الحادثة على مألوف القوم، يوماً بالغاً في الحفاوة، وقد خرج والي دمشق يحف به مقدمو المدينة لاستقبال الحجيج اجلالاً للقرآن الذي كانوا يحملونه، وكان ملفوفاً بغلاف من الحرير عليه كتابة عربية، وكان الجمل الذي يحمله مجللاً بالحرير، ويتقدمه أربعة من حملة المزمار والطبول والدريكات الكثيرة وكلها تدق ابتهاجاً بقدوم الحجاج. وكان يحيط بالجمل نحو ثلاثين رجلاً يتنكب بعضهم الأقواس، ويشهر بعضهم السيوف، وغيرهم يحمل البنادق، ويطلقون النار بين حين وآخر، وخلف الجمل ثمانية رجال أجلاء يركبون إبلاً سريعة العدو، وفيهم من يركب خيولاً مجللة بالقماش المزركش تعلوها سرج مزخرفة على عادة القوم هناك"[4].

---

[1] – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص103، ص317؛ ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص501.

[2] – عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، ص116.

[3] – ابن حجي، تاريخ، ص260.

[4] – لابروكييه، الرحلة، ص43؛ نقولا زيادة، دمشق في عهد المماليك، ص100.

ويقوم أهل الحجاج العائدين بتزيين واجهات المنازل بالرسوم والأعلام الملونة، واستقبال الحجاج بالطبول والمزامير والزغاريد، وإقامة الولائم ابتهاجًا بعودة الحجاج سالمين، لأنه أصبح عندهم أن العائد من الحج كأنه مولود من جديد، لما يسمعونه من أهوال السفر[1].

ويقبل الناس على الحجاج رجالاً ونساءً يصافحونهم ويتمسحون بهم، وعند استقرار الحاج في بيته يذهب الناس للسلام عليه وتهنئته والمباركة له، ويسألونه عن تاريخ يوم عرفة، ويخبرهم الحاج بمشاهداته في رحلة الحج، وأخبار الحرم المكي والنبوي، والاصلاحات فيهما، والمصاعب التي تعرض لها الحاج الشامي، ويصدرون أحكامهم على موسم الحج وعلى أمير الحاج المرافق[2].

مما سبق يتضح لنا أن قافلة ركب الحج الشامي، كانت في غاية التجهيز والنظام والدقة، حتى أنها نافست قافلة ومحمل الحج المصري، وأن الحجاج طيلة الرحلة وهم منتظمون في نظام دقيق، فلا يرحلون ولا ينزلون إلا بأمر أمير الركب ذهاباً وإياباً، وأن رحلة الحجاج إلى مكة المكرمة كانت بمنزلة انتقال مجتمع بأكمله يضم جميع أصناف الناس من تجار وعلماء وأمراء وعامة الناس، يشكلون معاً قافلة الحجيج، ويتعاونون فيما بينهم لتحقيق راحتهم وأمنهم، وأفئدتهم متجهة نحو البيت العتيق.

---

[1] – ابن الجزري، حوادث، ج2، ص57؛ البتتوني، الرحلة الحجازية، ص309– 310.

[2] – ابن الجزري، حوادث، ج3، ص588، ص755؛ البصروي، تاريخ، ص55، ص71، ص124، ص140؛ ابن طولون، مفاكهة، ص10، ص15، ص60، ص100، ص115، ص261.

المبحث الثالث: المرافقون لقافلة الحج:

يقول بن فضل الله العمري المتوفي عام 749هـ/1348م، أي بعد مئة عام على تأسيس دولة المماليك:

ويخرج الركب من كل من مصر ودمشق بالمحمل السلطاني والسبيل المسبّل للفقراء والضعفاء المنقطعين بالماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير والدريقات والمعاجين والأطباء والكحالين والمجبرين والجرايحية في أكمل زي وأتم أبهة، ويخرجون بالأعلام والكوسات السلطانية والأدلاء والأئمة والمؤذنين والأمناء ومغسلي الموتى والأمراء والجند والقاضي والشهود والدواوين، بطليعة وساقة وضويّة في أوائل الركب ووسطه وآخره، كل هذا ليسهل الطريق إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي محمد صلى الله عليه وسلم[1].

فمن هذا النص التاريخي الهام من صاحب موسوعة "مسالك الأبصار إلى ممالك الأمصار"؛ يتضح لنا أن قافلة الحج كانت تضم مجتمعاً متكاملاً يسير على الأرض باتجاه الأراضي الحجازية، ويتكون من الحجاج الرجال والنساء والأطفال، ويرافقهم مجموعة ضخمة من أصحاب المهن المختلفة كالتجار والصناع والشعراء، بالإضافة الى العديد من المرافقين للقافلة الذين هم بمثابة موظفون، ولهم رواتب من دولة المماليك، ووظيفتهم مرتكزة على خدمة الحجاج والسهر على راحتهم، وكانت هذه القافلة يقودها أمير الحج الذي يكون هو المسئول الأول عنها.

وللتوضيح فإننا نأتي على ذكر وبيان المرافقين لقافلة الحج حتى يتضح للقارئ الكريم مقدار التجهيزات الكبيرة المعدة لتسهيل الحج إلى بيت الله الحرام في العصر المملوكي والتي بقيت مستمرة طيلة العهد المملوكي، وقد اعتمدنا على الجزيري في كتابه "الدرر الفرائد"؛ لكونه تناولها بالتفصيل، وهي كالآتي:

أمير الحج:

وهو المسئول الأول عن القافلة وعليه عدة مهام كما أسلفنا، وهو القائد العام للقافلة، ونظراً لأن أي قيادة تحتاج إلى متابعة للأمور ورعاية للرعية، فإن هناك مجموعة من المساعدين

---

[1] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص338.

والنواب يساعدون الأمير في إدارة القافلة وتسيير شئونها مثل الداودار وأمير آخور، وغيرهم ممن سيأتي ذكره.

الداودار:

ومهمته تبليغ الرسائل عن أمير الحاج وتقديم المشورة، وهو الذي يقدم له الدواة لأخذ العلامة عن المراسيم والتواقيع، واسمه مشتق من إدارة الدواة لأن ذلك غالب أحواله[1]، وهو كالنائب لأمير الحاج في الأمور التي لا يتولاها الأمير بنفسه، وله أعمال أخرى ينوب فيها عن الأمير كتقطير جمال القافلة، وتسهيل الطرق في المضايق، وترتيب سير الركب في الأماكن المزدحمة وتفقد الحجاج ليلاً والقبض على المفسدين وتقديمهم لقاضي الركب، وينوب عن الأمير في بعض المهمات، ويسدي له المشورة ويرشده وينا صحه بمعاملة الحجاج معاملة حسنة، وللداودار أتباع منهم الشرطة الذين يحفظون الأمن، والعسس الذين يطوفون بالركب أثناء النزول للقيلولة أو البيات، ومن مهمات الداودار الإشراف على الشرطة المرافقة للقافلة، وقيادة العسس، وهم مجموعة من الحراس يطوفون ليلاً لتتبع أهل الريب واللصوص، وهو ما يشبه جهاز أمن مرافق للقافلة[2].

قاضي المحمل:

نظراً لأن قافلة الحجيج تضم نوعيات مختلفة من الناس يتعاملون سوياً خلال فترة رحلة الحج من بلاد الشام والتي تستغرق قرابة ثلاثة أشهر ذهاباً وإياباً، فقد خصصت وظيفة قاضي للمحمل ليتولى إصدار الاحكام الشرعية بين الحجيج ذهاباً وإياباً، والفصل في المنازعات والخصومات التي قد تنشأ بينهم، ويتولاها قاض من قضاة المذاهب الأربعة من أصل عربي، يعينه السلطان أو نائب دمشق، فكان يصدر أمراً سلطانياً بتعيينه لمدة رحلة واحدة فقط، وفي الغالب لا يتكرر تولية القاضي مرة أخرى[3].

---

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص19.

[2] – الجزيري، الدرر الفرائد، ج1، ص163، ص164– ص166–ص224.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص167.

ويكون عمله بأن يقضي بين المتخاصمين بحضور شهود المحمل، ويضاف إلى مهام قاضي المحمل الرئيسية ما يتصل أو يتعلق بأمير الحاج وركبه، والاشراف على توزيع الأعطيات على قاطني طرق الحاج، دون منازع أو مشارك له في ذلك، باستثناء الشهود الذين يساعدونه في جميع الأمور الشرعية[1].

ويتقاضى قاضي المحمل أجرة قدرها أربعمائة نصف فضة، وله جمل من جملة جمال المحمل، وله قطفان من الشمطا الأوسط يلبسه يوم خروج المحمل، وكان له في كل مساء أربعة من الفطير أو الخمير، وجرايتان من البقسماط كل جراية ستة عشر رطلا، غير السكر المكرر أو الحلوى التي يتراوح وزنها بين ثلاثة أرطال سكر أو أربعة أرطال من الحلوى[2].

شهود المحمل:

نظراً لأن القاضي يحتاج إلى شهود لإجراء المعاملات، فقد كان يتم اختيار اثنين من أهل الخبرة والعدالة ليكونا في وظيفة شهود المحمل، قال القلقشندي: أن شهود السبيل المعبر عنهم بشهود المحمل، فإنما تكتب لهم مربعات شريفة من ديوان الوزارة، فيكون تموينهما منفصلا عن تموين الركب حتى يؤديا الشهادة المطلوبة بنزاهة[3].

ولاختيارهما شروط منها: أن يتم تعيينهما من جانب قاضي المحمل، وأن يكونا ذا خبرة وعدالة ومعرفة بالطرق، وقد قرر سلاطين المماليك بناءً على طلب الشيخ (محمد ابن عبدالقادر بن إبراهيم الأنصاري الجزيري) بألا تعزل شهود المحمل بعزل القضاة، وألا يتم تغييرهما إلا بعد حدوث وفاة، وتم له ذلك، فكانا لذلك يحتفظان بمنصبيهما طويلاً ولا يتركانه إلا مع المرض، وذلك من أجل حفظ الوقائع والأحداث لتكون سجلاً خاصاً لأمير الركب مضبوطاً محفوظاً لا يشوبه لبس. ولنزاهتهما كان تموينهما منفصلا عن تموين الركب حتى يؤديا الشهادة المطلوبة بنزاهة، ولهذا فلشهود المحمل أجرة جمل من جمال المحمل كالقاضي، تصرف له من ديوان

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص168.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص167، ص169.

[3] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص436.

القلعة، وكذلك جرايتان، وأما العليق فتارة كانت تصرف وأخرى تمنع، ولهم طعام يصرف لهم صباحا ومساء[1].

كاتب ديوان إمرة الحاج:

وهو الذي يتولى كتابة ما يصدر عن أمير الحاج وما يرد إليه، وهو بمثابة الكاتب الشخصي للأمير، ولم يكن لكاتب ديوان إمرة الحاج قاعدة ولا قانون معين مضبوط، وأنشئت هذه الوظيفة في أواخر عهد المماليك الجراكسة، وقد تولاها والد مؤلف كتاب الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، والمؤلف نفسه من بعده ابنه عبد القادر الجزيري[2].

مشرف جمال وخيول المحمل (أمير آخور):

وهو اسم لمن يكون ناظراً على الخيل والجمال في القافلة، وآخور باللغة الفارسية معناه الاسطبل، فكأنه يقال فيه أمير الاسطبل أو يشبه أن يكون علماً على هذه الوظيفة؛ لأنه لما عين الداودار لتنفيذ الأحكام وقراءتها، عين من كان ناظراً على الجمال والخيل، فقالوا أمير آخر فتوسعت فقالوا (آخور)، وكان من يشغل هذه الوظيفة في العصر المملوكي يسمى (أمير اخور)، وهو المختص برعاية أمر جمال المحمل وخيوله، ويلي الدوادار في الرتبة والأهمية، وكان له مشعل معين كالدوادار يضيء بركابه ليلاً أينما سار[3].

ويعاونه أفراد يسمون (الشقارة) للأشراف على تفرقة العليق للدواب وحراستها ومراقبتها أثناء السير في الطريق، لئلا يقوم أحد بركبها أو تأجيرها خلسة، وتتعدد أشخاص هذه الوظيفة، فتضم أمير آخور الخيل وهو المشرف على عليقها وسقيها ومهماتها، وأمير آخور الجمال والهجن المشرف على العلف وقت توزيعه خصوصاً في البنادر الحجازية[4].

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص170.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص170–ص178.

[3] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص19، ج5، ص433.

[4] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص180.

مشرف تموين المحمل(شاد السنيح) ويسمى (الكلارجى):

وهو القائم على شئون تموين قافلة الحج، وهو مشرف التموين للمحمل والقافلة، ويقوم بتقسيم عادل للمؤن طوال الرحلة وأثناء الراحة، ويكون من مماليك الأمراء ممن يعتقد به الأمانة والنصيحة ويوصف بحسن الدراية والسياسة وشرطه ألا يكون مبذرا حتى لا تضيع المأكولات، ويكون مشرفاً على أحوال المطبخ بداية ونهاية، ومشرفاً على الطباخين الذين يشرفون على طهى الطعام، وهو المسؤول عن الذبائح، وتفرقة مخصصات الطعام طول فترة رحلة الحج، وله أعوان مثل القباني ومقدم العكامة والذين يشترط فيهما شروط من الضبط والأمانة وحسن الدراية والسياسة[1].

مشرف مطبخ المحمل (شاد المطبخ):

وهو القائم على شئون مطبخ للمحمل ويسمى (شاد المطبخ)، ويقوم بأعباء الإشراف على الذبائح، وتفرقة المخصصات من الطعام على أرباب الرواتب والغلمان بالمحمل، ويعاونه فريق من الطباخين، وكان له معهم عوائد من أمير مكة وأمير ينبع معرفة ومخصوصة[2].

مشرف السقائين:

وكان يقوم بهذه المهمة أحد الأتراك في عهد السلاطين المماليك بحيث يكون مسئولاً عن ملء القرب عند آبار المياه وتوزيع المياه على حجاج الركب، ومن اختصاصه الذب والدفاع عن السقائين عند الازدحام على مناهل المياه[3].

منظم سير المحمل:

وهو القائم على تنظيم سير المحمل، ويسمى (شاد المحمل)، بحيث يحافظ على تمام عدد الركب ويؤخر من يرغب في تأخيره للحفاظ على نظام سير المحمل[4].

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص181–182.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص183.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص184.

[4] – المصدر نفسه، ج1، ص184.

مقدم الضوئية والغشامة:

ومقدم الضوئية هو من يتقدم رجال المشاعل أو بمعنى آخر هو قائد حاملي المشاعل، والغشامة هم الذين كانوا يتولون أمر المحابيس بالحديد والاصفاد والسلاسل، ويتبعون لمقدم الضوئية، كما كان من وظيفة الضوئية احضار الحطب للمشاعل والمطبخ بالطرق وتكسيرها، وكان عدد المشاعل أربعة وعشرين مشعلا، منها خمسة تشعل بالدهن، اختص منها أمير الحج أربعة والخامس للدوادار، أما بقية المشاعل فتشعل بالحطب لسائر افراد خواص الركب[1].

مقدم الهجانة والشقارة:

وهو كبير المتسلمين للأبل والجمال من الهجانة ورجال الشقارة، وهم المسئولون عن الجمال والاشراف على أكسيتها لتحافظ على أبهتها الخاصة كونها جمال الحج، ويشرفون على نقل الحبوب والأمانات، ويشترط لتولي هذه الوظيفة شروط منها أن يكون عاقلا أميناً خبيراً بأحوال الجمال محافظاً عليها غير مهمل لها في ذهابها وإيابها، وهو في نفس الوقت يؤدي الأمانات التي في عهدته ويسلمها دون تفريط أو إهمال. وكانوا يقومون بوضع الوسم على الجمال، وهي العلامات المميزة لها، حيث ينقش بالسكين للتمييز، وكانوا يحصلون في أيام المماليك على أحد عشر ألف فضة[2].

مقدمو القواسة:

وهم الذين يقومون بمقام المعرفين والمتكفلين عمن يقوم بتوصيل الأحمال إلى الحجاز من البدو، ويبلغ عددهم عشرة منهم أربعة بأجر من ديوان السلطنة والباقي بغير ذلك، وهم اتباع لهم في خدمة إمرة الحج مقام العرفاء، بغرض إحضار من يقوم بحمل إمرة الحاج المجهز براً، والعادة والقاعدة أنهم ملتزمون بإحضار البدوي لحمل ما عليه، وإذا تأخر أو غاب كان عليهم ضمان الاحضار وحمل ما التزم به، وكانت رواتبهم عند السفر للمقدم ستون نصفا من الفضة وللأتباع اربعون[3].

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص195، ص196.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص197.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص200.

صبي الباب:

وهو قائد العملاء الخصوصيين لخدمة السلطان أو أمير الحاج في خروجه وعند عودته، ويُختارون من الشباب، وهي تشبه وظيفة الحجاب في العصر الحاضر، ويختار عدد منهم ليكونوا ملازمين لباب أمير الحج ليرسلهم في مهمات خاصة، كاستدعاء العربان للتفاوض معهم، والتعريف بهم والاخبار عن أحوالهم، ويعملون كحلقة وصل بين أمير الحاج وبدو الصحراء الذين تمر بهم قافلة الحجاج، وعن طريقهم يجري صرف مخصصات البدو لاجتياز الطريق ونقل المؤن والحبوب، وكان لصبي الباب جوخة مخيوطة عند نهاية خدمته في أيام الدولة المملوكية، والجدير بالذكر أن هذه الوظيفة ظهرت في العصر الأيوبي وانتقلت الى العصر المملوكي، وكانوا يتميزون في لباسهم عن غيرهم بطراز خاص[1].

الميقاتي والمؤذن:

نظراً لأهمية الوقت في حياة المسلمين وتحديد أوقات الصلاة، فقد كان يصحب قافلة الحج رجلان للإعلام بالوقت ورفع الأذان؛ الأول يسمى ميقاتي، للإعلام بالوقت والماضي والباقي منه، وتحديد جهة القبلة في بعض مراحل السفر، ويكون من ذوي المعرفة ومن أهل القدرة على السهر لمعرفة ما بقي من الليل، ويكون مسئولاً عن ضبط سير الركب، واقامته بواسطة آلة المنكاب في ذلك العهد وهي آلة يتعرف بها على الوقت، والرجل الثاني يكون بوظيفة مؤذن يقوم برفع الأذان عند كل صلاة بناءً على أوامر الميقاتي، وكان يخصص لهما أربعون ديناراً، ولكل نفر هجين، فضلاً عن توفر الطعام وخيمة ينزلون بها[2].

طبيب المحمل أو الجرائحى:

كان يصحب ركب المحمل طبيب وجرائحى "جراح"، وكحال، كل منهم متمكن من صنعته، وبصحبتهم الأشربة والعقاقير والمراهم والأدهان والأكحال والمعقمات التي يطلبها أمير الحج،

---

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص134. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص201، ص202.

[2] – الجزيري، الدرر الفرائد، ج1، ص204.

ويحتاجها الحجاج، ويتلقى الحجاج العلاج والدواء بدون مقابل، وكان له راتب مقداره مائتان من الفضة[1].

مهتار الطشت[2] خانة:

ومعناه بيت الطشت، سميت بذلك لأنّ فيها يكون الطّشت الذي تغسل فيه الأيدي والطّشت الذي يغسل فيه القماش، وهو المشرف على الأوعية الجلدية والقرب لحفظ الماء، ويتولى احضار الماء للوضوء، وغسل الأيدي عند الاحتياج، ويعمل على حفظ هذه الاوعية من التلف والضياع، وله اتباع ومعاونون، وله مهمات أخرى مثل حفظ الملابس الخاصة، وخلع العربان والتشاريف وصرفها لمستحقيها[3].

مهتار الشراب خانة:

وهو من يتولى أمر المشروبات العامة والخاصة، ويشرف على أواني الفضة والصيني والنحاس والخزف الخاصة بهذه المشروبات، ويقوم بضبط الماء وتبريده في أوقات الحر، ومزجه بالسكر وتقديمه، وله مساعدون، وكان يتقاضى عشرين دينارا[4].

مهتار الفراشخانة والفراشون:

وهم يشبهون الفراشين في زماننا، ولهم دربة عظيمة في نصب الخيام حتّى إن الواحد منهم ربما أقام الخيمة العظيمة ونصبها وحده بغير معاون له في ذلك، ولهم معرفة تامّة أيضاً بشدّ الأحمال التي تحمل على ظهور البغال، ويختصون بتدبير أنواع الخيام اللازمة، وبعد إعدادها يُخصص أحد الفراشين للخدمة، وإضافة إلى ذلك يشرف المهتار على إحضار أدوات النزول

---

(1) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص338. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص205.

(2) – الطشت: من الأواني المستخدمة في عصر المماليك؛ قال القلقشندي: غلب استعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء، وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء، وأصله طسّ بسين مشدّدة فأبدلت من إحدى السينين تاء للاستثقال، فإذا جمع أو صغّر، ردّت السين إلى أصلها، فيقال في الجمع طساس وطسوس، وفي التصغير طسيس، ويقال فيه أيضا طسّة، ويجمع على طسّات، والناس الآن يقولون طاسة ويجمعونه على طاسات، ويجعلون الطّست اسماً لنوع خاص، والطاسة اسما لنوع خاص. صبح الأعشى، ج4، ص10.

(3) – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص10. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص206.

(4) – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 9، ص22، الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص208.

والقناديل والإضاءة عند كل وصول أو رحيل ليلي، وهذه القناديل توقد كإشارة للإعلام بدخول أوقات الراحة من مشقة الأسفار وورود مناهل المياه، كما كانت تجنبهم اعتداء اللصوص وتخيف المعتدي ليلاً[1].

الطباخون:

وهم الذين يتحملون مهام الطبخ أثناء الرحلة، ولهم كبير ينعت بلقب المعلم، ومهمتهم توزيع الطعام عند وقت تناوله بعد اعداده وطبخه، وكان لديهم العديد من أواني الطبخ مثل الصحون النحاسية والحلل والطناجر وطبالي الخشب وغيرها، وهم أكثر الركب تعباً في قافلة الحج[2].

الزردكاش (صانع الزرود):

وهو القائم على مهمات السلاح وما يحتاج إليه من أدوات الحرب ولبوس الخيل، مثل الأعلام والسهام والنشاب والأوتار والبارود والالعاب النارية، وأحجار الرصاص للمدافع وغيرها من أدوات القتال[3]. وكان أقل عدد يسافر صحبة المحمل عشرين فرداً، ويتولى الزردكاش الى جانب مهامه؛ مهمة اطلاق الالعاب النارية في مواضع محددة من طريق الحج وخاصة عند قدومهم مكة ابتهاجاً وفرحة ببلوغ قصدهم ونيل مرادهم[4].

النفطي[5]:

وهو المسئول عن صناعة النفط ومشتقاته، وذلك لعمل الإحراقات في مواضع معينة في طريق الحج لإعطاء دلالات واحتفالات تعبر عن الابتهاج عند الوداع والرحيل.

وكان في العصر المملوكي تقام أربعة إحراقات: أولها ببركة الحجاج في القاهرة أو قبة يلبغا في دمشق لاجتماع المودعين بهذين الموضعين، والثانية بمدينة (ينبع) بالحجاز وقد بطلت،

---

(1) – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص11. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص209.

(2) – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص13؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص213.

(3) – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 11.

(4) – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص214. عائشة العبدلي، امارة الحج في عهد الدولة المملوكية، ص53.

(5) – معدن النّفط: يستخرج على ساحل بحر القلزم، حيث يسيل دهنه على السطح، ويطفو على الساحل، وتأتي العرب أصحاب الأحمال، فتحمله إلى خزائن السلاح السلطانية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص313.

والثالثة وهي الكبرى بمنى ليلة الرحيل منه إلى مكة المكرمة، والرابعة تكون أثناء رجوع الركب في عقبة أيلة أو معان[1].

وقد زيدت في عهد الدولة العثمانية إحراقة خامسة في عرفات، لأن الموقف يجمع الناس من كل أقطار الأرض، ورأى أمير الحج أن الناس كانوا يوقدون في تلك الليلة من الشموع الكثيرة والأشاير الكبيرة، فأضاف إلى ذلك احراقة يصحبها اطلاق البنادق من المحمل الشامي والمصري[2].

مهتار الركاب خانة:

ومعناها بيت الركاب، وهم المشرفون على الخيل ولوازمها من المراكيب والسّروج المغشّاة بالذهب والفضة المطلية، والكنابيش المتخذة من الذهب المزركش المزهّرة بالريش، وغير المزهرة، والعبي المتّخذة من الحرير، ولهم قائد هو المختص باستلام لوازم الخيل وجهازها من السروج والألجمة والركائب، لمرافقة القافلة وأمير الحج، وكانوا لا يقلون في عددهم عن ثلاثة في ركب المحمل[3].

الشعراء:

وهم الحداة يترنمون بالرجز والشعر، لرفع معنويات الحجاج السائرين في الصحراء، وللترويح عنهم، فالإسلام أجاز الشعر والرجز والنشيد الذي يذهب الملل والسآمة، وينسي وعورة الطريق ويقوي العزائم، وأجاز حداء الابل الذي يشجعها على السير، ومن المعتاد ان يكونوا مع أمير الركب أول الهجن الخاص بالرحلة، أو خلفه، وينزلهم معه[4].

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص214.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص215.

[3] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص12؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص216.

[4] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص218.

الطبول خانة:

وهم يرافقون أمير الحاج يقومون بدق الطبول قبل وأثناء الرحلة لإرهاب المفسدين، وزمان النزول والرحيل، ومكوناتها: طبلان وزماران ونقارة، وكانت تلازم العلم السلطاني، ويصاحب دقها كوسات[1] المحمل[2].

البيطار:

لما كانت قافلة المحمل والحج تضم عدداً كبيراً من الخيول، كان لزاماً على الركب اصطحاب طبيب بيطري للأشراف على وضعها طبياً ومداواتها، ويحمل ما يلزمه لهذه المهمة من الأدوية والأدوات، وله راتب يصل إلى ثلاثين ديناراً[3].

الخباز:

ومهمته توزيع الخبز بعد عمله على القائمين على شئون المحمل عند المناهل ومنازل الاستراحة للحجاج، وأما عند غير المناهل فكان يقوم بتوزيع المأكولات الخفيفة كالبقسماط والتمر[4].

الكيالون:

كانت مهمة الكيالين تشويل[5] غلال المحمل، وكيلها واحضار اصحاب الدواب لنقلها والمغربلين لغربلتها والجراشين لجرشها، وعيار الكيلات وتقييدها أو خروجها من العهدة عند الاستهلاك، وسد العجز ان حدث نقص في عهدة الغلال، وكان لكل كيال راتب محدد يبلغ نحو خمسة وعشرين دينارا[6].

---

[1] – الكوسات: هي صنوجات من نحاس شبه التّرس الصغير، يدقّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص8.

[2] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص13؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص218.

[3] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص217.

[4] – المصدر نفسه، ج1، ص219.

[5] – أي رفعها وتحميلها على الدواب. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1021.

[6] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص220.

نجار السنيح (المطبخ):

كان يسافر مع قافلة الحج نجار لترميم واصلاح ما ينصدع أو ينكسر أو يتغير من أدوات الطبخ في طريق القافلة ذهاباً واياباً، وكان راتبه عشرين دينارا[1].

نجار الكور:

مثل نجار المطبخ، ولكنه مخصص لإصلاح ما ينكسر من أثاث الركب، والأكوار التي تحمل الأمتعة والحجاج في وقته أولاً بأول، وكان راتبه خمسة وعشرين ديناراً[2].

خولي الأغنام:

وهو مختص بحفظ الأغنام وعليقها، وصونها من عبث العابثين واللصوص والذئاب، وذلك طول الرحلة لتقديم اللحم الطازج للأمراء والأعيان والحجاج عند الحاجة. وكان راتبه مائة وخمسين نصف فضة، غير الجراية وتخصيص جمل لركوبه[3].

الزفوري ويسمى السياف أو الجلاد:

وهو الذي يقوم بتنفيذ الاحكام الشرعية على مرتكبي الجرائم أثناء رحلة الحج، ويلزمه أن يحد شفرته وهي ألته في تطبيق الحدود، وأن يحسن القتلة، وعليه ألا يسرع في تنفيذ الحكم وأن ينتظر لأيام لاحتمال وجود شافع لمرتكب الجريمة[4].

السعاة أو الأدلاء:

وهم الذين يعرفون مسالك الطرق وتعاريجها ووعورتها وسهولتها، ويدلون عليها ذهاباً واياباً، ويلازمون ركب أمير الحاج أثناء السير، وكانوا محل تقدير من أمراء الحج لدورهم في انجاح موسم الحج[5].

---

(1) – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص221.

(2) – المصدر نفسه، ج1، ص221.

(3) – المصدر نفسه، ج1، ص221.

(4) – المصدر نفسه، ج1، ص222.

(5) – المصدر نفسه، ج1، ص163.

المبشرون بالدار:

وهم جماعة متعددة من المتصوفة وأهل الصلاح، وكان يخصص لهم الركوب والجراية ولكنهم كانوا بلا مرتبات مخصصة[1]. ويبدو أنهم يرافقون الركب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء للحجاج بقرب الوصول.

المبيّت:

هو رجل تابع لمقدم الضوئية، مهمته الجهر بالنداء للركب نهاراً عند الاحتياج اليه، واشهار ما يجب إشهاره، ويقوم ليلاً بالطواف على القافلة مع العسس[2].

مبشر الحجاج:

ومهمته التبليغ وإيصال الأخبار قبل وصول الركب، وأخبارهم تنصب عن قافلة الحج وأميرها، وأحوال الحجاج وما حدث بشأنهم من سرقات أو قطع طريق أو مرض أو وفاة، وأحوال مكة والمدينة وأمراءها، وما وقع من فتن في موسم الحج بالأراضي الحجازية[3]. ويصل عادةً قبل القافلة في أواخر ذي الحجة راكبًا هجينًا سريعاً ويبشر السلطان أو نائبه وسكان البلد والرأي العام بأحداث الرحلة وأخبار الغلاء والرخص وما صادفهم من مشقة وموت[4].

وجرت العادة أن مبشر الحاج يخرج من منى متعجلاً أي يوم الثاني عشر من ذي الحجة، لكون أداء فريضة الحج لا يتم قبل ذلك، ويتوجه مسرعاً إلى دمشق أو القاهرة للبشارة، وغالباً ما يصل في أواخر ذي الحجة[5]، وقد يتأخر لعائق ما، وكان صاحب هذه الوظيفة ينال على مسماها الخير الكثير، وكان السلطان المملوكي ينعم بهذه الوظيفة على من أراد أن يشمله بالنعم والهبات، نظراً لما كان يحصل عليه من نواب الممالك الاسلامية، فقد نال المبشر من

---

(1) – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص163.

(2) – المصدر نفسه، ج1، ص222.

(3) – المصدر نفسه، ج1، ص223.

(4) – المقريزي، السلوك، ج3، ص93، ص421.

(5) – النويري، نهاية الأرب، ج33، ص200.

نائب الشام على البشارة عشرة آلاف دينار، وعادة ما يكون المبشر من أعيان الأمراء[1]. وإضافة إلى هذا المبشر الذي يخرج من مكة فهناك مبشر آخر يسبق عودة القافلة بأيام ويفارقها من الطريق من تبوك أو معان أو العقبة ويطلع أهالي الحجاج على أوضاعهم أثناء سفر العودة ويبشرهم قبل وصول الحجاج[2].

وهو ما يشبه وكالة إعلام مصاحبة للرحلة، وتسارع بإذاعة الأنباء العاجلة، وبذلك تكون أول وكالة إعلام في التاريخ هي التي أنشئت من أجل الحج والممثلة في مراسل مرافق للرحلة يسجل كل أحداثها ثم يسبق موكب الحج أثناء عودته ليسير مسرعاً بعد نهاية الرحلة ليبلغ ويبشر الأهالي والرأي العام بأحداث الرحلة وما صادفهم من مشقة وعدد الوفيات.

وهناك وظائف أخرى في قافلة الحج كأمين الكساوي والحلاقين ومغسلي الموتى[3].

ومما سبق يتضح أن قافلة الحج كانت تضم جهازاً كبيراً من الموظفين والمرافقين الذين يقومون بخدمة الحجاج، فيضم البعثة الإدارية والأمنية والعلمية والطبية والتموينية والاعلامية والارشادية...، وكل ذلك من أجل راحة الحجيج، وأمنهم وتيسير حجهم، وضمان رجوعهم إلى بلادهم سالمين غانمين، ويتضح لنا أن قوافل ركب الحجاج كانت في غاية التجهيز والنظام والدقة، فيصحبهم الأمير الذي يدير شئون القافلة، والقاضي الذي يحكم بين المتخاصمين، وغيرهم ممن يخدمون الحجاج وأميرهم.

ويتضح أيضاً أن المماليك اهتموا كثيراً بتجهيز ركب الحج في كل عام، فيصير الحجاج وكأنهم قعود في بيوتهم، حتى أننا لا نبالغ إذا قلنا إن رحلة الحج قديماً كانت أكثر متعة من رحلة الحج اليوم، بالرغم من وسائل الراحة الكثيرة من ركوب الطائرات والسيارات والسفن ذات المقاعد الوثيرة، ومن اختصار للوقت حيث أصبحت رحلة الشهر بضع ساعات، وبالرغم من مشاق السفر الكثيرة قديماً.

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص223.

[2] – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص662؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص139، ص198.

[3] – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص338.

وبالرغم من هذه التجهيزات والتحضيرات الكبيرة لقوافل الحج الشامي في العهد المملوكي فإنها مع ذلك واجهت مخاطر ومشاق وعقبات أدت إلى موت الكثير من الحجاج أو نهبهم أو حدوث المآسي لهم، وذلك سنة الله عز وجل في هذه الدنيا التي لا تصفو لأحد من الناس، وهو ما سنتناوله في الفصل القادم إن شاء الله وهو الفصل الخامس.

الفصل الخامس

المخاطر والعقبات التي واجهها الحج الشامي

المبحث الاول: الفتن والصراع السياسي في مكة والحجاز.

المبحث الثاني: اعتداءات العربان على قوافل الحجيج.

المبحث الثالث: الكوارث والغلاء ومشقات الطريق المهولة ومشاق أخرى.

الفصل الخامس

المخاطر والعقبات التي واجهها الحج الشامي

كانت قوافل الحج تقطع الأميال وتسير في الفيافي والقفار، وتسير في طرق لم تعهدها، وتنزل في أرض ومنازل لم تطأها من قبل، وتلتقي مع أقوام لا تعرف ما في صدورهم، ولذلك فلا غرابة أن تواجه العديد من العقبات والمخاطر.

ولقد واجه الحجاج عامة وحجاج الشام خاصة مخاطر وعقبات عدة، وهم في طريقهم إلى أداء فريضة الحج؛ منها الفتن والصراع السياسي على إمارة مكة، ومنها اعتداءات العربان على الحجاج في طرق الحج، وفي مكة والمشاعر، وكذلك عانى الحجاج وهم في طريقهم إلى مكة من مشقات الطريق وصعوبتها، ومن الكوارث والأمراض ونقص الغذاء والماء، وكان لهذه المخاطر والعقبات دورها في زيادة أو نقص عدد الحجاج، فإذا زالت زاد عدد الحجاج، وإذا وجدت نقص عددهم.

وبداية نذكّر بأن هناك مخاطر عديدة حدثت في مصر والشام أثرت على أعداد الحجاج مثل صراع أمراء المماليك على السلطة، وانتشار الأمراض والأوبئة، وغزو التتار لدمشق سنة 802هـ/ 1399م وتهديداتهم المستمرة، ولكننا إلتزاماً بخطة بحثنا وحتى لا نخرج عن موضوع دراستنا؛ سنركز على المخاطر التي واجهها الحجاج وهم في طريق سفرهم أو أثناء أداءهم لشعائر الحج وعودتهم منه.

وسنتناول هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

المبحث الاول: الفتن والصراع السياسي في مكة والحجاز.

المبحث الثاني: اعتداءات العربان على قوافل الحجيج.

المبحث الثالث: الكوارث والغلاء ومشقات الطريق المهولة ومشاق أخرى.

المبحث الاول: الفتن والصراع السياسي في مكة:

بسبب أن النفس الانسانية حبب إليها الرياسة والامارة، حصل تنافس على إمارة مكة في عهد المماليك، وفي غيره من العهود، ويحدث هذا التنافس بين أمراء مكة أنفسهم وأقرباءهم، أو بين أمير مكة وأمراء الحج الآتين من مصر والشام والعراق واليمن، أو بين أمراء الحج أنفسهم.

وسنسوق الأمثلة لتوضيح ذلك، وبداية نذكر أنه من نتائج ذلك التنافس؛ حدوث الفتن والمناوشات التي شكلت خطراً كبيراً على أمن الحجاج في أنفسهم وأموالهم، وانتشرت الفوضى في المشاعر، نتيجة لتعرض الحجاج والتجار للنهب والسلب، نظراً لانشغال السلطة في مكة بالصراع على الحكم، وأحياناً يتعرض الحجاج إلى فرض ضرائب ومكوس من أمراء مكة المتنافسين، في ظل غياب السلطة الحاكمة، وهو الأمر الذي يعد من العوائق أمام الحجاج.

وكان لوجود هذه الأسباب أو بعض منها أن يقل عدد الحجاج الراغبين في الحج لما يسمعونه عن هذه الفتن، ومنهم حجاج بلاد الشام، فتتعطل الشعائر الدينية بسبب الخوف من القتل أو النهب، وتقل العائدات المالية في الشام والحجاز بسبب قلة عدد الحجاج[1].

وعجبت وأنا أقرأ لإعداد هذه الرسالة من سياسة الملك عبد العزيز آل سعود؛ وذلك أنه بعد سنتين من سيطرته على الحجاز، جمع أمراء القبائل، وأمراء مكة والمدينة –وكان قد أبقاهم في أماراتهم على ما هم عليه–فأخبرهم أنهم لا يقومون بالواجب من إقامة العدل وحفظ الأمن وحماية الحجاج بما فيه الكفاية كما هو واجب الحاكم المسلم، وإنه عازم بعد ذلك أن من لم يقم بواجبه كحاكم، فإنه سيضع ابن عمه مكانه، فما كان من أولئك الأمراء إلا أن سارعوا بالقيام بالعدل وضبط الأمن وحماية الحجاج، لأنه ليس شيء أشد عليه من احلال ابن عمه محله[2].

وهذا يدلل على خبرة الملك عبد العزيز واطلاعه على تاريخ الصراع على أمارة مكة والمدينة.

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج، ص378. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص145، ج3، ص624.

[2] – انظر: محمد حسن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، مقال للدكتور حسين مؤنس بعنوان قبل خمسين عاماً كانت حجتي الاولى، ص1350.

وقد كان سلاطين المماليك حريصين على نشر الأمن ووأد الفتن، والقضاء على كل ما من شأنه أن يعرض الحجاج للمضايقات والمشاق والمخاطر، أو يعكر صفو الحج، ومن أمثلة ذلك أن الظاهر بيبرس عندما حج عام 667هـ/1269م سارع بالإصلاح بين أميري مكة؛ الأمير نجم الدّين أبي نمي والأمير إدريس بن قتادة [1]، وذلك بسبب خطورة الخلاف، الذي يسبب الفتن، وبالتالي الخطر على الحجاج.

ومن ذلك ارسال قوة عسكرية بقيادة أمير للمرابطة في مكة وحفظ الأمن، ويكون إرسالها باستمرار [2].

وعندما يحدث من حاكم مكة تجاوز كبير ترسل السلطة حملة عسكرية لتأديبه أو تغييره، ومن ذلك ما حدث سنة 683هـ/1284م عندما انفرد أَبو نمي بحكم مكة وقَوي واشتَدَّ على الحجَّاج في الجباية، فكان يأخذ من حاج اليمن على كل جمل ثلاثين درهماً، ومن الحاج المصري على الجمل مبلغ خمسين درهماً، ثم أبطل ذلك في زمن الظاهر بيبرس صاحب مصر، فصار يؤخذ من حاج مصر مبلغ ثلاثين درهماً على كل جمل، ولكن أبا نمي لم يحافظ على ذلك التخفيف عن الحجاج بل تشدد في ذلك كما ذكرنا، فرسم السُّلطان قلاوون بسفر ثلاثمائَة فَارس صحبة أمير الحاج المصري علاء الدّين سنجر الباشقردي، وأنفق فِي كل فَارس ثَلَاثمِائَة درهَم، وكتب بخروج مائَتي فَارس من الشَّام فتوجهوا صُحْبَة أمير الحَاج الشامي الأمير عز الدين يوسف بن عز الدين القيمري[3]، ثم وقع بين أمير الحاج وبين الشريف أبي نمى كلام في إلغاء الضرائب الزائدة، فَكَانَت بَينهم وبين أبي نمي وقْعَة، فغلق الشريف أبواب مكة –وكانت ذات أسوار– ومنع الحجاج من دخول مكة، فنقب الحجاج السور، وأحرقوا باب المعلاة، ودخلوا مكة، ونتيجة لذلك أجبر أبو نمي على ترك مكة، ولكن بعد وقت قصير اصطلح الشريف مع أمير الحاج فتوافقا؛ وأدت هذه الفتنة إلى تخريب الطرق والدَّروب، وعانت مكة وأهلها والحجاج من الاضطراب الامني مما كان له تأثير على الناحيتين الاقتصادية والدينية [4].

---

[1] – ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص356.

[2] – المقريزي، السلوك، ج2، ص488، ج7، ص111، ص177.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص185، ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص116.

[4] – الطبري، علي عبد القادر، الأرج المسكي، ص120.

وبالرغم من حرص المماليك على الحفاظ على أمن مكة والحجاج؛ فإنه حدث في بعض السنين أحداثاً وفتن أثرت على أمن الحجاج وسببت لهم المآسي والكوارث.

وفيما يلي نورد أمثلة لما كان يحصل من فتن بين أمراء مكة وبينهم وبين أمراء الحاج، والتي شكلت خطراً على الحجاج عامة وعلى حجاج الشام خاصة في عهد المماليك:

فمن ذلك أنه في سنة 652هـ/1254م، حصلت فتنة بين الشريف غانم بن راجح وبين أبى نمى محمد بن أبى سعد وإدريس بن قتادة، لأنهما قصدا غانماً وأخذا مكة منه، ووقع بينهم قتال قتل فيه ثلاث أنفس، ثم وصل إليهما ابن برطاس من قبل الملك المظفر صاحب اليمن ومعه مائتا فارس، فتلاقى هو والأشراف في قوز النكاسة فقتل من الجانبين جماعة، ودخل ابن برطاس مكة وملكها وحج بالناس، وفي أول العام الذي يليه وصل الشريف أبو نمى بن أبي سعد والشريف إدريس بعد أن جمعا جيشاً كبيراً، ومعهما جماز بن شيخة أمير المدينة، فقصدا مكة وتقاتلا مع ابن برطاس في مكة، وسفكت الدماء بالحجر عند الكعبة، وامتلأ الناس رعباً، وأسر بن برطاس، ثم فدى نفسه بمال وتوجه إلى اليمن هو والجند الذين كانوا معه[1].

ومنها أنه في عام 687هـ/1288م، حصلت فتنة بين الشريف أبي نمى وبين جماز بن شيحة؛ صاحب المدينة؛ لأن جمازاً أمده صاحب مصر قلاوون الصالحي بجيش عظيم فقدموا مكة، فخرج منها الشريف أبو نمى، فاستولى جماز عليها، ثم خرج منها، فاستلمها نواب الشريف أبي نمى[2].

ومن ذلك أن الحجاج تعرضوا سنة698هـ/1299م للنهب، وحصل للحاج تشويش بعرفات وهوشة في منى ومكة، ونهب خلق كثيرون، وأخذت ثيابهم التي عليهم، وقتل خلق وجرح جماعة، وقيل إن المقتولين في هذه الفتنة أحد عشرة نفراً، وحصل لأبي نمي صاحب مكة من الجمال المنهوبة خمسمائة جمل، حتى أن المجاورين امتنعوا عن شراء اللحم من السوق خوفاً من ان

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج1، ص487، الطبري، الأرج المسكي، ص120.

[2] – الطبري، الأرج المسكي، ص120.

يكون من لحوم الجمال المنهوبة[1] . وكانت تلك الفتنة بسبب الخلاف بين الأشراف والذي أدى إلى نهب أموال الحجاج والتجار.

ومنها فتنة في عام 689هـ/1290م؛ بين أهل مكة والحجاج، وشهرت السيوف بالمسجد الحرام؛ وكانت نحواً من عشرة آلاف سيف، ونهبت الأموال[2].

ومنها أنه في705هـ/1304م كانت بمنى جفلة عظيمة، وحصلت حرب بين المصريين والحجازيين، وكان مقدم الركب المصري الأمير سيف الدين ألغيه، وكان كافر النفس مقداماً على الجرائم، سفك من البشر جماعة، وجعل عوض نحر البدن نحرهم[3].

وذكر التقي الفاسي أن فيها كان أمير الركب المصري سيف الدين ألغبا قفجق السلحدار، وأنه وقع قتال في أيام الحج بمنى، ونهب شيء ثم تفاقم الأمر، وحصلت فتنة وقتل بالسوق خاصة، وانطلق العسكر خلف من فعل ذلك، فلم يعلم، وهرب المكيون في الجبال، وانطلق معهم من السرو[4] إلى ذيل الجبل، فاعتقل العسكر منهم جماعة، ووسط منهم نفر يسير عند الجمرات، لتسكين الأمر، وإظهار الهيبة والقدرة؛ فسكن الناس ولكن بقي عندهم خوف ووجل[5]. وهذا يبين تعسف بعض أمراء الحج في بعض السنين.

وفي سنة 708هـ/1309م وفي أَولها قدم مبشرو الحاج بأَن الأمير نوغاي حارب العبيد بمكة أعقبها فتنة جراء ذلك، والسبب أنهم كثر تخطفهم أموال التجار وأخذهم من الناس بالغصب ما أرادوا، فلما وقف بعضهم على تاجر ليأخذ قماشه منعه فضربه ضرباً مبرحاً فثار الناس وتصايحوا، فبعث نوغاي مماليكه إلى العبيد فأمسكوا بعضهم وفر باقيهم بعدما جرحوا فركب الشريف حميضة بالأشراف والعبيد للحرب وركب نوغاي بمن معه ونادى ألا يخرج أحد من

---

[1] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص292، ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص131. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص385.

[2] – الطبري، الأرج المسكي، ص120.

[3] – إتحاف الورى، ج3، ص143، درر الفرائد، ج1، ص388.

[4] – السرو نسبة إلى بلد السرين جنوب مكة على ساحل البحر الأحمر، والسّرين مدينة على ساحل البحر بينها وبين مكة أربعة.. المهلبي، المسالك والممالك، ص24.

[5] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص293.

الحاج وليحفظ متاعه، فإذا طائفة من السرويين قد فروا من الخوف إلى الجبل، فقتل منهم جماعة ظنا أنهم من العبيد فكف حميضة عن القتال وما زال الناس بنوغاي حتى أمسك عن القتال[1].

ومنها فتنة بين الشريفين حميضة، وأبو الغيث؛ كانت في عام 710هـ/1311م، وكان الظفر فيها لحميضة؛ لأنه قتل من أصحاب أبي الغيث نحو خمسة عشر نفراً وعشرين فرساً وملك مكة، ثم في هذا العام وقعت فتنة أخرى بينهما، ظفر فيها حميضة على أبي الغيث وقتله[2].

ومنها فتنة بين السيد حميضة وأخيه السيد رميثة؛ وكانت في عام 715هـ/1316م، وأصلها أن السيد رميثة وصل من مصر بعسكر جرار، وكان حميضة والي الأمر بمكة، فلما أن بلغه الخبر رحل عنها، وأخلاها، وجمع أمواله، وتوجه إلى جهة الخلف والخليف، فوصل العسكر إلى مكة، وملكهما السيد رميثة، ثم خرجوا إلى الخلف والخليف، فتقاتلوا، فانكسر السيد حميضة، واستولى أخوه السيد رميثة على أموال؛ ومنها ولد ابن السيد حميضة؛ وعمره اثنا عشر سنة، ثم إن السيد حميضة جمع جمعاً وأخرج رميثة من مكة وملكها[3].

وفي العام 717هـ/1317م أخذ الشريف حميضة أموال التجار والحجاج بمكة بعد ان دخلها وأخرج أخاه الشريف رميثة[4].

وفي عام 724هـ/1324م؛ حصلت فتنة بين التكاررة وبين الترك بالمسجد الحرام، أشهرت فيها السيوف بالمسجد، وكان أمير التكرور بالشباك المشرف على المسجد الحرام بجنب رباط الجوزي، فأشار إلى جماعته بالكف عن القتال، فكفوا[5].

وفي سنة 730هـ/ 1327م، عندما قضى الحجاج مناسكهم رجعوا إلى مكة لطواف الوداع، فبينما هم في سماع خطبة الجمعة إذ سمعوا جلبة الخيل من بني حسن وعبيدهم، قد حطموا على الناس في المسجد الحرام، فثار إلى قتالهم الأتراك فاقتتلوا فقتل أمير من الطبلخانات بمصر، يقال له سيف الدين جندار أيدمر وابنه خليل، ومملوك له، وأمير عشيرة يقال له الباجي،

---

(1) – المقريزي، السلوك، ج2، ص421.

(2) – الطبري، الأرج المسكي، ص121.

(3) – المصدر نفسه، ص121.

(4) – ابن فهد، إتحاف الورى، ج 3، ص158.

(5) – الطبري، الأرج المسكي، ص121.

وجماعة من الرجال والنساء ونهبت أموال كثيرة، ووقعت خبطة عظيمة في المسجد، وتهارب الناس إلى منازلهم بأبيار الزاهر، وما كادوا يصلون إليها وما أكملت الجمعة إلا بعد جهد[1]. واجتمعت الأمراء كلهم على الرجعة إلى مكة للأخذ بالثأر منهم، ثم كروا راجعين وتبعهم العبيد حتى وصلوا إلى مخيم الحجيج، وكادوا ينهبون الناس عامة جهرة، وصار أهل البيت في آخر الزمان يصدون الناس عن المسجد الحرام، وبنو الأتراك هم الذين ينصرون الإسلام وأهله ويكفون الأذية عنهم بأنفسهم وأموالهم، كما قال تعالى (إن أولياؤه إلا المتقون) [الانفال: 34][2].

وسبب هذه الفتنة كما يقول النويري: "إن الحاجّ لما قضوا مناسك الحج توجه بعضهم عائدا إلى الديار المصرية، منهم الأمير علم الدين سنجر الجاولي، ومن صحبه في يوم الأربعاء ثاني عشر الشهر، وتأخر أمير الركب، وهو الأمير سيف الدين خاص ترك الجمدار الناصري، والأمير سيف الدين الدمر أمير جاندار، والأمير شهاب الدين أحمد، ومن معهم من بقية الحاج، لصلاة الجمعة بمكة، فلما كان الخطيب على المنبر تعبّث بعض عبيد الأشراف ببعض حاج العراق، الذين حضروا في الركب العراقي، وتخطفوا شيئاً من أموالهم، والشريف عطيفة بن أبي نمي أمير مكة جالس إلى جانب أمير الركب، فاستصرخ الناس، واستغاثوا بالأمير سيف الدين الدمر أمير جاندار، فنهض وتقدم لمنعهم، وتقدمه ولده خليل وضرب بعض العبيد، فطعن بحربة فمات، فاحتدّ والده، وبادر لطلب ثأره، فقتل أيضاً بحربة، وقتل معه أحد أولاد الأمير ركن الدين بيبرس التاجي – متولي القاهرة– فوثب الأمير عطيفة، وجرد سيفه، وتوجه نحو العبيد ليردهم، فلم يصنع شيئا، وظهر من ذلك أن إثارة هذه الفتنة كان برأيه وأمره، وذكر أن الذي قتل الدمر هو مبارك بن عطيفة، وثارت الفتنة، فعجل الخطيب الصلاة، وخرج الناس من المسجد الحرام إلى رحالهم وخيامهم، واستحل الحرم في هذا اليوم، وتلطف أمير الركب في الخروج بالناس إلى خيامهم، ووقف في وجوه القوم من الأشراف والعبيد، فمنعهم من التعرض إلى الحاج، ومن غريب ما وقع في هذه القضية أنه شاع بالقاهرة المعزية الخبر بقتل الدمر في يوم مقتله وهو يوم الجمعة

---

[1]– ابن الجزري، حوادث الزمان، ج2، ص453.

[2]– ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص171.

المذكور، وسمعت أنا بعض الناس يتحدث بذلك بعد صلاة العصر من يوم الجمعة المذكور ورددت القول على ناقله"[1].

وفي سنة 731هـ/1331م، قدم مبشرو الحاج في أولها، وأخبروا بما وقع بمكة من فتنة ثورة عبيد مكة، وما حصل بالوفد من النهب والجراحة وقتل جماعة من الحجاج، وقتل الأمير المصري سابق الذكر، وهو أيدمر أمير جندار وابنه، فتعجب الناس من صحة ما أشيع بالقاهرة من قتل ألدمر في يوم قتله، ولما بلغ السلطان ذلك غضب، وجرد جيشاً من مصر والشام للانتقام من فاعل ذلك، وإحضار الشريف عطيفة أمير مكة وولده وقواده [2]. ثم قدم الحاج وأخبروا بكثرة الفتن بمكة بين الشريفين عطيفة ورميثة، وقوة رميثة على عطيفة ونهبه مكة وخروجه عن الطاعة، وأنه لم يلق ركب الحجاج فكتب بحضوره، فلما ورد المرسوم بطلب الشريفين إلى مصر إتفقا وخرجا عن الطاعة فشق ذلك على السلطان وعزم على إخراج بني حسن من مكة[3].

وفي عام 743هـ/1343م، حدثت فتنة في يوم عرفة من قبل الظهر وغروب الشمس، وسببها أن السيد رميثة صاحب مكة شكى إلى أمير الحاج المصري ما يلقاه من بني حسن، فاقتضى رأي الأمير الركوب عليهم فركب والتقى مع بني حسن، فمشى الشريف عجلان بن عقيل للإصلاح بينهم فلم تطعه الأشراف، فقتل من الترك قريبٌ من ستة عشر نفراً، ومن أتباع الأشراف ناس قليل، وظفر الأشراف على الترك، ولم يتعرضوا للحجاج بالنهب، ونفر الناس من عرفة قبل غروب الشمس، وسلك الأشراف في نفرهم من عرفة على طريق البئر المعروفة ببئر الظلمة، وتوجهوا إلى مكة وتحصنوا بها، وتركوا الحضور إلى منى في أيامها تخوفاً من الحجاج، ورحل الحجاج جميعهم في النفر الأول، ونزلوا الزاهر ولم يضحوا فيه، ولم يعتمر أكثر الحجاج، ولم يطوفوا طواف الوداع خوفاً على نفوسهم، وساروا من الزاهر ليلًا إلَى بطن مرو[4].

---

[1]– النويري، نهاية الأرب، ج33، ص235.

[2] – أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص101، ص 102. المقريزي، السلوك، ج3، ص139.

[3] – المقريزي، السلوك، ج3، ص139.

[4] – ابن فهد، إتحاف الورى ،ج3، ص224. الطبري، الأرج المسكي، ص121.

وهذا التصرف من بعض أمراء مكة يدل على عدم احترام للنسك في المشعر العظيم والموقف الكبير، وكان ديدن البعض هو القضاء على مناوئيهم بأي ثمن، مما كان له الأثر الكبير على شعائر الحج.

وفي سنة 751هـ/1350م وقعت فتنة بين الملك المجاهد[1] صاحب اليمن والأمراء المصريين، وكانت بمنى في يوم النفر الأول، وسببها أن الملك المجاهد كان في صحبته من طريق اليمن الشريف ثقبة وأخواه سند ومغامس، وكان صاحب مكة الشريف عجلان متكدر الخاطر من المجاهد بموجب وصول الأشراف معه؛ لعداوة بينهم وبينه، وكانوا قد طمعوا المجاهد في ملك مكة، فبعد دخول المجاهد إلى مكة ومعه الأشراف والأجناد؛ وكان معه سبعمائة فارس، أخبر الشريف عجلان الأمراء بقصد المجاهد، وأنهم لم يقبضوا عليه ترك البلد له، وخرج معهم إلى الديار المصرية، فاتفقت الآراء منهم أن يمسكوه إذا وجدوا عليه فرصة فترقبوها، فلما إن كان يوم النفر الأول، تفرق عسكر المجاهد عنه في منى لقضاء مصالحهم، ولعدم حضور أحد لهم، فركب حينئذ الأمراء والأشراف وقصدوا محطة المجاهد فنهبوها، وتقاتلوا مع بعض من جماعته، وثارت الفتنة، ثم إنهم أمسكوه واعتقلوه، ثم ساروا به إلى مصر، وهزم من كان معه من الأشراف إلى جهة اليمن عند وقوع الفتنة، ثم إن المجاهد استمر مدة بمصر، ثم عفا عنه السلطان فوصل إلى اليمن، ومنع التجار والحجاج عن الوصول إلى مكة المشرفة حنقاً وغيظاً لما فعل به[2].

---

[1] – المُجَاهِد الرَّسُولي(706 – 764 هـ = 1306 – 1363 م) هو علي بن داود المؤيد بن يوسف المظفر: من ملوك الدولة الرسولية في اليمن. ولد في زبيد، وولي الملك بعد وفاة أبيه سنة 721هـ فأقام سنة، وخلعه الأمراء والمماليك، وولوا المنصور، فمكث أشهرا، وثار بعضهم فأعادوا المجاهد الى الحكم، وَحج سنة 742 وأحضر كسْوَة الْكَعْبَة وبابا على أَن يركبه ويكسو الْكَعْبَة وَفرق على المكيين مَالا كثيرا فَلم يمكنوه من ذَلِك، ثم حج سنة 751 هـ فلما كان بمكة بلغ قادة الركب المصري أنه عازم على نزع سلطة مصر عن الحجاز وإلحاقه باليمن، فاجتمعوا وأحاطوا بمخيمه، وكلفوه السفر معهم إلى مصر، فلم يعارض، فرحلوا به، فأقام بمصر والكرك14شهرا. وعاد، فانتظم أمره في السلطة إلى أن توفي بعدن فِي جُمَادَى الأولى سنة 764 وَقيل فِي سنة 767هـ، ونقل إلى تعز، كان عاقلا محمود السيرة، شاعرا عالما بالأدب مقربا للعلماء والأدباء، محسنا إليهم. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص58–59. الزركلي، الأعلام، ج4، ص287.

[2] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص 272؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج3، ص76؛ المقريزي، السلوك، ج4، ص131؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص407؛ الطبري، الأرج المسكي، ص122.

وهذا أيضاً كان له الأثر على الشعائر الدينية فخرج كثير من الحجاج دون أداء المناسك بل قتل عدد كبير منهم.

وفي سنة 753هـ/1352م؛ وقعت فتنة مفادها أَن الشريف ثقبة لما نزل بطن مر وقدم إلى مَكَّة متسفر الحاج حسام الدّين لاجين وعرف الشريف عجلان بانفراد أَخيه ثقبة بالإمرة امتنع الشريف عجلان من تسليمه مكة، وعاد حسام الدّين إلى ثقبة فأقاما حتَّى قدم الحاج صحبة الْأَمِير طيبغا المجدى، فتلقاه ثقبة وطلب منه أن يحارب معه عجلان فلم يوافقه على محاربته فأسمعه ما لا يليق وهدده أنه لا يمكن الحاج من دخول مكة، وقام ثقبة عنه وقد اشتد غضبه وألبس من معه من العربان وغيرهم السلاح، فاجتمع أمير الركب وقاضي القضاة عز الدين بن جماعة – وكان قد توجه صحبة الركب للحج – واتفقا على إرسال الحسام إلى عجلان ومعه ابن جماعة، فجرت لهم معه منازعات آخرها أن تكون الإمرة شركة بينه وبين أخيه ثقبة، وعادا إلى بطن مر وقررا ذلك مع ثقبة حتى رضي وساروا جميعا إلى مكة. فتلقاهم عجلان على العادة وأنصف ثقبة وأنعم عليه بسبعين ألف درهم[1].

ومن ذلك ما حدث في عام 755هـ/1354م عندما منع الملك المجاهد حاكم اليمن التجار من السفر إلى مكة بسبب ما تعرض له من فتنة في موسم سنة 751هـ/1351م فاضطر حاكم مكة الشريف عجلان أن فرض على المزارعين مبلغاً من المال تراوح من درهمين إلى أربعة دراهم على كل نخلة[2]. وهذا يعتبر من قبيل الضرائب والمكوس التي تشكل عائقاً أمام الحجاج.

ومن الفتن أيضاً ما وقع عام 788هـ/1386م بين جماعة الشريف أحمد بن عجلان والأتراك؛ وسببها أنه لما خرج الشريف محمد بن أحمد بن عجلان للقاء المحمل قتله الأتراك، فدخلوا مكة، فوقع بينهم وبين جماعته فتنة بموجب ذلك، وحج الناس وهم خائفون[3].

ومنها أنه في سنة 809هـ/1407م، حج الشاميون بمحمل على طريقتهم المعتادة، وتخوف الناس أن يقع بين أميرهم وبين أمير الركب المصري قتال، فسلم الله، وسبب توقع القتال في هذه

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج4، ص153.

[2] – ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص263.

[3] – المصدر نفسه، ج3، ص356، ص357.

السنة؛ أن الأمير جكم بايع لنفسه بالسلطنة، وتلقب بالملك العادل، وخطب له بحلب وغيرها من البلاد الشامية[1].

ومنها: أنه في موسم حج سنة810هـ/1408م نفر الحجاج جميعهم في النفر الأول، ولم يزر المدينة المنورة من الركب المصري إلا القليل، وسار معظمهم مع أمير الحاج إلى "ينبع"، وسبب ذلك: أن أمير الحج المصري بيسق الشيخي تخوف من أهل الشام أن يقصدوا الحجاج بسوء بين عقبة أيله ومصر، بسبب القبض بمكة على أمير الركب الشامي قرقماس في هذه السنة، وكان صورة القبض عليه أن المصريين تكلموا مع أمير مكة في القبض عليه؛ فقصده أمير مكة في المسجد الحرام بعد طوافه يوم قدومه بالبيت، وأشار على أمير الحج الشامي بأن يمضي معه للسلام على أمير الحج المصري؛ فلم يجد بداً من الموافقة على ذلك؛ لانفراده عن عسكره؛ فسار إلى أمير الحج المصري بيسق، فقبض عليه وحج معه محتفظاً به، وذهب به تحت الحوطة إلى مصر، وأعنف الناس في السير حتى هلك جمع كثير من الناس [2].

ومنها أنه في سنة 812هـ/1410م كان بين بني حسن من أهل مكة وبين أمير الحاج المصري مشاجرة عظيمة، أفضت إلى قتله بعض الحجاج ونهبهم غير مرة، ولم يحج بسبب ذلك من أهل مكة إلا اليسير، وسبب هذه الفتنة أن صاحب مصر الملك الناصر فرج انحرف على الشريف حسن بن عجلان نائب السلطنة ببلاد الحجاز؛ فعزله عن ذلك، وعزل ابنيه عن إمرة مكة، وأسر ذلك إلى أمير الحج المصري "بيسق"[3]؛ فاستعد للحرب، واستصحب معه أنواعاً من السلاح والمكاحل والمدافع وغير ذلك، وورّى بأن قصده بذلك الدخول إلى اليمن، وبلغ الشريف "حسن" ذلك في عاشر ذي القعدة من السنة المذكورة؛ فجمع أعراب مكة، وأهل الطائف و"ليه" وغيرهم من عرب الشرق، على ما كان معه من بني حسن من الأشراف والقواد، وعبيد أخيه أحمد بن عجلان وأولادهم وعوام مكة، وكان من معه يزيدون على ستة آلاف نفر؛ منهم: أربعة آلاف من الأعراب الذين استنفرهم، واجتمع عنده من الخيل نحو ستمائة، وكان يكره القتال مخافة أن يصيب الحجاج سوء من معرة الجيش، وأشار بعض جماعته بأن يرسل إلى أمير الحاج من

---

[1] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص304.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص 305. المقريزي، السلوك، ج6، ص203. ابن حجر، إنباء الغمر، ج6، ص103، ص104.

[3] – هو بيسق الشيخي. أنظر ترجمته صفحة85. وانظر السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص22.

يعظم عليه أمر الحرم وأهله، وأنه إذا كان قصده القتال، فليتقدم الحجيج قبله بيوم أو يتقدم هو قبلهم بيوم فيقع اللقاء؛ وبينما هم في المعركة فيم يؤدي هذه الرسالة إلى أمير الحاج إذ جاء الله بالفرج، وقدم ناظر الخاص بخدمته فيروز الساقي إلى مكة بخلع وتقاليد للسيد حسن –المذكور– وولديه، بعودهم إلى ولايتهم، ومنع أمير الحاج من التعرض لقتالهم[1].

ومنها فتنة في عام 819هـ/1415م؛ بين الشريف حسن بن عجلان والشريف رميثة، كان الظفر فيها للشريف حسن الذي ملك مكة وأخرج منها رميثة[2].

وفي سنة846هـ/1442م وقعت فتنة بين الشريفين علي بن حسن بن عجلان والسيد إبراهيم بن حسن ين عجلان وبين الأتراك؛ وسببها أنه لما وصل الأمراء من مصر خرج لملاقاتهم من كان بمكة من أكابر الدولة المصرية، فامتنعوا من الدخول إلا أن يحضر صاحب مكة الشريف علي وأخوه السيد إبراهيم؛ وكانا في وادي الآبار، فأرسل الأمير الذي في مكة إلى الشريف علي يخبره بذلك، فأقبلا، فلما كانا في أثناء الطريق قبل دخول مكة بلغهما عن الأتراك إرادة السوء بهما، فتشاور الشريفان في ذلك، فاقتضى رأيهما أن الشريف علياً يدخل مكة والسيد إبراهيم يعود إلى وادي الآبار، فدخل الشريف علي واجتمع بالأتراك، فألبسوه خلعة من جانب ملك مصر، وسألوه عن أخيه فاعتذر عنه، فحسنوا له أن يصل للبس الخلعة السلطانية، فاعتمد الشريف على قولهم فأرسل إلى أخيه، فوصل، ثم اجتمعا بهم في المسجد، وألبس السيد إبراهيم خلعته، وعند ذلك أخرج أمراء المماليك مكتوباً من السلطان؛ كان مضمونه الأمر بالقبض على الشريفين علي وإبراهيم، فقبض عليهما حينئذ، وتفرق من كان معهما من جماعتهما، وحصلت الغوغاء والفوضى في البلد الأمين[3].

وفي عام 904هـ/1499م تمرد الشريف هزاع على أخيه الشريف بركات بن محمد بن بركات فأخذ يهاجم أنصار أخيه ويهدد مدينة جدة والطريق بين مكة والمدينة المنورة مما كان يشبه الحصار الاقتصادي على مكة المكرمة[4].

---

[1] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص305.

[2] – الطبري، الأرج المسكي، ص122.

[3] – المصدر نفسه، ص123.

[4] – عبد العزيز بن فهد، غاية المرام ،ج2، ص83.

من سنة 906هـ/1501م إلى سنة 912هـ/1507م، كان بين الشريف بركات بن محمد وإخوته الشريف هزاع والشريف جازان فتن وحروب متعدِّدة ومواقف متكررة، لحق ضررها الحاج واختلفت كلمة العربان وخرجوا على الحجَّاج ونهبوا أموالهم وقتلوا رجالهم في جميع الطرقات وسائر المنازل والطرق في مكة وفي الحجاز؛ وكان البعض منهما بمكة، فمن البعض المذكور ما وقع بينه وبين أخيه الشريف جازان؛ المسمى أحمد، فإنه هجم بعسكره على الشريف بركات وهو بمكة، وتحاربا عند "أذاخر" فاستولى جازان على البلد، ثم لم يزل الشريف بركات رحمه الله تعالى–في تدبير أمر المحاربة إلى أن صفت له البلد[1].

وبعد استعراضنا لجوانب من الفتن والصراع السياسي في مكة؛ يتضح لنا خطورة الفتن وعدم الاستقرار السياسي في مكة والحجاز على الحجاج، ويتضح أن المماليك بذلوا جهوداً لإخمادها للحفاظ على أمن الناس والحجاج.

[1] – انظر: العصامي، سمط النجوم العوالي، ج4، ص314– ص317؛ الطبري، الأرج المسكي، ص123.

المبحث الثاني: اعتداءات العربان على قوافل الحجيج:

قد يستغرب البعض ممن ليس له مطالعة في التاريخ من هذا العنوان، ويتساءل كيف يُعتدى على حجاج بيت الله الحرام، من أبناء العروبة، وفي قلب بلاد الاسلام، ولكن الغرابة سوف تزول عندما نوضح أسباب ذلك، والتي سنذكرها إن شاء الله في نهاية هذا المبحث، بعد أن نسوق الأمثلة والحوادث في ذلك.

ونقول إن حدوث الفتن والمناوشات التي ذكرناها في المبحث السابق، نتيجة لذلك الصراع السياسي بين أمراء مكة أو بينهم وبين أمراء الحاج، كان أحد الأسباب في جرأة بعض القبائل على مهاجمة قوافل الحجيج، والاعتداء عليهم ونهبهم، وسنتعرض لبقية الأسباب في نهاية هذا المبحث إن شاء الله.

وقد واجه الحجاج في كافة الطرق المؤدية إلى مكة العديد من اعتداءات العربان وقطاع الطرق، وعلى مر العصور؛ ففي سنة545هـ/1150م، وفي شهر المحرم، أخذت العرب جميع الحجاج بين مكة والمدينة، في مكان يقال له الغرابي، فهلك أكثرهم، ولم يصل منهم إلى بلادهم إلا القليل [1].

ونحن هنا نورد الاعتداءات التي تعرضت لها قوافل الحج الشامي والغزاوي في العصر المملوكي موضوع دراستنا:

فمن ذلك أنه لما أتم سلار حجّه سنة 704هـ/1305م ركب إلى المدينة، وعند وصوله وادي بني سالم وقفت العرب التي بالجبال هناك، وعبثوا على الحاجّ، وأخذوا أطرافهم، ونهبوا جمالاً كثيرة، فركبت الأمراء عليهم وقاتلوهم بالحجارة ساعة فانهزموا، فتبعوهم إلى الجبال، وأخذوا منهم خمسين نفراً، وجرحوا منهم جماعة، وأحضرهم الأمير سيف الدين سلار إلى المدينة واستفتى العلماء فيهم، فأفتى الجميع بِأَنَّهُم محاربون بقوله تعالى: " إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله[2]". الآية، فأمر عند ذلك بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف[3].

---

[1] – ابو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص22.

[2] – سورة المائدة، الآية 33.

[3] – المقريزي، السلوك، ج2، ص378، العيني، عقد الجمان، ج4، ص350.

وفي سنة714هـ/1315م؛ اجتمع جماعة من بني لام، من عربان الحجاز، وقصدوا قطع الطريق على سوقة الركب الشامي، الذين يلاقونهم من البلاد إلى تبوك عند عود الحاج، وساروا إلى ذات حج، وتواقعوا مع السوقة[1]، فقتل من السوقية تقدير عشرين نفساً، ثم انتصروا على بني لام وهزموهم، وأخذوا منهم تقدير ثمانين هجيناً، وعادت بنو لام بخفي حنين [2].

ومنها أن الحجاج الشاميين في سنة751هـ/1351م؛ حصل لَهُم خوف من عبور المدينة النبوية وذلك أن الشريف أدى[3] لما عزل بالشريف سعد جمع العربان وهجم المدينة قبل قدوم سعد إليها وأخذ أموال الخدام وودائع الشاميين وقناديل الحجرة الشريفة وأموال الأغنياء وغيرهم[4].

وفي سنة804هـ/1402م، هاجم عرب بني سالم في جنوب بلاد الشام ركب الحجاج عند العقبة، فتحارب معهم أمير الحج وكسرهم وقبض على شيخهم منجد بن خاطر وحمله مقيداً إلى القاهرة، ولما مثل بين يدي السلطان فرج بن برقوق خيّره بين الإعدام شنقاً أو رد ما نُهب من الحجاج، فسجن في القلعة حتى التزم عربه برد ما نهبوه[5].

في سنة804هـ/1402م، وفي المحرم لما رجع الحاج إلى العقبة وجدوا ودائعهم قد نهبت فقيل أخذ لهم ما يساوي عشرين ألف دينار، وقبض أمير الحاج على صاحب الدرك فصولح على بعض وترك بعض[6].

وفي سنة 810هـ/1406م، عاد حجاج الدرب الغزاوي الشامي (غزة والقدس) مع إخوانهم حجاج المغاربة وحجاج الإسكندريَّة مشكلين قافلة واحدة فتعرضوا للنهب، فنهبوا جميعاً ونزل بالمغاربة بلاءً كبيراً[7].

---

[1] – السوقة: هم الرّعية وأوساط النَّاس وَتطلق على الْوَاحِد وَغَيره فَيُقَال هُوَ سوقة وهم سوقة (ج) سوق والسوقي الْمَنْسُوب إِلَى السُّوق أَو السوقة. مجمع، المعجم الوسيط، ج1، ص465. والمقصود بهم هنا الذين يسيرون في ساقة ركب الحجاج لحراستهم.

[2] – أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص74.

[3] – هكذا وردت في نسخ كتاب السلوك.

[4] – المقريزي، السلوك، ج4، ص 118.

[5] – ابن إياس، بدائع، ج1، ق2، ص639.

[6] – ابن حجر، إنباء الغمر، ج2، ص8.

[7] – المقريزي، السلوك، ج6، ص 191.

وفي سنة 814هـ/1411م تعرض ركب الحاج الشامي لهجوم من الأعراب عند منزلة زيزا، وحدث قتال بين حراس الركب وبين الأعراب جرح فيه أمير الركب، ودخل دمشق مجروحاً، وبعد أيام مات متأثراً بجراحه[1].

وفي سنة 829هـ/1426م، في ذي القعدة، بلغ عجلان بن ثابت بن هبة الحسني أمير المدينة أن السلطان المملوكي عزله وولى ابن عمه خشرم بن جماز بن هبة فقبض على الخدام والقضاة ونهب المدينة، فلما وصل خشرم مع أمير الحاج الشامي وجد عجلان أخلى المدينة، فأقام خشرم وتوجه الركب الشامي إلى مكة، فعاد عجلان ومعه جمع من العربان، وحاصر المدينة ثَلَاثَة أَيَّام ثمَّ دخلوها ونهبوا دورها وشعثوها وخربوا مواضع من سورها، وأخذوا ما كان للحجاج الشاميين من ودائع وقبضوا على خشرم ثمَّ خلوه لسبيله واستهانوا بحرمة المسجد وارتكبوا عظائم، وخربت بيوتٌ كثيرة[2].

ومن أكبر الاعتداءات التي وقعت على الحجاج ما ذكره عدد من المؤرخين عما حل بركب الحاج الشامي الغزاوي سنة 842هـ/1438م، عند عودهم من موسم حج عام 841هـ/1437م، فقد تناوله المؤرخون كما يلي:

يقول المقريزي: "وفي ثاني عشرين محرم قدم الركب الأول من الحجاج وقدم المحمل في يوم الخميس ثالث عشرينه ببقية الحجاج بعدما نزل بالحاج بلاء عظيم وهو أن ركب الغزاويين ومن انضم إليهم من أهل الرملة ومن أهل القدس وبلاد الساحل وأهل ينبع لما نزلوا في عودهم من مكة بوادى عنتر قريب من منزلة الأزلم خرج عليهم من عرب بلى نحو أربعين فارساً ومائة وعشرين راجلا يطلبون منهم مالاً، فأما الينابعة فإنهم جبوا لهم مبلغاً من الذهب دفعوه إليهم فكفوا عنهم وتركوهم فلحقوا الركب، وأما الغزاويون فاستعد مقدمهم ورمى العرب بالنشاب وقتل منهم ثلاثة فحملوا عليه حملة منكرة أخذوه فيها ومالوا على الركب يقتلون ويأسرون وينهبون فما عفوا ولا كفوا فيقول المكثر إنهم أخذوا ثلاثة آلاف جمل بأحمالها وعليها من المال ما بين ذهب وفضة وبضائع وأزودة الحاج ما لا يقدر قدره كثرة، وخلص من تفلت من الركب وهم عراة حفاة يريدون اللحاق بالمحمل فمات منهم عدة، ولحق بالمحمل عدة وتأخر بالبرية منهم عدة، وقدم منهم إلى

---

[1] – ابن حجر، انباء الغمر، ج2، ص493.

[2] – المقريزي، السلوك، ج7، ص 142. ابن حجر، إنباء الغمر، ج8، ص108.

القاهرة من تأخرت منيته فيما بعد من البر والبحر بأسوأ حال وفقد الناس من الرجال والنساء والصبيان والبنات عدداً كبيراً فكانت هذه الحادثة من شنائع ما أدركناه، ولم يمتعض لها أحد لإهمال أهل الدولة الأمور وإعراضهم عن عمل المصالح، ولا قوة إلا بالله"[1].

وذكر ابن حجر هذا الاعتداء بقوله: "وفيها خرج على الحاج عرب بلي فأخذوا نحواً من ألفي جمل كانت مع العرب من جهينة وغيرها، فمنها كثير من الحاج الغزاوي والشامي ومعهم الكثير من بهار المصريين ومن أمتعتهم وهداياهم وذلك عند الوجه، فأخذوا الجمال ورموا ركابها وأخذوا نفائس ما معهم، فتوصل الكثير منهم حفاة عراة إلى بئر الأزلم فمات الكثير منهم هناك، وسئل أمير الركب آقبغا التركماني أن يقيم بالأزلم حتى يتكامل الذين سلموا من الموت، فامتنع ورحل من أول النهار فهلك الذين وصلوا بعدهم ولم يجدوا من يرفدهم ومات أكثرهم فكانت قصة شنيعة، وتوصل بعضهم إلى عيون القصب فركب البحر من جزيرة عينون، وانطلقت الألسن بذم أمير الركب وأنه كان السبب فيما صنع عرب بلي لكونه أرسل أحد الرئيسين مبشراً، وزنجر الآخر فغضب قومه وفعلوا ما فعلوا ولم يعاتب أمير الركب فضلا على أن يعاقب، ثم تبين أن العرب الذين حملوا البهار سلموا، ووصل معهم جمع كثير من الحجاج وذكروا أن بقيتهم ركبوا البحر وأنه لم يمت منهم إلا القليل"[2].

وعبّر عن هذا الاعتداء خليل بن شاهين الظاهريّ بقوله: "وفيه وصل الحاجّ وقد قاسوا في عودهم مشاقّا، وخرج بعض العربان على الركب الغزّاوي، وفعلوا بهم أفعالاً منكرة وقتلوا ونهبوا وأسروا، وحلّ على الحاجّ ما لا يعبّر عنه من الأذى والضرر والموت، والتشتّت في البوادي، والموت بعد ذلك، بحيث عدّ من أشنع الحوادث وأقبحها"[3].

وتناوله ابن تغري بردي بقوله: "وفي ثالث عشرين المحرم قدم ركب الحاج إلى القاهرة، وأمير المحمل آقبغا الناصري المعروف بالتركماني، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بعد أن حل بالحاج من البلاء ما لا مزيد عليه، من أخذهم وأخذ أموالهم ونهبهم، وقد فعلت الأعراب بهم ما فعله التّمريّة في أهل البلاد الشامية، ومعظم المصيبة كانت بالركب الغزاوي، فلم يلتفت أحد من

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج7، ص372، ص373.

[2] – ابن حجر، إنباء الغمر، ج9، ص 33.

[3] – خليل بن شاهين الظاهريّ، نيل الأمل في ذيل الدول، ج5، ص46.

أهل الدولة لذلك، لشغل كل واحد بما يرومه من الوظائف والإقطاعات وغيرها، ودع الدنيا تخرب ويحصل له مراده"[1].

وهذا الاعتداء يوضح لنا خطورة ما كانت عليه طرق الحج، ولاسيما عندما لا يقوم أمير الحاج بمهامه، ولا يتابع من قبل الدولة، ويتبين لنا أيضاً أهمية هيبة السلطان والدولة الحاكمة، ويوضح أيضاً ما كانت تحمله قوافل الحج من تجارات وأحمال، وأن قافلة الحج تضم عدداً لا بأس به من النساء والأطفال.

وفي سنة 843م/1439م، وقع اعتداء مفاده أَن جماعة من الحجاج لما قدموا المدينة الشريفة مضوا لزيارة البقيع خرج عليهم عدد من أفراد العربان وقاتلوهم فقتل ثلاثة نفر من المماليك المجردين؛ أي من أفراد القوة العسكرية المملوكية المدافعين عن القافلة[2].

وفي سنة 866هـ/1461م نهبت عرب حرب؛ الحجاج الشاميين وهم في طريق عودتهم بالقرب من وادي مر الظهران، ولكن الشريف محمد بن بركات لم يرضه ذلك التصرف من قبل حرب، فما إن سمع الخبر حتى سارع بإرسال مائة فارس، وقد تمكنوا من استرداد كثير من الأموال التي أعادوها لأصحابها[3]، وهذا موقف مشرّف يظهر المعدن الأصيل لأشراف مكة، وأن من عادتهم الدفاع عن الحجيج وخدمتهم.

وفي سنة898هـ/1492م حصل لهم بالقرب من الأزلم عطش شديد وموت جمال ورحال وهروب مقومين، ودخل الركب الغزاوي مستهل ذي الحجة وتأخر عن عادته لخروج العرب عليه، وكان الظفر لهم، ومعهم كثير من الأروام ونحوهم[4].

وفي سنة 899هـ/1493م خرج مجموعة من العربان على ركب الحاج الغزاوي في محل يقال له سماوة قبل الأزلم بمرحلة، فوقف الركب بأجمعه، واكتنف القواسة الحاج، فحماه الله منهم وسلم جميع من فيه وما فيه[1].

---

[1] – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص 367. وانظر أيضاً: ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج3، ص434.

[2] – المقريزي، السلوك، ج7، ص 430.

[3] – ابن فهد، إتحاف الورى، ج4، ص432. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص466.

[4] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص478.

وفي سنة900هـ/1494م، وفيها في شهر الله المحرم أخذ العرب من بني لام ركب الحج الشامي بالقرب من الكرك ونهبوا الحجاج عن آخرهم وكان عدة جمال الركب ثلاثة عشر الف جمل، ولم يسلم من ذلك سوى ستة عشر جملا من غير أحمال وهلك من الرجال والنساء والاطفال خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى وأخذت الأموال وسبي الحريم وكانت حادثة فاحشة، وقد اشتهر أمرها فانتصب من أهل بلد الخليل عليه السلام جماعة، وتوجهوا إلى جهة الاعوان وغيرها وأحضروا جماعة من الحجاج إلى بلد الخليل وإلى القدس الشريف، وتسبب شيخ الاسلام الكمالي ابن أبي شريف وجماعة من أهل الخير في جمع مال من أهل القدس الشريف ودفع لكل واحد من الحجاج ما يكتري به وينفقه عليه إلى أن يصل إلى وطنه فالحكم لله العلي الكبير[2].

وفي سنة900هـ/1494م، وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من محرم وصلت كتب الحاج وأخبروا أن العرب عوقوهم، ثم ورد الخبر يوم الثلاثين منه بأن الحاج لما خرج من العقبة، قبل وصوله إلى معان، قبض العرب عليه وعلى أكابره، وأما أمير الركب، قاتله الله، فكابر وبرز بحريمه وجماعته عن الحاج، فطمع فيه، ثم اشترى الحاج نفسه بمال كبير، ثم لما وصلوا إلى الحسا نهب المال والحريم، ولم يدخل إلى دمشق حمل من الحاج، ومات نساء كثير برداً وجوعاً، وكذلك الأطفال، وذهب جماعة منهم إلى الشوبك، ولم نسمع بمثل ما جرى عليهم، ولا قوة إلا بالله[3].

ولنترك تفصيل هذا الحدث مع ابن الحمصي مؤرخ الشام المتوفي سنة 934هـ/1527م في كتابه حوادث الزمان، حيث يقول:

وفي ثاني صفر سنة سنة900هـ/1494م، وصل من الحاج الشامي شرذمة يسيرة جداً حفاة عراة، وأخبروا أن العرب أخذوا الحاج بأجمعه في العود في معان، الرجال والنساء والأطفال والدواب، وأسروا من الأعيان قاضي القضاة شمس الدين محمد بن مزلق وأولاده ونساءه، والخواجا علي بن عيسى القاري، وإخوته الصغار وأولاده، والخواجا ابن الزمن والخواجا ابن النيربي، والخواجا ابن سليمان وخلايق لا تعد ولا تحصى، وأسروا أمير الحاج أركماس، وكل ما وقع

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص480.

[2] – العليمي، الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، ص371، ص372.

[3] – ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص132، ص133.

للحاج من سوء تدبيره، فإنه قطع صررهم، وأبطل عوايدهم قابله الله بما فعل مع الحاج، فانظر يا أخي إلى هذا الداهية العظيمة، فلا حول ولا قوة إلا بالله[1]. وفي سابعه (أي صفر) وصل جماعة يسيرة عراة ضعفاء، وأخبروا أن الرجال والنساء والأولاد مطرحون أمواتاً من الحسا إلى دمشق، وأن غالب النسا والحسان أخذهم العشران والعرب، وسافروا بهم إلى بلادهم للفسق بهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وأخبروا أيضاً أن العرب كسروا المحمل الشامي، واقتسموا ثوبه وثوب الصنجق الذي يدخل به إلى الحرم النبوي الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والتسليم[2].

ويعلل ابن الحمصي سبب هذا الاعتداء بقوله: "وهذه الأمور من سوء تدبير أمير الحاج، فإنه أخذ للشعارة[3] في العلا أربعون جملاً، بأحمال من الدقيق، وأصرف للعرب بعض صرر، فوجدت غالبها زغلاً ونحاساً، قابله الله على فعله، ولا جزاه عن المسلمين خيراً"، ويتابع: "ثم أرسل العرب إلى التجار يقولون لهم: كل من عرف له بهار يحضر ليشتريه، ويصالح عليه، وأما القماش الكارم، فإنه تفرق مع العربان والعشير وعسر جمعه، فتأهب التجار لذلك فمنعهم نائب الشام قانصوة اليحياوي، ونادى بالتجريدة على العرب"[4].

وفي سنة 901هـ/1495م رتب الكافل نائب دمشق من يجمع من الناس مالا لأجل المشاة لتخرج للعرب قبيل خروج الحاج فبدأوا بأهل قبر عاتكة وأخذوا من الشاغور والصالحية واما أهل القبيبات فتوقفوا، وذلك لتأمين طريق الحج مما حصل في العام الماضي[5].

وفي سنة903هـ/1497م، وصل الخبر بأن الحاج تعرض لهم العرب وانهم أخذوا نحو ثلثهم وانهم معهم في قتال في منزلة اللجون وان ناظر الجيش ابن النيربي أخذ له العرب نحو

---

[1] – ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص262–ص265.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص262–ص265.

[3] – الشعارة: بطن من قبائل الدهمان، من الصقور، من الجبل، من العمارات، من عنزة. كحالة، معجم قبائل العرب. ج2، ص594.

[4] – ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص262–ص265.

[5] – البصروي، تاريخ البصروي، ص180.

خمسين جملاً، ثم جاء الخبر بأن عمران بن ملاك أدرك الحاج بجماعته وخلصهم من القطاع، ومضوا على بركة الله تعالى[1].

وفي سنة 904هـ/1498م، وفي يوم الخميس السابع والعشرين من شوال دخل المزيريبة[2]، وقد أخذت العرب جماعة منهم؛ ووصل إلى النائب كتاب من أمير الحاج، ومفاده إن لم تدركونا إلا أخذنا من كثرة العرب، فخرج النائب بعسكره في اليوم المذكور إليهم، وفي يوم الأحد التاسع والعشرين منه لحق النائب جماعة، منهم نائب طرابلس المعزول دولتباي، الذي كان نائب حماة، ومن قبل ذلك كان نائب قلعة دمشق في حصار الدوادار لها، ومنهم جان بلاط دوادار السلطان بدمشق، ومنهم الحاجب الكبير ابن سلطان شركس، وأخذوا معهم بنت أمير بني لام مسلم، التي كانت استؤسرت لتسلم لأبيها ويسلم الحاج، وطارد النائب العرب، التي أخذت السوقة، الراجعين إلى دمشق[3].

وفي سنة 904هـ/ 1498م: واجه الحجاج مشقات كبيرة، وفي طريق عودتهم وقع اعتداء على الحاج الغزاوي من العرب في طريق الحج بالقرب من الشرفة، فأسروا النساء وقتلوا الرجال، ولولا أن أمير ركب المحمل المصري قرقماش أدركهم لأخذوا جميع ما في الركب الغزاوي[4].

وفي سنة906هـ/1500م، هجم عرب طريق الحاج على بعض جمالة وأخذوا منها شيئاً، فأغار عليهم نائب الشام وتبعهم على ما قيل إلى بلاد الحسا، ثم عاد إلى القدس، ثم أتى ودخل دمشق[5].

وفي سنة 907هـ/1501م وقع على الحاج الشامي اعتداءٌ كبير من قبل الأمير جازان، أخا بركات سلطان مكة، وأن أمير الحاج المصري خادعه إلى أن دخل مكة، فلم ينله مراده، فرجع إلى الحاج الشامي وطلب منهم مالاً كثيراً، فلم يقدروا عليهم، فنهبهم قبل وصولهم إلى مكة[1].

---

[1] – البصروي، تاريخ، ص180.ص223.

[2] – التجار والمودعون القادمون من المزيريب، والمزيريب مجتمع الحجاج، وفيه الأسواق العامرة بما يحتاج إليه الركب، وما يتّجر به. كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص231.

[3] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص177.

[4] – ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج2، ص363، ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص425.

[5] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص189.

ويصفها ابن الحمصي بأنها طامة عظمى، وبلية لم يقع نظيرها في عصر من الأعصار، ثم يقول: وسبب ذلك أنه لما وصل الحاج المصري إلى الينبوع وجدوا بها يحيى بن سبع صاحب الينبوع وعساكره ومعه الجازاني أخو بركات بن محمد بن بركات الشريف صاحب مكة، وهم مطرّدون من أخيه المذكور ومعهم عربان وعساكر لا يحصون، وكلهم عصاة، فأرادوا أخذ الحاج المصري ونهبه، فتلطف بهم أمراء الحاج، وهم محمد بن خصبك أمير الأول، والأمير اصطمر أمير مجلس، وأمير المحمل، وخلعوا على يحيى بن سبع ورفيقه الجازاني، واتفقوا مع الجازاني المذكور على توليته على مكة، عوضاً عن أخيه الشريف بركات، وأنهم يساعدونه على أخيه المذكور، وساروا مع أمراء الحاج إلى مكة، فلما قربوا من مكة تخيل يحيى بن سبع والجازاني ومن معهم، ورجعوا إلى جهة الينبوع، وعند رجوعهم رأوا في طريقهم الحاج الشامي، وهم واصلون إلى خليص، فاقتتلوا معهم وكسروا الحاج الشامي، وأخذوه ونهبوه عن أخره، وقتلوا غالبه ولم يحجوا، فلما وصل الحاج المصري إلى مكة حج وعاد، هو وصاحب مكة، ورجع معهم الشريف بركات إلى الينبوع، فوجدوا يحيى بن سبع والجازاني، ومن معهم قد جمعوا عليهم عساكر لا تعد ولا تحصى، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل من مماليك السلطان، الذين كانوا مع الحاج المصري ما يزيد على المئة، وكانت الكسرة على الحاج المصري، وهرب الشريف بركات هو وجماعته إلى مكة، فعند ذلك نهب يحيى بن سبع والجازاني ومن برفقتهما جميع الحاج المصري، وسبوهم وأخذوا أموالهم وجمالهم وحصل لهم من الضرر مثل ما حصل على الحاج الشامي[2]. ونهب كل ما في المحمل المصري حتى عروا النساء من أثوابهن، وأخذوا عصائبهن من على رؤسهن، وقلسين من الشدة مالا خير منه، وتخلف غالب الحاج بميناء ينبع وعادوا من طريق البحر والبر وهم في أنحس حال[3].

ثم أخذ العربان ما نهبوه من الينبوع وساروا، فمن الحاج من عرف متاعه، ذهب إلى العربان واشتراه وضمن عليه، ومنهم من فقد متاعه بالكلية، وحصل للحاج في هذا العام من الضرر مالا يوصف من العذاب، فلما عادوا إلى القاهرة في يوم تاريخه، غضب السلطان على أمراء الحاج،

---

[1] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص211، ص212.

[2] – ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج2، ص423– ص425.

[3] – ابن إياس، بدائع الزهور، ج4، ص37.

ورسّم[1]عليهم، فاعتذر اصطمر أمير المحمل بأن جماعة من القاهرة كاتبوا ابن سبع، والجازاني والعربان، فطلبهم السلطان ورسّم عليهم[2].

وأخبر الحاج أيضاً بأن العربان ردموا الآبار الواقعة في منزلة الأزلم، فأبيع على الحاج كل قربة بخمسة دنانير، وكل كراز ماء بدينار، ولما وصلوا إلى العقبة عوقهم عرب تلك الناحية إلا بدفع المال، فجبى لهم أمير الحاج من الحجاج المبلغ المطلوب وقدره ثلاثة آلاف دينار ودفعها إليهم فمكنوهم من المرور، وصار غالب الحاج الشامي الذين سلموا من القتل منفياً في القاهرة[3].

وفي سنة 921هـ/1515م وفي يوم السبت ثامن عشره خرج المحمل والصنجق السلطاني، وأمير الحاج أمير ميسرة أصباي، وخرج معه القضاة على العادة، وفي يوم الاثنين سابع عشريه أتى السوقة وغيرهم من المزيريب[4]، وأخبروا بكثرة المطر والوحل، وأخبروا بأن هناك حجاج لما وصلوا إلى غزة صودروا من العرب بعد أن جمعوا عليهم، إلى أن صالحوهم على مال جبي لهم، ولا قوة إلا بالله[5].

واستمرت الاعتداءات من قبائل العربان على قوافل الحجاج حتى في ظل العهد العثماني، ويحكي لنا الجبرتي عن واحدة من حوادث الاعتداء على الحجاج في العصر العثماني فيقول: "إنه في يوم الأحد حادي عشر صفر سنة 1201هـ الموافق 1786م، نزل الحجاج ودخلوا مصر على حين غفلة من أهلها، وهم في أسوأ حال من العري والجوع، حيث نهبت جميع أحمال أمير الحاج وأحمال التجار وجمالهم وأثقالهم وأمتعتهم، وأسر العرب جميع النساء بالأحمال وكان أمراً شنيعاً جداً، ثم ان الحجاج استغاثوا بأحمد باشا الجزار أمير الحاج الشامي فتكلم مع العرب في أمر النساء فأحضروهن عرايا ليس عليهن إلا القمصان وأجلسوهن جميعاً في مكان واحد،

---

(1) – الترسيم: يعني الحَجْر أو التوقيف أو ما يقابل في عصرنا الإقامة الجبرية، أو المراقبة، و كثيرًا ما يُرْسَم على الفقهاء أو القضاة في المدرسة من المدارس، ويقال رُسِمَ على فلان أي وضع تحت المراقبة بعد عزله بأمر من السلطة المختصة. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص44.

(2) – ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج2، ص423– ص425.

(3) – ابن إياس، بدائع الزهور، ج4، ص38.

(4) – المزيريب، هي محطة من محطات الحجاج، وفيها يلتقي التجار بغيرهم من تجار البلدان الأخرى ويتبادلون البضائع، ويتداولون الأخبار، واشتهرت في النصف الثاني من عهد المماليك. الجزيري، الدرر، ج2، ص65.

(5) – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص315.

وخرجت الناس أفواجاً فكل من وجد امرأته أو أخته أو أمه أو بنته وعرفها اشتراها ممن هي في أسره وصارت المرأة من نساء العرب تسوق الأربعة من الجمال والخمسة بأحمالها فلا تجد مانعاً، وسبب ذلك كله رعونة أمير الحاج فأنه لما أراد أن يتوجه بالحجاج إلى المدينة أرسل إلى العرب فحضر إليه جماعة من أكابرهم فدفع لهم عوائد سنتين وقسط البواقي على السنين المستقبلة بموجب الفرمان وحجز عنده اربعة أشخاص رهائن فبدا له أن كواهم بالنار في وجوههم فبلغ ذلك أصحابهم فقعدوا للحجاج في الطريق فبلغ أمير الحاج ذلك فذهب من طريق أخرى فوجدهم رابطين فيها أيضاً فقاتلوه قتالاً هيناً ففر هارباً وترك الحجاج والعرب فنهبوا حملته وقتلوا مماليكه ولم يبق معه إلا القليل فهرب بمن بقي معه واختفى عن الحجاج ثلاثة أيام ولم يره أحد وفعلت العرب في الحجاج ما فعلوه واخذوا ما أخذوه فلم ينج منهم إلا من طال عمره وسلم نفسه او افتداها، إلى غير ذلك وأخذوا المحمل أيضاً ولم يردوه"[1].

معالجة المماليك للاعتداءات على الحجاج:

كنا قد بينا بعض الوسائل التي اتخذها المماليك للحفاظ على أمن الحجاج، ولا بأس وتتميماً للموضوع الذي نحن بصدده أن نتوسع بعض الشيء هنا فنقول إن المماليك حرصوا منذ استلامهم للسلطة على توفير جميع الوسائل للحفاظ على الأمن والأمان وخاصة في طرق الحج والحجاز، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن فضل الله العمري حيث يقول: "إن ملوكنا أثابهم الله تعالى رتبوا لقبائل العربان في الطرق من الدراهم والقماش والخلع لشيوخهم وأكابرهم عادة جارية لا تنقطع في كل سنة، فإذا نزلوا أرض قوم، خرجت مشايخهم لتلقي المحمل السلطاني وقبّلت الأرض وعقب الصنجق المنصور، ومشت في الخدمة السلطانية وأودع من أهليهم وذوي قرابتهم وأهل المراتب فيهم أناس في السلاسل، ووكل بهم من يحفظهم[2]، ويستمرون على هذا إلى ان يخرجوا من أرضهم، فيطلق سراحهم، ويخلع عليهم، وتوصل إليهم رسومهم، وإنما يعمل هذا فيهم لاحتمال أن يؤخذ شيء للحاج فيطلبون به ويكونون رهائن عليه، فلا يستطيع أحد أن يتجاسر ولا يعترض الحاج بأذية، وربما تبع الحاج قوم من غير أرض أولئك القوم وسرقوا فيحتاج هؤلاء أن يتبعوهم ويستعيدوا منهم الأخيذة بعينها أو الثمن عنها، وجرى هذا غير مرة، وصار للحاج بهذا أمن عظيم على أنفسهم وأموالهم، ولما ثبت الله تعلى قواعد هذه الدولة الشريفة الملكية الناصرية

---

[1] – الجبرتي، عجائب الآثار، ج2، ص12.

[2] – العمري، مسالك الأبصار إلى ممالك الأمصار، ج2، ص338.

مد الله أيامها، وشد بأطناب المجرة خيامها، دانت لها الأمم، ووفدت العرب عليها من كل جهة وعادوا بالجائز والأنعام، فزادوا رغبة في الوفود عليها، والورود إليها لتقبيل أعتابها، وتكحيل الجفون بتراب أبوابها، ورأوا من الصدقات العميمة ما أغناهم وكفاهم، وشاهدوا من مهابة هذه الدولة القاهرة ما منعهم وروعهم وسكن في قلوبهم من خوف سطواتها ما لا يخرج، واستقر في صدورهم من عظمتها ما لا يتزحزح"[1].

وبعد إيراد هذا النص الذي يبين وسائل المماليك لحفظ الحجاج؛ نجمل وسائلهم للحفاظ على الحجيج من أي اعتداء كالآتي:

– هيبة السلطان الرادعة: كانت دولة المماليك تهابها الأمم وقبائل العرب وخاصة في ذروة نفوذها ففي سنة 721هـ/1321م لما مر ركب العراق بعرب البحرين خرج عليهم ألف فارس يريدون أخذهم فتوسط الناس بينهم على أن يأخذوا من أمير الركب ثلاثة ألاف دينار فلما قيل لهم إنما جئنا من العراق بأمر الملك الناصر صاحب مصر وكتابه إلينا بالمسير إلى الحجاز أعادوا المال، وقالوا: لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شيء ومكّنوهم من المسير، فبلغ ذلك السلطان فسر به وبالغ في الإنعام على العربان[2]. فمن هنا يتبين لنا ان هيبة سلطان الدولة له أثر مهم في ردع من تسول له نفسه بالاعتداء على الحجاج.

–إقامة العدل ومعاقبة المفسدين: كما في سنة 704هـ/1305م، عندما عاقب الأمير سلار المعتدين على الحجاج بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف[3].

– تأمين طرق الحج بإرسال الصرر المالية إلى القبائل القاطنة بالقرب من هذه الطرق مقابل عدم التعرض للحجاج[4].

– تخصيص حراسة مسلحة مرافقة لقوافل الحجاج والتجارة، لصد هجمات عشائر العربان الذين يعيشون على السلب والنهب في الصحراء[5].

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار إلى ممالك الأمصار، ج2، ص339.

[2] – النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج32، ص257؛ المقريزي، السلوك، ج3، ص35.

[3] – المقريزي، السلوك، ج2، ص378، العيني، عقد الجمان، ج4، ص350.

[4] – انظر الفصل الثاني المبحث الثاني، ص69.

[5]– انظر الفصل الثاني المبحث الثاني، ص70.

– تأمير رجل ذو كفاءة وقوة وشجاعة على الحجاج، مما يجعله يرهب العربان من التعرض للحاج، حتى أننا نجد ان كثيراً من الاعتداءات حصلت بسبب رعونة أمير الحاج أو ضعفه[1].

–إرسال النجدات الاغاثية الى الحجاج وتعويضهم عما ينهب منهم؛ ففي سنة 719هـ/ 1319م جهز السلطان الأمير محمد بن الرديني بمائتي جمل عليها الزاد والماء لإغاثة وحمل من انقطع من الحاج، فسافر في ذلك العام الذي شق فيه أمير الحج على الحجاج بسرعة سيره وعجلته[2]. ومن ذلك أيضاً خروج نائب القدس في سنة 910هـ/1506م لإغاثة الحجاج وحمايتهم[3].

– إرسال النجدات العسكرية الى الحجاج: حرص المماليك على نجدة الحجاج أياً كانوا إذا تعرضوا لاعتداء، وذلك بإرسال قوة عسكرية على الفور، ويكون إرسالها لهدفين الأول نجدة الحجاج وحمايتهم، والثاني تأديب العربان المعتدين ومعاقبتهم؛ ففي سنة 904هـ/1498م وصل إلى نائب دمشق كتاب من أمير الحاج، بإن لم تدركونا إلا أخذنا من كثرة العرب، فخرج النائب بعسكره في يوم وصول الكتاب لحماية الحجاج ونجدتهم[4].

ومن ذلك خروج قوة عسكرية من المماليك من القاهرة لحماية وإغاثة حجاج المغرب الاسلامي عندما خرج عليهم العربان وأخذوا سائر ما معهم حتى صاروا عراة، فخرج جماعة من الأجناد والمماليك إلى الإسكندرية ليتلقوا الرسل والحجاج وساروا ومعهم نائب الإسكندرية إلى سوسة فلقوهم بها وأحسنوا إليهم وإلى الحاج، وساروا برفقتهم إلى القاهرة[5].

–تجريد الحملات العسكرية على القبائل المعتدية؛ ومن ذلك خروج الأمير صروق فِي كشف بِلَاد الشَّام لدفع العربان عَنْهَا فأوقع بهم وَأَكْثر من الْقَتْل فيهم سنة 804هـ/1401م[6].

---

(1) – المقريزي، السلوك، ج3، ص12. ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص265.

(2) – المقريزي، السلوك، ج3، ص13.

(3) – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص223.

(4) – المصدر نفسه، ص177.

(5) – المقريزي، السلوك، ج2، ص426.

(6) – المصدر نفسه، ج6، ص75.

ومن ذلك ما ورد في سنة 872هـ/1468م، عندما جاء الخبر بأن إقامة الحاج التي جهّزت من القاهرة أخذت عن آخرها، وقد أخذها مبارك شيخ بنى عقبة بمن كان معه من العرب، وأنه قتل جماعة ممن كان مع الإقامة المذكورة، وقاسى الحجاج أهوالاً وشدائد من عدم الميرة والعلوفة وقلّة الظهر، فعيّن السلطان المملوكي خشقدم على الفور حملة عسكرية بقيادة الأمير أزبك الظاهري، والأمير جانبك حاجب الحجّاب، وصحبتهما أربعة من الأمراء، وعدّة مماليك من المماليك السلطانية، لقتال مبارك شيخ عرب بنى عقبة ومن معه من الأعراب، وكتب السلطان أيضاً لنائب الكرك الأمير بلاط، ونائب غزّة الأمير إينال الأشقر، بالمسير إلى جهة الأمير أزبك بعقبة أيلة، ومساعدته على قتال مبارك المذكور، وخرج الأمير أزبك بمن عيّن معه إلى العقبة[1].

وقد تمكنت الحملة من تنفيذ مهمتها بنجاح، حيث وصلوا إلى الأزلم لمطاردة العربان، وقبضوا على الشيخ مبارك وعلى ستين من أبناء قبيلته، وحملوا إلى القاهرة مقيدين، فأعدموا جميعاً بالتوسيط، على الرغم من عدم معرفة الظالم من المظلوم منهم، وهذا يعد من المآخذ التي أخذت على المماليك والتي أثارت حفيظة العربان[2].

ومن ذلك أيضاً ما ورد في سنة905هـ/1499م عندما خرج نائب دمشق بعسكر كثير إلى بني صخر، حتى جاوز أربد، فقتل منهم نحو العشرين، وقبض جماعة، وأخذ منهم كسباً، دواباً كثيرة، غنماً، وإبلاً، وبقراً؛ معاقبة لهم على أخذ الحجاج[3].

وفي سنة 911هـ/1511م، أجبر النائب بدمشق الناس على الخروج ليذبوا عن الحجاج مشاة بدون ركوب، حتى أن بعض الناس دعا على الحجاج بأن لا يرجعوا، وأمر بالمناداة بأن لا يتأخر أحد، وأن من لم يخرج، يخرج إقطاعه عنه[4].

وقد ساعد في ذلك نائب القدس الذي كان له دور في سلامة الحجاج حيث جعل للعربان من بني لام جعلاً مقابل عدم التعرض لهم، وأوصلهم إلى عند نائب الشام[5].

---

(1) – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص300 –ص301. ابن اياس بدائع، ج2، ص451، ص459.

(2) – ابن إياس، بدائع، ج2، ص461.

(3) – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص183.

(4) – المصدر نفسه، ص233.

(5) – المصدر نفسه، ص234.

الأسباب التي أدت إلى تعرض الحجاج إلى الاعتداءات:

بعد أن استعرضنا أمثلة الاعتداءات، ومعالجة المماليك لها نستطيع أن نستخلص عدة أسباب أدت إلى الاعتداء من بعض القبائل على قوافل الحجيج، وقبل ذلك ننوه إلى أن العرب القاطنين في الجزيرة هم مسلمون، وفيهم صفات عربية أصيلة من الكرم والشهامة والمروءة والنجدة، والدفاع عن المظلومين، ولكن هناك أسباباً أدت إلى تعرض الحجاج إلى اعتداءات من هؤلاء العربان وهي كالآتي:

أولاً: حدوث الفتن بين أمراء مكة أو بينهم وبين أمراء الحج جعل بعض أفراد القبائل ينتهزون الفرصة في الغارة على قوافل الحجيج، وسلب ونهب ما يقدرون عليه، كما مر معنا.

ثانياً: عدم إيصال الأموال المتفق عليها بين الدولة المملوكية وقبائل العربان، مقابل خفر وحماية الطريق، والمحافظة على وجود الماء في طرق الحج، ففي بعض السنين لا تصلهم هذه الأموال، فيبادرون بأخذها من الحجاج بالقوة[1].

ثالثاً: ينتشر بين أبناء القبائل الجهل، وعدم معرفة أحكام الدين بحكم قلة المدارس والعلماء، فتجدهم يلجأون إلى النهب من الحجاج طلباً للمطعم والملبس دون وازع ديني.

رابعاً: قسوة الظروف المعيشية للقبائل القاطنة في الجزيرة العربية، وحاجتهم الشديدة إلى المال والطعام، فأدى ذلك إلى لجوء البعض منهم إلى تحصيل قوته بالاعتداء على القوافل المارة أياً كانت.

خامساً: عدم حكمة أمير الحج المعين من قبل المماليك في التعامل معهم، أو سوء تصرفه معهم، أو ظلمه لهم، مما يؤدي إلى حدوث مناوشات ومن ثم الاعتداء على الحجيج[2].

سادساً: عدم قيام أمير الحج بواجبه في الدفاع عن الحجاج وتقصيره، مما يطمع قطاع الطرق من العربان في ما تحمله قوافل الحجاج.

---

[1] – ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص264–ص265.

[2] – ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص265.

سابعاً: وجود حالة عدم الاستقرار في أعلى هرم السلطة، وضعف السلطان وتقصيره، أدى إلى فقدان الأمن وبالتالي الاعتداء على الحجاج.

ثامناً: انشغال السلطة المملوكية بالقضاء على فتن المماليك الجلبان[1] وضررهم، فضعفت هيبة الدولة، مما أدى إلى زيادة وتيرة الاعتداءات على الحجاج، ويظهر ذلك في الاعتداءات التي حدثت أواخر القرن التاسع الهجري[2].

تاسعاً: انشغال النيابات المملوكية في بعض السنين بالتنازع فيما بينها وتمرد نائب الشام على الدولة المملوكية، أدّى أيضاً إلى ضعف هيبة الدولة، مما أطمع الأعراب وقطاع الطرق المتحينين للفرص للإغارة على قوافل الحجيج. وكان هذا واضحاً في الاعتداء الذي حصل في القرن التاسع الهجري وخاصة سنة 842هـ[3].

عاشراً: التجاريد العسكرية لتأديب عشائر العربان المعتدية على الحجاج، استخدمت أحياناً القسوة الشديدة لتأديبهم مثل سبي النساء والأطفال والاستيلاء على المواشي ونهب البيوت، وتدمير الممتلكات، مما كان له أثر سلبي تمثل في تعميق روح الثأر والانتقام لديهم، فصار همهم الثأر بأي ثمن ولو على حساب حجاج بيت الله الحرام، وكان هذا العامل واضحاً في الاعتداءات التي حدثت أول القرن العاشر الهجري من أعراب بني صخر وبني لام وبني عقبة شمال الحجاز وجنوب الأردن، عندما تحرك نائب دمشق كرنباي الأحمر ضد الأعراب المعتدين على الحجاج فألحق بهم أضراراً فادحة من القتل والنهب، وكذلك خلفه جان بلاط والذي كان أشد قسوة منه في التعامل مع أعراب الأردن وجنوبه سنة907هـ/ 1501م بحيث أنه أفقرهم، وقتلوا منهم خلقاً، ونهبوا منهم شيئاً كثيراً، نساءً وأولاداً وجمالاً وغنماً غير ذلك، وكذلك النائب قصروه الذي جاء بعدهما[4].

---

[1] – الجلبان: أي المماليك المجلوبين حديثاً. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص53.

[2] – ابن اياس، بدائع، ج2، ص256، ص337، ص340، ص342، ص447، ص459.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص206–ص211.

[4] – ابن طولون،، مفاكهة الخلان، ص198، ص199. اعلام الورى، ص212. محمد الشناق، أعراب بلاد الشام في عهد المماليك، ص120.

وقد أرسل السلطان قانصوة الغوري الأميران أزدمر الداودار وخاير بك المعمار اللذين أرسلهما من مصر لتأديب عربان العقبة، واللذين لا يختلفان عنهم في القسوة والجبروت[1].

كل ذلك كان له تأثير في نفوس الأعراب كما قلنا مما أدى إلى كثرة اعتداءاتهم على الحجاج لتعويض ما أخذ منهم، وهذا السبب لا نقوله تبريراً لما فعله العربان مع حجاج بيت الله الحرام، وإنما هو ذكر لحقيقة تاريخية.

حادي عشر: مصادر الماء من البرك والآبار التي يردها الحجاج، تقع في أراضي قبائل العربان، فكانوا يطلبون منهم مالاً لقاء شربهم منها، فيقع النزاع بين أمير الحاج والقبائل.

ومما تقدم يتضح أن هناك أسباباً للاعتداءات على قوافل الحجاج، وقد حاول المماليك القضاء عليها وتأمين سفر الحجاج سنوياً.

[1] – ابن اياس، بدائع، ج4، ص105.

المبحث الثالث: الكوارث والغلاء ومشقات الطريق المهولة ومشاق أخرى:

من سنن الله عز وجل أن جعل اختلافاً بين الصيف والشتاء، وبين إقليم وآخر، وبين زمان وآخر، فقد تأتي أحوال على الناس لم يألفوها من قبل، من ظروف وكوارث جوية أو غلاء في الاسعار، أو فقدان للأمن، أو الإصابة بالأمراض، أو التعرض لمشقات لم تكن في الحسبان.

وقد كانت هذه الأهوال التي يتعرض لها الحجاج تحدث على مر العصور، فقد حدث سنة 349هـ/960م، عند انصراف حجاج مصر والشام من الحج فنزلوا وادياً وباتوا فيه، فأتاهم السيل ليلاً وأخذهم جميعهم مع أثقالهم وجمالهم وأحمالهم، فألقاهم في البحر[1].

وقد تعرض الحجاج لكثير من المشقات في ذلك العصر الذي نتحدث عنه، ولا غرابة في ذلك لكونهم يسيرون في صحاري وجبال ويقطعون آلاف الأميال.

ونحن هنا نورد نصوص المؤرخين في مصادرهم عن الكوارث التي تعرض لها حجاج الركب الشامي في العصر المملوكي، حتى نعيش مع كلامهم وما كتبوه من وصف تلك الكوارث:

فمن تلك المشقات والكوارث التي عانى منها الركب الشامي عجلة الأمير في السير والشكوى منه، ويتضح ذلك مما ورد في أحداث سنة 698هـ/1298م، في18محرم عندما عاد الحجاج إلى دمشق، وأميرهم عز الدين أيبك الطويل، وشكا الحجاج من أميرهم، وأنه عسفهم في السير وأن الرجالة[2] هلك منهم خلق كثير بسبب عجلته، وسوء خلقه وشح نفسه[3].

ومنها أنه في سنة704هـ/1304م؛ وجد الحاج عدة مشاق منها قلة الماء وغلاء السعر وهبوب سماء محرقة هلك منها خلق كثير من جفاف قرب الماء، وأخذ الحاج من وادي النار على طريق أخرى فتاهوا وهلك منهم عالم كبير، وفيها أجدب الشام من الغور إلى العريش وجفت المياه ونزح الناس عن أوطانهم من العطش[4].

---

[1] – أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص102.

[2] – الرجالة: من لم يكنْ له ظَهْرٌ يَرْكَبُه، ج: رِجالٌ ورَجَّالَةٌ. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1003، فمعناها هنا: المشاة على الأقدام والأرجل.

[3] – اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج5، ص175.

[4] – المقريزي، السلوك، ج2، ص383.

وفي سنة 714هـ/1317م قدم الركب من الحجاز، وقد كثرت الشكوى من الْأَمِير بلبان الشمسي أمير الرَّكب المصري والذي سار معه ركب الحج الغزاوي، وأَنه كثير الطمع مفرط في أَمر الحاج سيء السِّيرة، فقبض عليه لأجل ذلك[1].

وفي سنة 719هـ/1319م وفي خامس المحرم قدم مبشر الحاج بسلامة الحاج، ولكن الحجاج شكوا بأن الأمير مغلطاي الجمّالي شق على الناس بكثرة عجلته في السير وكانت العادة أولا بقدوم المحمل في ثامن عشري المحرم ثم استقر دخوله في الأيام الناصرية يوم الخامس أو الرابع والعشرين منه فأنكر عليه السلطان ما فعله وجهز الأمبر محمد بن الرديني، بمائتي جمل عليها الزاد والماء برسم حمل من انقطع من الحاج فسافر من يومه[2].

وفي موسم حج سنة 745هـ/1344م؛ قاسى الحاج في سفرهم مشقات كبيرة من قلة الماء وغلاء الأسعار، بحيث أبيعت الويبة من الشعير بأربعين درهماً عنها ديناران والويبة الدقيق بخمسون درهما والرطل البشماط بثلاثة دراهم، وأبيع الأردب القمح في مكة بمائتي درهم وبلغ سعر الجمل بمنى أربعمائة وخمسين درهماً لقلة الجمال، وكان من أسباب ذلك أن الشريف عجلان بن رميثة خرج إلى جدة ومنع تجار اليمن من عبور مكة فعز بها صنف المتجر، وهلك كثير في هذا الموسم كثيرٌ من مشاة الحاج[3].

وفي سنة 749هـ/1348م، مات الأمير أحمد بن الأمير جنكلى بن البابا قريباً من عقبة أيلة بعد عوده من الحج، وتوفي شهاب الدين أحمد بن الغزاوي ناظر الأوقاف المارستان بطريق الحجاز[4]. وتعرض الحاج إلى الموت المفاجئ في وفاة عادية أو نتيجة لمرض في الغربة، ويترك متاعه وأمواله وهداياه بعيداً عن أهله، هو أقسى شيء على الإنسان.

ومنها أن الحجاج في سنة751هـ/1350م؛ لما قدموا مكة نزلت بهم شدة من غلاء الأسعار وقلة الماء بحيث أبيعت الراوية بعشرين درهماً حتى همّوا بالخروج منها ونزول بطن مر الظهران،

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج2، ص496.

[2] – المصدر نفسه، ج3، ص13.

[3] – المصدر نفسه، ج3، ص411.

[4] – المصدر نفسه، ج4، ص94.

فبعث الله في تلك الليلة مطراً استمر يومين وليلة حتى امتلأت الآبار والبرك وقدم عدة قوافل فانحل السعر قليلاً[1].

وفي سنة 755هـ/1354م، هبت ريح بمكة من قبل اليمن أظلم عقبيها الحرم وفشت الأمراض في الناس حتى لم يكن أحد إلا وبه وعك، ولكنه يبقى سليماً يبرأ من المرض بعد أسبوع[2].

وفي سنة 774هـ/1372م اجتمع على الحاج الشامي شدة الحر وشدة العطش بوادي الأخيضر وهم رجوع، فمات منهم جماعة عطشاً، وكان السبب في ذلك أن أمير الحاج في الذهاب ضرب الموكلين على الفساقي بسبب قلة ما بها من الماء، فلما عاد الحاج لم يجدوا أولئك ملؤا في الفساقي شيئاً من الماء أصلا حقداً منهم على ما صنع بهم، وكان في ظن الحاج أنهم يجدون الفساقي ملآى، فقدموا معتمدين على ذلك حتى أن بعضهم سقى بقية ما معه من الماء للجمال، ولما وصلوا فلم يجدوا الماء اقتتلوا على البئر فمات منهم خلق كثير من الزحمة ومن العطش، ومات بعد ذلك منهم أكثر ممن قتل بالعطش[3]. وفيها كان الوباء المهلك بدمشق فدام قدر ستة أشهر، وبلغ عدد الموتى في كل يوم مائتي نفر[4].

وفي سنة 777هـ/1376م؛ توجه إلى الحجاز في رجب جمع كثير للحج، فمات منهم الكثير بالضعف، وفي آخر هذه السنة نهب الحاج المصري في رجوعهم، وجرى للحاج الشامي أشد مما جرى للمصري فإنهم جاءهم سيل بخليص تلف منهم بسببه شيء كثير، وفي الرجعة هبت عليهم ريح عاصف، ثم اشتد عليهم الغلاء في الطريق حتى بيعت الغرارة الشعير بمائة درهم[5].

وفي سنة 780هـ/1379م واجه الحجاج في عودهم من الحج محن شديدة من موت الجمال وتزايد الأسعار، فلما نزلوا بالأزلم وفي ظنهم أنهم يجدوا ما جرت به العادة من الشعير والبشماط المحمول إليهم من القاهرة للإغاثة، وكان السبب في تأخّر وصول تلك الإقامة

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج4، ص118.

[2] – المصدر نفسه، ج4، ص213.

[3] – ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ج1، ص37.

[4] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص417.

[5] – ابن حجر، إنباء الغمر، ج1، ص156، ص157.

(الإغاثة) أن العرب الذين جرت عادتهم بحملها نقل لهم عن عرب بلي أنهم أرادوا نهب الإقامة؛ فتأخروا بمغارة شعيب، فوصل الحاج إلى المويلحة فلم يجدوا شيئاً ثم إلى عيون القصب فلم يجدوا شيئاً، فاشتد الأمر على الحجاج وعلفوا جمالهم مما معهم من زادهم الذي هو قوتهم، وانقطع كثير منهم في الطرقات جوعاً وتعباً، فغلا الشعير حتى بيعت الويبة الشعير باثنين وتسعين درهماً قيمتها حينئذ تزيد على خمسة دنانير، وغلا عامة ما يباع أيضاً، ومات من الجمال شيء كثير، وقاسى الحجاج مشقة شديدة وتأخروا عن العادة خمسة أيام[1].

وفي سنة 800هـ/1398م، في يوم الاثنين في نصف محرم وصلت كتب الحجاج عن موسم حج عام799هـ، وفيها أنهم قاسوا شدة في الطلعة من الحر والغلاء وقلة الماء، وأنهم لم يجدوا في بركة المعظّم ماءً، وأنه مات منهم خلق كثير عند جبل الطاق من الحلبيين والشاميين[2].

وكان موسم حج سنة 802هـ/1399م، شديدة المشقة على الحجاج بسبب الحر وموت الجمال وكثر الفقراء في الركب، لدرجة أن أمير الركب ألزم صاحب ينبع بإقامتهم عنده إلى أن يجهزهم في المراكب؛ ووقع في الركب الشامي من الموت فجأة أمر عجيب حتى كان الرجل يمشي بعد ما أكل وشرب واستراح فيرتعد، ويقع ميتاً، فمات منه خلق كثير[3].

وفي سنة 811هـ/1408م، قبض أمير الحج المصري بيسق الشيخي على قرقماس أمير الركب الشامي وهو منفرد على حين غرة بمكة، فتخوف أن يبلغ خبره أهل الشام فيبعث إليه من يستنقذه منه بين عقبة أيلة ومصر، فبادر وترك زيارة المدينة وأعنف الناس في السير حتى هلك جمع كثير من الناس[4].

وفي سنة 827هـ/1424م، حصل للحاج الشامي مشقات عظيمة بالرجعة بحوران، من تراكم الرياح، فخرج لنجدة الحجاج تنبك البجاسي نائب دمشق بالزاد والراحلة، وأحسن إلى الحاج

---

[1] – المقريزي، السلوك، ج5، ص59. ابن حجر، إنباء الغمر، ج1، ص190.

[2]– ابن حجي، تاريخ، ص243.

[3] – ابن حجر، إنباء الغمر، ج4، ص98.

[4] – المصدر نفسه، ج6، ص103، ص104.

بأنواع الزاد، وفرق عليهم حتى البغال، وخرج معه بشيء وافر فانتفع الغني والفقير، ونتيجة لذلك أكثر الحجاج من الدعاء له[1].

وفي سنة 828هـ/1425م شكا الناس من سوء الأحوال العامة والخوف في طرقات مصر والشام من كثرة عبث العربان والعشير، والناس على اختلاف طبقاتهم قد غلب عليهم الفقر، واستولى عليهم الشح والطمع فلا تكاد تجد إلا شاكياً مهتماً لدنياه وأصبح الدين غريباً لا ناصر له[2].

وفي سنة 833هـ/1430م، أصاب الحاج فيما بين الأزلم والينبع مشقة عظيمة من الحر والعطش، فهلك من المشاة ثم من الركبان عالم كثير وتلف من جمالهم وحميرهم عدد عظيم، وهلك أيضاً في بعض أودية ينبع جميع ما كان فيه من الإبل والغنم كل ذلك من شدة الحر والعطش، ويقال إنه مات فيها ثلاثة آلاف نفس، وقيل خمسة آلاف[3]، وفي سنة 834هـ/1431م حج العلامة المؤرخ تقي الدين المقريزي مع حجاج الرجبية، وفي طريقهم وجدوا من مات من الحجاج ودفنوهم[4].

أما في سنة 844هـ/1440م؛ فقد حصل للحجاج في رجوعهم من موسم حج سنة 843هـ، مشقات كثيرة، بحيث مات كثير من الحجاج في الطريق من حر بسموم محرق وهلك معظم الجمال بحيث مشي من الحجاج من لم يعتد المشي، ورمي الناس أمتعهم لعجزهم عن حملها مع عسف أمراء الركب فكانت رجعتهم غاية المشقة لما نزل بهم من أنواع البلاء[5].

وفي سنة 845هـ/1441م: وفي ذي حجّة لما دخل الحاج إلى مكة المشرّفة وقع لهم ازدحام فمات في الزحمة أربعة عشر نفساً، ودخل الركب الغزّاوي ثم الحلبي، ثم الشامي والكركي

---

(1)– ابن حجر، إنباء الغمر، ج8، ص53. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص442.

(2) – المقريزي، السلوك، ج7، ص109.

(3) – المصدر نفسه، ج7، ص212، الجزيري، ج1، ص448.

(4) – الجزيري، الدرر الفرائد، ج1، ص449.

(5) – المقريزي، السلوك، ج7، ص458.

والصفدي والرومي والبغدادي، إلى أن امتلأت بيوت مكة وجبالها وشعابها بالحجّاج، وامتدّوا إلى منى، وكان جمعاً وافراً نادراً[1]. مما يشعر بكثرة الحاج في ذلك العام فأدى إلى الزحام.

وفي سنة875هـ/1470م؛ حصل للحجاج في هذه السنة شدائد من موت الجمال والعطش وقلة الكراء وانقطع أناس بعقبة إيلة[2].

وفي سنة 883هـ/1478م: وقع في مكة وباء كبير مات فيه جماعة كثيرون، ثم أعقبه غلاء كبير[3].

وفي سنة 887هـ/1482م: حصل للحاج في هذه السنة في عودهم مشقة زائدة من غلو الأسعار وشدة البرد وموت كثير من الجمال وهروب الجمالين، حتى رمى الناس أحمالهم[4].

وفي سنة897هـ/1492م: حصل للحجاج زحمة شديدة في منى، وحصل لهم في رجوعهم تعب شديد بسبب هروب كثير من الجمالة[5].

وفي سنة898هـ/1493م، حصل للحجاج بالقرب من الأزلم عطش شديد وموت جمال ورحال وهروب مقومين، ودخل الركب الغزاوي مكة مستهل ذي الحجة وتأخر عن عادته لخروج العرب عليه، وكان الظفر لهم، ومعهم كثير من الأروام ونحوهم، وأدركتهم ريح يقال لها السموم في عدة أماكن أشدها قبل وادي مر الظهران هلك فيه كثير من الأروام خاصة، وفي هذا العام تخلف كثير من الحجاج بسبب قلة الكراء، أو لهروب مقومهم بعد أخذ الكراء لشدة الغلاء، ووقع الغلاء في مكة وفي طريق الحاج، حتى إن جمال الناس صارت كأنها في غاية الضعف، وكل يوم يقع منهم شيء كثير من الأمتعة بسبب قلة الظهر[6].

وحصل للركب الشامي من المشاق مالا يمكن وصفه، ومات خلق من الناس والجمال مما لا يتهيأ حصرهم، وأمر أمير الحاج بإقراض الجمالين مع غلبته بموت هجنه وجماله، ولم يلق هو

---

(1) – ابن حجر، إنباء الغمر، ج4، ص189.

(2) – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص469.

(3) – المصدر نفسه، ج1، ص472، ص473.

(4) – المصدر نفسه، ج1، ص474.

(5) – المصدر نفسه، ج1، ص477.

(6) – المصدر نفسه، ج1، ص478، ص479.

ولا غيره بالمدينة جمالاً تنفعهم، وصار الناس في جهد من ارتفاع الاسعار وكثرة المتخلفين من الحجاج وكثرة المرضى، وضاقت الطرقات بمكة، ورد أمير الشامي خلقاً من الفقراء ونحوهم من المدينة الشريفة، وبالجملة فقد قاسى الحاج من الشدة ما لا يوصف، ومنهم من لم يتمكن من الزيارة، ومنهم من رجع في البحر أو مع الشامي أو مع الغزاوي، أو مع العرب، وخرج عليهم طائفة وهلك جماعة منهم، ثم من الله عليهم بالسلامة والرجوع إلى الأوطان[1].

وفي سنة 899هـ/ 1493م ثاني عشرين محرم دخلت كتب الوفد الشريف إلى دمشق، وأخبروا عن الحاج بغلاء كثير، وعطش شديد، وموت الظهر، وأن الركب الحلبي سافر على طريق راشدة، فوجد ماءً كثيراً، بخلاف الركب الشامي، وأن الوقفة كانت في يومين الجمعة والسبت، وأن الشاش والإزار كثير؛ ثم دخل الوفد الشريف آخر شهر محرم[2].

وفي سنة911هـ/1505م، يوم الاثنين تاسع عشره وصلت كتب الوفد بأنهم في مشقات كثيرة، وأنهم أقاموا بمكة ستة عشر يوماً، وبالمدينة سبعة أيام، وبالفلاء ثلاثة عشر يوماً، وأنهم هبت عليهم ريح شديدة بوداي الغنائم، مات في خلق كثير، وكذا بخليص. وفي يوم السبت رابع عشريه دخل الوفد إلى دمشق، وأخبروا أن أمير بني لام، مسلم، وأمراء أخر، جعلوا لهم جعلاً إلى أن وصلوهم إلى الحسا فتلقاهم نائب القدس وجانباي، فأوصلوهم إلى عند نائب الشام[3].

في المحرم سنة 919هـ/1512م، كان الحجاج العائدين من موسم عام918هـ، قد عانوا من مشقات كثيرة من موت الجمال وغلو الأسعار، حتى أنهم أودعوا أحمالهم بمنزلة العلا لقلة الظهر ومشى في طريق الحج كثيرٌ من النساء الحاجات، فنهض لهم نائب القدس لملاقاته ولاقاهم بعقبة أيلة بالزاد والأمتعة والمركوب، وحمل بعضهم إلى القدس الشريف، وقد أثنى الحجاج عليه خيراً وشكروا له صنيعه[4].

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص478، ص479.

[2] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص127.

[3] – المصدر نفسه، ص234.

[4] – ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص491.

وفي موسم حج عام 921هـ/1514م- حصل لحجاج السائرين على الدرب المصري والغزاوي سيل عظيم أخذ جماعات من الحجاج[1].

وفي سنة 922هـ/1517م، نودي بدمشق بإبطال الحج من الطريق الشامي، لأن بركة الأخيضر لم تملأ بالماء فيخاف على الحجاج من قلة الماء[2].

ومما تقدم يتضح أن الكوارث والمشقات والمآسي التي واجهت الحجاج تتمثل في عجلة أمير الحاج وسرعته في السير كما في سنة 698هـ/1298م، عندما عاد الحجاج إلى دمشق، وشكوا من عجلة الأمير وأنه عسفهم في السير وأن المشاة هلك منهم خلق كثير بسبب عجلته، وسوء خلقه[3]. وفي انتشار الأمراض والاوبئة، كما في سنة 802هـ/1399م، وفي الزحام في الحج كما في سنة897هـ/1492م، وفي شدة الحر وقلة الماء وشدة العطش وموت الظهر وقلة الكراء كما في سنة 774هـ/1372م وفي سنة898هـ/1493م، وفي الغلاء وقلة البضائع في الأسواق كما في سنة 883هـ/1478م، وفي أحوال الطقس القاسية من ريح وأمطار وسيول، كما في سنة 755هـ/1354م.

ومن خلال هذا الفصل يتضح أن هناك ترابطاً وتداخلاً بين هذه العوائق والمخاطر، بحيث أن العائق الواحد يجلب معه عوائق أخرى؛ فمثلا الفتن تؤدي إلى فقدان الأمن وقطع الطريق، والاعتداءات تؤدي إلى الجوع والموت والمجاعات، والمجاعات تؤدي بدورها إلى اعتداءات العربان وقطع الطرق، وهكذا.

ومما تقدم من خلال ما سردناه في هذا الفصل يتضح أن الحجاج عانوا من الفتن والصراع السياسي على أمارة مكة، وعانوا من الفتن الحاصلة بين أمراء الحج، وقاسوا شدائد من اعتداءات العربان وقطاع الطرق، وكان للمماليك وسائلهم للحد منها، وكذلك واجه الحجاج شدائد ومشقات ومأسي وكوارث طبيعية عديدة.

---

[1]- ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص317.

[2] – المصدر نفسه، ص372.

[3] – اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج5، ص175.

وعلى الرغم من هذه الفتن والاعتداءات والمشاق والعقبات والمخاطر التي تعرض لها الحجاج، إلا أن ركب الحج الشامي حرص على الخروج سنوياً، بقافلته وأميرها، والتي من خلال الفصل السادس نتابع أخبارها وأخبار أمرائها لإتحاف القارئ الكريم.

وعلى الرغم من ذلك أيضاً فقد ترك لنا آثاراً حضارية عديدة مازالت مشاهدة وحاضرة إلى اليوم، وهو الأمر الذي سنتناوله في الفصل الأخير إن شاء الله.

الفصل السادس

أخبار ركب الحج الشامي

وأمرائه في العصر المملوكي

الفصل السادس

أخبار ركب الحج الشامي وأمرائه في العصر المملوكي

حرص أهل الشام على الخروج بقوافل للحج في كل عام، لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام فكانوا يخرجون سنوياً للحج ويرأسهم أمير لتسيير شئون قافلتهم.

وكما ذكرنا فإن أمير الحج له دور كبير في حفظ الحجاج في أعراضهم وأموالهم، وله دور في إنجاح موسم الحج، وتسيير وإدارة القافلة كما مر معنا[1].

وإمارة أيّة ركب ليست مهمة سهلة، بل هي من أصعب المهام بسبب ما يتعرض له ركب الحاج من متاعب وأخطار متعددة من جوع أو عطش أو أمراض أو موت لهم أو لدوابهم، وما تتعرض له طرق الحج من قطاع الطرق أو اعتداءات العربان، وما قد يحصل من اصطدامات عسكرية بين أمراء المناطق وشيوخ القبائل التي يمر بها الحجيج حتى الوصول الى مكة والمدينة سواء في الذهاب أو الإياب، وخاصة في عهد ضعف سيطرة الدولة[2].

لذلك فإن هذه المهمة لا تناط إلا بمن يثق الخليفة أو السلطان بقدرته على التصدي لمثل هذه المصاعب والمخاطر، وتتوفر فيه صفات تؤهله لذلك[3].

وفي العصر المملوكي أسهم أمير الحج الشامي بدور كبير في مسيرة ركب الحجاج، لان بلاد الشام كانت إحدى الأقاليم الرئيسية التابعة للدولة المملوكية، وبالتالي فإن ركب الحاج الشامي الخارج من دمشق كان يأتي في المرتبة الثانية بعد ركب الحاج المصري، يقودهم أمير موفد من الدولة المملوكية من بلاد الشام[4]، ويتبع ركب الحاج الشامي، حجاج شمال بلاد الشام، وآسيا الصغرى، والأقاليم الشمالية من الدولة الإسلامية[5]، ويكون سير هذا الركب إما منفرداً بقيادة أمير خاص به في حالة خروج الركب الحجازي من دمشق، أو أنهم يتبعون ركب الحاج

---

(1)– انظر الفصل الأول المبحث الثاني.

(2)– انظر الفصل الخامس، المبحث الأول والثاني.

(3)– انظر الفصل الرابع، المبحث الأول.

(4)– عائشة العبدلي، أمارة الحج، ص181.

(5)– السباعي، تاريخ مكة، ج1، ص251.

المصري خلال التقائهم به في عقبة أيله، ثم يصيران ركباً واحداً، في حالة ركب الحج الغزاوي، فيصير أميرهم تابعاً لأمير الحج المصري.

وهناك بعض المدن الشامية مثل حلب والكرك كانت ترسل قافلة ومعها محمل وعليها أمير في بعض السنين ولكنهم يبقون تابعين للسلطة المملوكية الحاكمة[1].

ومن خلال تتبع أخبار مسيرة ركب الحج الشامي الخارج من دمشق في مصادر الفترة المملوكية، فإننا نلاحظ أن المؤرخين لم يذكروا أخباراً له في بعض السنين، وأحياناً يأتي ذكر ركب الحج الشامي بدون ذكر اسم أميره، وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك ركب للشام، لأنه قد تكون هناك ظروف تحول دون أداء الفريضة والسفر مثل الحروب والكوارث، أو أن الركب الشامي قد ينضم إلى الركب المصري بعد مجيئهم من طريق غزة أو من الكرك، فيصيران ركباً واحداً من عقبة أيلة، ولاسيما أن الركب المصري كان هو الركب الرئيسي في ذلك العهد[2].

وبالنسبة لأخبار الحاج الغزاوي فإنها تكون تابعة لأخبار الحاج الشامي الخارج من دمشق، لأنهم يتجمعون ويخرجون في وقت واحد، وإذا حصل أن خرج حجاج من دمشق ليسيروا على الطريق الغزاوي فإنهم يسيرون في السابع من شوال ليلحقوا بالركب الغزاوي الذي يخرج في منتصف شوال على العادة[3].

وسنورد فيما يلي أحوال الركب الشامي الخارج من دمشق، وأسماء أمرائه الوارد ذكرهم في المصادر، وطرف من أخبار الحجاج وأحوال الموسم:

ذكر مؤرخ الشام البرزالي أنه في سنة665هـ/1266م في الثامن من ذي القعدة توجّه الأمير عز الدين الحلي الى الحجاز للحج، ولم يذكر هل كان معه ركب أم لا، وأنه عندما عاد في الثالث من صفر من سنة 666هـ/1267م تلقاه الظاهر بيبرس واستقبله في دمشق، ثم توجه

---

[1]– انظر الفصل الرابع، المبحث الأول.

[2]– عائشة العبدلي، أمارة الحج، ص181.

[3]– ابن حجي، تاريخ، ص727.

الحلي لزيارة القدس الشريف، وأن ركب الحجاج الشاميين عاد ودخل دمشق يوم التاسع من صفر[1].

وفي سنة 667هـ/1268م قدم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي شيخ خدام الحجرة النبوية فأكرمه السلطان بيبرس، وناله زيادة على مائتي ألف درهم نقرة وسافر صحبة القاضي والجمال مع الركب الشامي وجهز من الكسوة والنفقات لأهل مكة والمدينة[2]. وفي هذا العام حج الظاهر بيبرس من الكرك من نيابات الشام، وسار على الطريق الشامي التبوكي[3].

وفي سنة 674هـ/1276م، خرج الركب الشامي الى الحجاز الشريف في السادس عشر من شوال، وأنه عاد في الحادي والعشرين من صفر، ولكن بدون ذكر أمير له[4].

وكذلك في سنة 677هـ/1279م توجه الركب الى الحجاز الشريف في الثاني عشر من شوال، ولم يذكر له أمير[5].

وفي سنة 678هـ/1280م وفي شوال خرج الركب الشامي وأميرهم عماد الدين يوسف ابن الشقاري، وحج الشيخ شمس الدين شيخ الجبل، وطائفة من الحنابلة، وحج أب المؤرخ الذهبي وخاله[6].

وفي أول سنة 679هـ/1281م ورد أن الحجاج عادوا الى دمشق في السادس من صفر وحصل لهم مشقة في الرجوع من موسم حج عام 678هـ[7].

في سنة 680هـ/1282م، حج بالناس في هذه السنة من دمشق الأمير بدر الدين كونجك الخوارزمي، وجردوا صحبته مئة وخمسين فارساً، وهو أول أمير جرد معه عسكر، وسافر خلق كثير من الشام، وذلك أن زمان السلطان الملك الظاهر ما كان يمكن جندي ولا أمير من السفر

---

[1]– البرزالي، المقتفي، ج1، ص165، ص170.

[2]– المقريزي، السلوك، ج2، ص60.

[3]– اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص409.

[4]– البرزالي، تاريخ المقتفي، ج1، ص328، ص336.

[5]– المصدر نفسه، ج1، ص439.

[6]– الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص41.

[7]– البرزالي، المقتفي، ج1، ص476.

إلى الحجاز، وأي جندي يسافر يشنق، ففاز السلطان منصور بهذه السنة الحسنة، ومن ذلك العام بدأ في كل سنة يجردون أمير صاحب طبل خاناة، ومعه مئة وعشرين فارساً، وكل المغارم والكلف من بيت المال، وجددوا السبيل ليخرج من دمشق سنوياً ليستفيد منه فقراء الحجاج، وهو مستمر في كل عام[1].

وفي سنة 681هـ/1282م، كان أمير الحاج الشامي بدر الدين عبد الله الصوابي، وحمدت سيرته، وهو أوّل أمير قام بما كان يؤخذ من الحجاج على طريق الشام، من ماله لمداراة العربان وأهل الحجاز، بمقدار عشرة آلاف درهم، وذلك في هذه السنة، فكان يجبى من كل جمل عشرين درهماً، وتعطى لبطون العرب مقدار عشرة آلاف درهم، وكانت هذه الجباية من زمن الملك الظاهر بيبرس إلى هذا التاريخ، وحسم هذه المادة فبقي كل أمير يحج بعده لا يمكنه أن يجبي من الحاج، بل يستن بسنته، ولا يجبى من أحد من الحجاج درهم، وأبطل الصوابي ما كان يجبى من حجاج الشام في كل سنة لأجل العربان وجعلها سنة لمن يأتي بعده أن يدفع للعربان عوضاً عن الحجاج، رحمه الله [2].

وفي سنة682هـ/1283م توجه الركب الى الحجاز يوم الخميس منتصف شوال، وأميرهم صارم الدين المطروحي[3]. وعاد في سنة683هـ/1284م في يوم الأربعاء الثامن من صفر ودخل الحجاج دمشق[4].

وفي سنة 683هـ/1284م، نودي بالحج في الثاني من شوال، وأن الأمير عليهم هو الأمير عز الدين أيبك والأمير علاء الدين يوسف بن عز الدين القيمري، وتوجه الركب يوم الأثنين منتصف شوال، وكان ركباً كبيراً[5].

---

[1] – البرزالي، المقتفي، ج1، ص538.

[2]– اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج5، ص220؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، ج1، ص447؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص381. شذرات الذهب، ج5، ص441.

[3] – اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص181. البرزالي، المقتفي، ج2، ص34.

[4] – اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص203.

[5] – البرزالي، المقتفي، ج2، ص54، ص56. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص382.

وفي سنة684هـ/1285م خرج الركب الشامي من دمشق الى الحجاز يوم السبت التاسع من شوال، وأميرهم سيف الدين بن أبي القاسم الهكاري[1].

وفي سنة686هـ/1287م كان أمير الركب الشامي بهاء الدين يمك الناصري[2].

وفي سنة 687هـ/1288م توجه الركب الشامي من دمشق الى الحجاز الشريف في يوم الاثنين الرابع من شوال، وأميرهم منكوس الظاهري[3].

وفي سنة 688هـ/1289م، توجه الركب الشامي بالمحمل السلطاني والسبيل من دمشق الى الحجاز الشريف في الحادي عشر من شوال، وأميرهم زين الدين غلبك الفخري، وسافر معه المؤرخ علم الدين البرزالي وكان قاضي الركب جلال الدين الحنفي [4].

وفي سنة 689هـ/1290م، حجَّ بالركب الشامي الأمير بدر الدين بكتوت الدوباسي، وحج قاضي القضاة شهاب الدين بن الخوي، وشمس الدين بن السلعوس، ومقدم الركب الأمير عتبة فتوهم منه أبو نمي، وكان بينهما عداوة، فأغلق أبواب مكة ومنع الناس من دخولها فأحرق الباب وقتل جماعة ونهب بعض الأماكن، وجرت خطوب فظيعة، ثم أرسلوا القاضي ابن الخوي ليصلح بين الفريقين، ولما استقر عند أبي نمي رحل الركوب وبقي هو في الحرم وحده وأرسل معه أبو نمي من ألحقه بهم سالماً معظماً[5].

وفي سنة690هـ/1291م كان الأمير هو الطواشي بدر الدين الصوابي[6]. وهو الذي كان أميراً للحج سنة إحدى وثمانين وستمائة681هـ/1282م.

---

[1] – اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص259. البرزالي، المقتفي، ج2، ص75.

[2] – البرزالي، المقتفي، ج2، ص132.

[3] – البرزالي، تاريخ المقتفي، ج2، ص148.

[4] – المصدر نفسه، ج2، ص178، ص186.

[5]– ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص373.

[6] – ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص122. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص383.

وفي سنة 691هـ/1292م في التاسع عشر من شوال توجه الركب، وكان أميرهم سيف الدين الباسطي المنصوري[1]. وعند الرجوع دخل الركب الشامي في آخر صفر سنة 692هـ/1293م، وكان ممن حج في هذه السنة الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وكان أميرهم الباسطي ونالهم في معان ريح شديدة جداً مات بسببها جماعة، وحملت الريح جمالاً عن أماكنها، وطارت العمائم عن الرؤوس، واشتغل كل واحد بنفسه[2].

وفي سنة 692هـ/1293م كان الأمير هو ولي الأمير بدر الدين بلبك المنصوري المعروف بالطيار [3].

وفي سنة 693هـ/1294م كان الأمير هو عز الدين أيبك الطويل المنصوري [4].

وفي سنة 694هـ/1295م، خرج الركب الشامي وأميره بهاء الدين قرة أرسلان المنصوري، وقد حجت مع الركب الشامي عمة صاحب ماردين وكان لها محمل كبير وسبيل كبير وتصدقت بمال كثير، وانتفع بها الحاج وأهل الحرمين وأمراء مكة والمدينة[5].

أما في سنة 695هـ/1296م خرج الركب الشامي، وكان أمير الحاج الشامي هو سيف الدين بهادر العجمي [6].

وفي سنة 696هـ/1297م سافر الركب الشامي، وأميرهم هو عز الدين كرجي[7].

وفي سنة 697هـ/1298م كان الأمير هو عز الدين أيبك الطويل[8]. وفي18 محرم من سنة 698هـ/1298م دخل الحجاج دمشق وأميرهم عز الدين أيبك الطويل وفيهم الصدر الأمين أمين

---

[1] – الذهبي، تاريخ الإسلام، ج52، ص17، ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص123. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص383.

[2]– ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص392.

[3] – ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص124. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص383.

[4] – ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص 126. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص383.

[5] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص292.

[6]– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص128. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص384.

[7]– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص130. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص384.

[8]– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص 130. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص385.

الدين بي صصري الدين بن النشابي، وشكا الحجاج من أميرهم، وأنه عسفهم في السير وأن الرجالة هلك منهم خلق كثير بسبب عجلته وسوء خلقه وشح نفسه وعاد الأمير حسام الدين مهنا بن الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بعد بلوغ حجه ومراده، وشكرت سيرته، وأنه تصدق بأشياء كثيرة وحمل المنقطعين، وأطعم الناس وأحسن إلى أهل مكة والمدينة والمجاورين بها أحسن الله إليه[1].

وفي سنة 698هـ/1299م في الحادي عشر من شوال خرج الحاج الشامي، وأميرهم الأمير شمس الدين العينتابي[2].

وفي سنة 699هـ/1300م لم يتوجه ركب الحاج من دمشق، وحج الناس من الديار المصرية[3].

وفي سنة 700هـ/1301م لم يخرج أميرٌ رسمي لركب الحج من الشام، وإنما ذكرت المصادر أنه ذهب جماعة من دمشق إلى غزة، وحجوا مع الركب الغزاوي، والتقوا مع المصريين في عقبة أيله[4].

وفي سنة 701هـ/1302م، خرج الركب الشامي من دمشق يوم الأثنين السادس من شوال، وكان أميرهم عز الدين ابن صبرة الحاجب، وعادوا في أول صفر من السنة التي تليها [5].

---

[1]– اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج5، ص175. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص 130. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص385.

[2]– البرزالي، تاريخ، ج2، ص587، ص592. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص131. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص385.

[3]– البرزالي، تاريخ، ج3، ص102، الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص292. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص131. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص386.

[4]– الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص292، ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص 132. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص386.

[5]– البرزالي، تاريخ، ج3، ص184، ص199؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص136؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص386.

وفي سنة 703هـ/1304م توجه الركب في العاشر من شوال، وكان أمير الحاج الأمير فخر الدين أجبا الظاهري، وحج المؤرخ البرزالي عن أمه في هذه السنة [1].

وفي سنة 704هـ/1305م خرج الركب الشامي يوم الخميس الحادي عشر من شوال وأميرهم ركن الدين بيبرس المعروف بجالق، ومعه الأمير سيف الدين جوبان المنصوري، وكان ركباً كبيراً من أهل الشام والغرباء[2].

وفي سنة 705هـ/1306م خرج الركب الشامي يوم الاثنين العاشر من شوال، وكان أميرهم شرف الدين حسين بن جندر الرومي[3]، وفي هذه السنة حج من مصر ونواحي الغرب ومن بلاد العراق والعجم خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى[4].

وفي عام 706هـ/1307م خرج الركب الشامي يوم السبت الحادي عشر من شوال، وكان الأمير هو ركن الدين بيبرس المنصوري المعروف بالمجنون، وحجت مع الركب أخت صاحب ماردين ومعها قاضي ماردين شمس الدين بن مهذب وابن عم صاحب حماة بدر الدين بن الأفضل[5].

أما في سنة 707هـ/1308م، خرج المحمل السلطاني والموكب الخليفتي يوم الخميس الحادي عشر من شوال، وأمير الحاج الأمير الكبير سيف الدين بلبان البدري، وممن حج معهم في هذه السنة القاضي شرف الدين بن البارزي قاضي حماة[6].

وفي سنة 708هـ/1309م، خرج الركب إلى الحجاز الشريف في التاسع من شوال، وأميرهم سيف الدين قطلق تمر صهر الأمير الكبير ركن الدين الجالق، وعاد الركب في مستهل صفر[7].

---

[1]– البرزالي، تاريخ، ج3، ص259. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص140.

[2]– البرزالي، تاريخ، ج3، ص281. العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج4، ص367.

[3]– البرزالي، تاريخ، ج3، ص308. العيني، عقد الجمان، ج4، ص412.

[4] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص293. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص143.

[5] – البرزالي، تاريخ، ج3، ص339. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص56. العيني، عقد الجمان، ج4، ص434.

[6]– البرزالي، تاريخ، ج3، ص377. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص60. العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج4، ص471.

[7]– البرزالي، تاريخ، ج3، ص402، ص413.

وفي سنة 709هـ/1310م لم يحج أحد من الشام على العادة ولكنه حج طائفة يسيرة من الغرباء والتجار، وخرجوا من دمشق إلى غزة، ومنها إلى عقبة أيلة، ولاءموا المصريين وصحبوهم[1].

وفي سنة 710هـ/1311م، خرج الركب الشامي من دمشق يوم الأثنين التاسع من شوال، وأميرهم زين الدين كتبغا المنصوري رأس النوبة، وقاضيهم قاضي قضاة حلب زين الدين بن الخليل، وتوجه معهم البرزالي المؤرخ هو وابنه محمد الذي قضى فريضة الحج، وأسمعه من ثمانين عالماً من العلماء المنتشرين في سبعين مكاناً من القرى والمنازل المنتشرة في منازل طرق الحج الشامي ذهاباً وعودة[2].

وفي سنة 711هـ/1312م توجه ركب الحاج الشامي للحج بالمحمل السلطاني والسبيل، وأميرهم علاء الدين طنبغا، وكان المحمل يشمل أربع محفات رافقت أمير الحاج، فكان الأول محفة المحمل السلطاني، ومحفة لأمير الحاج، ومحفة لبنت الأمير سيف الدين كجكن، ومحفة للأمير علاء الدين أمير عقبة[3].

وفي سنة 712هـ/1313م خرج الرَّكب الشامي بالمحمل والسبيل فِي نصفِ شهر شوَّال وأَميرهم حسام الدين الصَّغير، الَّذِي كان والي البر[4]. وفيها حج الناصر قلاوون من الكرك ومعه أربعين أميراً وستة آلاف مملوك ومئة فارس، وهي حجته الأولى[5].

وفي سنة 713هـ/1314م في يوم السبت الثامن من شوال خرج الركب من دمشق وأميره سيف الدين بلباي التتري، وحج صاحب حماة في هذه السنة، واجتمع في دمشق من الحجاج ما لم يجتمع مثله منذ مدة من الروم والغرباء ومن بلاد الشرق وسافروا مع الركب الشامي، وأثناء

---

(1)– الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص294، ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص146. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص389.

(2)– البرزالي، تاريخ، ج3، ص489.

(3)– البرزالي، تاريخ، ج4، ص44؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص148. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص389.

(4)– البرزالي، تاريخ، ج4، ص86؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص76.

(5)– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص149.

السفر جعل أمير الحاج الامير سيف الدين قطلوبك بن الجاشنكير[1]. وعاد الركب من تلك الحجة في الثاني من صفر من العام الذي يليه[2]، بمعنى أنه مكث أكثر من ثلاثة أشهر ونصف.

وفي سنة 714هـ/1315م خرج الركب في الثالث من شوال وأميره سيف الدين سنقر الإبراهيمي، وقاضيه محيي الدين قاضي الزبداني، وبرفقة الركب العالم الشيخ تقي الدين ابن السلعوس وشرف الدين الشمسي[3].

وفي سنة 715هـ/1316م فِي الثامن من شوال كان خروج الركب الشامي بالمحمل السلطاني والسبيل، وأميره سيف الدين طقتمر السلحدار، وقاضيه قاضي ملطية، وحج فيه قاضي حماة وحلب وماردين ومحيي الدين كاتب ملك الأمراء تنكز وصهره فخر الدين المصري، وكان ركباً كبيراً[4].

وفي سنة 716هـ/1317م، وفي يوم السبت التاسع من شوال، توجه الركب المبارك الشامي والمحمل السلطاني، وأميرهم سيف الدين أرغون السلحدار الناصري الساكن عند دار الطراز بدمشق[5].

وفي سنة 717هـ/1317م خرج المحمل في يوم الخميس التاسع من شوال، وأمير الحج سيف الدين كجكني المنصوري، وممن حج قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى وابن أخيه شرف الدين وكمال الدين بن الشيرازي والقاضي جلال الدين الحنفي والشيخ شرف الدين بن تيمية وخلق[6].

وفي سنة 718هـ/1318م، خرج الركب والمحمل السلطاني في منتصف شوال، وأمير الركب الأمير علاء الدين بن معبد والي البر، وقاضيه زين الدين ابن قاضي الخليل الحاكم

---

[1]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص117؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص79.

[2]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص128.

[3]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص163؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص81.

[4]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص205؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص84.

[5]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص246؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص87.

[6]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص287؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص93، ص94.

بحلب، وممن حج في هذه السنة من الأعيان: الشيخ برهان الدين الفزاري وكمال الدين بن الشريشي وولده وبدر الدين بن العطار[1].

وفي سنة 719هـ/1319م وفي يوم السبت العاشر من شوال خرج الركب الحجازي من دمشق وأميرهم عز الدين أيبك المنصوري أمير علم، وحج فيها صدر الدين قاضي القضاة الحنفي، وبرهان الدين بن عبد الحق، وشرف الدين بن تيمية، ونجم الدين الدمشقي وهو قاضي الركب، ورضي الدين المنطيقي، وشمس الدين بن الزريز خطيب جامع القبيبات، وعبد الله بن رشيق المالكي وغيرهم[2].

وفيها حج سلطان الإسلام الملك الناصر محمد بن قلاوون ومعه جمع كثير من الأمراء، وخرج معه وكيله كريم الدين، وفخر الدين كاتب المماليك، وكاتب السر ابن الأثير، وقاضي القضاة ابن جماعة، وصاحب حماة الملك عماد الدين، والصاحب شمس الدين بن غبريال، وكلهم كان في خدمة السلطان، وكان في خدمته خلق كثير من الأعيان[3]، وحج معه من الأمراء نحو الخمسين من المقدمين الطبلخانات والعشراوات وجماعة من أعيان دولته، وكان توجه من القاهرة في التاسع من ذي القعدة، وتصدق على أهل الحرمين، وأحسن وعمل معروفاً كثيراً، وغسل الكعبة بيده[4]. وأبطل سائر المكوس من الحرمين وعوّض أمير مكة والمدينة إقطاعات بمصر والشام وأحسن إلى أهل الحرمين وأكثر من الصدقات[5].

وفي سَنَةُ 720هـ/1320م خرج الركب الشامي ومعه المحمل السلطاني من دمشق إلى الحجاز المبارك في الحادي عشر من شوال، وأميره الملك صلاح الدين بن الأوحد، وفيه زين الدين كتبغا الحاجب، وكمال الدين الزملكاني والقاضي شمس الدين بن المعز، وقاضي حماة

---

[1]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص336؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص101.

[2]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص397؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص106.

[3]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص397؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص107.

[4]– المقريزي، السلوك، ج2، ص197، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص59، الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص294.

[5]– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص165.

شرف الدين البازري، وقطب الدين ابن شيخ السلامية وبدر الدين بن العطار، وعلاء الدين بن غانم، ونور الدين السخاوي، وهو قاضي الركب[1].

وفي سنة 721هـ/1321م خرج الركب الشامي بالمحمل والسبيل يوم الاثنين العاشر من شوال، وأميره شمس الدين حمزة التركماني، وقاضيه نجم الدين الدمشقي، وفيها حج تنكز نائب الشام وفي صحبته جماعة من أهله، وقدم من مصر الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب لينوب عنه إلى أن يرجع، وممن حج فيها الخطيب جلال الدين القزويني وعز الدين حمزة بن القلانسي، وابن العز شمس الدين الحنفي، وجلال الدين بن حسام الدين الحنفي، وبهاء الدين بن علية، وعلم الدين البرزالي[2].

وفي سنة 722هـ/1322م خرج الركب الشامي يوم الخميس الثامن من شوال وأميره سيف الدين بلبطي نائب الرحبة، وقاضيه شمس الدين بن النقيب قاضي حمص[3].

وفي سنة723هـ/1323م في شهر رمضان منها، قدم جماعة من حجاج الشرق وفيهم بنت الملك أيبغا بن هولاكو، وأخت أرغون وعمة قازان وخربندا إلى دمشق للحج، فأكرمت وأنزلت بالقصر الأبلق في دمشق، وأجريت عليها الإقامات والنفقات إلى أوان الحج، وخرج الركب الشامي يوم الاثنين في الثامن من شوال، وأميره قطلجا الأيوبكري، وقاضي الركب شمس الدين قاضي القضاة ابن مسلم الحنبلي، وحج معهم جمال الدين المزي، وعماد الدين بن الشيرجي، وأمين الدين الوافي، وفخر الدين البعلبكي، وجماعة[4].

وفي سنة 724هـ/1324م خرج الركب في التاسع من شوال وأميره كوكنجبار المحمدي، وقاضيه شهاب الدين الظاهري، وممن خرج إلى الحج برهان الدين الفزاري، وشهاب الدين قرطاي

---

[1]– البرزالي، تاريخ، ج4، ص454، ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص111، ص112.

[2]– ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص114.

[3]– المصدر نفسه، ج14، ص118.

[4]– المصدر نفسه، ج14، ص121.

الناصري نائب طرابلس وغيرهم[1]. وعندما عاد الحجاج من الموسم أخبروا بأنها كانت سنة مباركة، وأن التجار كسبوا في جميع البضائع، وأن الأمير تصدق بالمال والزاد[2].

وفي سنة725هـ/1325م خرج الركب في العاشر من شوال وأميره صلاح الدين بن عز الدين أيبك الطويل، وفي الركب صلاح الدين بن الأوحد صاحب حمص، والأمير بدر الدين المنكورسي، وقاضيه شهاب الدين الظاهر[3]. وعندما عاد الحجاج إلى الشام شكروا الأمير على إدارته للرحلة وأنّه حمل المعاجيز، ورفق بالجمال والجمّالين في سيره ولم يعنفهم، وأن بني سالم حضروا عند الأمير فأعطاهم الخلع والدراهم مقابل خفر الطريق، وأنهم جلبوا للحجاج الأغنام والسمن والعسل، والتمر والعجوة وغير ذلك، وأن الموسم كان طيباً، وأنه جاء من اليمن كارم كثير ومعهم فلفل وبهار وقماش كثير[4].

وفي سنة 726هـ/1326م في العاشر من شوال خرج الركب الشامي وأميره سيف الدين جوبان، وحج عامئذ القاضي شمس الدين ابن مسلم قاضي قضاة الحنابلة، وبدر الدين ابن قاضي القضاة جلال الدين القزويني، ومعه تحف وهدايا وأمور تتعلق بالأمير سيف الدين أرغون نائب مصر، فإنه حج في هذه السنة ومعه أولاده وزوجته بنت السلطان، وحج فخر الدين ابن شيخ السلامية، وصدر الدين المالكي، وفخر الدين البعلبكي وغيره[5].

وفي سنة 727هـ/1327م وفي الثامن من شوال خرج الركب الشامي إلى الحجاز وأميره سيف الدين أيتمش بالبان المحمدي، وقاضيه شمس الدين محمد بن محمد قاضي حران[6].

وقد ذكر أن الحاج الشامي أدّوا الصلاة بمنى خمس صلوات وساروا إلى عرفة بعد طلوع الشمس، وبذلك أحيوا السنة[7]. وهذا يعني أن معهم العلماء العالمين بالسنة كما هو واضح.

---

[1]– ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص130.

[2]– ابن الجزري، حوادث الزمان، ج2، ص57.

[3]– ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص136.

[4]– ابن الجزري، حوادث الزمان، ج2، ص103.

[5]– ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص83. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص143.

[6]– ابن الجزري، تاريخ، ج2، ص193، ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص149.

[7]– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص185. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص395.

وفي سنة 728هـ/1328م في يوم الاثنين الثامن من شوال خرج الركب الشامي وأميره فخر الدين عثمان بن شمس الدين لؤلؤ الحلبي أحد أمراء دمشق، وقاضيه قاضي قضاة الحنابلة عز الدين بن التقي سليمان الحنبلي، واجتمع عدد كبير من الحجاج والأمراء والعلماء في هذا العام وحزر عدد الحجاج بخمسة عشر ألفاً[1]، وممن حج الأمير حسام الدين الشمبقدار، والأمير قبجق والأمير حسام الدين بن النجيبي وتقي الدين بن السلعوس وبدر الدين بن الصائغ وابنا جهبل والفخر المصري، والشيخ علم الدين البرزالي، وشهاب الدين الظاهري[2]. وعند عودتهم من الموسم حكوا عن رخص الأسعار وأنها حجة طيبة، وشكروا أميرهم وانه ما قطع ولا صلب، ولا ضاع لأحد عقال بعير[3].

وفي سنة 729هـ/1329م خرج الركب بالمحمل السلطاني والسبيل، يوم السبت التاسع من شوال وأميره سيف الدين بلطي، وقاضيه شهاب الدين القيمري وفي الحجاج زوجة ملك الأمراء تنكز، وفي خدمتها الطواشي شبل الدولة وصدر الدين المالكي، وصلاح الدين ابن أخي الصاحب تقي الدين توبة، وأخوه شرف الدين، والشيخ علي المغربي، والشيخ عبد الله الضرير وجماعة[4].

وفي سنة 730هـ/1330م خرج الركب الشامي بالمحمل السلطاني والسبيل يوم السبت الحادي عشر من شوال وأميره سيف الدين الموساوي صهر بلبان البيري، وقاضيه شهاب الدين ابن المجد عبد الله الشافعي، وأقام الأمير بالكسوة يومين وتلاحق الحجاج، وممن حج في هذه السنة رضي الدين بن المنطيقي، والشمس الأردبيلي شيخ الجاروخية، وصفي الدين بن الحريري، وشمس الدين ابن خطيب بيروذ، والشيخ محمد النيرباني وغيرهم، وغيرهم جماعة كبيرة[5].

وفي سنة 731هـ/1331م، خرج الركب الشامي بالمحمل السلطاني والسبيل، يوم الاثنين الثامن من شوال وأميره عز الدين أيبك، أمير علم، وقاضيه شهاب الدين الظاهري، وممن حج

---

[1]– ابن الجزري، تاريخ، ج2، ص268.

[2]– ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص156.

[3]– ابن الجزري، تاريخ، ج2، ص317.

[4]– المصدر نفسه، ج2، ص329. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص165.

[5]– ابن الجزري، تاريخ، ج2، ص398. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص171.

فيه شهاب الدين بن جهبل وأبو النسر وابن جملة والفخر المصري والصدر المالكي وشرف الدين الكفوي الحنفي، والبهاء ابن إمام المشهد وجلال الدين الأعيالي ناظر الأيتام، وشمس الدين الكردي، وفخر الدين البعلبكي، ومجد الدين بن أبي المجد، وشمس الدين بن قيم الجوزية، وشمس الدين ابن خطيب بيرة، وشرف الدين قاسم العجلوني، وتاج الدين بن الفاكهاني والشيخ عمر السلاوي وكاتبه إسماعيل بن كثير، وآخرون من سائر المذاهب[1].

وشارك في قافلة الحج الشامي جمع كبير من العلماء في ذلك العام (731هـ/1331م)، فكان الشيخ بدر الدين يقول: اجتمع في ركابنا هذا أربعمائة فقيه وأربع مدارس وخانقاه، ودار حديث، وقد كان معنا من المفتيين ثلاثة عشر نفساً، وكان في المصريين جماعة من الفقهاء منهم قاضي المالكية تقي الدين الأخنائي، وفخر الدين النويري، وشمس الدين بن الحارثي، ومجد الدين الأقصراني، وشيخ الشيوخ الشيخ محمد المرشدي، وفي ركب العراق الشيخ أحمد السروجي، وفي الشاميين الشيخ علي الواسطي صحبة ابن المرجاني، ومررنا بعين تبوك وقد أصلحت في هذه السنة، وصينت من دوس الجمال والجمالين، وصار ماؤها في غاية الحسن والصفاء والطيب، وكانت وقفة الجمعة ومطرنا بالطواف، وكانت سنة مرخصة آمنة [2].

وفي سنة 732هـ/1332م، وفي يوم السبت التاسع من شوال خرج الركب الشامي بالمحمل السلطاني والسبيل، وأميره سيف الدين أوزان السلحدار، وقاضيه جمال الدين بن الشريشي، وهو قاضي حمص الآن، وحج السلطان في هذه السنة وصحبته قاضي القضاة القزويني وعز الدين بن جماعة، وموفق الدين الحنبلي، ومعه سبعون أميراً من أمراء مصر والشام، وأنهم عادوا في الثالث والعشرين من محرم ومعهم المحمل السلطاني والسبيل[3].

وفي سنة 733هـ/1333م، خرج الركب الشامي يوم الخميس في العاشر من شوال، وأميره بدر الدين بن معبد وقاضيه علاء الدين بن منصور مدرس الحنفية بمدرسة تنكز، وفي الحجاج صدر الدين المالكي، وشهاب الدين الظهيري، ومحيي الدين بن الأعقف[4].

---

[1]– ابن الجزري، تاريخ، ج2، ص469.

[2]– ابن كثير، البداية والنهاية ، ج14، ص177.

[3]– ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص530، ص589؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص182.

[4]– ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص602. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص187.

وفي سنة 734هـ/1334م، خرج الركب بالمحمل السلطاني والسبيل يوم الاثنين العاشر من شوال وأميره سيف الدين ألجي بغا العادلي، وقاضيه مجد الدين بن جياب، وصاحب الركب جمع من العلماء[1].

وفي سنة 735هـ/1335م، خرج الركب الشامي بالمحمل السلطاني والسبيل يوم الخميس التاسع من شوال وأميره علاء الدين المرتيني أحد الحجاب بدمشق، وقاضيه شهاب الدين الظاهري، ومعهم جماعة من العلماء، وشيع الركب القضاة والأمراء والمقرئون ومن جرت العادة بحضورهم، وخرج العالم للتوديع والفرجة[2].

وفي سنة 736هـ/1336م، خرج الركب الشامي بالمحمل السلطاني والسبيل يوم الاثنين الثامن من شوال وأميره قطلو دمر الخليلي، وودعهم الأعيان والقضاة ومن جرت العادة بحضورهم، وممن حج فيه قاضي طرابلس محيي الدين بن جهبل، والفخر المصري، وابن قاضي الزبداني، وابن العز الحنفي، وابن غانم والسخاوي وابن قيم الجوزية، وناصر الدين بن البربوه الحنفي[3].

وفي سنة 737هـ/1337م، خرج الركب الشامي بالمحمل السلطاني والسبيل يوم الاثنين العاشر من شوال وأميره بهادر قبجق الناصري، وقاضيه محيي الدين الطرابلسي مدرس الحمصية، وخرج الأعيان والقضاة والحجاب والقراء ومشوا قدّام المحمل، وخرج الناس للفرجة والتوديع، ومع الركب تقي الدين شيخ الشيوخ وعماد الدين بن الشيرازي، ونجم الدين الطرسوسي، وجمال الدين المرداوي، وصاحبه شمس الدين بن مفلح، والصدر المالكي والشرف ابن القيسراني، والشيخ خالد المقيم عند دار الطعم، وجمال الدين بن الشهاب محمود[4].

أمّا في سنة 738هـ/1338م، خرج الركب الشامي يوم الخميس التاسع من شوال، وأميره هو ناصر الدين بن البدري الحاجب، وخرج الركب ومعه القضاة والعلماء والعدول والأئمة ومن

---

[1]– ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص677. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص192.

[2]– ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص769.

[3]– ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص872. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص202.

[4]– ابن الجزري، حوادث الزمان، ج3، ص938. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص206، ص207.

جرت العادة بحضوره، وخرج الناس للفرجة وكان يوماً مشهوداً، وكان قاضي الركب شهاب الدين بن شجرة التدمري[1].

لم يرد ذكر لأخبار الركب الشامي في السنوات من 739هـ-741هـ/1339م-1341م[2]. ولعل ذلك بسبب عدم توفر مصادر بين أيدينا تغطي تلك الفترة.

وفي سنة 742هـ/1342م، ورد أن أمير الركب الشامي هو علاء الدين بن غرلو[3]، وقد وصل مكة هو ومن معه من الصفديين والحلبيين وغيرهم، واحضر معه كسوة فاخرة للكعبة وكساها[4]، وأنّ حج الركب الشامي كان حجاً هنيئاً[5].

وفي سنة 743هـ/1343م كان أمير حجاج الشام هو سيف الدين مكي[6].

وفي سنة 744هـ/1344م كان حجاج الشام كثيرون وحصلت لهم مشقات كثيرة، وأن أميرهم هو سيف الدين المنكورسي[7].

وفي سنة 745هـ/1345م كان أمير الركب الشامي هو الأمير شهاب الدين بن صبح أحد مقدمي الألوف[8].

ومن أخبار حج سنة 746هـ/1346م، أن الرّكب خرج إلى الحجاز الشريف يوم السبت حادي عشر شوال، وكان أميره سيف الدين ملك آص وقاضيه شهاب الدين بن الشجرة الحاكم بمدينة بعلبك، وسافر الحجاج في أوحال كثيرة وزلق كثير، والله المسلم والمعين والحامي، ولما استقل الحجيج ذاهبين وقع عليهم مطر شديد بين الصنمين فعوقهم أياماً بها، ثم تحاملوا إلى زرع فلم يصلوها إلا بعد جهد جهيد وأمر شديد، ورجع كثير منهم وأكثرهم، وذكروا أشياء عظيمة حصلت

---

(1)- ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، ج3، ص1025، 1031.

(2)- انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، أحداث السنوات من 739هـ-741هـ.

(3)- ابن شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج1، ص236.

(4)- ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص221.

(5)- الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص403.

(6)- ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج1، ص314.

(7)- ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج1، ص362. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص404.

(8)- ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج1، ص414.

لهم من الشدة وقوة الأمطار وكثرة الأوحال، ومنهم من كان تقدم إلى أرض بصرى، فحصل لهم رفق بذلك، وقيل أن نساء كثيرة من المخدرات مشين حفاة فيما بين زرع والصنمين[1].

وفي سنة 747هـ/1347م ذكر أن المحمل والركب الشامي سافر في السابع من شوال، وأنهم تعجلوا عن العادة بدون ذكر اسم الأمير[2].

وفي سنة 750هـ/1350م، في التاسع من شوال خرج المحمل من البلد على العادة، وأمير الحاج هو فيروز الأرمني، وقاضي الركب شهاب الدين بن الظاهري، وممن حج مع الركب القاضي شهاب الدين العينتابي قاضي العسكر، والفقيه شهاب الدين بن الفصيح، والمحدّث شمس الدين الحسيني[3].

وفي سنة 751هـ/1350م، دخل الركب الشامي العائد من موسم حج عام 751هـ إلى دمشق يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من المحرم على العادة المستمرة والقاعدة المستقرة[4].

وفي هذا دليل على خروج الركب الشامي سنوياً، وإن لم تتناوله المصادر فهذا لا يعني عدم خروجه.

وفي سنة 753هـ/1352م، عاد الركب الشامي في أول صفر من موسم حج عام 752هـ إلى دمشق من طريق أذرعات من شدة الأمطار[5].

وفي عام 761هـ/1360م كان أمير الحاج الشامي ناصر الدين بن قرا سنقر المنصوري، أحد المقدمين وهو مجرد إلى مكة في عدة أمراء ليقيموا بها سنة[6].

وفي سَنَةَ 763هـ/1362م، قدم الحجاج من موسم حج عام 762هـ، يوم الأحد الثاني والعشرين من المحرم، ودخل المحمل السلطاني ليلة الاثنين بعد العشاء، ولم يحتفل لدخوله كما

---

(1)– ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص251، ابن شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج1، ص451.

(2)– ابن شهبة، تاريخ، ج1، ص483.

(3)– المصدر نفسه، ، ج 1، ص673–ص674.

(4)– ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص274.

(5)– ابن شهبة، تاريخ، ج2، ص33.

(6)– ابن شهبة، تاريخ، ج2، ص163. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص412.

جرت به العادة، وذلك لشدة ما نال الركب في الرجعة إلى الشام من البرد الشديد، بحيث إنه قد قيل إنه مات منهم بسبب ذلك نحو مائة حاج، ولكن أخبروا برخص كثير وآمن، وبموت أخي عجلان صاحب مكة، وقد استبشر بموته أهل تلك البلاد لبغيه على أخيه عجلان العادل فيهم[1].

وفي سنة 765هـ/1364م، قدم الركب الشامي إلى دمشق في اليوم الرابع والعشرين من المحرم، وهم شاكرون مثنون في كل خير بموسم حج هذه السنة أمنا ورخصاً[2].

وفي سنة 766هـ/1365م، عاد المحمل السلطاني صبيحة يوم الاثنين الرابع والعشرين من محرم، وذكروا أنهم نالهم في الرجعة شدة شديدة من الغلاء وموت الجمال وهروب الجمالين، وقدم مع الركب ممن خرج من الديار المصرية قاضي القضاة بدر الدين بن أبي الفتح، وقد سبقه التقليد بقضاء القضاة مع خاله تاج الدين يحكم فيه مستقلاً معه ومنفرداً بعده[3].

وفي سنة 766هـ/1365م، خرج المحمل الشامي والحجيج يوم الخميس الثاني عشره من شوال وأميرهم الأمير علاء الدين علي ابن علم الدين الهلالي، أحد أمراء الطبلخانات[4].

ولم يرد عام 772هـ/1371م أي خبر عن الحاج الشامي.

ولا يعني أنه لم يكن هناك ركب لحاج الشام في السنة التي ينقطع فيها خبره، بل قد يكون سبب ذلك عدم ذكره في المصادر التاريخية، أو أن الركب الشامي ينضم إلى الركب المصري، فيصيران ركباً واحداً من عقبة أيله، وذلك لمواجهة الأخطار.

وفي سنة 773هـ/1372م كان أمير الركب العلاء بن أقبجا الحموي، وفيها شكا الحجاج لنائب الشام من ظلم أمير الركب الدمشقي للحاج، فرسّم عليه فدخل الحمام فجب ذكره وأنثييه بالموسى فحمل مغشياً عليه فلما رأه النائب أمر بإطلاقه إلى منزله فبقي مدة متمرضاً، ثم أفاق وعاش[5].

---

[1]– ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص332.

[2]– المصدر نفسه، ج14، ص348.

[3]– المصدر نفسه، ج14، ص352، ص353.

[4]– المصدر نفسه، ج14، ص356.

[5]– ابن حجر، إنباء الغمر، ج1، ص14؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص417.

وفي سنة 774هـ/1373م حصل للركب الشامي عند عودتهم من موسم حج عام 773هـ عطش شديد ومجاعة في الطريق عند وادي الأخيضر بين تبوك والعلا، بسبب أن أمير الحاج في الذهاب ضرب الموكلين على الفساقي لقلة ما بها من الماء، فلما عاد الحاج لم يجدوا أولئك ملأوا الفساقي أصلاً، حقداً منهم على ما صنع بهم[1].

أما سنة 784هـ/1382م فقد توجه الركب الشامي بقيادة أمير الطنبغا الجوباني ثم عاد بعد موسم الحج إلى القاهرة[2].

وفي سنة 787هـ/1385م كان هناك ولأول مرة محملٌ للحلبيين على صفة المحامل، ولم يعهد ذلك لهم من قبل[3].

وفي سنة 791هـ/1389م، خرج المحمل الشامي، وكان عدد الحجاج قليلاً بسبب فتنة منطاش[4] في دمشق[5].

وفي سنة 792هـ/1390م، في التاسع عشر من شوال خرج الركب الحجازي بالمحمل، وكان أميرهم من الأمراء الصغار وكما يقول ابن صصري: "أمير جندي طلعة، وخرجوا وهم متوكلون على الله"[6].

---

[1]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص419.

[2]– ابن طولون، اعلام الورى، ص54، الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص419.

[3]– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص349؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص420.

[4]– منطاش الاشرفي – نِسْبَة إِلَى الْأَشْرَف شعْبَان بن حُسَيْن كَانَ اسْمه تمربغا، وتنقل منطاش إِلَى أَن ولاه الظَّاهِر برقوق نِيَابَة السلطنة بملطية فِي سنة 788هـ فَجمع كثيرا من التركمان وَأَظْهر الْعِصْيَان وانضوى إِلَيْهِ كثير من الأشرفية الَّذين شردهم برقوق لما تسلطن فِي الْبِلَاد فَلَمَّا بلغ الظَّاهِر ذَلِك جهز إِلَيْهِ عَسْكَر حلب مَعَ أَرْبَعَة أُمَرَاء من مقدمي الألوف بِالْقَاهِرَةِ وأحدث فتنة كبيرة بدمشق والشام وجرت وقائع بينه وبين أمراء السلطان برقوق فانهزم، وتوجه إِلَى بِلَاد عرب نعير فَأَقَامَ عِنْده ثمَّ راسل الظَّاهِر نعيراً فِي أَمر منطاش واسترضاه ورد عَلَيْهِ أَمرته وأوسع لَهُ فِي الْوَعْد فغدر بمنطاش وَقبض عَلَيْهِ وجهزه إِلَى حلب فاعتقل بقلعتها إِلَى أَن جَاءَ الْأَمر بقتْله وتجهيز رَأسه فَفعل بِهِ ذَلِك فِي سنة 795 وطيف بِرَأْسِهِ بِالْقَاهِرَةِ ثمَّ علق على بَاب زويلة. ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج6، ص130.

[5]– ابن صصري، الدرة المضية، ص26.

[6]– الدرة المضية، ص50.

وفي سنة 793هـ/1391م، خرج المحمل الشامي في الثاني والعشرين من شوال، وأمير الركب أقبغا البزلاري[1].

وفي سنة 794هـ/1392م، وفي الرابع والعشرين من شوال خرج ركب المحمل والسبيل الشامي، وكان ركباً مليحاً[2].

وفي سنة795هـ/1393م، خرج المحمل الشريف من دمشق ومعهم حجاج كثيرون[3].

وفي عام 796هـ/1394م؛ في نصف شوال يوم الخميس خرج المحمل الشامي على العادة، وأميرهم عز الدين خليل التركماني، وقاضي الركب بدر الدين بن عبيدان، ومن الفقهاء فخر الدين العامري وشهاب الدين بن قماقم[4].

وفي عام 797هـ/1395م، قدم ركب الحاج الحلبيين وأميرهم ابن الزين ومعهم محمل وسبيل، وفي 14شوال خرج المحمل السلطاني والركب الشامي، وأميرهم ناصر الدين بن المهمندار الحلبي أحد المقدمين، والقاضي عمران[5].

وفي عام 798هـ/1396م، في 14شوال خرج المحمل والركب الشامي وعمل له في هذه السنة ثوباً جديداً، وأميرهم جركس أبو النائب، وصرّوا بدمشق في هذا العام من غير نقص، وخرج على إثره المحمل الحلبي، وتلاحق الناس من أول النهار إلى آخره، ولم يحج أحد من الفقهاء سوى الفقيه ابن الجياب، والذي سبق الحجاج إلى القدس ليحرم منه ثم يلحق بالركب[6].

وفي عام 799هـ/1397م، في 14شوال خرج الركب الحلبي الذي اشتمل على الحمويين والطرابلسيين والحمصيين، واستمر خروجهم إلى المغرب، ويوم الخميس سادس عشر شوال توجه المحمل السلطاني وبقية الركب الشامي، وأميرهم صروق، وقاضيهم تقي الدين ابن الخباز نائب الحنفي[7].

---

[1]– ابن صصري، الدرة المضية، ص99.

[2]– المصدر نفسه، ص126.

[3]– المصدر نفسه، ص140.

[4]– ابن صصري، الدرة المضية، ص160؛ ابن حجي، تاريخ، ص74–ص75.

[5]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص425.

[6]– ابن حجي، تاريخ، ص183.

[7]– المصدر نفسه، ص260.

وفي سنة 800هـ/1398م، في يوم الاثنين نصف محرم وصلت كتب الحجاج عن موسم حج عام799هـ، وفيها أنهم قاسوا شدة في الطلعة من الحر والغلاء وقلة الماء، وأنهم لم يجدوا في بركة المعظم ماءً، وأنه مات منهم خلق كثير عند جبل الطاق من الحلبيين والشاميين، وأنه جاور من المصريين كمال الدين الدميري، ومن الشاميين سعد الدين النووي، ونجم الدين بن حجي، وطائفة من التجار[1].

وفي موسم حج سنة 800هـ/1398م، في أول شوال وصل الركب الحلبيون فنزلوا الميدان على العادة، وليس معهم محمل بل جاءوا على العادة القديمة، وكانوا في السنوات الثلاث السابقة يجيئون بمحمل. وفي يوم الاثنين الثامن من شوال سار مجموعة من التجار ومعهم حجاج متوجهون إلى الحجاز على درب غزة، وفي يوم الخميس الحادي عشر منه خرج المحمل السلطاني من القلعة إلى الحجاز، وتقدموا بذلك على العادة، وأميرهم حاجب الحجاب الطنبغا العثماني، وقاضيه عمران ومن الحجاج المعروفين الشيخ شهاب الدين بن الجياب.[2].

أما في سنة 801هـ/1399م فقد خرج الركب في الرابع عشر من شوال، وأميرهم يتخاص رأس الميسرة، وقاضيهم عمران، وحج الأمير إبراهيم بن منجك وجماعة ومؤذن الركب الطيبي والخطيب ناظر السبيل، وحدث للركب الحاج الشامي في أثناء عودتهم من الحج أمر عجيب في الطريق، وذلك أن الرجل كان يمشي بعد تناول طعامه وشرابه، فيرتعد ويقع ميتاً، فمات منهم خلق كثير[3]. ولعل السبب في ذلك الحر الشديد، أو انتشار الأوبئة.

في سنة 802هـ/1400م؛ في سادس عشر من شوال خرج المحمل السلطاني والركب الشامي، إلى الحجاز، وهم قليلون والغرباء أقل، وأميرهم موسى التركماني وقاضيهم عماد الدين[4].

ولعل ذلك بسبب ما أصاب الحجاج في عام 801هـ/1399م من مرض وموت الكثير منهم، فخاف الناس من الخروج للحج لذلك، وبسبب استعدادات تيمورلنك للهجوم على بلاد الشام والذي حدث عام 803هـ/1401م، وما قام به من إحراق مدينة دمشق وما أصابهم من السلب

---

[1]– ابن حجي، تاريخ، تاريخ، ص243.

[2]– ابن حجي، تاريخ، ص299. ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج3، ص661.

[3]– ابن حجي، تاريخ، ص357؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص415؛ الجزيري، الدرر، ج1، ص428.

[4]– ابن حجي، تاريخ، ص433.

والقتل بسبب ذلك وانقطع الحج سنين، لم يتوجه حاج من بلاد الشام إلى الحج في تلك الأعوام[1].

في سنة 803هـ/1401م، لم يحج من الشام أحد على الطريق المعتادة، وسبب ذلك أن تيمورلنك قصد البلاد الشامية في هذه السنة واستولى عليها وأخربها؛ وكان ما حصل من الخراب بدمشق أكثر من غيرها من البلاد الشامية بسبب إحراق التترية لها لما استولوا عليها، بعد أن فارقها الملك الناصر فرج وقصد الديار المصرية لأمر اقتضاه الحال[2].

وفي سنة 806هـ/1404م، عاد الركب الشامي للخروج إلى الحجاز سنوياً بعد انتهاء هجوم تيمور لنك، وخرج في منتصف شوال وأمير الحجاج الأمير فارس دوادار تنم نائب الشام، وتوجه من الأمراء والأعيان جماعة منهم أمير يقال له برس بيه ويحيى بن لاقي نقيب الجيش وبيرم حجا ناظر الجامع، وخرج معهم جمع من التجار والزهاد، وفصّل للمحمل ثوباً جديداً، وصرف في هذه السنة على المحمل خمسة وثلاثين ألف درهم فضة، وساروا به على طريقه المعتاد، وكان قد بطل من سنة 803هـ[3].

وفي سنة 807هـ/1405م في الثامن عشر من شوال خرج المحمل والركب الشامي، وأميره عبد الله ابن نائب قلعة الصبيبية، وحجّ القاضي عز الدين ابن الشيخ علاء الدين المقدسي وعدد من القضاة، وحجوا على طريقتهم المعتادة، كحجه في سنة ست بمحمل وركب[4].

أما في سنة 808هـ/1406م فقد ذكرت لنا المصادر أنه لم يحج الشاميون على طريقتهم المعتادة بمحمل، وإنما توجه الحجاج مسافرين على طريق غزة لأن طريق الكرك معدومة من الاحتياجات وخاصة الشعير والعلف، فتوجه التجار على عادة كثير منهم على طريق غزة، وصحبهم من أراد الحج من أهل البلد ومن جاء من الغرباء من بلاد الشام، وكان معهم عدد من العلماء منهم القاضي شهاب الدين المقري، ومن غزة ساروا إلى أيلة، والتقوا مع المصريين، وتوجهوا معهم إلى مكة للحج[5].

---

[1]– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص421. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص429.

[2]– الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص303.

[3]– ابن حجي، تاريخ، ص626. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص438.

[4]– ابن حجي، تاريخ، ص669. الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص304، الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص429.

[5]– ابن حجي، تاريخ، ص727. القاسي، شفاء الغرام، ج2، ص304؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص430.

وفي سنة 809هـ/1407م، حج الشاميون بمحمل على طريقتهم المعتادة، وتوجه الركب والمحمل في السادس عشر من شوال وأميره قرقماس وهو متجدد في الإمرة ومعهم عدد من العلماء والغرباء وحج أخ المؤرخ ابن حجي وزوجته وجاوروا[1]، وتخوف الناس أن يقع بين أميرهم وبين أمير الركب المصري قتال، فسلم الله، وسبب توقع القتال في هذه السنة؛ أن الأمير "جكم" بايع لنفسه بالسلطنة، وتلقب بالملك العادل، وخطب له بعدة بلدان من البلاد الشامية[2].

وفي نفس هذه السنة سابع عشر من شوال ركب نائب الشام وعسكره متوجهين لكبس العرب المفسدين، فأدركوهم وأخذوا منهم جمالاً كثيرة وغنماً وقدموا يوم التاسع عشر منه[3].

وفي سنة 810هـ/1408م، خرج المحمل السلطاني والركب الشامي من دمشق فنزلوا قبة يلبغا مركز تجمع الحجاج، وأميرهم قرقماس الذي كان في العام الماضي، ورافقهم التجار والعلماء ومنهم القاضي الحنبلي بن عبادة، وأهله وولده والشيخ خليل الأذرعي وغيرهم[4].

وكلم المصريون أمير مكة حسن بن عجلان في القبض على قرقماس بسبب ولاءه للأمير جكم الذي حاول الاستقلال بإمرة الشام، فقصده أمير مكة في المسجد الحرام بعد طوافه وسعيه يوم قدومه، وأشار على أمير الحاج الشامي أن يمضي معه للسلام على أمير الحج المصري بيسق الشيخي، فلم يجد بداً من الموافقة لانفراده عن عسكره، فسار إلى أمير الركب المصري فقبض عليه، وحج معه متحفظاً به، وذهب به تحت الحوطة إلى مصر[5].

وفي سنة811هـ/1409م، في السادس عشر من شوال خرج المحمل السلطاني والركب وأميرهم تنكز بغا الحططي، ومن الحجاج القاضي الحنبلي وغيرهم من العلماء[6].

---

(1)– ابن حجي، تاريخ، ص777.

(2)– الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص304، الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص430.

(3)– ابن حجي، تاريخ، ص777.

(4)– المصدر نفسه، ج2، ص823.

(5)– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص459. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص431.

(6)– ابن حجي، تاريخ، ص863.

وفي سنة 812هـ/1410م، يوم السابع عشر من شوال طلعوا بالمحمل وجعلوا أميره ابن قرا من القبيبات، وجمعوا له من الحاج، ورافق الركب العلماء ومنهم الشيخ شهاب الدين بن الجوبان الذهبي وغيره من التجار[1].

أما سنة 813هـ/1411م؛ في السادس عشر شوال خرج المحمل والركب، وكانت أيام خروجهم شاتية اشتدت فيها الثلوج والأمطار، وأميرهم تنكز بغا الحططي[2].

وفي العام814 هـ/1412م؛ خرج المحمل والحاج في منتصف شوال، وكان أمير الحاج الشامي الأمير مؤمن من القبيبات[3]، ومعهم القاضي شرف الدين الرمثاوي ومعه زوجته، وعدد من القضاة الحجاج، وكان الطقس بارداً وماطراً، وتوجه القاضي ابن مزلق على طريق غزة خوفاً من الأمطار والثلوج[4]. وقد وقع بين الحجاج وبين العرب بناحية زيزا قتال جرح فيه أمير الحاج، ثم توفي متأثراً بجراحه تلك[5].

وفي العام815هـ/1413م؛ خرج المحمل الشامي يوم الاثنين ثالث عشر شوال على العادة، فنزل قبة يلبغا، وأمير الركب قرا بغا الحاجب، وهي أيام شاتية[6].

وفي سنة817هـ/1415م ورد أن ركب حجاج بغداد حجوا بمحمل على العادة، ولم يعملوا في المسجد الحرام ختمة القرآن على العادة السنوية، لرحيلهم بأثر رحيل الحجاج المصريين والشاميين خوفاً من زيادة الغرامة في المكس[7]. ولم يرد عن حجاج الشام خبر ولكن هذا الخبر يوحي بأنهم حجوا في هذا العام.

---

[1]– ابن حجي، تاريخ، ص912.

[2]– ابن حجي، تاريخ، ص956. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص483.

[3]– القبيبات ضاحية تقع خارج سور دمشق من الناحية الجنوبية.

[4]– ابن حجي، تاريخ، ص993.

[5]– ابن حجر، إنباء الغمر، ج7، ص27.

[6]– ابن حجي، تاريخ، ص1036.

[7]– الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص310.

وفي 818هـ/1415م أقام الحجاج بمنى حتى طلعت الشمس على ثبير من يوم عرفة، وصلوا بها الصلوات الخمس وأحيوا هذه السّنّة بعد إماتتها دهراً طويلاً[1].

وفي سنة 819هـ/1416م حج الركب الشامي وقد انضم إليه من الأقاليم الشمالية من بلاد القبجاق الخاتون زوجة الأمير أيدكي صاحب الدشت، ومعها صدقات وسبيل، وقد كان في خدمتها ثلاثمائة فارس فحجوا صحبة المحمل الشامي [2].

وفي سنة 824هـ/1421م حج الركب الشامي ومعهم محمل وباتوا بمنى وكان عددهم كثيراً وأحيوا السنة[3]. وهو ما يدلل على وجود العلماء في قافلة الحج الشامي.

وفي سنة 827هـ/1424م، ذكر أن الحاج الشامي في ذلك العام حصل له مشقات عظيمة بالرجعة من موسم حج عام 826هـ بحوران بسبب تراكم الرياح، فخرج إليهم تنبك البجاسي نائب دمشق، ومعه أنواع الزاد والراحلة حتى البغال وفرقت فيهم، فانتفع الغني والفقير، وأفرطوا في الدعاء له، فكان عاقبته الشهادة – رحمه الله تعالى[4].

وفي سنة 831هـ/1428م، حج مع الركب الشامي القاضي عبد الكريم بن عبد الجبار الرومي شارح الكشاف للزمخشري[5].

وكان أمير الحاج الشامي سنة 841هـ/1438م، التاجر بدر الدين حسن بن شمس الدين بن المزلق الدمشقي عوضاً عن الأمير المجرد الى مكة وبعث معه السلطان خمسة آلاف دينار لعمارة عين خليص[6].

---

[1]– الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص310.

[2]– ابن حجر، إنباء الغمر، ج7، ص223، ابن فهد، إتحاف الورى، ج3ص536.

[3]– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص582.

[4]– ابن حجر، إنباء الغمر، ج8، ص53. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص442.

[5]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص448.

[6]– المصدر نفسه، ج1 ، ص 453.

ذكر السخاوي بدون تحديد تاريخ السنة أن الأمير شاهين الشجاعي حج بالركب الشامي، وكان قد ولي حجوبية دمشق، ونيابة القلعة بدمشق، وأنه قد مات بها في شوال سنة أربع وأربعين وثمانمئة؛844هـ/1440م[1].

وفي سنة 857هـ/1453م، خرج الحجاج من الشام وأميرهم علان المؤيدي المعروف بجلق، ومعهم أمير حاج حلب الأمير يشبك البجاس[2].

وتوافينا الأخبار في حج سنة 866هـ/1462م بأن الركب الشامي تعرض للنهب، وهو في طريق عودته، من قبل عرب حرب بالموقدة في وادي مر الظهران ولكن الشريف محمد بن بركات لم يرضه ذلك التصرف من قبل حرب، فما إن سمع الخبر حتى سارع بإرسال مائة فارس، وقد تمكنوا من استرداد كثير من الأموال التي أعادوها لأصحابها[3]. وهذا موقف مشرّف يظهر المعدن الاصيل لأشراف مكة، وأن من عادتهم الدفاع عن الحجيج وخدمتهم.

وفي سنة 869هـ/1465م حج الكركيون بمحمل لطيف[4].

وفي سنة 873هـ/1469م كان أمير الحاج جان بلاط[5].

ويظهر من خلال ما سبق أنه انقطعت أخبار ركب الحج الشامي في فترات تاريخية متقطعة بسبب عدم توفر مصادر بين أيدينا، أو لإهمال ذكره من المؤرخين لانشغالهم في ذكر أحداث أخرى، أو لأن الركب الشامي ينضم إلى الركب المصري.

---

[1]– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج3، ص295.

[2]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص463.

[3]– ابن فهد، إتحاف الورى، ج4، ص432.

[4]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص468.

[5]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص468. وجان بلاط الأشرفي قايتباي: هو أمير أصله لدولات باي المحجوب فقدمه حين كان نائبا بملطية للدوادار يشبك فقدمه مع غيره للاشرف فأعتقه وعمله خاصكيا ثم دوادارا صغيرا عوضا عن أزبك، بل وصيره الشاد في أوقافه والناظر على خانقاه سرياقوس مع دوادارية المناشير لطرابلس وغيرها من الجهات رغبة في تنميته ومحبة لرفعته ثم أمره عشرة عوضاً عن شاذبك آخور حين استقر في نيابة القلعة وأمره على المحمل في سنة ثلاث وتسعين فلما عاد أعطاه إمرة أربعين وألبسه إمرة الحج ثانيا فلم تتم بل سافر مع المجردين الذين باشهم قانصوه الشامي إلى حلب فدام بها ثم عينه رسولا إلى ابن عثمان وذلك في رمضان سنة ست وتسعين، السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج3، 63.

ويتضح أيضاً أنه في بعض السنين في القرن التاسع الهجري كان لكل مدينة شامية ركب للحجيج ومحمل نظراً لتنافس أهل النيابات في الحج والإهداء إلى الحرمين.

وفي سنة 874هـ/1470م في السابع عشر من شوال توجه الركب الشامي إلى الحجاز، وسافر معهم من الأعيان قاضي القضاة جمال الدين الباعوني الشافعي والقاضي محب الدين بن قاضي عجلون الشافعي والقاضي برهان الدين بن المعتمد الشافعي والقاضي شرف الدين بن عيد الحنفي والقاضي برهان الدين بن القطب الحنفي والشيخ عبد البر المرداوي الحنبلي وأولاده الثلاثة عبد اللطيف ومحمود وبهاء الدين والقاضي ناصر الدين بن زريق الحنبلي، والشيخ شهاب الدين الموصلي ومحمد صلاح الدين مباشر الجامع الأموي وعدد كبير من العلماء، ومن التجار ما لا يحصى كثرة، وحصل لهم شدائد من غلاء السعر وقلة الماء وغيرهما[1].

وفي سنة 875هـ/1471م، سافر الحاج الشامي، وحصل لهم في طريق العودة مشقات وشدائد من شدة العطش، وموت الجمال وقلة الكراء، ورجع عدد من الحجاج من عقبة أيله[2].

وفي سنة 876هـ/1472م، في السادس عشر من شوَّال سافر الحاج الشَّامي، وأميرهم شادبك الجلباني الأتابكي[3].

وفي سنة 878هـ/1474م، وفي السابع عشر من شوال توجه الحاج الشامي وأميرهم محمد مبارك الحاجب الكبير وأمير الركب الحلبي تنبك الجلباني[4].

وفي سنة 879هـ/1475م الخامس عشر من شوال توجه الحاج الشَّامي وأميرهم الحاجب الثَّاني جانبك[5].

وفي سنة 880هـ/1476م توجه الحاج الشَّامي في منتصف شوال، وأميرهم دوادار السُّلطان بدمشْق وقاضيهم القَاضِي محب الدّين بن القصيف الحنفي[1].

---

[1]– البصروي، تاريخ، ص45، ص46.

[2]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص469.

[3]– البصروي، تاريخ، ص52.

[4]– المصدر نفسه، ص62.

[5]– المصدر نفسه، ص68.

وفي سنة 881هـ/1477م الخامس عشر من شوال سافر الحاج الشامي وأميرهم شادبك الجلباني الأتابكي بدمشق وتتابعت الأمطار والثلوج، فاتفق أن أحد العلماء وهو الشيخ محب الدين سافر إلى الحجاز ماشياً، فلحقه جماعة من الناس في الطريق وأركبوه فرساً[2].

سنة 884هـ/1480م حج السلطان قايتباي، وحج محمل من الكرك[3].

وفي سنة 885هـ/ 1481م يوم الأربعاء الرابع والعشرين من محرم جاءت كتب الحاج عن موسم حج سنة 884هـ، وفيها أنها كانت سنة طيبة، وفي آخر الشهر في الثامن والعشرين منه دخل إلى دمشق بعض الحجاج العائدين، وأخبروا بأنهم فارقوا المحمل من منزلة الزرقاء، ثم تتابع دخول الحجاج، ومنهم: القاضي برهان الدين بن المعتمد، والقاضي محيي الدين الإخنائي، والشيخ أبو الفضل القدسي، والشيخ شمس الدين الكفر سوسي، والشيخ محيي الدين النعيمي، وأخبروا بأمور منها أن الوقفة كانت الاثنين، وأن السلطان زار المدينة الشريفة في الطلعة، وأرسل لأمير حاج الشامي أن يتعوق يومين إلى أن يزور ويسافر، ثم يدخل الركب الشامي، وحصل لهم بذلك شدة ودعوا عليه، وأخبروا أن السلطان وقف بهم وسعى ماشياً حافياً، وطاف مع الناس الخاص والعام، وكان قاضي ركب الشام الشيخ شمس الدين القدسي ذهاباً وإياباً، وأنه فقد من الشاميين في معان في العود من التجار شخص يقال له البازد من أهل حارة خان السلطان، وأنه أخذ من الشاميين في الطلعة نحو الثلاثين جملاً بما عليها، وشكى على أمير الركب الشامي للسلطان ففرس عليه، وفي مستهل صفر منها عاد معظم الحجاج ودخل المحمل وأمير الحاج[4].

وفي سنة 885هـ/1480م، وفي يوم السبت السابع من شوال دخل الحاج الحلبي بكرة النهار، وأميرهم يوسف الحمزاوي وهو ركب مليح، وفي يوم الثلاثاء عاشر شوال دخل الحجاج الحمويون، وسافر الشيخ علي الدقاق، ومعه الشيخ علي بن القاري التاجر إلى الحجاز الشريف على درب

---

[1]– البصروي، تاريخ، ص74.

[2]– المصدر نفسه، ص79.

[3]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص473.

[4]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص12، ص13. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص473.

الغزاوي، وفي يوم الأحد الخامس عشر من شوال سافر الحاج الشامي وأميرهم يلباي دوادار السلطان بدمشق نائب الشام، وأمير الحاج الحلبي يوسف الحمزاوي[1].

وفي سنة886هـ/1481م: وفي يوم الأحد مستهل صفر الخير منها، والذي كان أول نيسان، عاد الحجاج، وحصل اجتماع بالجامع الأموي، بسبب أمير الحاج يلباي، وما حصل منه في الطريق من ظلم الحجاج، خصوصاً الأغراب، من جهة المواريث (أي يأخذ ميراث المتوفي منهم دون اعطاءه أقاربه)[2].

وفي سنة 887هـ/1482م وفي يوم السبت السادس والعشرين من محرم دخل الحاج الشامي إلى دمشق، وأخبر الثقات منهم أن سبب الحريق الذي وقع بالحرم النبوي الشريف، أن شخصاً من الأخيار يدعى شمس الدين رئيس المؤذنين، قد رأى قبل وقوع الحريق بليلتين ما يدل عليه، وأخبر به القاضي، فلما كان الليلة التي أراد الله سبحانه فيها ذلك، كان هذا الرجل المتقدم ذكره يسبّح في المئذنة ليلاً في رمضان، وإذا بصاعقة وقعت، فاحترق الرجل المذكور الذي رأى المنام، واحترق الحرم النبوي بأجمعه، ولم يسلم منه شيء إلا قبة الزيت والضريح الشريف، وما لاصقه[3].

وكان أمير الحاج الشامي عام 887هـ/1482م جاني بك المعتاد أمير أربعين[4].

وفي سنة 888هـ/1483م كان أمير الحاج الأمير جاني بك التتمي أحد المقدمين بالشام[5].

وفي سنة 889هـ/1484م وفي يوم الاثنين مستهلّ شعبان منها، توفي الأمير جاني بك التتمي، أحد مقدمي الألوف بدمشق، وكان أمير الحاج الشامي في العام الذي قبله، وفي يوم

---

[1]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص28، ص29. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص473.

[2]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص32. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص473.

[3]– ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص46. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص473.

[4]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص474.

[5]– تاريخ البصروي، ص96، الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص474.

الاثنين سلخ شعبان لبس خلعة أمرة الحاج بدمشق الأمير علي شاهين نائب القلعة، عوضاً عن الأمير جاني بك المتوفي المذكور[1].

وفي سنة 889هـ/1484م كان الأمير للحج الشامي هو علاء الدين بن علي بن شاهين نائب قلعة دمشق[2].

وفي سنة 890هـ/1485م كان أمير الحاج نفسه أمير الحاج العام السابق علاء الدين بن علي بن شاهين نائب القلعة[3].

وفي سنة 890هـ/1485م: يوم الاثنين الخامس عشر من شوال خرج الحاج الشامي وأميرهم علاء الدين ابن شاهين نائب القلعة، وعدد الحجاج كثير جداً في هذه السنة من جميع البلاد، وحج قاضي القضاة شهاب الدين بن عبادة الحنبلي والخواجا محمد عيسى القاري وابن أخيه والسيد قاسم نقيب القاضي المالكي وشمس الدين بن كامل، وكان قاضي الركب في هذه السنة جلال الدين محمد[4].

وفي سنة 891هـ/1486م؛ في الثامن عشر من شوال سافر الحاج الشامي وأميرهم جان بلاط نائب الشام، وحج في هذه السنة القاضي نجم الدين الخيضري والشيخ أبو الفضل الصفدي الشافعي، وكان الحاج قليلاً ولم يأت أحد من حجاج مسلمي الروم، وكان الحاج من حلب أكثر ممن ذهب من دمشق، وكان قاضي الركب شهاب الدين أحمد بن الصاحب الذي كان نقيب القاضي الشافعي قطب الدين[5].

وفي سنة 892هـ/1487م، وفي يوم الاثنين رابع رجب منها، لبس مملوك السلطان، وأحد مقدمي الألوف بدمشق، برد بك الأشرفي قايتباي أمير ميسرة، تشريف أمرة الوفد الشامي من حضرة النائب[6].

---

(1)– ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص56.

(2)– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص474، ص475.

(3)– البصروي، تاريخ البصروي، ص105. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص475.

(4)– البصروي، تاريخ، ص105.

(5)– البصروي، تاريخ، ص115. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص475.

(6)– ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص65، الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص475.

وفي يوم الخميس تاسع شوال دخل الوفد الحلبي إلى دمشق، وأميرهم ولد نائب حلب، ومعه أمه، في تجمل عظيم، وثقل كثير، وبعد يوم خرج أوائل الوفد الحلبي إلى قبة يلبغا، والكسوة، وخان ذي النون، وفيهم مفتي حلب العلامة عثمان الكردي وجماعته، وفي بكرة (صباح) يوم السبت الثامن عشر من شوال خرج أميرهم ابن نائب حلب، ودواداريته صحبته، وأمه في محفة حافلة، وصحبتها نحو عشرة روايا، ثم خرج أمير الوفد الشامي، وجماعته كعدة جماعة الأمير الحلبي نحو الأربعين مملوكاً، ثم خرج المحمل، وقدم أمير الوفد الشامي برد بك أمير ميسرة وقاضي الركب الشامي شهاب الدين الرملي نائب الشهابي بن الفرفور، وفي شوال يوم الخميس ثاني عشريه دخل جماعة من سوقة المزيريبة إلى دمشق، وأخبروا بغلو الأسعار بها لكثرة الحاج، وخراب البلاد، ورجع جماعة من الحج لأجل ذلك[1].

وفي سنة 893هـ/1488م حج الركب الشامي وكان أميرهم جان بلاط كما أن زوجة نائب حلب قد حجت خلال هذا العام مع الركب الحلبي[2]. وقد عادوا في مستهل صفر يوم الأحد، من سنة 894هـ، ووصل معهم من الحجاز الشَّيخ أَبو الفضل محب الدّين بن الإمام الصَّفدي من فضلاء الشَّافعيَّة، والسَّيِّد عَلَاء الدّين بن نقيب الأَشراف وتوجه من نَاحية الكرك إِلَى الْقُدس الشريف[3].

أما في سنة 894هـ/1489م، فقد سافر الحاج الشَّامي في الثامن عشر من شوال، وأميرهم يزبك الأشرفي الظَّاهري أحد المقدمين بدمشق وقاضيهم أَمين الدّين الأيدوني[4].

وفي الحادي والعشرين من محرم 895هـ/1490م، عاد الحاج الشَّامي وحكوا أَنه كان معهم رخص عظيم ذهاباً وإياباً وشكوا من ظلم الأمير وأَنه زَاد فِي الظُّلم من جهة الأخذ على الجمال وغيرها على عادة من تقدمه[5].

---

[1]– ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص68، ص69.

[2]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص476.

[3]– البصروي، تاريخ، ص132.

[4]– البصروي، تاريخ، ص136. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص476.

[5]– البصروي، تاريخ، ص140.

وفي سنة895هـ/1490م، وفي الثامن عشر من شوال سافر الْحَاج الشَّامي وأميرهم بردبك الأشرفي، وقاضيهم تَقِيّ الدّين بن قَاضِي زرع أحد نواب القَاضِي الشَّافعي وحج في هذه السّنة صاحبنا جمال الدّين العقرباني وشهاب الدّين الخيري وحج حجاج كثيرون هذه السّنة وخاصة من البلاد الشمالية[1].

وفي سنة896هـ/1491م في الثامن والعشرين من محرم وصل الْحَاج الشَّامي وحضر مَعَهم الشَّيخ تَقيّ الدّين بن قَاضِي عجلون الشَّافعي وتقي الدّين بن قَاضي زرع وحكوا رخصاً عظيماً وحصل في رابغ فِي الرّجعة سيل عظيم[2].

وفي سنة896هـ/1491م وفي يوم الأحد التَاسِع عشر من شوال سَافر الْحَاج وأميرهم بردبك الظَّاهريّ وحج شهَاب الدّين أحمد الْحِمصِي رَئِيس المؤذنين بالجامع الأموي وَهُوَ قَاضِي الركب وحج من الرّوم هَذِه السنة خلائق كثيرة[3].

وفي سنة897هـ/1492م في السادس والعشرين من محرم وصل الحاج الشَّامي العائدين من موسم حج سنة 896هـ، وحكوا رخصاً وخيراً وماءً كثيراً والحمد لله[4].

وفي سنة898هـ/1493م، خرج الحجاج الشاميون واميرهم يرد بك المعتاد، وكان ركب الحاج الغزاوي يضم جمعاً كبيراً من الأروام، وتأخر عن عادته بسبب خروج العرب عليه، ولكن الله سلمهم[5]. ولعل احتواء الركب الغزاوي على جماعة الأروام لنيتهم زيارتهم القدس الشريف والخليل مع السفر للحج.

وفي سنة 899هـ/1494م، في الثامن عشر من شوال توجه الحاج الشامي، وأميرهم هو الأمير أركماس الذي كان داودار السلطان في دمشق، وكان ظالماً في المعاملة[6]، وقد واجه

---

(1)– البصروي، تاريخ، ص142، ص143. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص120.

(2)– البصروي، تاريخ، ص145.

(3)– البصروي، تاريخ، ص148. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص120. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص477.

(4)– البصروي، تاريخ، ص150.

(5)– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص478.

(6)– ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص255، ابن طولون، مفاكهة ، ص130. ابن اياس، بدائع، ص306.

ركب الحاج الشامي في طريق عودته خطر العربان في مكان يقال له الحسا فاستولوا على الركب بأكمله، ولكن بفضل الله لم يمسوا الحاج بسوء، ولم يقتل منه أحد، إلا أن كثيراً منهم هلك في الطريق من الجوع والعطش، ولم يصل منهم إلى الشام إلا القليل، ويقال إن أمير الحاج الشامي كابر وترك الحجاج، واستجار ببعض العرب فأجاروه، وبذلك نجا[1].

ولعل السبب في ذلك يعود إلى الإهمال الذي كان يلقاه العربان من المماليك الذين اقتصر اهتمامهم على مكة والمدينة.

وفي سنة 900هـ/ 1495م، صدر مرسوم بالتيهؤ لأجل العرب بسبب الحاج وأن الأمير الكبير بدمشق يلباي يكون أمير الحاج في هذه السّنة[2]. وفيه تواترت الاخبار بأن العرب الذين أخذوا الحاج انحازوا إلى ناحية أذرعات وجعلوا لهم سوقاً يبيعون فيها ما أخذوه ويلتقي بهم خلائق من دمشق يشترون منهم ذلك مع علم أركان الدولة بذلك[3].

وفي شوال منها توجه الحاج والركب ولم يخرج من دمشق أحد إلا بعض التجار، وانما جاء الحجاج من النَّاحِيَة الشمالية ومن أهل الرّوم المسلمين، وتوجه معهم من العسكر فَوق المائتين باللبس الْكَامِل، وأميرهم يلباي أمير كبير، وتوجه القَاضي محمود بن قَاضي أذرعات قَاضِي الركب[4].

وفي عام 901هـ/1496م الثامن عشر من شوال سافر الركب الشامي إلى الحجاز وأميرهم يشبك مملوك الكافل وجهز الكافل معه من العدة نحو المائة وخرج حجاج كثيرون من أروام وحلبيين، ولم يحج من دمشق الا القليل، لأن الناس تخوفوا من فتنة عزل عامر وتولية جانبيه خلعة الامرة، ولم يسافر قاضي الركب ولا أحد من الفقهاء، وفي يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شوال جاءت الأخبار بأن منزلة المزيريب حصل فيها رخص عظيم بحيث إن جميع البضائع

---

[1]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص480. ابن طولون، مفاكهة، ص132.

[2]– البصروي، تاريخ، ص153. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص136. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص480.

[3]– البصروي، تاريخ، ص156، ص157.

[4]– البصروي، تاريخ، ص164.

كانت أسعارها أرخص من أسواق دمشق بدرجات، وحصل للحجاج الخير العميم ولم يروا شيئاً يكرهونه[1].

وفي عام902هـ/1497م: في السابع والعشرين من محرم وصلت كتب الحاج الشامي مع المبشر وهو في طريق عودته في موسم حج عام 901هـ، وفارقهم الكتاب من منزلة الزرقاء، وفيها أنها كانت حجة طيبة أمناً ورخصاً، وأن الوقفة كانت الجمعة وأن الكارم ما جاء منه شيء والتجار خسروا فيما أخذوه وأنها كانت سنة حج لا سنة تجارة، وسببه أن العام الماضي لم يحج من التجار الا نادراً ففي هذه السنة بنوا على أنها كذلك فلم توجد الشاشات والنطوع وغيرها إلا نادرا لكنهم بخير، ووصل معظم الحجاج يوم التاسع والعشرين من محرم، وأثنوا على أميرهم خيراً، وذكروا أنه سار سيراً حسناً، ولم يحصل لهم عطش الا بعض يوم في هدية وما والاها وان الأسعار رخيصة والأمن حاصل والعسكر الذي أرسله النائب لاقوهم في الزرقاء وحصل بذهابهم خير، وجاور بالمدينة علاء الدين بن عيسى القارى التاجر لما بلغهم وفاة السلطان[2].

وفي عام902هـ/1497م: سافر الحاج الشامي من دمشق في التاسع عشر من شوال وأميرهم دوادار السلطان ولم يسافر أحد من أعيان دمشق بل سافر تجار البهار والعبي وكان العدد الأكبر للحجاج من الأروام وأهل الضياع من حلب وحمص وحماة، وكان عسكر الأمير قليل لم يبلغوا الثلاثين، الا أن الحجاج المذكورين مستعدون العدة الكاملة[3].

أما في سنة 903هـ/1498م سافر الحاج في الحادي والعشرين من شوال، وأميرهم دولات باي من جماعة المرحوم قانصوه اليحياوي وهو دوادار الكافل، ولم يحج من أهل البلد وأعيانهم أحد وانما توجه بعض تجار البهار، وفي الخامس والعشرين منه وصل الحجاج إلى منزلة المزيريب وأخبروا برخص عظيم وأمن، وأن الامير محمد بن ساعد أحد أمراء القبائل حضر هناك وحصل بحضوره كثرة الأمن وكثرة الامانات[4].

---

[1]– البصروي، تاريخ، ص177.

[2]– المصدر نفسه، ص192، ص193.

[3]– المصدر نفسه، ص218.

[4]– البصروي، تاريخ، ص222. ابن طولون، مفاكهة الخلان،ص160.

وفي حادي عشر محرم سنة 904هـ/1499م، وصل الخبر بأن الحاج وهم عائدون تعرض لهم العرب وأنهم أخذوا نحو ثلثهم وأن الحجاج يتقاتلون معهم في منزلة اللجون وأن ناظر الجيش ابن النيربي أخذ له العرب نحو خمسين جملا فلا قوة الا بالله، ثم جاء الخبر بأن عمران بن ملاك شيخ العرب من بني لام أدرك الحاج بجماعته، وخلصهم من القطّاع ومضوا على بركة الله تعالى[1]. وفي العام نفسه في الثالث من صفر وصل الحاج دمشق، وأميرهم دولات باي، وذكروا عنه انه كان خفيف الوطأة حسن المداراة للعرب وغيرهم ولم يحصل للحاج في الذهاب والاياب ضرر الا بين الحرمين خرجت عليهم فرقة وسلمهم الله تعالى وكان صحبتهم الخواجا زين الدين عمر بن النيربي ورافقهم عمران بن ملاك، وحصل للحاج بهم رفق زائد وأمن، وذكروا أن الرخص كان معهم كثير والماء كثير ورجع صحبتهم شهاب الدين أحمد بن العظماني أحد طلاب العلم وقد جاور سنتين واشتغل هناك، وذكروا أن الفضلاء بمكة قليلون وأن سوق العلم كاسد كما بدمشق وغيرها من البلدان[2].

وفي سنة 904هـ/1499م، في منتصف رمضان خلع بأمرة الحاج على أبي قورة القجماسي[3]. وفي بكرة يوم الخميس التاسع عشر من شوال، وهو الثلاثون من أيار، خرج الوفد المبارك من دمشق إلى قبة يلبغا، متوجهاً إلى الحجاز، وأمير الركب تمرباي القجماسي، الشهير بأبي قورة، وهو حج ثقيل من الأروام والحلبيين والشاميين، وفي هذا اليوم اتفق خروج الوفد الحجازي من مصر[4].

وفي ليلة الخميس سادس ذي القعدة خرج النائب من دمشق بعسكر كثير إلى بني صخر، حتى جاوز أربد، فقتل منهم نحو العشرين، وقبض على جماعة، وأخذ منهم كسباً، دواباً كثيرة، غنماً، وإبلاً، وبقراً، ثم رجع إلى أربد يوم الأحد الثاني عشر منه، ثم أرسل مبشراً، فدقت البشائر بدمشق[5].

---

[1]– البصروي، تاريخ، ص223.

[2]– تاريخ البصروي، ص230، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص164.

[3]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص175.

[4]– المصدر نفسه، ص177.

[5]– المصدر نفسه، ص183.

وفي سنة 905هـ/1500م كان أمير الحاج الشامي هو الأمير ابن النيربي، والذي عين أيضاً للسنة التي بعدها ولكن الخواجا ناظر الجيش بدمشق صادره وغرّمه[1].

وفي سنة 906هـ/1501م في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شوال خرج الوفد من دمشق إلى الحجاز، وأميرهم تمرباي القجماسي، وخرج معه حجاج كثر من الأروام والحلبيين والدمشقيين وغيرهم[2].

وفي سنة 907هـ/1502م خرج الركب الشامي إلى الحجاز، وحصل قتل ونهب للحاج الشامي ولكن المصادر لم تذكر اسم أميره[3].

وفي سنة 908هـ/1504م كان من أخبار الحاج الشامي أنه في يوم الأحد رابع صفر منها، ورد الخبر إلى دمشق بأن جازان، أخا بركات سلطان مكة، خادعه أمير الحاج المصري إلى أن دخل مكة، فلم ينله مراده، فرجع إلى الحاج الشامي وطلب منهم مالاً كثيراً، فلم يقدروا عليهم، فنهبهم قبل وصولهم إلى مكة؛ وأن المصري ماكث بمكة ينتظر نصر السلطان؛ وأن السلطان عين جماعات من العسكر إلى ثلاث جهات: إلى مكة، وإلى نابلس، وإلى الشام؛ فتأهبوا ونهبوا ما وجدوه من دابة بمصر وغيرها مما يحتاجونه، ثم أبوا أن يسافروا إلا بالسلطان معهم، فأبى ذلك، وتوقف الحال في التجريدة إلى الشام؛ وأن أمير الركب الشامي أزدمر قصد السلطان إعدامه، فشفع فيه[4].

وفي سنة 909هـ/1504م، وفي يوم السبت مستهل رمضان منها، أدير المحمل على العادة القديمة، خارج سور دمشق، وفي يوم الخميس رابع شوال منها، أدير المحمل بدمشق مرة ثانية، وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من شوال خرج وفد الله من دمشق، وأميرهم الخواجا زين الدين بن النيربي[5].

---

[1]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص190.

[2]– المصدر نفسه، ص194.

[3]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص483.

[4]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص211، ص212.

[5]– المصدر نفسه، ص220، ص221.

وفي سنة 910هـ/1505م، في يوم الخميس سابع شوال أدير المحمل بدمشق، على العادة، وفي شوال ورد إلى دمشق من البلاد الشمالية طوائف كثيرة، على قصد الحج، من كثرة الظلم في بلاهم، وفي يوم السبت سادس عشره ورد مرسوم شريف بعزل أبي قورة من أمرة الحج الشامي بعد أن تولى قريباً فيها، بعد أن عزل الأمير قايتباي الخاصكي، أمير ميسرة كان، لأنه كان قد عين لأمرة الحج من أول رجب، فورد هذا المرسوم في هذا اليوم بإعادته[1].

وفي سنة 911هـ/1506م، وفي يوم الاثنين التاسع عشر من محرم وصلت كتب الوفد بأنهم في مشقات كثيرة، وأنهم أقاموا بمكة ستة عشر يوماً، وبالمدينة سبعة أيام، وبالفلاء ثلاثة عشر يوماً، وأنهم هبت عليهم ريح شديدة بوداي الغنائم، مات في خلق كثير، وكذا بخليص. وفيه ورد مرسوم شريف على يد بعض أعوان الظلمة، بمصادرة جماعات من الفقهاء والقضاة وغير ذلك، وفي يوم السبت الرابع والعشرين من محرم دخل الوفد إلى دمشق، وأخبروا أن أمير بني لام مسلم وأمراء أخر، جعلوا لهم جُعلاً إلى أن أوصلوهم إلى الحسا فتلقاهم نائب القدس وجانباي، فأوصلوهم إلى عند نائب الشام[2]. وفي موسم حج هذه السنة سافر الوفد الشريف إلى الحجاز، في يوم السبت الثاني عشر من شوال، وأميرهم أزدمر اليحياوي[3].

ولم يخرج الحاج الشامي أربع سنين بسبب الفتن حتى عام 916هـ/1511م، وفيها نودي بالتهيؤ للحج للموسم القادم ففرح الناس، وعين أمير الحج أمير ميسرة أصباي، فورد المرسوم السلطاني في ذلك العام بإشهار المناداة بالتهيؤ لأمور الحج في الركب الآتي، وأن أمير الوفد أمير ميسرة أصباي بدمشق، ففرح الناس بذلك لاندراج أمور الناس، فإنه من حين بطل خروج الركب الشامي من دمشق وقفت صنائع كثيرة، وله أربع سنين قد بطل، وذلك منذ سنة 912هـ، ولكن الحجاج سافروا من الطريق الغزاوي، لوجود خطر العربان في الطريق التبوكي[4].

وفي سنة 916هـ/1511م كان من خبر الذين ذهبوا إلى الحج مع الركب الغزاوي والمصري أنه في يوم الأربعاء خامس عشره محرم سنة 917هـ/1512م؛ وردت كتب من الوفد الشريف؛

---

[1]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص232، ص233.

[2]– المصدر نفسه، ص234.

[3]– المصدر نفسه، ص241.

[4] – المصدر نفسه، ص276.

وأن الوقفة كانت الاثنين، وأن كل صنف كان موجوداً إلا الجوز الهندي والتمر، وكان القماش الأزرق أكثر من الأبيض، وأن بركات سلطان مكة، أوصلهم إلى قريب عقبة أيلة، وأن جماعة من الحجاج ماتوا، منهم ابن مقلب مات بمنزلة قاع البزوة[1].

وفي سنة 917هـ/1512م، في يوم الخميس الحادي عشر من رجب نودي بدمشق بالحج منها إلى بيت الله الحرام، على عادته المتقدمة، وفي يوم الجمعة الثاني عشر منه حمل صنجق المحمل إلى الجامع الأموي على العادة، ووضع في مكانه على العادة، وفرح الناس بذلك، ولكن ذلك لم يتم، وبطل الذهاب إلى الحج في نصف شعبان منها، وسبب ابطاله فتنة أمراء مكة[2].

وفي العام918هـ/1512م نصب الصنجق في منتصف جمادى الأولى؛ إعلاماً للناس بالتهيؤ للحج، ولبس الأمير أصباي، أمير ميسرة إمرة الحاج، ورسم له بمبلغ جيد يأخذه من القلعة، يستعين به[3]. ونودي في الحارات بالجباية له لأنه فقير، وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر شوال، خرج المحمل والركب الشامي إلى الحجاز، وكان الجو شاتياً والجليد على حاله؛ وقد كان الركب الشامي لا يخرج منذ سنة إحدى عشرة وتسعمائة بسبب فتنة أمراء مكة، ثم خرج في هذا اليوم[4].

وفي سنة 919هـ/1513م رجب نودي بأمرة الحج للحاجب الكبير صنطباي بدل أمير ميسرة الذي كان عين لها، وفي يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر شعبان طافوا بالمحمل حول دمشق على العادة، على غير الترتيب الذي عهد[5]. وفي العشرين من شوال توجه الركب الشامي إلى الحجاز بصحبة أميرهم صنطباي حاجب الحجاب، وفيها تسابق محمل الشامي والمصري في

---

[1]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص285.

[2]– المصدر نفسه، ص289.

[3]– ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص486، وقد ذكره باسم أصلان، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص299.

[4]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص303.

[5]– المصدر نفسه، ص305.

الوصول إلى مكة فسبق الشامي فشق ذلك على المصريين، فعقروا جمل المحمل المصري، فجاء أمير المحمل المصري وقدّم جملاً آخر من عنده، وأصلح أمير مكة بينهم[1].

وفي خامس صفر من سنة 920هـ/1514م، عاد الوفد الشريف إلى دمشق[2].

وفي سنة 921هـ/1515م، في يوم السبت الثامن عشر من شوال سنة 921هـ، خرج المحمل والصنجق السلطاني، وأمير الحاج أمير ميسرة أصباي، وخرج معه القضاة على العادة، ومفتي دار العدل جمال الدين بن طولون الحنفي عم ابن طولون المؤرخ، وفي السابع عشر من شوال من نفس السنة، عاد السوقة – المشتغلين في الأسواق التجارية–وغيرهم من المزيريب بعد أن باعوا على الحجاج، وأخبروا بكثرة المطر والوحل، ورخص الأسعار، وأن جماعة لما وصلوا إلى غزة صودروا من العرب بعد أن جمعوا عليهم، إلى أن صالحوهم على مال جبي لهم[3].

وهذه هي أخبار الحاج الشامي وأمرائه خلال العصر المملوكي، وكما رأينا فإنه في بعض السنين ينقطع ذكر الحج الشامي لأسباب منها انضمامه إلى الركب المصري من خلال الدرب الغزاوي في العقبة، أو وجود حروب أو فتن أو كوارث تمنع سفر الحجاج.

ويتضح مما سبق أن الحجاج الشاميين يتوجهون إلى الحجاز غالباً في منتصف شوال، وينضم إليهم حجاج الشمال الإسلامي وحجاج المدن الشامية الأخرى ليكوّنوا ركباً واحداً، ويرافقهم عدد من العلماء والتجار، ويتجمعون في الكسوة أو قبة يلبغا، ويحرصون على التحرك يوم الإثنين أو الخميس اقتداءً بالسنة النبوية. ومن عادة أمير الحاج أن يسير في البداية سيراً بطيئاً لانتظار من يلحق بهم، وأنهم غالباً ما يعودون في أواخر محرم وأول صفر تقريباً، وأن الرحلة تستغرق قرابة الثلاثة أشهر ونصف.

---

[1]– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص491.

[2]– ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص308، ص309.

[3]– المصدر نفسه، ص315.

الفصل السابع

الآثار الحضارية للحج الشامي

المبحث الأول: الأثر الاقتصادي للحج الشامي.

المبحث الثاني: الأثر الثقافي والعلمي.

المبحث الثالث: الأثر الاجتماعي والسياسي والعمراني.

الفصل السابع

الآثار الحضارية للحج الشامي

حدثني أحد أبناء العم[1]، والذي عاش أكثر من أربعة وأربعين عاماً في الغربة أنه كان يسير على الأقدام في طريق ترابي قديم شمال المملكة الأردنية، فلفت انتباهه أن المنطقة التي يسير فيها مليئة بالصخور الحجرية الصغيرة، ولكن بين الفينة والأخرى يرى مناطق وأمكنة منبسطة لا تكاد ترى فيها صخرة واحدة، فاستفسر من أحد المتواجدين فأخبره أن هذه الأمكنة هي طريق للحجاج قديماً، وتم تنظيفها لتسهيل السير فيها أو لاستراحتهم أو لنصب خيام لهم مؤقتاً على الطريق.

فهذه إذن هي جزء من آثار قوافل الحج الشامي، والذي ترك لنا ذكرياته، فما أجمل هذا الدين وما أجمل هذه الفريضة التي شرعها الحكيم عز وجل، والتي تركت لنا بصماتها وآثارها على مر العصور.

وليتنا نتمكن من السفر في هذا الزمان مثل باقي سكان المعمورة، لنشاهد الآثار العمرانية والمرافق التي كانت تخدم الحجاج في طريقهم للحج، ولنرى ما خلدته لنا تلك الطرق والصخور المتناثرة على جانبيها، ولا شك أن هذه الصخور تحوي العديد من الكتابات والوصايا للسائرين على الطريق لهدايتهم أو لتوجيه نصيحة لمن بعدهم ليتجاوزوا الأخطاء التي وقعوا فيها وسببت لهم المشقة وربما الموت[2].

وقد ترك الحج الشامي في العصر الذي ندرسه "العصر المملوكي"؛ آثاراً حضاريةً عظيمة تتمثل في نواحي متعددة من الحضارة الإسلامية المختلفة، اقتصادية وعلمية واجتماعية وسياسية وعمرانية، نتناولها إن شاء الله بالتوضيح فيما يأتي:

---

[1] – هو المناضل والأديب عبد الكريم الحشاش، والذي أجبر على العيش مغترباً في عدد من الدول العربية منها سوريا والأردن بسبب الاحتلال الصهيوني، وله مؤلفات أدبية وشعبية كثيرة وعديدة، وقد قدم قبل سنوات إلى قطاع غزة بسبب أحداث سوريا واستقر بها.

[2] – وجدت عبارات على عدد من الصخور في منازل استراحة الحجاج منها، مثلاً عبارة يفهم منها النهي عن اصطحاب النساء في السفر، وذلك بسبب المشقة الشديدة في بعض السنين والتي يعجز عن الصبر عليها أشد الرجال، وغير ذلك من الكتابات.

المبحث الأول: الأثر الاقتصادي للحج الشامي:

قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾ البقرة[198]

في هذه الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وترخيص لمن حجّ في التجارة ونحوها من الأعمال التي يحصل بها شيء من الرزق– وهو المراد بالفضل هنا، أي: لا إثم عليكم في أن تبتغوا في مواسم الحجّ رزقاً ونفعاً وهو الربح في التجارة مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحجّ، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركاً ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه،.![1].

وقد روى البخاريّ في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس أنه قال: "كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس في الجاهلية فلما جاء الإسلام كأنّهم كرهوا ذلك حتى نزلت الآية الكريمة التي رخصت لهم في التجارة في الحج: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ في مواسم الحجّ"[2]. وذكر ابن كثير أنهم كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج, يقولون: أيام ذكر, فأنزل الله: {ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم}، أي لا حرج عليكم في الشراء والبيع في مواسم الحج قبل الإحرام وبعده[3].

ومن هنا فقد دأب المسلمون في كل عصر على ابتغاء الرزق والتجارة في الحج، وهو من رحمة الله بهذه الأمة، ومن الثابت تاريخياً أن من أكبر أسباب عمران الأسواق وطرق التجارة بالقوافل كان الحج، فإن الحج كان نعمة كبرى على العالم الاسلامي، ولولا الحج وانتظام أوقاته لما عمرت طرق المسلمين بالقوافل والتجار لان كل بلد من بلاد الإسلام كان يرتب شئون تجارته بحسب موقعه من الأراضي المقدسة، فأهل الاندلس والمغرب الأقصى مثلا كانوا يخرجون للحج في قوافل ضخمة قبل الموسم بسنة ونصف على الأقل، وكان كل حاج يحمل معه شيئاً من محصولات بلاده المطلوبة في بلاد أخرى ويبيع ويشتري على الطريق، وهكذا كانت ركبان الحج

---

[1] – القرطبي، تفسير الجامع لأحكام القرآن، ج2، 413.

[2] – البخاري، الصحيح، ص150، حديث رقم904.

[3] – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص47.

تعتبر من عوامل الرخاء الاقتصادي في العالم الاسلامي، وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى منافع الحج إلى جانب ثواب أداءه[1].

وليس أدل على ذلك من ما ورد في بداية القرن العاشر الهجري عام 916هـ/1512م، عندما تعطل الحج قبله لمدة أربع سنين بسبب الفتن في مكة وفي الطرق المؤدية إليها، فورد المرسوم السلطاني في ذلك العام بإشهار المناداة بالتهيؤ لأمور الحج في الركب الشامي الآتي، وأن أمير الوفد أمير ميسرة أصباي بدمشق، ففرح الناس بذلك لاندراج أمورهم بالحج، لأنه من حين بطل خروج الركب الشامي من دمشق في سنة 911هـ، وقفت صنائعٌ ومهنٌ كثيرة[2].

فهذا يدل على أن مردود الحج الاقتصادي كان يشكل دعامة أساسية لسكان المدن الشامية.

ففي موسم الحج يحرص أهل كل إقليم على أن يروج لبضاعته وصناعته، ومعلوم أن كل إقليم في الأرض يشتهر بمنتوجات وصناعات وزراعات معينة تختلف عما يشتهر به الإقليم الآخر، ولا يتم الانتفاع بهذه الزراعات والمحاصيل والصناعات والمنتوجات ما لم يتم تصريفها إلى بلد آخر، ولهذا فقد كان موسم الحج فرصتهم الكبيرة لذلك عن طريق التبادل التجاري والمقايضة، فتأتي البضائع من مختلف البلدان، وتباع في أسواق مكة والمدينة مختلف أصناف البضائع مثل الجواهر والبهار الذي يأتي من الهند وأثيوبيا، والألبسة بجميع أنواعها والطيب وغير ذلك، وتزداد حركة الأسواق وصنوف التجارة[3].

ويستعد أهل مكة والمدينة لاستقبال قوافل الحجاج الوافدة إليهم، فينصبون أسواقاً في مكة أو المدينة ويشارك فيها حتى النساء والأطفال، ويقومون بتفريغ بيوتهم لتأجيرها للحجاج القادمين من مختلف أقطار العالم الإسلامي[4].

---

[1] – حسين مؤنس، أطلس تاريخ الاسلام، ص395.

[2] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص276.

[3] – محمد حسن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، رحلة فارتيما، ص261، ص262.

[4] – المصدر السابق، رحلة جوزيف بتس، ص329.

وفي مكة يقبل الناس على الشراء من أسواقها رجاءً لبركة موسم الحج، وعلى حد قول أحد الرحالة في العصر العثماني وهو الورثيلاني "اشتهر عند التجار أن من اشترى شيئاً من منى وجعله في تجارته، وجد بركته وظهر له ثمرته"[1]. ولا شك أن هذا القول موروث قبل ذلك بقرون، ولا زال يعتقد به البعض إلى اليوم، ولهذا كانت سوق التجارة في مكة أعظم سوق في العالم في الأيام التي يقضيها الحجاج في مدينة مكة المكرمة.

ومكة شرفها الله تعالى هي بلدة قد وضعها الله تعالى بين جبال محدقة بها وهي بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة تسع من الخلائق عددا لا يحصيهم إلا الله عز وجل وهي البلد المباركة التي سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الإبراهيمية، قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص، الآية57). فبرهان ذلك فيها ظاهر إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تهوى إليها من الأصقاع النائية، والأقطار الشاحطة، فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة والثمرات تجبى إليها من كل مكان.

وكما يقول الرحالة البلوي عن مكة: إنها أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر، ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب فيباع فيها في يوم واحد فضلا عما يتبعه من الأيام من البر إلى الدر، ومن الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار من أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعقاقير الهندية إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة إلى الأمتعة العراقية واليمانية إلى السلع الخرسانية، والبضائع المغربية، إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط، ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة، وعم جميعها بالمنفعة التجارية حاشا ما يطرأ بها مع طول العام من اليمن وسواها فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها وهي تغص بالنعم والفواكه والخضر على اختلافها ولا تنقطع منها مع طول العام، فهذه بركة لا خفاء لها[2].

وتنشط الحركة التجارية أيضاً في طريق الحج الشامي بفرعيه التبوكي والغزاوي، حيث تقام الأسواق في المنازل، وترد طوائف العربان في كل منزل ومنهل للتجارة مع الحجاج، وذلك ببيع

---

[1] – محمد حسن عقيل الشريف، المختار من الرحلات، رحلة الورثيلاني، ص376.

[2] – البلوي، الرحلة المسماة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص75، ص76.

الأغنام والألبان والسمن والعسل والتمر وسائر ما يحتاج إليه الحجاج في سفرهم من الطعام وعلوفة الدواب وما ينقصهم من الرواحل، وما يحتاجونه من كراء الإبل، حتى أنه من كثرة قيام الأسواق على كل منهل ماء وفي كل مكان، وتولي أهل تلك الأرض من القبائل لحراستهم واستعدادهم طول السنة للبيع عليهم في ذلك الوقف المقدر المعلوم؛ أصبح الحجاج في غاية الطمأنينة والأمن والدعة، كأنهم قعود في بيوتهم في وسط مدينة ذات أسوار وأعلاق ومرافق وأسواق، وكثرت الرغبة في الحج وتعهد تلك الأماكن الشريفة والأرض المطهرة[1].

وكان هذا الأمر يتم في جميع طرق الحج قديماً وحديثاً، فقد نقل لنا ياقوت الحموي عندما تحدث عن منزلة فيد[2] قوله هي بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى الآن يودع الحاجّ فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ووهبوا لمن أودعوها شيئا من ذلك، وهم مغوثة للحاجّ في مثل ذلك الموضع المنقطع، ومعيشة أهلها من ادّخار العلوفة طول العام إلى أن يقدم الحاجّ فيبيعونه عليهم[3].

كان هذا يحدث في طرق الحج عامة، وفي طريق الحج الشامي قامت العديد من الأسواق التجارية، والتي كان لموسم الحج الشامي وخروج قوافله من بلاد الشام إلى الحجاز ومكة والمدينة تأثيراً كبيراً في قيامها على طرق الحج وفي منازله، ذهاباً وإياباّ.

ولهذا فلا غرابة أن يوصف موسم الحج بأنه معرض دولي سنوي لسائر أنواع البضائع من منتجات مصر والشام والجزيرة العربية واليمن والهند، ويستفيد منه جميع البلدان بما في ذلك مكة والمدينة، لا سيما في الأماكن والمنازل التي كان يقيم فيها الحاج يومين أو أكثر للاستراحة والتزود بالماء، وقد شارك في عقد تلك الأسواق أهالي البلاد القريبة من تلك المنازل، وكذلك أهالي القبائل البدوية الذين بادلوا بضائعهم بما يلزمهم من السلع التجارية التي يحملها معهم الحجاج[4].

ومن المنازل التي اشتهرت بالأسواق: منزلة عقبة أيلة وبصرى والمزيريب وزيزا واللجون ومعان وتبوك والعلا وعيون القصب وينبع وبدر ورابغ وخليص كما سنرى، بالإضافة إلى مدينتي

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص339.

[2] – فيد: منزلة من منازل الحج العراقي، انظر الفصل الثالث، طريق الحج العراقي.

[3] – ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص282.

[4] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص339.

دمشق وغزة اللتين يخرج منهما الركب الحجازي الشامي، ومدينتي مكة والمدينة اللتين تستقبلان ركوب الحجيج.

وأول آثار الحج الشامي اقتصادياً تبدأ في دمشق مركز تجمع الحجاج القادمين إليها من الشمال ومن أطراف بلاد الشام والأناضول وبلاد فارس وغيرها[1].

وقدوم الحجاج إلى مدن التجمع دمشق أو غزة عاد بالنفع العظيم على دولاب الأعمال التجارية، وأفادت الموسر والمعسر في آن واحد، ومن هنا يتضح عظم الفائدة التي كانت تجنى من مواسم الحج والتي حرمها المسلمون اليوم، ولذلك يفرح الناس لأمن طرق الحج وسفر الحجاج[2].

وتجمع الحجاج في دمشق أدى إلى زيادة التبادل التجاري، وبالتالي زيادة العائد الاقتصادي والمالي لأهل دمشق خاصة والشام عامة، ولا سيما أن وصول الحجاج الغرباء يكون قبل النصف من شوال من كل عام، يحضرون معهم منتجات بلادهم فيبيعونها أو يقايضونها في دمشق، ويستعينون بثمنها على نفقات الحج[3]، ويستفيد أصحاب البيوت والفنادق أثناء الموسم لتأجيرها وكراءها، بل إن هناك قيساريات وخانات تأوي أبناء السبيل مجاناً[4].

وفي موسم الحج الشامي تنشط جميع أعمال التجارات مثل بيع الطعام والمحاصيل الزراعية، وعلف الدواب وبيع الجمال، وتروج الحرف والصناعات بأنواعها، مثل صناعة القرب والشمع وكراء وبيع الجمال وصناعة الخيم، ومهنة المقوم والعكام والشيال، وصناعة الخبز المجفف "البكسمادية"، وصناعة المحاير والشقادف والرماح، وحياكة الملابس والعبي التي تلقى قبولاً كبيراً في أسواق الحجاز[5].

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص58.

[2] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص276. عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، ص117.

[3] – حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج3، ص337؛ يوسف نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، ج1، ص97-103.

[4] – يوسف نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، ج1، ص171، ص175.

[5] – المرجع نفسه، ج1، ص171.

فمن خلال نشاط هذه الحرف كانت قافلة الحج الشامي تسهم بتنشيط الحركة التجارية، فتنشط الصناعات ويروج البيع ويزداد المردود الاقتصادي والمالي.

وكذلك تنشط الحركة التجارية في غزة أيضاً، حيث كانت محطة رئيسية في طريق الحاج الشامي الغزاوي، عند ذهابهم وأثناء عودتهم، وتزدهر تجاراتها أكثر عندما يتحول الحج الشامي الآتي من دمشق إليها في بعض السنين، ويؤدي ذلك إلى تبادل كبير في بيع السلع وشرائها، وهو ما يعود على أهالي غزة بالفائدة الاقتصادية الكبيرة[1].

ومع خروج الحجاج من دمشق أو غزة تزدهر منازل الحج بالأسواق وتتأثر اقتصادياً بقافلة الحج الشامي مثل منزلة الكسوة[2] التي يقام فيها سوق كبير، ثم الصنمين كذلك[3]، ثم منزلة بصرى؛ التي ينزل الحاج بها ثلاثة أو أربعة أيام[4] حتى يلحق به من تخلّف من الحجاج بدمشق، ويقام فيها سوق كبيرة يتزوّد الحاج منها[5]، وهذه المنزلة كانت مشتهرة في النصف الأول من العهد المملوكي، حيث تتوقف فيها قافلة الحجاج لعدة أيام لانتظار المتأخرين، فتقام فيها أسواق كبيرة يشترك فيها عدد كبير من التجار والبدو وأهالي القرى المجاورة، يتم فيها التبادل والبيع والشراء والمقايضة، وكل ما يلزم الحجاج ذهاباً وإياباً[6].

ثم تأتي منزلة المزيريب، والتي اشتهرت بدلاً من بصرى وخاصة بداية عهد المماليك الشراكسة آخر القرن الثامن الهجري، واستمرت كمنزلة للحجاج حتى آخر العصر العثماني، والتي كان الحجاج يقيمون بها عدة أيام، وتتوقف فيها القافلة لعدة أيام لانتظار المتأخرين وهناك يلحق بهم من تأخر من الحجاج، كما ينضم إليهم حجاج تلك المناطق، ويعقد فيها أسواق كبيرة، يشترك فيها عدد كبير من التجار والبدو وأهالي القرى المجاورة، ومعهم أصناف البضائع، فيشتري منهم الحجاج ما يلزمهم من الأقوات والسلع ويعود كثيرٌ من التجار والمودّعين منها،

---

[1]– عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي، قافلة الحج الشامي وأهميتها، ص206؛ لورنس السوسي، قافلة الحج الشامي وآثارها، ص113.

[2]– الكسوة: قرية من قرى جنوب دمشق. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص461.

[3] – الصنمين: قرية في أول حوران تبعد عن دمشق مسافة يومين. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص431.

[4] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. الجزيري: درر الفرائد، ج2، ص58 – ص59.

[5] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص128.

[6] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص66.

وسموا في ذلك العصر بالمزيريبية، ويتم فيها التبادل والبيع والشراء والمقايضة، وكل ما يلزم الحجاج ذهاباً وإياباً[1].

وبعد المزيريب كان الحاج يتجه إلى درعا، حيث يقام لهم سوق تجارية كبيرة يشارك فيها التجار من كل ناحية[2].

وتأتي بعدها منزلة زيزا[3] وهي قرية كبيرة من قرى البلقاء، حيث ينزل فيها الركب ثلاثة أو أربعة أيام، ويقام للحجاج بها سوق تجارية كبيرة، وفيها بركة عظيمة[4]، ويشارك سكان القبائل العربية من البدو في عملية البيع والشراء، فيبيعون ما لديهم من الغلال والأجبان والبسط والماشية، ويشترون ما يلزمهم من السلع المختلفة[5].

بعد ذلك تأتي منزلة اللجون[6]، والكرك، حيث يستقرون في مكان يعرف بالثنية، خارج الكرك، فيقيمون به عدة أيام[7]، وينضمّ إليهم الحاج الكركي[8]، وفي اللجون يعقد لهم فيها سوق تجارية يتزوّد منها الحجاج بما يلزمهم من السلع، وخاصة من بضائع القدس والشوبك التي كانت ترد إليهم[9].

ثم تأتي منزلة معان والتي كان الحاج ينزل فيها حوالي ثلاثة أيام، فتعقد لهم خلالها سوق تجارية كبيرة يشترون منها ما يحتاجونه ومنها يرجع المودع، وقد وصفت معان بأنها مدينة

---

[1] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص160، ص306، ص315، ص318، ص413؛ ابن كنان، المواكب الإسلامية، ج2، ص352، ص353.

[2] – البصروي، تاريخ، ص156–ص157.

[3] – زيزا: قرية من قرى البلقاء. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص163.

[4] – ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص163؛ العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. ابن بطوطة، الرحلة، ص84، الجزيري: درر الفرائد ، ج2، ص61.

[5] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص339.

[6] –– اللجون: بلدة بالأردن تبعد عن طبرية 20 ميلاً، وعن مدينة الرملة بفلسطين40 ميلاً. ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص13.

[7] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص84. الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص61.

[8] – البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص60.

[9] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص66.

صغيرة على سيف البرية، وبأنها منزلة للحجاج، يقام بها سوق في غدوّهم ورواحهم[1]، وبعدها يتجهز الحاج منها لدخول البرية باتجاه عقبة الصوان ثم إلى ذات الحج، ومنها إلى تبوك[2]، وهكذا إلى المدينة المنورة، فمكة المكرمة[3].

سوق منزلة عقبة أيله[4] (العقبة):

وهي منزلة تتجمع فيها ركوب الحجاج وهي ضمن بلاد الشام، والتي يلتقي فيها الحاج المصري والمغربي وشمال إفريقيا والأندلس بالحاج الشامي الآتي من جنوب الأردن وفلسطين وساحل الشام، ويمر بها السالكون للدرب الشامي الغزاوي، وهي من أسواق الركب الكبار[5]، – والأولى أن نقدمها على غيرها في الذكر، ولكن بسبب أنها تقع آخر الربع الأول من الطريق الشامي الغزاوي والمصري أخّرنا الحديث عنها–، حيث كان يعقد فيها للحجاج سوق تجارية كبيرة على مر العصور، عُدّت من أضخم الأسواق الموسمية التي كانت تقام للحجاج في تلك المناسبة.

فقد وصف البكري في القرن الخامس الهجري منزلة عقبة أيلة بأنها قرية كبيرة فيها أسواق ومساجد[6].

ويصفها الرحالة كبريت: بأن فيها ملاقاة غزة والكرك والقدس وأعمالها، بأنواع الفواكه والمأكول والأغنام، وأن الحاج يقيم بها يومين، ويلتئم شمل الأحباب بالأحباب، والأصحاب بالأصحاب ويتبادلون المعارف والآداب[7].

---

(1) – شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص213.

(2) – تبوك: موضع بين وادي القرى والشام. ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص14.

(3) – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص343. ابن بطوطة: الرحلة، ص84، الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص61.

(4) – أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) تقع في آخر الحجاز، وأول الشام. ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص292.

(5) – ابن العبدري، الرحلة، ص339.

(6) – البكري، المسالك والممالك، ج1، ص420.

(7)– كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص20.

ووصفها الورثيلاني الذي عاش في العصر العثماني بقوله: "وفيها لا يكاد أن يحصى ما فيها من أنواع الثياب والأمتعة والأطعمة وأنواع الخير من كعك وخبز"، بالإضافة إلى التوابل ذات الأصناف المختلفة؛ فمن دخل السوق كان لا يكاد يرجع بدرهم عنده[1].

وقد مدح الرحالة ابن رشيد السبتي في أثناء عودته من الحج أسواق منزلة عقبة أيلة التي كانت تقام للحجاج فيها بقوله: "وهذا الموضع تصنع فيه سوق عظيمة يجتمع فيها الرفاق والتجار عند توجه الناس للحج، وعند قفولهم من البلاد الشامية والمصرية بأنواع المرافق وصنوف التجارات، ويوجد فيها من الحوانيت ما يوجد في المدن العظام، ورأينا فيه من الاستعداد بأنواع الأطعمة مالا يأخذه الوصف، ويقيم أمير الركب في ذلك الموضع أياماً حتى ينصرف أهل كل بلد إلى بلدهم"[2].

ومدحها ابن فضل الله العمري بقوله: "وتنصب بها الأسواق العظيمة الممتدة المتشعبة التي لا توجد في أمهات الأقاليم وكبار المدن، حتى أنه لا يعدم فيها موجود من الخيل والإبل، والغنم، والدقيق، والشعير، والعلف، والأمتعة وغير ذلك[3].

وفي بعض السنين يصل عدد ركب الحجاج المارين بهذه المنزلة إلى ثمانين ألف راحلة من الجمال، دون الدواب[4]، وهو ما يدلّ دلالة واضحة على ضخامة سوق تلك المنزلة التي كانت محطة من محطات الحج الشامي والمصري.

وكان التأثير فيها واضحاً للحج الشامي الغزاوي، فكان التجار يقصدونها من غزة والكرك والشوبك والقدس والطور[5]. ويباع فيها الدبس والدقيق والشعير والزيت، والخيل والبغال والحمير والجمال والمحاور والشقادف، وسائر ما يحتاج إليه ركب الحجاج حتى الرجال الخدامة، وغيرها من السلع، ويأتيها التجار من المدن المذكورة بمختلف أنواع الثمار والفواكه؛ مثل الزبيب والقراصيا، واللوز الغزي والرمان والعنب والتفاح والجوز، والتمر الصادق الحلاوة، وعسل النحل،

---

(1) – محمد حسن عقيل الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، رحلة الورثيلاني، ص353.

(2) – ابن رشيد، الرحلة، ج5، ص280، ص281.

(3) – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص341.

(4) – ابن العبدري، الرحلة، ص 335.

(5) – العمري، مسالك الابصار، ج2، ص341. الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص120.

وغيرها من البضائع التي تجلب أكثرها صحبة الركب الغزاوي لقربه من هذه المنزلة، وسهولة الوصول إليها من غزة[1].

كما كان يأتي إليها البدو، جالبين معهم الإبل والغنم والسمن والعسل والحشيش والعلف للدواب، والجمال من أجل البيع والكراء[2].

ويذكر الجزيري مؤلف كتاب الدرر الفرائد أنه وجد في أسواق العقبة ملحًا أبيضاً نقيًّا على شكل قوالب السكر معروضًا للبيع في سوقها المقام للحجاج، لا يشك من رآه أنه سكر طبرزد، فسأل عن صناعته فأخبر أنه طلّ ينزل ليلاً، حيث توضع قوالب الفخار في سوق الخان ليلاً، وتصبح مملوءة وجامدة وتباع، وهو أغرب ما يمكن"[3].

ونحن نرى أنه وقع هنا التباس، أو أن الرجل كان يمزح مع الجزيري، فمن الثابت علمياً أن الملح يتولد من مكان أرض السبخة ذات الملوحة الشديدة، فيجف الماء ويصبح قالباً، وإذا وضع في السبخة إناء فإن الماء يصبح قالباً من الملح في الإناء بعد جفافه، فيظن من لا يعلم أنه نزل من السماء، وهنا يزول الإشكال والتعجب من ذلك.

وفي الغالب كانت تلك الأسواق تستمر ما بين يومين إلى خمسة أيام بحسب إقامة الحجاج فيها[4].

ثم تأتي منزلة تبوك والتي في الغالب يأتي فيها تجار من البدو يبيعون على الحجاج مع التجار المرافقين للقافلة، ثم تأتي منزلة العلا والتي منها يرجع التجار النصارى واليهود[5].

ثم تأتي منزلة ينبع التي يقام فيها سوق كبيرة، ويتجهز من نقصه شيء من زاده إلى مكة[6].

ثم منزلة بدر التي يتحين أهلها وصول الركب فيقيمون فيها سوقاً كبيرة يبيعون فيها التمر والعلف والجمال[7].

---

[1] – الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص120.

[2] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص339.

[3] – الجزيري، الدرر الفرائد، ج2، ص417.

[4] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص341.

[5] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص85.

[6] – العبدري، الرحلة، ص345.

[7] – المصدر نفسه، ص347.

ثم تأتي منزلة رابغ حيث يقيم عربانها مع الركب سوقاً كبيرة وعظيمة، ويجلبون فيها الغنم والتمر فيرخص العيش[1].

ثم منزلة خليص التي يقيم فيها العرب من أهلها وممن جاورها، سوقاً عظيمة ويجلبون إليها الغنم والتمر والأدام[2]. وهكذا تبقى الأسواق قائمة إلى أن يصلوا مكة.

ومما تقدم يتضح أنّ هذه الأسواق التي نشأت بتأثير الحج الشامي كانت تقام للحجاج في مواضع متباعدة، وبعد سير الركب لعدة أيام في الطريق، وتقام في مواضع يقيم فيها ركب الحجاج يومين أو أكثر للاستراحة والتزود بالماء، فتعمّها البضائع بأنواعها، ويلاحظ أيضاً أن نزول الحجاج بهذه المنازل كان مخططاً له سلفاً مثل الكسوة، والصنمين، وبصرى، والمزيريب وأذرعات وزيزا ومعان وغزة والعقبة وتبوك والعلا وينبع وبدر ورابغ وخليص.

وإضافة إلى ذلك فإن هذه المنازل كان يتوفر فيها الكلأ والماء مما دفع الحجاج إلى النزول فيها، ولأنّ المسافة بين دمشق ومكة بعيدة، قدرت بأربعين إلى خمسة وأربعين يومًا[3]، ويصعب على الحاج حمل جميع ما يلزمه، فلذلك يحتاج إلى شراء مؤن جديدة، وبالتالي فهو يحتاج إلى من يبيعه ما يلزمه، ومن هنا راجت تجارة موسم الحج، وأقيمت الأسواق لذلك.

وعند عودة الحاج الشامي من الديار المقدسة كانت تنصب لهم أيضًا هذه الأسواق في أماكنها كما في رحلة الذهاب[4].

ومن هذا السرد والتوضيح للأسواق في منازل الحج الشامي نجد أن الحجاج الشاميين كان لهم أثر اقتصادي كبير وواضح، عاد بالنفع على الحجاج من جهة، وعلى سكان تلك المنازل من حضر وبدو من جهة ثانية، وعلى التجار المرافقين للقافلة من جهة ثالثة، وعلى مكة والمدينة ومدن الشام من جهة رابعة، وهو ما يدلل على أنّ طرق الحج كانت تغص بالأسواق التجارية ذهاباً وإياباً، وأنها ذات أثر اقتصادي عظيم لجميع المسلمين، فنجد أن البدو القاطنين على طريق الحج، يستفيدون اقتصادياً ببيعهم الجمال والأغنام والطعام والماء على الحجاج؛ ونجد أن أمير القافلة يتفق مع قبائل البدو على أمن وسلامة القافلة، مقابل أن يدفع لهم مبلغاً من المال، ومنهم

---

(1) – العبدري، الرحلة، ص349.

(2) – العبدري، الرحلة، 351. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص97.

(3) – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص301، الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص45.

(4) – ابن رشيد، الرحلة، ملء العيبة، ج5، ص280.

من يتفق مع أمير القافلة على كراء الجمال ذهاباً وإياباً، مما يعود عليهم بالكسب الكبير، وكذلك نجد أن طائفة من تجار اليهود والنصارى استفادوا اقتصادياً أيضاً حيث كانوا يرافقون القافلة للتجارة ويبايعون الحجاج الزاد والبضائع، ولكنهم يعودون من منتصف الطريق من منزلة العلا، لحرمة دخول بلاد الحرمين عليهم.

ونجد أيضاً أن صغار التجار والباعة والذين يبيعون بضائع صغيرة كالعطور والملح وراوية الماء والحشيش للدواب استفادوا اقتصادياً من هذه الأسواق.

وكان للحاج الشامي أيضاً تأثيراً واضحاً على أسواق مكة والمدينة؛ فقد راجت تجارة البهار والكارم[1]، والتي ازدهرت في العصر المملوكي، وجرى لها تنظيماً خاصاً لأهميتها، وكان تجار الكارم في عهد المماليك في عدة وافرة، ولهم أموال عظيمة[2]، وكذلك تجارة الملابس والأقمشة والحجارة الكريمة، والتجارات المختلفة والتي يحملها الحجاج والتجار ابتغاءً للرزق[3].

ولأهمية المردود الاقتصادي لقافلة الحج الشامي نجد أن التجار الشاميين تولوا بناء واصلاح عدد من المنشآت الواقعة على طريق الحج الشامي، لتأمين السير فيه[4]. واستمرت تجارات الحج الشامي حتى في الأوقات العصيبة التي كثرت فيها الفتن والاعتداءات على الحجاج، وأنهم أي التجار حرصوا على مرافقة الحجيج سنوياً، ففي السنين التي لا تخرج فيها قافلة الحج من دمشق، فإن هؤلاء التجار يصرون على الذهاب لمرافقة الحجاج، فيذهبون من الطريق الغزاوي، أي إلى

---

(1) – الكارم: العنبر الأصفر، وكان لتجاره فندق خاص بهم في الفسطاط، ويقال له أيضًا الكانم، واستعمل لتجارة البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما ومما يجلب من الهند واليمن، وكان لهذه التجارة شأن عظيم. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص128.

وتجار الكارم – الكارميّة: وهم فئة من كبار التجار احتكروا تجارة التوابل التي تأتي من بلاد الهند والشرق الأقصى. وأصل الكلمة هندي (كاريام Karayam)، ومن معانيها: الأعمال أو الأشغال. وقيل إنها من لفظين: «كار» بمعنى الحرفة أو العمل أو الصنعة. و «يم» بمعنى البحر أو المحيط. (التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى – المجلة التاريخية المصرية – صبحي لبيب – المجلّد 4، العدد 2 – القاهرة 1952 – ص5 – 63). هامش كتاب ابن شاهين، نيل الأمل في ذيل الدول، ج1، ص212.

(2) – المقريزي، السلوك، ج1، ص379.

(3) – ابن الجزري، حوادث الزمان، ج2، ص103؛ ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص265.

(4) – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص344. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص63.

غزة ثم إلى عقبة أيلة، ويسافرون مع الحجاج ويبيعون تجاراتهم[1]، وفي سنة 910هـ –التي كثرت فيها الفتن في مكة وفي الطرق–، نجد ابن طولون يؤكد أن التجار والحجاج الشاميين باعوا فيها شيئاً كثيراً في مكة[2].

وفي هذا المقام نجد أن مؤرخ الشام ابن قاضي شهبة عند حديثه عن خروج الركب الشامي، غالباً ما يذكر أسماء جماعة من التجار المرافقين لقافلة الحج الشامي[3].

بل إن بعض التجار الشاميين ترددوا كثيراً إلى مكة ومنهم محَمَّد بن محمَّد بن محمَّد العماد بن العماد الْأَزْدِيّ الدِّمَشْقِي والذي كان يعرف بابن هلَال واشتهر بلقب الشمس لكثرة رحلاته التجارية، وكَانَ من كبار التجار المترددين إلى مكة وتوفّي بها[4]. وكذلك يحيى الشامي نزيل مكة والذي مات بها في ذي الحجة سنة اثنتين وستين وثمانمئة 862هـ/ 1457م[5].

وفي عودة قافلة الحج الشامي فإنها كانت تجلب معها صنوف البضائع المختلفة، التي يحتاجها أهل الشام ويبيعونها في أسواق بلدان الشام من ألبسة وأطعمة وتوابل وأقمشة، والبضائع الأخرى التي لا توجد عندهم[6].

ومن الآثار الاقتصادية للحج الشامي أن مبشر الحاج كان من مهماته الإخبار عن الأمن والغلاء والرخص وأسعار السلع في مكة والمدينة وطرق الحج، وكانت هذه من أهم أخبار الحجاج، بالإضافة إلى الإخبار عن يوم وقفة عرفات[7].

مما يدلل على اهتمام أهل الشام بالتجارة وأسعار البضائع، وأن موسم الحج كان له تأثير كبير في اقتصادهم.

---

[1] – الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص294، ص304. ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص146، الجزيري، درر الفرائد "ص: 293".

[2] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص 223.

[3] – ابن قاضي شهبة، تاريخ، انظر مثلاً: ج4، ص359، ص413.

[4] – السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج10، ص13.

[5] – المصدر نفسه، ج10، ص268.

[6] – ابن الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص264.

[7] – ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص276.

ومن الآثار الاقتصادية للحج الشامي أيضاً الأعطيات والصدقات التي كان حجاج الشام يقدمونها لفقراء الحجاج وأهل الحرمين، وفي الأسبلة التي كانت تجرى لفقراء الحجاج من أمراء الحج الشامي، ففي سنة680هـ/1279م حج بالناس من دمشق الأمير بدر الدين كونجك الخوارزمي، وجردوا صحبته مئة وخمسين فارساً، وهو أول أمير جرد معه عسكر، وسافر خلق كثير من الشام، ومعه النفقات من بيت المال، وجددوا السبيل يخرج من دمشق ليستفيد منه فقراء الحجاج، وهو مستمر في كل عام[1].

وفي سنة 698هـ/1298م، حج حجاج أهل الشام، ومعهم الأمير حسام الدين مهنا[2] بن الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، والذي شكرت سيرته على أعماله وصدقاته العميمة، وورد أنه تصدق بأشياء كثيرة وحمل المنقطعين وأطعم الناس في كل مكان، وأحسن إلى أهل مكة والمدينة والمجاورين بها[3].

فمما تقدم يتضح أن الحج الشامي له أثر اقتصادي كبير وواضح في كل منزل تمرُّ فيه قافلته، فقد اكتسب أهل دمشق وغزة ومدن الشام، وانتفع أهل المنازل في طرق الحج، واستفاد أهل مكة والمدينة، وفاز الحجاج بالمنافع الدينية والدنيوية المبتغاة من الحج.

---

[1] – ابن الجزري، حوادث الزمان، ص538.

[2] – هو ابن رئيس عرب آل فضل عيسى بن مهنّا الطائي، وكان لوالده المنزلة العالية عند السلطان. وعندما توفي عيسى المذكور في ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وسبعمائة؛ قام بعده ولده الأمير حسام الدّين مهنّا صاحب تدمر على إمارة العرب. ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج7، ص668.

[3] – اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج5، ص175.

المبحث الثاني:: الأثر العلمي والثقافي للحج الشامي:

اعتاد المسلمون منذ العهد النبوي أن تكون مكة المكرمة والمدينة المنورة في موسم الحجّ موطناً للقاء بين العالِم والمتعلّم ومكاناً لتلقّي العلم والمعرفة، ففي حجة الوداع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل فيجيب، ويتجمع حوله الناس فيبلّغ المعرفة والهداية، وكان خلال خطبة حجّة الوداع مع كل قول يؤكد ذلك بقوله: ألا هل بلغت... اللهم فاشهد[1].

وروى الترمذي في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بمسجد الخيف في منى فقال: نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثمّ أسلمها إلى مَن لم يسمعها، فرُبَّ حامل فقه لا فقه له، ورُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه"[2].

وفي مقامات الحريري وصف لموعظة عالم يعظ بها الحجاج في طريق الحج ومكان الاحرام رابغ ميقات أهل الشام ومصر نوردها لأهميتها وفائدتها، حيث يقول: طلعَ علَيْنا منْ بينِ الهِضابِ شخْصٌ ضاحي الإهابِ، وهوَ يُنادي: يا أهْلَ ذا النّادي، هلُمّ إلى ما يُنْجي يوْمَ التّنادي، فانْخرَطَ إليْهِ الحَجيجُ وانْصلَتوا، واحْتَفّوا بهِ وأنْصَتوا، فلمّا رأى تأثُّفَهُمْ حولَهُ، واستِعْظامَهُمْ قولَهُ، تسَنّمَ إحْدى الإكامِ، ثمّ تنحْنَحَ مُستَفْتِحاً للكلامِ، وقال: يا معْشرَ الحُجّاجِ، النّاسِلينَ منَ الفِجاجِ، أتَعْقِلونَ ما تُواجِهونَ، والى منْ تتوجّهونَ؟ أم تدرونَ على مَنْ تَقْدَمونَ، وعلامَ تُقدِمونَ؟ أتَخالونَ أنّ الحجّ هوَ اختِيارُ الرّواحلِ، وقطْعُ المراحِلِ، واتّخاذُ المَحامِلِ، وإيقارُ الزّوامِلِ؟ أم تظنّونَ أنّ النُسْكَ هوَ نَضْو الأرْدانِ، وإنْضاءُ الأبْدانِ، ومُفارقَةُ الوِلْدانِ، والتّنائي عنِ البُلْدانِ؟ كلاّ واللهِ بل هوَ اجتِنابُ الخَطيّةِ، قبلَ اجْتِلابِ المطيّةِ، وإخلاصُ النّيّةِ، في قصْدِ تلكَ البَنيّةِ، وإمْحاضُ الطّاعةِ، عندَ وُجْدانِ الاستِطاعَةِ، وإصْلاحُ المُعامَلاتِ، أمام إعْمالِ اليَعْمَلاتِ، فو الذي شرَعَ المَناسِكَ للنّاسِكِ، وأرشَدَ السّالِكَ في اللّيلِ الحالِكِ، ما يُنْقي الاغتِسالُ بالذّنوبِ منَ الانغِماسِ في الذُّنوبِ، ولا تعدِلُ تعرِيَةُ الأجْسامِ، بتَعْبِيَةِ الأجْرام، ولا تُغْني لِبْسَةُ الإحْرامِ، عنِ المتلبِّسِ بالحَرامِ، ولا ينفَعُ الاضْطِباعُ بالإزارِ، معَ الاضْطِلاعِ بالأوْزارِ، ولا يُجْدي التّقرّبُ بالحَلْقِ، مع التّقلّبِ في ظُلَمِ الخلْقِ، ولا يَرْحَضُ التّنسّكُ في التّقصيرِ، درَنَ التّمسّكِ بالتّقصيرِ، ولا يَسعَدُ بعَرَفَةَ، غيرُ أهلِ المعرِفَةِ، ولا يزْكو بالخَيْفِ، منْ يرغَبُ في الحَيْفِ، ولا يشْهَدُ المَقامَ، إلا منِ استَقامَ، ولا يَحْظى

---

[1] – البخاري، الصحيح، ج2، ص176، حديث رقم 1739.

[2] – الترمذي: السنن، ج5، ص33، حديث2656.

بقَبولِ الحِجّةِ، منْ زاغَ عنِ المحَجّة....إلخ[1]. وهكذا ارتبط موسم الحج منذ تشريعه ارتباطاً وثيقاً بالتعليم والتثقيف، وزيادة المعرفة.

فمن أهم المنافع التي يبتغيها الناس في الحج تحصيل العلم والمعرفة والتزود بخير الزاد، ففي كل موسم كان العلماء يرافقون رحلة الحج الشامي ويلتقون بمختلف العلماء الوافدين في موسم الحج من علماء وفقهاء ووعاظ ومرشدين، بالإضافة إلى اجتماعهم بعلماء الحرمين الشريفين يتبادلون الأفكار والمسائل العلمية وتلقي العلم، ولذلك نجد أن المؤرخين عند حديثهم عن خروج الركب الشامي، غالباً ما يذكرون أسماء القضاة والعلماء المرافقين لقافلة الحج الشامي[2].

ومواسم الحج كانت مواسم لتلقي العلم والتزود بالمعرفة في مختلف العصور، فكم من محدّث أو مؤرّخ روى أن الحديث الفلاني أخذه فلان عن شيخه فلان في لقائه به عند حجّهما، وليس هناك كتاب جمع المعارف والعلوم إلا واستعان مصنفه بمواسم الحج للالتقاء بالوافدين من مختلف البلاد الإسلاميّة إلى مكّة المكرّمة.

فهذا هو اليعقوبي صاحب كتاب البلدان يحكي لنا كيف ألف كتابه البلدان حيث يقول: إني عنيت في عنفوان شبابي بعلم أخبار البلدان، ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأني سافرت حديث السن، واتصلت أسفاري، ودام تغربي، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره، فإذا ذكر لي محل داره وموضع قراره، سألته عن بلده ذلك ما هي؟ وزرعه ما هو؟ وساكنيه من هم من عرب أو عجم؟ وعن شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم ... وديانـاتهم ومقالاتهم والغالبين عليه ومسافة ذلك البلد، وما يقرب منه من البلدان.. والرواحل، ثم أثبتّ كل ما يخبرني به من أثق بصدقه، حتى سألت خلقاً كثيراً، وعالماً من الناس في الموسم وغير الموسم، من أهل المشرق والمغرب، وكتبت أخبارهم، ورويت أحاديثهم، وذكرت من فتح بلداً بلداً،

---

[1] – الحريري، مقامات، ص235، ص236.

[2] – انظر ابن كثير، البداية، ج14، ص177. ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج4، ص359، ص413.

وجنّد مصراً مصراً من الخلفاء والأمراء، ومبلغ خراجه وما يرتفع من أمواله، فلم أزل أكتب هذه الأخبار وأؤلّف هذا الكتاب دهرا طويلا[1]....إلخ".

فاليعقوبي يؤكد أنه استعان بالوافدين في موسم الحج على جلب المعلومات وتدوينها، ولا شك أن هذا هو ديدن العلماء في كل عصر، وعادتهم في كل طريق من طرق الحج.

ولذلك ذخرت طرق الحج باللقاءات العلمية بين العلماء، وحصل في مواسم الحج الشامي وغير الشامي تبادل في تلقي العلم، فالعلماء الغرباء يأخذون المعلومات والإجازات من العلماء المحليون، والعلماء المحليون يأخذون الإجازات العلمية من الغرباء.

وإنّ من خير المصادر التي تقدّم لنا صورة عمّا كان يحدث في طريق الحج الشامي خلال موسم الحجّ من حركة علميّة هو رحلة المحدّث الأندلسي محمّد بن رُشَيْد[2] الفهري (ت721هـ / 1321م)، في رحلته المسماة "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة"، التي سجّل فيها أحداث الرحلة، واللقاءات العلميّة التي حصلت في الطريق، وما جمعه من الكتب والأحاديث والمسائل العلمية، وسجل لنا أيضاً ما يحصل عادة في طريق الحج الشامي[3].

وقد كانت رحلة ابن رشيد للحجّ سنة 684هـ/ 1227م، سافر فيها من دمشق قرابة أربعين يوماً، مع الركب الشامي، وأقام بمكّة أقلّ من عشرين يوماً، حيث دخلها في السادس والعشرين

---

[1] – اليعقوبي، البلدان، ص9، بتصرف.

[2] – ابن رشيد السبتي هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسن بن عمر بن محمد بن رشيد أبو عبد الله الفهري السبتي، أخذ العربية عن ابن أبي الربيع ونظرائه واحتفل في صغره بالأدبيات وبرع فيها وروى البخاري عن عبد العزيز الغافقي قراءة من لفظه وارتحل إلى فاس واشتغل بالمذهب ورجع إلى سبته وتصدر لإقراء الفقه خاصة وتأدب مع أشياخه أن يقرئ غيره ثم ارتحل إلى تونس واشتغل بالأصلين على ابن زيتون ثم رحل إلى الإسكندرية ثم إلى الشام، وحج سنة 685هـ/1285م، وجاور بمكة والمدينة ونزل مصر، وله مصنفات كثيرة منها الرحلة الشرقية خمس مجلدات، وكان ارتحاله إلى سبته في حدود سنة ست وثمانين، ثم تولى الإمامة والخطابة بغرناطة بعناية الوزير ابن الحكيم وكان هذا الوزير يسمى محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي اللخمي وكان قد رافق ابن رشيد في الرحلة فلما رجع إلى بلده غرناطة أكرمه سلطانها، وتوفي ابن رشيد سنة إحدى وعشرين وسبع مائة. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص199؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج5، ص369.

[3] – ابن رشيد، رحلة ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، ج5، ص5–ص284.

من ذي القعدة وغادرها قاصداً للمدينة المنوّرة في الخامس عشر من ذي الحجّة، ورغم ذلك، فقد لقي الكثير من العلماء، وجمع كثيراً من مرويّاتهم وكتبهم وإجازاتهم[1].

وهذه الرحلة هي صورة حقيقية صادقة لما كان يقع عادة في طريق الحجّ الشامي من حركة علميّة وأثر علمي، فيحصل الأخذ والعطاء بين العلماء من مختلف البلدان، فيأخذ المغربي عن العراقي، والمصري عن الشامي، وهلمّ جرّاً ، ممّا يمثّل شبكة من اللقاءات والتواصل، التي تجري في الموسم بين العلماء المسلمين من مختلف أقطار الأرض.

ففي بداية رحلته يذكر ابن رشيد عدد الركب الشامي بأنه يقارب 60 ألف راحلة دون الخيل والبغال والحمر وأنه يملأ السهل والحزن، وذلك في موسم حج سنة 684هـ[2].

ثم يذكر أنه التقى في وادي الأزرق في الأردن بالشيخين الفاضلين الإمام النحوي عفيف الدين عبد الرحيم بن محمد بن أحمد الزجاج، وابن أخيه عبد الحميد بن محمد الزجاج البغداديين، والذين قدما من بغداد ليحجا من الطريق الشامي، وكانا يدرّسان أيّام الحجّ كُتب الحديث، وأفاد بأنه قرأ عليها، وكتبا له بخطه[3].

ثم يجتمع ثانية في تبوك بالشيخ المحدث عفيف الدين بن محمد عبد الرحيم بن الزجاج البغدادي والذى قدم حاجاً من بغداد من طريق الحج الشامي، والذى التقاه في الأزرق وأنه قرأ عليه يسيراً من كتاب البخاري من أحاديث غزوة تبوك[4]، والتقى بهما مراراً أثناء الرحلة وفي المدينة المنورة وفي مكة المكرمة، حيث سمّع عليهما بين الحجر الأسود وزمزم جزءاً من حديث أبي الحسين بن العالي[5].

ويذكر ابن رشيد أنه بالقرب من عين تبوك هناك شجرة يزعم الناس أنه صلى الله عليه وسلم قعد عندها فاخضرت، وأنه أخذ منها يسيراً من لحائها بسكين الأقلام على حكم التبرك لما ذكر من أمرها، لأنه رأى من يأخذ منها شيئاً للتبرك، فأقبل عليه شخص لا يعرفه فقال: حتى

---

[1] – ابن رشيد، الرحلة المسماة ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، ج5، ص5–ص284.

[2] – المصدر نفسه، ج5، ص6.

[3] – المصدر نفسه، ج5، ص5.

[4] – المصدر نفسه، ج5، ص10.

[5] – المصدر نفسه، ج5، ص253.

أنت تفعل ذلك؟ فقلت ولم؟ وما تنكر من ذلك إن كان حقاً ما ذكر فيقتدى الناس بك في الأخذ منها فيفنيها الناس فيذهب هذا الأثر المبارك فتكون سبب إذهابه، وإلا يكن فيقتدى الناس بك في باطل، فشكرته وانصرف[1].

فهذا الكلام يدلنا على أن هذا الرجل ينهى عن البدع في الدين، وأن ابن رشيد عليه سمت العلماء، ومن سياق القصة يتبين أن الرجل الآمر بالمعروف ضمن الركب الشامي ويعمل حسبة لله، وأنه عرف ابن رشيد من خلال الرحلة، ويتضح لنا أن قوافل الحج الشامي لا تخلو من العلماء الباذلين للنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق.

ومما ذكره ابن رشيد من الأثار النداء والتشاغل بالعبادة والصلاة في الطريق إلى العلا[2]. مما يدلل على وجود علماء ينبهون الحجاج ويذكرونهم بالعبادة والأعمال الصالحة.

وفي المدينة يلتقي ابن رشيد إحدى عالمات أهل المدينة أم الخير فاطمة البطائحي، ويقرأ عليها في المسجد النبوي في الروضة الشريفة، ويأخذ عنها العلم[3]. وكذلك يلتقى بالشيخ الفاسي في المدينة[4].

ويلتقي ابن رشيد في مكة بالعالمين الأخوين رضي الدين العسقلاني وعلم الدين العسقلاني في منزلهما في الحرم الشريف، فكان منهما الأنس والضيافة والاحتفال بابن رُشيد، وكانا معه في طريقهم إلى دارهما فسمع عليهما أولا حديثاً مسلسلا هو: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء"[5].

ولقي ابن رشيد الأندلسي شيخاً من دمشق هو أبو اليمن عبدالصمد بن عساكر عند وروده على مكّة، فسمع عليه جملة من الكتب بعضها بمنزله بمنى يوم النحر، وبعضها بباب منزله

---

(1) – ابن رشيد، الرحلة، ج5، ص10.

(2) – المصدر نفسه، ج5، ص13.

(3) – المصدر نفسه، ج5، ص21.

(4) – المصدر نفسه، ج5، ص21.

(5) – المصدر نفسه، ج5، ص129 وما بعدها.

بالحرم، وسمع منه أشعاراً بباب الصفاء وبالمسجد الحرام، كما أجاز لعلماء من تونس ومن الأندلس تجاه الكعبة الغراء[1].

ولقي أيضاً في حجّه عالم مكّة وفقيهها المحبّ الطبري (ت694هـ / 1295م)، الذي يعتبر قمّة علمائها في وقته حيث تعدّدت اختصاصاته، فألّف الكتب الكبيرة في التفسير والحديث والفقه والتاريخ، قابله ابن رشيد بالحرم الشريف وطلب منه السماع والإجازة فأجاز له بخطّه كتباً كثيرة منها، كتابات الطبقات لابن الجوزي، وروى له من أشعاره التي يتشوّق فيها للبيت والحرم[2].

ولقي ابن رشيد علماء آخرون، وقام بينه وبين أحد العلماء حوار وهما يطوفان حول الحكمة من مشروعيّة الطواف على يسار البيت العتيق[3].

فكل ما أورده ابن رشيد الأندلسي في رحلته مع الحج الشامي، عن لقاءاته العلمية في الطريق، وفي مكة والمدينة، هي صورة متكررة تحصل سنوياً مع الحجاج المرافقين للحج من بلاد الشام، فيتعلمون ويعلمون، ويؤثرون ويتأثرون في منازل الحج وطرقه التي تستغرق فيه الرحلة أكثر من ربع العام في كل سنة.

وقافلة الحج كانت مجتمع متكامل تشمل العلماء والأئمة والقضاة والتجار، مما جعل هؤلاء يتبادلون الآراء والأفكار فيما بينهم ويتلقون العلم وينقلون الكتب والمخطوطات.

ولذلك اغتنم عدد من العلماء وطلاب العلم مرافقة قافلة الحج، وخلال الطريق أقيمت المناظرات العلمية؛ فيذكر المؤرخ البرزالي أنه رافق وصاحب العالم شمس الدين بن علوان المزي معبر المنامات، في طريق الحج إلى الحجاز، وأنه رأى منه ما يحكى مثله عن ابن سيرين وأضرابه وكان ضرير البصر تالياً القرآن وأنه حج عدة مرات[4].

---

[1] – ابن رشيد، رحلة ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، ج5، ص 145، وما بعدها.

[2] – المصدر نفسه، ج5، ص233وما بعدها.

[3] – المصدر نفسه، ج5، ص 262.

[4] – البرزالي، تاريخ المقتفي، ج1، ص545.

ويذكر البرزالي أيضاً أنه في سنة 710هـ/1311م، توجه مع الركب الشامي، هو وابنه محمد، وأسمعه من ثمانين عالماً من العلماء المنتشرين في سبعين مكاناً من القرى والمنازل المنتشرة في منازل طرق الحج الشامي ذهاباً وعودة[1].

ومن ذلك ما ذكره النويري من أن قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع بن جعفر الصالحي الحنبلي، قاضي الحنابلة بدمشق، توفي في ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي القعدة من سنة 721هـ/1321م، وكانت وفاته بالمدينة النبوية أثناء توجهه لقصد الحج في هذه السنة، فمرض عند رحيل الركب من منزلة العلا، واشتد به المرض، فيقال أنه سأل الله تعالى أن يصل إلى المدينة النبوية، ويزور رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته، فاستجاب الله له، ووصل إلى المدينة، فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى بالحرم النبوي، وبات في تلك الليلة ببعض الربط، ومات من ليلته، فدفن بالبقيع، وكان سالكاً سيرة السلف الصالح، وكان ديّناً خيّراً فاضلاً عالماً محدثاً، سمع الحديث من ابن عبد الدايم، وابن البخاري، وغيرهما، فسمع من مائتي شيخ وعشرة شيوخ، وسمع بمكة والمدينة والقدس ونابلس وبعلبك، وحضر عدة غزوات وفتوحات[2].

وكذلك يذكر الامام الذهبي أن الإمام الواعظ العالم المسند الرحالة حمد بن عبد المحسن بن أبي الحسن بن عبد الغفار أبو عبد الله ابن الخراط قد رافق قافلة الحج الشامي في رحلة الحج، وأنه سمع منه بمنزلة العلا ومنزلة معان كتاب الفرج بعد الشدة[3].

ويذكر ابن كثير تميز الركب الشامي في بعض الأعوام عن غيره من الركوب، فقد شارك في قافلته عام 731هـ/1331م عدد كبير من علماء أهل الشام والعراق الذين رافقوا الحجاج من سائر المذاهب، وكان فيهم العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية، حتى وصل الأمر بأحد العلماء الرواة لهذا الحدث وهو الشيخ بدر الدين أن يقول: اجتمع في ركابنا هذا أربعمائة فقيه وأربع مدارس وخانقاه، ودار حديث، وقد كان معنا من المفتيين ثلاثة عشر نفساً[4]. وهو ما يشير لنا

---

[1]– البرزالي، تاريخ، ج3، ص489.

[2] – النويري، نهاية الأرب، ج33، ص164.

[3] – الذهبي، معجم الشيوخ الكبير، ج2، ص226.

[4] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص177. وللمزيد انظر الفصل السادس حج سنة 731.

أنها قافلة حافلة بالعلم والعلماء والتجهيزات. ومن العلماء الذين لهم أثر في طريق الحج الشامي؛ العالم المفتي الخيّر شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الحباب، والذي وصف بالمروءة والإحسان إلى الطلبة، وكان يحج كثيراً ويتجر أثناء ذلك وكان ينهي عن المنكر ويعلم الناس في طريق الحج أمور دينهم [1].

وكذلك العالم فخر الدين أبو طالب أحمد بن علي بن أحمد الهمداني الكوفي ثم الدمشقي الحنفي الذي رافقه النعيمي –مؤلف كتاب الدارس– في طريق الحج[2]، وكذلك الشيخ الفقيه الإمام المحدث المفيد العدل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن غنائم بن وافد بن المهندس الصالحي الحنفي الذي حج مرات وزار القدس الشريف وسمع في البلاد وحصل تحصيلاً كثيراً وكان من أعيان الشهود العدول لازم الشهادة وكتابة الشروط مدة طويلة وكان رجلا صالحاً فيه ديانة وخير ومحبة للعلم، وكان فيه حرص على العبادة والخير[3].

وكان من نتائج وآثار هؤلاء العلماء المرافقين لقوافل الحج أن تمّ التخلص من بدعة العروة الوثقى التي كانت بالمسجد الحرام سنة 702هـ/1301م، على يد العالم زين الدين ابن حنا الذي تنقل بين مصر والشام وعند موته صُلي عليه صلاة الغائب في دمشق، وقد كانت هذه البدعة تؤذي الطائفين والحجاج، ويحصل من التعلق بها، ومن التسلق إلى المسمار الملاصق للكعبة عدة مفاسد قبيحة ومزاحمة بين الرجال والنساء[4].

ومن العلماء الذين اشتهروا بالعصر المملوكي عالم مصر والشام المقريزي، والذي حج في شهر رجب مع الحجاج الرجبية، وسار من عقبة أيلة على الطريق الساحلي، وجاور إلى موسم الحج، والتقى بعلماء مكة ومؤرخيها ونقل عنهم[5].

ونرى أن من دلائل وآثار التبادل الثقافي بين علماء مكة وعلماء الشام في العصر المملوكي كتاب شفاء الغرام وهو من تأليف عالم مكة تقي الدين الفاسي، وهو من مصادر التاريخ المكي

---

[1] – النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص118.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص403.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص213.

[4] – البرزالي، تاريخ المقتفى، ج3، ص266. المقريزي، السلوك، ج2، ص362.

[5] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص449.

في العصر المملوكي، فقد جمع تاريخ عن أحداث جرت في الشام ومصر إضافة الى تاريخ مكة، ولا شك أن موسم الحج ساعد في تأليف هذا الكتاب وغيره من الكتب، عن طريق العلماء القادمين من مختلف البلاد الاسلامية الى مكة، والذين نقلوا الأحداث الى علماء مكة في مواسم الحج[1].

وكان العلماء في طرق الحج لا يتورعون عن قول الحق والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكون العلماء يرافقون قافلة الحج الشامي سنوياً كما رأينا، وهؤلاء كان لهم دور في نشر العلم في طريق الحج الشامي وفي الحرمين مكة والمدينة[2].

وكان من نتيجة حفظ أمن الطريق أن سافر العلماء في قوافل الحج، وكان موسم الحج الشامي يحمل إلى الحرمين كثيراً من المعونات والاحتياجات لمدارس وأربطة مكة والمدينة، والعلماء الذين ينشرون العلم ويجاورون في الحرمين، ونتيجة لاهتمام المماليك بالعلم نبغ كثيرٌ من العلماء، حيث ألفت الموسوعات العلمية الشاملة مثل مسالك الأبصار، وصبح الأعشى، ونهاية الأرب للنوري، حتى أننا نجد أن الفيروز آبادي ألف قاموسه المحيط عندما كان مجاوراً بمكة في منزله بجوار الصفا[3]. وفي رأينا أن تأليف وتدوين هذه الموسوعات ما كان ليتم لولا تبادل المعلومات وتدوينها في رحلات الحج ومنها الحج الشامي، والتي حرص المماليك على تأمينها بشتى الوسائل.

وكما حصل تبادل ثقافي في مكة فأيضاً حصل في دمشق حيث كانت تعقد حلقات العلم للتدريس في فنون العلم عند تجمع الحجاج من مختلف البلدان استعداداً للانطلاق، فتلقى دروس التفسير والحديث والفقه وتعطى الاجازات في الجامع الأموي، وكان يقصده الزوار والعلماء والحجاج ويستفيدون من تلك الدروس، وخاصة في أيام انتظار سفر ركب الحج الشامي[4].

ويذكر ابن بطوطة أنه سمّع بجامع بني أمية جميع صحيح البخاري، على الشيخ المعمر رحالة الآفاق شهاب الدين الصالحي، المعروف بابن الشحنة الحجار في أربعة عشر مجلساً؟

---

[1] – انظر كتاب شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام لتقي الدين الفاسي مثلاً ج2، ص291 وما بعدها.

[2] – انظر ابن كثير، ج14، ص177؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص102.

[3] – السباعي، تاريخ مكة، ج1، ص373.

[4] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص71.

وذلك قبل رحيله مع قافلة الحج الشامي[1]. وإنه التقى بمؤرخ الشام علم الدين البرزالي في دمشق، وسمع منه، وبالشيخ جمال الدين بن الزكي المزني الكلبي حافظ الحفاظ، والإمام علاء الدين علي بن الشافعي، والشيخ الإمام الشريف محيي الدين بن يحيى العلوي، والشيخ الإمام المحدث مجد الدين القاسم بن المعلي الدمشقي، والشيخ شهاب الدين أحمد بن إبراهيم الإسكندري، والشيخ الإمام شمس الدين بن تمام، والشيخان الأخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا إبراهيم المقدسي، والشيخ العابد شمس الدين الهكاري، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد الحراني، والشيخة الصالحة زينب بنت كمال الدين المقدسي، وأن جميع هؤلاء أجازوه إجازة عامة في سنة ستة وعشرين بدمشق، ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج ابن بطوطة مع الركب الحجازي الشامي إلى خارج دمشق استعداداً للحج[2].

ولولا رحلات قوافل الحج الشامي لما نشأت وعرفت كثير من كتب الرحالة والبلدان، فكان هؤلاء الرحالة يقومون خلال رحلة الحج بكتابة الأحداث التي جرت خلال الرحلة ورصد الأخبار وتدوينها، حيث كانت طرق الحج الشامي هدفاً ومطمحاً لكثير من الرحالة أمثال ابن جبير وابن بطوطة والعبدري وابن رشيد السبتي والنابلسي والعياشي، والرحالة الإيطالي فارتيما، حيث دونوا مشاهداتهم وأحداث رحلاتهم[3].

والتحاق العلماء بقافلة الحج جعلهم يقومون بإلقاء الدروس والمواعظ، فمن الحجاج من يكون خطيباً نصيحاً مفوهاً، فيخطب بإخوانه الذين هم في قافلة الحج، حكى الأصمعي فقال: خرجت حاجّا على طريق البصرة فنزلت ضريّة[4]، ووافق يوم الجمعة فإذا أعرابيّ قد كوّر عمامته، وتنكّب قوسه ورقي المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه ثمّ قال: أيها الناس اعلموا أن الدنيا دار ممرّ والآخرة دار مقرّ، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، فإنّما الدنيا سمّ يأكله من لا يعرفه، أما بعد فإن أمس موعظة واليوم غنيمة وغدا لا يدرى من أهله، فاستصلحوا ما تقدمون عليه بما تظعنون عنه واعلموا أنّه لا مهرب من الله إلّا

---

[1] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص82.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص83.

[3] – للمزيد انظر رحلات ابن جبير وابن رشيد وابن بطوطة وغيرهم.

[4] – هي منزلة من منازل الحج العراقي على طريق البصرة مكة. الحميري، الروض المعطار، ص377.

إليه، وكيف يهرب من يتقلّب في يدي طالبه؟ فكلّ نفس ذائقة الموت وإنما توفّون أجوركم، الآية، ثم قال: المخطوب له من قد عرفتموه، ثمّ نزل عن المنبر[1].

فهذا القول وإن كان مروياً عن العصر العباسي إلا أنه يحكي لنا ما يحدث في قوافل الحج عامة، وفي كل زمان.

فيتضح مما تقدم أن العلماء كانوا يستغلون موسم الحج، وأن عدداً منهم رافق قافلة الحج الشامي لتلقي العلم ونشره لكون هذه القافلة يرافقها عدد وافر من العلماء والصالحين.

ومن الأثر العلمي الثقافي الأدبي لطرق الحج الشامي تناول الشعر والمديح للترويح عن النفس، وكان هذا ما يحصل في مختلف العصور، فقد ورد عن حَمَّاد بن إِسْحَاق، قَالَ: حَدثنِي أبي، قَالَ: سرت إِلَى سر من رأى بعد قدومي من الْحَج، فَدخلت إِلَى الواثق بِاللَّه، فَقَالَ: بِأَيّ شَيْء أطرفتني من الْأَحَادِيث الَّتِي استفدتها من الْأَعْرَاب وأشعارهم؟ فَقلت: يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ جلس إِلَيّ فَتى من الْأَعْرَاب فِي بعض منَازل الحج، فحاورني، فَرَأَيْت مِنْهُ أحلى مَا رَأَيْت من الفتيان، منْظرًا، وحديثًا، وظرفًا، وأدبًا، فاستنشدته، فأنشدني[2].

وفي العصر المملوكي الذي ندرسه عانى الحاج الشامي من مشقات الطريق ووجد المصاعب والآلام، وكان له في كل منزلة حدث وحديث، فكان أن أثّر ذلك في نفوس الشعراء والادباء فصدرت منهم الأشعار والأراجيز المعبرة، وقد وردت كثير من الاقوال والاشعار في طريق الحج الشامي نورد منها ما يلي:

يقول الصلاح الصفدي في منزلة الكسوة:

قاسيت في الكسوة برداً له على توالي ضعفنا قسوة
فقلت هذا عجب كيف لا يذهب شر البرد بالكسوة[3]

وفي منزلة معان يقول:

وسرنا بعد ذلك والغاية معان وبالله المستعان
أقول والركب في اضطراب وكل سار في السير عان

---

[1] – ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص457.
[2] – التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج4، ص399.
[3] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص58.

قد برح السير بالمطايا فمن معيني على معان[1]

وفي منزلة عقبة الصوان:

كم قد فككنا رقبة لما اقتحمنا العقبة

وكم لنا أمنية في حجنا مرتقبة[2]

ثم إن الركب رحل وقيل لنا إن المنزلة بالمليحة وفاح لنا من السفر أطيب فيحة، وتألف الرفاق بعضهم بعضاً كما تألف الرسول أحيحة، فأعلمنا الركائب وغنمنا غفلة السحائب لكن بعد المدى علينا وأقبل جيش الظلام إلينا، ولم يبد لنا من المنزلة جدار ولن يبد لنا القفر بدار[3].

ويقول الصلاح الصفدي[4] أيضاً عند منزلة ذات حج:

سلكنا الفج نقصد ذات حج بطرق للهداية مستقلة

فآثار المطي بها يدور وآثار الجياد بها أهلة[5].

ويقول الرحالة عيسى البلوي في وصف طريق الحج الشامي: فسرنا في جيش كثيف وعدة ظاهرة تحت أعلام فخمة وطبول هادرة، وأخذنا نجد السير ليلا ونهاراً، ونصل السري أظلاماً وأقمارا، ونقطع أرضا صحراء مخوفة القطع، جرداء كالنطع، سوداء مثل القطع، يخطي الدليل

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص61.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص61.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص58.

[4] – الصّفدي هو خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، أبو الصفا، المشهور بالصلاح الصفدي، الإمام المؤرّخ الكبير، صاحب «الوافي بالوفيات» وغير ذلك من المصنفات النافعة. ولد في صفد بفلسطين سنة ست أو سبع وتسعين وستمائة. أخذ العلم عن جمهرة من العلماء الأعلام في عصره، كالقاضي بدر الدين بن جماعة، وأبي الفتح بن سيد الناس، وتقي الدين السبكي، والحافظين أبي الحجاج المزّي، وأبي عبد الله الذهبي. وأخذ طرفا من الفقه، وأخذ النحو عن أبي حيّان، والأدب عن ابن نباتة، والشهاب محمود، ولازمه، ومهر في فن الأدب، وكتب الخط المليح، وقال النظم الرائق، وألّف المؤلفات الفائقة، وباشر كتابة الإنشاء بمصر ودمشق، ثم ولي كتابة السر بحلب، ثم وكالة بيت المال بالشام، وتصدى للإفادة بالجامع الأموي، وحدّث بدمشق وحلب وغيرهما، وقد اشتهر الصفدي بكتابه العظيم «الوافي بالوفيات»، وقد جمع فيه تراجم الأعيان ونجباء الزمان ممّن وقع عليه اختياره، فلا يغادر أحدا من أعيان الصحابة والتابعين، والملوك والأمراء، والقضاة والعمال، والقرّاء والمحدّثين، والفقهاء والمشايخ، والصلحاء والأولياء والنحاة، والأدباء والشعراء، والأطباء والحكماء، وأصحاب النّحل والبدع والآراء، وأعيان كل فن ممّن اشتهر أو أتقن إلا وذكره. توفي في شهر شوّال من سنة أربع وستين وسبعمائة. ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج1، ص65.

[5] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص61.

سمتها، ويضل السبيل عوجها وأمتها، نخترق منها كل خرق وسبسب، ونموج فيها عند كل صباح وغيهب، وتلك الجمال المباركة تمد أعناقها، وتحدق أحداقها، وتفري من الفيافي أزرارها وأطواقها، وتشكو إليها أسرارها وأشواقها، ويطربها الحداة فتبل دموعها محاجرها وآفاقها:

تثنى إلى حداتها أعناقها ... كأنها تأخذ عنهم خبرا

والنوم قد طار عن الأجفان، وكاد يسير بكبد الظمئان اللهفان، ويسري لبيت الرسول من الزوار ولله من الضيفان... ثم يقول وسرنا صباحا نجد السير، ونسرع إسراع الطير، لا تستقر بنا حرارة منزل، ولا نبيت بحمى إلا والكري عنا بمعزل:

ومهامه كالبحر لا أثرا ... فيها لمفتقر ولا سنن

لو سار فيها النجم ضل بها ... حيران لا شام ولا يمن[1]

ويقول الصلاح الصفدي عند منزلة تبوك:

ثم إنا أثرنا النياق بسحر، وكوكب الصبح للشرق نحر، وعملنا على أننا نصبح في تبوك، وقلنا للدليل اعمل على ذاك ولو منعك المتخرمة أو حاربوك، وخالف من صدك عن هذا القصد ولو كان أبوك، وأخذ الركب في الاحتفال بحمل السلاح، وسل السيف وهز الرماح، ونشر الأعلام الملونة وسوق الجياد التي هي من الرياح مكونة[2].

أتينا بالسلاح إلى تبوك وذلك عادةٌ صارت فسارت

دخلناها بإيمان صحيح ديا جي الشرك منه قد استنارت

ولو أن جماعة الكفار فيها استجاشت نحونا وبنا استجارت[3].

ثم قصدنا عين تبوك والجمال من الهزال كالعنكبوت، وأشباحها كالآل الذي يلوح على بعد في المهامة والمروت، ولما وقفنا علة عينها ووفينا للعين منها حق دينها، استعبر من تشوق واستكثر من تأنى وتأنق ولا أقول تنوق[4].

ويقول الصلاح الصفدي بين تبوك والعلا:

قد جعل الله من تبوك إلى العلا للورى مفازة

راكب الطريق عندي كأنه راكب الجنازة

---

[1] – تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص60.

[2] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص62.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص62.

[4] – المصدر نفسه، ج2، ص62.

لكن لطف الإله أضحى لزائر المصطفى إجازة[1].

ولشهاب الدين بن حجلة في رجوعه من الحجاز:

بسطت الخطا في السير نحو بسيطة وللبدن في جنح الدجا لمعان

وإن لان لي الصوان عند طلوعه فإني على صعب الطريق معان[2].

ويقول الرحالة عيسى البلوي عندما اقترب من المدينة المنورة: "ولم نزل نسير، وقد جد المسير وحمى الهجير، وعدم الماء، وتحكم العناء، وعم العطش والإعياء وكاد ان يستولي علينا الفناء؛ ولذة جسمي ذلك الضنى ... وراحة قلبي ذلك الألم

ولم تزل الحال كذلك حتى وردنا ماء هديه فأغثنا به غلل الأكباد، وعادت الأرواح للأجساد، ولما شارفنا أرض هدية، تفاءلنا بأن تكون لنا هدية، وقصد عربان الفلا ان يتخذونا كاسمها ويجعلوننا في الدروس كرسمها، فضربوا على ذنب الركب في رأس المضيق، وأذاقوه دون برد الماء بأطراف الأسنة عذاب الحريق، فانبرى من الركب من صرفهم عن تلك النية وصافحهم بيد البلية، ثم حللنا عرى السفر، وحللنا بساحة هدية الظفر، فأحدقنا بها أحداق الهدب بالعين، وأطرنا بمختلس وصالها وغربان البين، واجتلينا منها عروساً قد مد بين يديها بساط الماء، وتوجت بالهلال وقرطت بالثريا ووشيت بنجوم السماء، وبتنا تلك الليلة مسرورين بالقرب مستبشرين، حامدين الله تعالى شاكرين مرتقبين لوشك الرحيل منتظرين[3].

طال الوقوف برسم الدار يا حادي ... فمن عسى خبر من جانب الوادي

عرج بمنعرج الوادي لعل به ... منهم شفاء لقلب الهائم الصادي

ثم ارتحلنا صبحا، وسرنا نتلقى نجحا، ولم نزل نفري الفلا ونجذب البرا، ونجد السير ونؤثر السرى، حتى بدت أعلام وادي القرى فدنا الأنس، وانشرحت النفس، ونسخ باليوم الأمس، كلما قيل غدا تدنو الدار، ويقرب المزار طربت على السماع، وترقبت الملتقى من ثنيات الوداع، وكفكفت العبرات، وتمثلت بهذه الأبيات:

قالوا غدا تدنو فوا حسرتا ... لو كان بالعمر غدا يشترى

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص67.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص69.

[3] – تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص61.

اسمع بالقرب ولكنني ... لا تنطفي ناري حتى أرى
يا ليلة قد بقيت هل ترى ... احمد في صبح رجالك السرى"[1]

وللصلاح الصفدي:

خرجنا نحو طيبة من دمشق بأفئدة للقياها حرار
ولكن في العلا زدنا اشتياقاً كأن قلوبنا حشيت بنار
وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار[2].

وللصلاح الصفدي في مدائن صالح:

لقد رأينا مدناً لصالح تعزى مثل ما جاء عندنا في التلاوة
مدت الارض خواناً ما عليها من النبات طلاوة
وصحون الصخر قد نحتوها فعليها من النحيت حلاوة
والعذاب المذاب قد بان فيها وعليها من الهلاك علاوة[3].

وقال:

لما حججت وحجتي لم ترض ما بين الملا
أبصرت قدري خاملاً لما دخلت إلى العلا(4).

فكل هذه الأقوال والأشعار لم تقال عبثاً، وإنما تأثراً بطرق الحج الشامي وما فيها[5]، وهي ذات معان لغوية غزيرة نلمس منها الحث على الصبر، والفرح بأداء الفريضة، وأن التعب والنصب يهون في سبيل الحج، وأن السفر للحج على الرغم من متاعبه وأهواله كان هواية الصادقين في نيّاتهم لينالوا الأجر العظيم.

---

[1] – البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص61.
[2] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص71.
[3] – المصدر نفسه، ج2، ص71.
[4] – المصدر نفسه، ج2، ص71.
[5] – يذكر البتنوني في كتابه الرحلة الحجازية أن حجاج أهل الشام كان لهم تأثير في أنغام القصائد والمدائح التي كان يتغنى بها الجمالة في الحجاز أثناء سوق جمالهم. البتنوني، الرحلة الحجازية، ص216.

المبحث الثالث: الأثر الاجتماعي والسياسي والعمراني:

الأثر الاجتماعي:

إن رحلة الحج كانت بمثابة فرحة عظيمة للمسلمين في كل البلاد الإسلامية، كيف لا وهم يؤدون فريضة وركن من أركان الإسلام الخمسة.

وهي مناسبة دينية واجتماعية تدخل الفرحة والسرور على الحاج المسافر؛ لأنه يفرح لأدائه الفريضة ولزيارة بلاد الحرمين التي يتشوق إليها كل مسلم، وفرحة لأهل البلد الذى يخرج منه الحاج لأنهم يهنئون بعضهم لذلك، وأيام الموسم هي بمثابة أيام عيد وفرح لهم لأن المسلم يفرح بشعائر الله، وفرحة أيضاً لأهل البلد الذي يمر منه الحاج لاستفادتهم اقتصادياً من التجارة مع الحجاج، ولا شك أن هذه الرحلة التي تستغرق قرابة ثلاثة أشهر ليست هي مجرد رحلة سفر وترحال، إنما هي أشبه بمدينة كاملة تسير على الأرض وتقطع الفيافي والقفار، ويجرى فيها شتى أنواع المعاملات الاجتماعية من إيثار وتصدق وانفاق وتعاون، وتبادل المنافع والمصالح وخاصة عند أمن الطريق واستتباب هيبة الدولة[1].

وقد كانت دمشق وغزة هي المدن التي يتجمع فيها الحجاج منذ شهر رجب من كل عام، والذين يفدون من بلاد ما وراء النهر والأفغان والأناضول وسواها، فيجتمعون في هذه المدن إلى منتصف شهر شوال، وخلال هذه المدة، بعضهم يزور القدس، يتاجرون مع أهل الشام متاجرة ذات فوائد متقابلة، حيث يبيعون ما حملوه معهم من مختلف المتاع ويشترون مقابله من المنتوجات الشامية ما يروق لهم للاستعمال أو للتجارة أو للمهاداة، ويشترك في هذه التجارة الكثير من تجار المدن الشامية [2].

ووجود هذا الكم من التجار والحجاج الغرباء والمحليين كون بينهم علاقات وروابط اجتماعية ومعيشية كثيرة، وذلك لأن مدينة دمشق مثلاً انشغلت بأسرها طيلة العام بالحجاج المسلمين، وإسكانهم خلال مدة مكثهم بها وبإطعامهم والمتاجرة معهم وعلاج مرضاهم[3]، ثم بإعداد ما

---

[1] – العمري، مسالك الابصار، ج2، ص339.

[2] – عبد العزيز العظمة، مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، ص110.

[3] – ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص45.

يلزمهم في رحلتهم إلى الحج، فيهيئون لهم معدات الركب من جمال وخيول وبغال وخيام ومحاير وتخوت وقرب وعبي وخيم وملابس وأحذية وثياب وسروج ورواحل، وما يلزمهم للإحرام من ثياب وأكمار وما يحتاجه الحاج في رحلته، ثم بتهيئة العلف للدواب، والسلاح –السيف والرمح والخنجر والسهام– للدفاع عن أنفسهم، ثم بتجهيزهم بالأطعمة والزاد مثل البشماط والكعك، والجبن واللحم المقلي، والفواكه والخضار المجففة وما شاكلها[1].

وكل ذلك أدى إلى ارتباطهم بصنائع ومهن شتى ظلوا متصفين بها قروناً طويلة.

والمحطات ومنازل الإقامة في طرق الحج الشامي التي يتوقف عندها الحجاج، أفسحت المجال لتلاقي الحجاج من شعوب وأجناس مختلفة في تجمع روحاني تجمع بينهم أواصر الدين الحنيف، إذ يتم التعارف وتدور المسامرات، وينتج من ذلك جو عابق بمبادئ الأخوة الإسلامية التي ينصهر تحت لوائها أناس من شعوب مختلفة وأجناس متباعدة[2].

ورحلة ركب الحج الذي يغادر دمشق أو غزة منتصف شوال ويصل المدينة المنورة منتصف ذي القعدة، ويمكث ثلاثة أيام فيها ثم يغادر إلى مكة والتي يصلها في السادس من ذي الحجة على الغالب، ثم يعود في أول صفر[3]. فإنه في هذه الرحلة التي تستغرق قرابة ثلاثة أشهر ونصف؛ تجتمع مختلف أجناس المسلمين والوافدين من شتى الأقطار، ففيه تتحقق المساواة عملياً بين مختلف ألوان المسلمين ودرجاتهم الاجتماعيّة والمادّية، وبالإضافة لأداء الفريضة دينياً بشعائرها، فإن الحجاج أيضاً ازدادوا فوق ذلك بالأخوة والتعارف، فكل مسلم يشعر في قرارة قلبه بأنه أخ لكل المسلمين أينما كانوا "إنما المؤمنون إخوة"، ومن هذا التجمع نشأت علاقات اجتماعية بين الحجاج عامة وفي طريق الحج الشامي خاصة والذي كان يضم عدداً كبيراً من الحجاج الغرباء من الشمال الاسلامي الأكراد والقوقاز والأتراك، فحصلت الصداقة والأخوة والمجاورة والمصاحبة في السفر.

وسير قافلة الحج الشامي الذي يستغرق هذه المدة ذهاباً وإياباً، يجعلها تضطر إلى التوقف مرات عديدة للاستراحة وتناول الطعام والشراب وقضاء الحاجات وأداء الصلوات، فإننا نرى في ذلك نوعاً من أنواع العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين الحجاج من إيثار وتعاون وتعارف

---

[1] – عبد العزيز العظمة، مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، ص114.

[2] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص120، كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص 238.

[3] – عبد العزيز العظمة، مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، ص110.

ومحادثة، وخير دليل على ذلك عقبة الصّوان التي تسمى بعقبة الحلوى حيث عندها يخرج الحجاج ما لديهم من حلوى ويناولونها لبعضهم البعض، وذلك استبشاراً باجتيازهم لجميع العقبات والعراقيل في رحلة الحج، وهو نوع من التآخي والتآلف[1].

وإن كان الوصف التالي العائد لمحمد لبيب البتنوني، قد قيل في العهد التركي العثماني الاسلامي، إلا أنه يعبر تعبيراً جيداً عما كان يحدث في قوافل الحج في العهد المملوكي؛ لأن الطبع الإنساني لا يتغير، حيث يقول: "عندما ينزل الحجاج في محطات استراحتهم، يكثر الهرج والمرج والصياح، فترى أحدهم يقول: هذا خرجي ويقول الآخر ملابسي وغيره يصيح لحافي، وترى الصراخ في أنحاء القافلة بتمامها، فهذا يصيح يا حاج فلان، والآخر يا حاجة فلانة، وغيره يوهم بأنه يشاهد حرامي (لص) فيقول: شايفك، وآخرون يشتغلون بنصب خيامهم، ومنهم من يجلب الماء، أو الحطب، وترى الصياح صاعداً في هذا الفضاء إلى عنان السماء"[2]. فهذه صورة حية لما كان يحدث في قوافل الحج، وهي حكاية تحكي صورة اجتماعية لا تتحقق إلا نادراً، ويشتاق المرء إليها بين حين وآخر، وقد حرمنا منها في هذا الزمان الذي أصبح فيه السفر لساعات على ظهر سيارة أو طيارة.

ومن آثار الحج الاجتماعية ما جاء في رحلة ابن بطوطة الذي حج من الطريق الشامي، مما كان له الفضل في نقل عادات أهل الشام الاجتماعية التي تنم عن تديّنهم، والتي منها أن نائب الشام المملوكي أنشأ أوقافاً منها أوقاف للعاجزين عن الحج، يعطي لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير[3].

ثم يقول: "مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم

---

[1] – كبريت، رحلة الشتاء والصيف، ص233.

[2] – البتنوني، الرحلة الحجازية، ص278.

[3] – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص78، ص79.

اجمع شققها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، ثم يعلق ابن بطوطة قائلاً: وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا"[1].

ولاشك أن نقل تلك الأخبار من ابن بطوطة كان بسبب أنه سافر للحج من طريق الشام.

ومن الآثار الاجتماعية، تعوّد أهل الشام على الاجتماع على الطعام تأثراً برحلة الحج التي كانوا يمكثون فيها قرابة ثلاثة أشهر ونصف، فأهل الشام كما يقول ابن بطوطة: لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوقة[2]صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً[3]. وهذه العادة لا تزال منتشرة في كل بلاد المسلمين إلى اليوم، وقد رأينا ذلك عندما كنا صغاراً في دواوين الأحياء والقرى.

وقد كان عدد من الحجاج والعلماء والغرباء من مغاربة وأروام، ينضمون إلى قافلة الحج الشامي عند العودة من مكة سواء من الطريق التبوكي أو من طريق عقبة أيلة ثم غزة (الطريق الغزاوي)، وذلك لما لبلاد الشام من قداسة وبركة، ولوجود القدس والمسجد الأقصى فيها، حتى أنه اشتهر فيهم قول وعادة "تقديس الحجة" ويقصدون بذلك أن الحج لا يتم ولا يكتمل إلا بزيارة القدس والمسجد الأقصى، ومنهم من يحرم من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام[4]، ومنهم من تطيب له الإقامة في القدس أو دمشق ويصل به الأمر إلى الزواج والاستقرار النهائي[5].

ومن الأثر الاجتماعي للحج الشامي نلمس انتشار بعض العادات والتقاليد التي تميز بها حجاج الشام والحج الشامي عن غيرهم، مثل انشغال أهل الشام ودمشق بالقافلة وتمويلها، بدءاً

---

(1) – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص79.

(2) – المراد بالسوقة هنا: الرعية ومَنْ هم دون الملِك ويشمل أهل الأسواق أي التجار، والعاملون في الأسواق. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص2156.

(3) – ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص79.

(4) – ابن كثير، البداية والنهاية،، ج12، ص402،، ج14، ص176. النعيمي، الدارس، ج1، ص456.

(5) – العياشي، الرحلة، ج2، ص404، ص421.

من تسيير المحمل وتعيين أمير الحج وانتهاءً بخروج المحمل باحتفالات رسمية ومشاركة جميع الطبقات ومرافقتها وتوديعها وانتقال أخبارها بين الناس[1].

وأصبح خروج الأهالي لتوديع الحجاج عادة سنوية لا تنقطع، حيث أنهم يخرجون معهم للتوديع عدة أيام، ومنهم من يصل إلى معان والعقبة للتوديع[2].

ومن الحجاج من يتزوج بامرأة في رحلة الحج لحاجته إليها في خدمته في السفر، وخاصة أن السفر للحج والذي يستغرق ذهاباً وإياباً قرابة ثلاثة أشهر ونصف، يحتاج إلى امرأة قوية البدن للخدمة وتحمل مشاق السفر[3].

وجرى نقل للعادات والتقاليد بين مختلف الأجناس والأعراق وحتى بالمصاهرة والزواج من خلال موسم الحج، حتى أننا نجد أحياءً في المدن الإسلامية مثل مكة ودمشق والقدس تحمل اسم غرباء مثل الهنداوية، الأكراد، المغاربة، الشامية[4]، وقد شاهدت ذلك بنفسي عند زيارتي إلى مكة والمدينة والقدس، واطّلاعي على خرائط المدن.

وهناك عادات للحجاج أثناء السير في الطريق، فعلى الرغم من مجاورة بلاد الشام لأرض الجزيرة العربية إلا أن طريق الحج الشامي تسير القوافل فيه مدة شهر ونصف ذهاباً أو إياباً، والمسافة بين دمشق والمدينة المنورة تبلغ حوالى 1300 كيلومتر، يضاف إليها 450كيلو متر إلى مكة، فتكون هذه المسافة ليست بالقصيرة على ركب الحجاج الذي كان يسير على ظهور الدواب والابل وسيراً على الأقدام، ويواجهون الصحراء المقفرة وأهوال وظروف البلاد القاسية صيفاً وشتاءً، ولذلك فلا غرابة أن تتولد عند الحجاج وهم في طريق رحلتهم إلى الأراضي الحجازية العديد من العادات الاجتماعية والمعتقدات الشعبية، وتوارثها أهل الشام من طريق درب الحج، والتي كان لها دور في التأثير على سلوكهم وتصرفاتهم على مدار سنين كثيرة ذهب وعاد فيها ركب الحاج الشامي[5].

---

[1] – ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج4، ص352.

[2] – العمري، مسالك، ج2، ص343. ابن بطوطة، الرحلة، ص84. الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص61.

[3] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص318.

[4] – البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص56.

[5] – ابراهيم حلمي، الكعبة وفنون الحجاج، ص111.

فمن ذلك عادة التخفف من الأحمال؛ لكونهم نظروا إلى طول الطريق وما يصيبهم فيه من تعب ونصب وأخطار فكانت حيطتهم اللازمة تجاه ذلك أن تخففوا من أمتعتهم عند معان والعقبة والعلا والأزلم، وهي منازل متباعدة كما هو واضح، ثم عند العودة يأخذون أمتعتهم ويقفلون عائدين إلى بلادهم بالشام ويتزودون من أزوادهم التي احتفظوا بها هناك[1].

ومنها قافلة الجردة أو قافلة الملاقاة والتي كان المماليك وأهل الشام يحرصون على إرسالها سنوياً، ويستفيد منها من نفذ منه الزاد والظهر[2]، وهي نوع من البقسماط أو الكعك ترسل إلى معان والعقبة للحجاج العائدين، بل وتصل إلى تبوك أو عيون القصب لملاقاة الحجاج، وكان هذا نوعاً من الاحتياط لقافلة الحج[3]. وقد ظهر ذلك واضحاً عندما أرسل أمير الحج في موسم عام 684هـ برداً إلى أطراف الشام لإدراكهم بالزاد والطعام والركاب، لأنه نفذ منهم الزاد وهلك منهم الظهر، حتى ألقى الحجاج أحمالهم ومشى كثير من المخدرات "النساء" والأطفال، فأدركتهم النجدة في عيون القصب بالركاب والدقيق والتين والخروب، ويبدو أنه في زمان موسم هذه الفواكه[4].

ومن ذلك ما ورد أنه في سنة 827هـ/1424م، وفي الرابع والعشرين من المحرم، خرج نائب الشام تنبك البجاسي ومعه الهجن والبغال لملاقاة الحج، ففعل معهم خيراً عظيماً بحيث أنه كان يعين العاجز بنفسه ويركب المنقطع، ويأمر بمواراة الميتة، ورجع في آخر الشهر، وقد بالغ بالإحسان إليهم وكان سبباً لنجاة بعضهم من الموت ودعا الناس له دعاءً كثيراً[5].

ومن العادات الاجتماعية أنه ترسخت في أذهان العديد من حجاج المحمل الشامي تصورات ومخاوف من وحشة ووعثاء الطريق أثناء السير، ومن ذلك ان أطلق على الطريق من

---

(1) – العمري؛ مسالك الأبصار، ج2، ص141، ص343. ابراهيم حلمي، الكعبة وفنون الحجاج، ص111.

(2) – الظهر: هو الإبل التي يحمل عليها ويركب يقال عند فلان ظَهْر أَي إبل ومنه الحديث أَتأْذن لنا في نَحْر ظَهْرنا. ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص2766. أي هو الدابة التي يركب على ظهرها؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، وقوله المنبتّ لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع. الباحث.

(3) – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص67. ابراهيم حلمي، الكعبة وفنون الحجاج، ص111.

(4) – ابن رشيد، الرحلة، ج5، ص280.

(5) – النعيمي، الدارس، ج2، ص196.

عقبة الصوان إلى ذات الحج، وهو طريق صحراوي قفر عبارة "داخلها مفقود وخارجها مولود"، وعقبة الصوّان هذه كانت تلى معان عند نهاية حدود الشام وبداية حدود أرض الحجاز، وليست هي عقبة أيلة[1].

وعلى الرغم من تداول هذه العبارة "داخلها مفقود وخارجها مولود" التي تلقي الرعب في القلوب، فقد كان الحج الشامي يعبر ذلك الطريق، إذ لم يكن هناك خيار غيره.

وفي تبوك أقام حجاج الشام لهم عادة وهي أنهم إذا وصلوا منزل تبوك، اخذوا أسلحتهم وجردوا سيوفهم، وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم، ويقولون: هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وفي إحدى الرحلات نقل الجزيري لنا وصفاً للمشاعر بعد ترك (عين تبوك) عن الصلاح الصفدي: ثم إنا فارقنا نخلها الطوال، وسرنا عن شماريخها العوال، بعدما استعددنا للمفازة العظمى التي ذكرها يهول، وخبرها يجوب الأفاق ويجول، فملأنا القرب والروايا، والخبايا التي في حنايا الزوايا، وسرنا على اسم الله والبركة، وقلنا: اللهم أنزل السكون على هذه الحركة، ونزلنا دون رأس الوادي، وحططنا بمنزلة لم يبدلنا مثلها في تلك البوادي، وقيل إنها تعرف بالمفازة، والمسافرين يخصونها بهذه الإشارة، ويزعمون انه دخلها سبعة من الدراويش وعجزوا عن اللحاق بالركب، فماتوا بها صبراً، فكانت لهم إلى يوم القيامة قبراً، لأنهم هلكوا من الظمأ، ووجدوا من عدم الماء ألما[3].

ولأن رفيق الإنسان في رحلة الحج إلى الأراضي الحجازية كان الجمل، فقد وجدت بعض المعتقدات الشعبية التي دارت حول الجمل، ففي طريق الحج الشامي، وعند منطقة تسمى "مضمن الغزالة" في الطريق من المدينة إلى مكة حكى عبد الغني بن اسماعيل النابلسي في رحلته عام 1105هـ، فقال عنها: في هذه الليلة تجفل الجمال، بحيث يضطرب الحاج، فيسقط

---

[1] – ابن بطوطة، الرحلة، ص84.

[2] – المصدر نفسه، ص84.

[3] – الجزيري، درر الفرائد،ج2، ص62.

بعض الأحمال، وتذهب أمتعة لهم في الأرض، وبعضهم يسقط فيصاب بالشج والرض، فيقال إن الإبل تترآى لها هناك الملائكة أو الشياطين أو أقوام من الجان فتفزعهم في ذلك الحين[1].

وعند منطقة الحجر أو ما يسمى باسم آبار ثمود أو مدائن صالح لم ينس حجاج الشام قصة ناقة النبي صالح عليه الصلاة والسلام التي وردت في القرآن الكريم، والتأسي بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في عدم الشرب من ماء ذلك المكان بحكم إنه كان مغضوباً على أهله وأنهم ظلموا أنفسهم[2]. وهو ما يعد عند حجاج الشام تمسكاً بالسنة وبنهي النبي صلى الله عليه وسلم.

وعند مكان يسمى شق العجوز زعمت العامة ان ناقة ثمود خرجت من إحدى قطعتي جبل هناك، ويقال إنها القطعة اليمنى للمار ذاهباً بذلك الطريق، وربما يرفع الناس أصواتهم إذا مروا في ذلك المكان ، فيزعمون أن ولد الناقة المعقورة باقي هناك، وله صوت، فإذا مس شيء من الجمال ربما سمع صوته فيهلك، فترفع الناس أصواتهم دفعا لسماع ذلك الصوت[3].

فكل هذه العادات اصطبغ بها الحجاج السائرون في درب الحج الشامي تأثراً بما يقع في الطريق من أهوال ومصاعب.

وكما أنه انتشرت عادات في طريق الحج الشامي، فهناك أيضاً عادات أهالي الشام في توديع واستقبال الحجاج إذا غادروا للحج أو عادوا منه إلى بلادهم، حيث يستقبلونهم بالطبول والزمور، فيقيمون لهم الأفراح والليالي الملاح بعد أن يعدوا لهم كل ما في وسعهم لاستقبالهم الاستقبال اللائق، ويحقق لهم راحتهم ورفههم، فيستعدون لهم بنقش الدور وتجديد ما قدم عهده فيها من فرش وغيره، ولا فرق بين ذلك بين أمير وفقير، وكانت الطبقة الصغرى وهم سواد الحجاج وأكثرهم مشقة تزوق لهم واجهات المنازل ويرسمون عليها صور المحمل وقافلته[4].

ويذكر لنا د. نسيم أبو شلوف أن من العادات التي اعتاد الناس عليها في العصر المملوكي عند سفر أحد أقاربهم للحج؛ خروج إحدى النساء القريبات للحاج ومعارفه للطواف

---

[1] – النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج3، ص438. ابراهيم حلمي، الكعبة وفنون الحجاج، ص112.

[2] – النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج3، 482.

[3] – المصدر نفسه، ج3، ص483.

[4] – البتتوني، الرحلة الحجازية، ص309– 310. مبارك الطراونة، الأحوال الاجتماعية، ص351.

بالطرق والأسواق على هيئة الموكب مع رفع الصوت بنوع من الأناشيد يسمى التحنين، لتشويق الناس للخروج إلى الحج، وفي اليوم المحدد لخروج الحاج يركب جملاً مزيناً بالحلي والقلائد، والكسوة الحريرية الفاخرة، وعند عودة الحاج يخرجون لاستقباله عند معان أو العقبة وبصحبتهم أنواع المأكولات والعلف على العادة، وإذا ما عاد الحاج إلى منزله أقيمت الأفراح والولائم وضرب بالطبل على أبوابه والأبواق والمزامير، ويسمون ذلك تهنئة الحاج[1].

وأشهر ما اشتهر عن الحج والمحمل الشامي مسألة التبرك بالمحمل والحاج، وهو أمر لا ينفرد به وحده، إذ أن محامل العرب كلها وكذلك محامل الدول الإسلامية لم تخلو من هذه الظاهرة[2]. ومن ذلك ما ذكره الرحالة ابن جبير الاندلسي أثناء حجه في عام 580هـ/1183م في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، حيث يقول متعجباً من المعتقدات الشعبية التي صاحبت المحمل الشامي وحجاجه ومستقبليه: "ومن عجيب أمرهم تعظيمهم للحاج على قرب مسافة الحج منهم، وتيسير ذلك لهم واستطاعتهم لسبيله، فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ويتهافتون عليهم تبركاً بهم ومن أغرب ما حدثناه من ذلك: أن الحاج الدمشقي مع من أنضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام الذي هو عام 580هـ/1183م، خرج الناس لتلقيهم، الجم الغفير نساء ورجالاً يصافحونهم ويتمسحون بهم وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها وأخرجوا إليهم الأطعمة، فأخبرني من أبصر كثيراً من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز، فإذا عض الحاج فيه اختطفته من أيديهم وتبادرن لأكله تبركاً بأكل الحاج له ودفعن له عوضا منه دراهم إلى غير ذلك من الأمور العجيبة ضد ما اعتدنا في المغرب"[3].

وكان لقافلة الحج الشامي أيضاً تأثيرها الاجتماعي الواضح في مكة والمدينة حيث يقصد الحجاج مكة في وقت الحج بأجناس مختلفة من العالم الإسلامي، فترى مختلف الألوان والأشكال وكل جماعة من الحجاج تأخذ لها مكان إقامة معين، وهناك من الحجاج أو التجار المرافقين

---

[1] – الأوضاع الاجتماعية في فلسطين في العهد المملوكي، ص202.

[2] – ابراهيم حلمي، الكعبة وفنون الحجاج، ص113.

[3] – ابن جبير، الرحلة، ص259.

لقافلة الحج الشامي من لازم الحج سنوات طويلة ومنهم من جاور مرات[1]، ومنهم من طاب له المقام، فأقام في مكة أو المدينة وكوّن أسرة فيها[2].

ومن آثار الحج الشامي أن هناك نوعاً من الحلوى منتشر في بلاد الشام وفي فلسطين في هذا الزمان؛ اسمه "كل واشكر"، وأصل هذه التسمية أنها جاءت من الحجاز من موسم حج السلطان قايتباي؛ والذيَ لم يحجّ من مُلُوك الشراكسة غيره، وَذَلِكَ لتمكنه فِي الْملك وَحسن تَدْبيره وَضَبطه للممالك، فحج سنة884هـ/1479م، فَأَقَامَ الْأَمِير يشبك الدوادار الْكَبِير نَائِباً عَنهُ بِمصْر وَخرج بعد الْحَاج بِثَلَاثَة أَيَّام، وَكَانَ أَمِير الْحَاج الْخَارِج بالمحمل الشريف هو الأمير خشقدم، فَخرج السُّلْطَان قَاصِداً لِلْحَجِّ والزيارة، ووصلت القصاد إِلَى شرِيف مَكَّة مُحَمَّد بن بَرَكَات فتهيأ هُوَ وَالْقَاضِي إِبْرَاهِيم بن ظهيرة الشَّافِعِي المذهب، وخرجا لملاقاة السُّلْطَان، وكان القصّاد أخبروهما أَنهم فارقوه من عقبَة أَيْلَة، فَأرْسل الشريف أحد قواده ليسْبقهُ إِلَى ملاقاة السُّلْطَان بسماط حلوى فوصل إِلَى منزلة الْحَوْرَاء والتقى السُّلْطَان فيها، فمد لَهُ سماط الْحَلْوَى هُنَالك، فجلس عليه السلطان وَأظْهر غَايَة اللطف والمجابرة وَأكل وَقسّم على أمرائه وَعَسْكَره وَكَانَ سماطاً كَبِيرا جميلاً، ويحكى من لطافة السُّلْطَان قايتباي أَنه لما جلس على السماط تنَاول شَيْئا من الْحَلْوَى يقال له "كل واشكر" فأكل منه وَسَأَلَ من الَّذِي جَاءَه بِهِ، ومَا اسْم هَذَا عنْدكُمْ، فَقَالَ لَهُ الْقَائِد: اسمه "كل واشكر" فَقَالَ لَهُ سلم على سيدك وقل له أكلنَا وشكرنا[3]. وفي هذا الاسم تتجلى العاطفة الدينية الجياشة التي من خلال اسم الطعام يتذكر الانسان شكر الله وحمده.

فانظر أخي القارئ كيف أن أهل الشام لم ينسوا اسم هذه الحلوى التي مازالت تعمل وتباع في الأسواق إلى اليوم.

واستمرت آثار الحج الشامي الاجتماعية، يتوارثها حجاج الشام، من جيل إلى جيل، في سائر العهود الاسلامية حتى أواخر العهد العثماني بل إلى يومنا هذا.

---

[1] – أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص110.

[2] – ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص318.

[3] – النهروالي، الاعلام، ص230. العصامي، سمط النجوم العوالي، ج4، ص57.

الأثر السياسي:

الحج هو ملتقى سياسي هام وإذا استغله المسلمون استغلالاً جيداً في التعاون والتشاور؛ فإنه يحقق ثمرات عظيمة؛ وهذا التجمع من الحجيج الوافد إلى مكة المكرمة من جميع أطراف الدنيا، إنما يأتي لرفع راية توحيد الله وإظهار شعائره، وهو على استعداد للعمل في سبيل الله إذا وجد الحاكم المسلم الصادق.

وتمثل الأثر السياسي للحج الشامي في حرص سلاطين المماليك على تولية أمير للحج الشامي، فقد كان يتم تعيين قائد عام للقافلة يعينه السلطان ويطلق عليه أمير الحاج، وكانت مهمته اختيار زمن التحرك وسلوك أوضح الطرق وترتيب الركب في المسير والنزول والحراسة وقتال من يتعرض للقافلة، ومن أشهر هؤلاء الأمراء كان أمير الحاج الشامي بدر الدين عبد الله الصوابي، والذي حمدت سيرته، وهو أوّل أمير تكفل بدفع ما كان يؤخذ من الحجاج على طريق الشام، من ماله الخاص لمداراة العربان وأهل الحجاز، بمقدار عشرة آلاف درهم سنوياً[1].

وكذلك الأمير علاء الدين بن غرلو الذي حج سنة 742هـ/1341م[2]، وقد وصل مكة هو ومن معه من الصفديين والحلبيين وغيرهم، وأحضر معه كسوة فاخرة للكعبة وكساها[3]، وأنّ حج الركب الشامي معه كان حجاً هنيئاً[4]. وكذلك الأمير بردبك الأشرفي، الذي حج في سنة895هـ/1490م، وكان معه حجاج كثيرون، وحمدت سيرته[5].

وتمثل الأثر السياسي أيضاً في حرص نائب دمشق المملوكي على تأمين الطرق للحجاج وتولية الأكفأ وعزل المقصّر، وعندما يتولى أمير إمرة الحج فإنه يحرص على تقديم أفضل ما يمكن تقديمه للحجاج[6].

---

(1)– اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج5، ص220؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، ج1، ص447؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص381.

(2)– ابن شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج1، ص236.

(3)– ابن فهد، إتحاف الورى، ج3، ص221.

(4)– الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص403.

(5)– البصروي، تاريخه، ص142، ص143، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص120.

(6)– ابن حجر، إنباء الغمر، ج1، ص14؛ الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص417.

وأيضاً تمثل الأثر السياسي للحج الشامي في تجسد الوحدة السياسية بين مصر والشام والحجاز، ففي الاعوام التي لا يخرج فيها ركب للحجاج من الشام لسبب من الأسباب نجد أن مجموعة من الحجاج والتجار المرافقين لهم يخرجون إلى غزة ويسيرون في الدرب الغزاوي للحج ويرافقون الركب المصري، مع تميزهم ليسهل الاتصال بينهم[1].

وتمثل كذلك في منافسة محمل الحج الشامي لمحمل الحج المصري، والذي حصل في بعض السنين مما نشأ عنه فتن أثرت على الحجاج[2].

وفي الحرص على نجدة الحجاج وإغاثتهم عسكرياً وغذائياً من خلال قافلة الملاقاة، وتجريد الحملات على العربان المفسدين ومعاقبتهم.

وتجسدت آثار الحج الشامي في العصر المملوكي سياسياً في حرص سلاطين المماليك على تيسير كل السبل لتأدية هذه الفريضة وإظهار هيبة دولتهم؛ بإعمار الطرق الخاصة بدروب الحجيج وتأمينها؛ لتخدم الحجاج ويسهل عبورهم، حيث مهدوا محطات الطرق، وأمدوها بكل الوسائل لراحة الحجاج وأنشأوا القلاع لحماية الطرق وتأمينها[3].

الأثر العمراني:

ترك الحج الشامي آثاراً عمرانية واضحة, على مر العصور عامة وفي العصر المملوكي خاصة. ويتجلى الأثر العمراني للحج الشامي في مساهمة أهل الشام من سنة 804-807هـ/1401-1404م، في تعمير المسجد الحرام، حيث جلبت له الأخشاب من الشام على يد بيسق[4] بعد شبوب الحريق فيه، وفي تعمير المسجد النبوي[5]، وفي تشييد المساجد على طول الطريق، وإجراء العيون وإنشاء البرك وتعميرها بإقامة الموكلين بها والخدم لجلب الماء وفي تمهيد

---

[1]- انظر الفصل الثالث مبحث طريق الحاج الغزاوي.

[2]- الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص491.

[3] - المصدر نفسه، ج2، ص123، ص140.

[4] - سبقت ترجمته صفحة 85. الفصل الثاني.

[5] - النهروالي، الاعلام ، ص193-ص196.

الطرق والعقبات وتذليلها للحجاج للسير فيها، وفي إقامة المنازل والأسواق في أماكن استراحة الحجاج لتوفير ما يلزم[1].

ويتجلى ذلك في عمليات اصلاح العيون والبرك وتجهيزها سنوياً للحجاج، ففي سنة 731هـ/1331م، أصلحت عين تبوك الواقعة في طريق الحج الشامي، وصينت من دوس الجمال والجمالين، وصار ماؤها في غاية الحسن والصفاء والطيب[2].

وفي سنة 835هـ/1432م، عمرت عين حنين المعروفة بعين بازان على يد أحد التجار الدمشقيين وهو سراج الدين بن المزلق الدمشقي والذي قدم مع الحاج الشامي، فأجراها في شهر رمضان ودخلت مكة ووصلت لبركة الماجن بأسفلها، فعم بها النفع لشدة احتياج الناس إليها لقلة الماء بمكة، وكان مصروفه عليها خمس مئة دينار فقط وذلك لحسن وعظم نيته، فإن بعض الناس قالوا له لا تعمرها فإنها تستهلك منك أموالاً كثيرة ولا ينتفع بها، فلم يلتفت إليهم وقال أصرف عليها جميع ما معي من المال، فأعانه الله عليها وأجراها ولله الحمد[3].

والأثر العمراني أيضاً في العصر المملوكي للحج الشامي يظهر في تحول طرق الحج يسيراً بحثاً عن الماء والكلأ، ويتجلى ذلك في إقامة القلاع والتي ظهرت في أواخر العصر المملوكي لحماية الحجاج، وكثر ظهورها وتطورت في العصر العثماني[4]. وكذلك يتمثل في أثار الطريق التي ما زالت ماثلة للعيان، والتي مهدت بشكل بديع ليسهل السير عليها، والتي تحكي لنا ما حدث على ظهرانيها في العصور المختلفة[5].

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص341.

[2] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص177. الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص419، 450.

[3] – الجزيري، درر الفرائد، ج1، ص450.

[4] – المصدر نفسه، ج2، ص66.

[5] – انظر الملحق رقم 4، 326.

وظل الحكام طيلة العصور الإسلامية وحتى العهد العثماني يعنون بهذه الطريق وأمنها وتعميرها حيث أقاموا فيه الحصون والقلاع بدءاً من المزيريب، وبصرى إلى معان وذات الحج وتبوك والعلا وقلعة الأزلم وعقبة أيلة[1].

مما تقدم يتضح أن الحج الشامي كان له دورٌ مهمٌ في التواصل الحضاري الإنساني، وأنه ترك آثاراً حضاريةً واضحةً في جوانب متعددة، فقد كان له مردود اقتصادي كبير على مدن الشام والحجاز وعلى قبائل العرب القاطنين في طرق الحج، وفي منازل الطريق.

وله أثر علمي وثقافي، حيث رافق العلماء والوعاظ قوافل الحج، وجرت المناظرات العلمية والمواعظ في منازل طريق الحج الشامي، فكانوا يعظون الحجاج ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وانتشرت العلوم والمعارف من خلال موسم الحج.

وله أثر اجتماعي تمثل في تجسيد روابط الأخوة والتعاون ونشوء العادات المختلفة في طرقه ومنازله.

وله أثر سياسي تمثل في اهتمام المماليك بأمير الحج السنوي، وحفظ الأمن في طرق الحجاج ونجدتهم من أي مكروه، وتذليل العقبات التي تواجههم.

وله أثر عمراني واضح تمثل في اصلاح العيون واجراءها وبناء البرك، وتسهيل الطرق والعقبات، وترتيب الحاميات، وتعمير المناهل في درب الحجاز.

---

[1] – الجزيري، درر الفرائد، ج2، ص123، ص140.عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، ص110.

الخاتمة والنتائج

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد

في ختام هذه الرحلة البحثية المضنية مع هذه الرسالة "الحج الشامي في العصر المملوكي"، والتي استمرت قرابة العام، حيث واصلت من خلال تلك الفترة العمل والبحث وجمع المعلومات ليلاً ونهاراً لإنجاز هذه الرسالة، وقد تمكنت خلالها من الاطلاع على مصادر كثيرة كان لها الأثر في توسيع مداركي وإرشادي إلى معرفة ما كانت عليه الأمة الاسلامية خلال فترة ليست بالقليلة، حيث تمتد قرابة ثلاثة قرون إلا ربعاً 648هـ-923هـ/1250م-1517م، تتصل بأحداث ما قبل هذه الرسالة وما بعدها، وبعد أن سلطنا الضوء على الحج الشامي في العصر المملوكي خرجنا بنتائج ظهرت خلال سطور هذه الرسالة، وهي كالآتي:

أولاً: بينت الدراسة فضائل الحج ومهام أمير الحاج، وصفاته ودوره في انجاح موسم الحج، وحماية الحجاج.

ثانياً: الخلفاء والسلاطين ومن ضمنهم سلاطين المماليك، اهتموا بالحج وشئونه، وسهلوا للحجاج كل ما من شأنه أن يضمن لهم أداء الفريضة؛ فأقاموا البرك والمصانع، وحموا الطرق، وقاموا بالإصلاحات اللازمة في الحرمين والمشاعر، وقاموا بإرسال المحمل وكسوة الكعبة سنوياً، وتنظيم ركب الحج وتأمينه، وإزالة عقباته ومخاطره بشتى الوسائل، وتوفير وسائل المعيشة لركب الحاج وتزويده بما يلزم من خدمات وأقوات، وشمل اهتمام المماليك بالحج؛ السبيل السنوي المرسل مع قافلة الحج الشامي، للفقراء والمحتاجين من الحجاج وأهل الحرمين مكة والمدينة- والمجاورين بهما.

ثالثاً: نشأت مهنة الطوافة في حجة السلطان قايتباي حيث طوفه القاضي بن ظهيرة، ثم تطورت إلى تطويف الأمراء، ثم بعد ذلك تطورت بشكل تدريجي، حتى اتخذ الحجاج لهم مطوفين يلقنونهم الأدعية، وبعد ذلك العهد أخذت مهنة الطوافة في التطور فلم تقتصر على أداء المناسك فقط، بل شملت الإقامة والسكن في مكة والمشاعر، وأصبح لها قوانين تنظمها إلى يومنا هذا.

رابعاً: سلك الحجاج الشاميون طريقين في ذهابهم إلى الحج؛ الطريق الشامي التبوكي من دمشق إلى تبوك ثم إلى العلا ثم إلى المدينة فمكة، والطريق الشامي الغزاوي من مدن جنوب الشام وساحله إلى غزة ثم إلى العقبة فساحل البحر الأحمر ثم إلى رابغ فمكة.

خامساً: كانت قافلة الحج في العصر المملوكي الخارجة من الشام أو مصر في غاية التجهيز والنظام والدقة، وخضعت لتقاليد شبه ثابتة في إعدادها وتسييرها واستقبالها، وزودت القافلة بكل ما يلزم من وسائل المعيشة والحماية، وانتظم الحجاج بنظام دقيق؛ فلا ينزلون ولا يرحلون إلا بإذن أمير الركب عندما تدق الطبول لإنباء الحجاج بالنزول للراحة أو التحرك واستكمال المسير، ورافق قافلة الحج مجموعة ضخمة من الموظفين لخدمة القافلة وأميرها، كالقاضي والداودار والميقاتي والمؤذن، ومشرف التموين وشاد المطبخ وغيرهم. ويقوم أمير الحج بواجباته في حماية الحجاج، وترتيبهم والاشراف عليهم، وإيصالهم إلى البيت العتيق.

سادساً: كانت وسائل المواصلات في قوافل الحج البرية تتكون من الجمال والخيل والبغال والحمير، وتنوعت مركوبات الحجاج على ظهور الدواب حسب امكاناتهم بين الشقادف والمحفات والمحاير والمركوبات العادية مثل الغبيط.

سابعاً: واجهت قافلة الحج الشامي وهي في طريقها إلى الحج مخاطر وعقبات عدة، تتمثل في الفتن الحاصلة في مكة، واعتداءات العربان عليها والكوارث والأمراض التي أصابت الحجاج في بعض السنين.

ثامناً: كان لقافلة الحج الشامي آثارٌ حضاريةٌ عديدة، فقد كان لها آثارٌ اقتصادية عادت بالنفع على أهل الشام وأهل الحجاز وأهل منازل الحج في الطرق، كما كان لها آثارٌ علمية وثقافية واضحة، وكان لها أيضاً آثارٌ اجتماعية وسياسية وعمرانية.

تاسعاً: الحج ليس هو مجرد تأدية للشعائر ثم ينتهي الأمر، إنما هو حضارة بكل معنى الكلمة.

عاشراً: رحلة الحج من مختلف بلدان الاسلام إلى مكة أسهمت في توحيد الأمة الاسلامية وأوجدت الترابط والتماسك بين الحجاز والشام ومصر، ونمّت المصالح المشتركة بين كافة بلدان العالم الاسلامي، وكذلك أوجدت الشعور بالوحدة الاسلامية والشعور بوحدة الهدف والمصير.

التوصيات:

نوصي أمتنا بالآتي:

أولاً: المحافظة على أثار طرق الحج البرية لأنها تحكي تاريخاً عريقاً، وحضارة عظيمة.

ثانياً: أن يحاول كل من ينوي الحج أو العمرة قدر الإمكان أن يسافر عبر الطرق البرية، وإحياء السفر من خلالها، والنزول في منازلها، وإحياء الأسواق فيها؛ للإبقاء والحفاظ على التواصل الحضاري بين الأمة، والاستمرار سنوياً على الحج من خلالها.

ثالثاً: على حكام المسلمين وأولياء الأمور في كل بلد إسلامي أن يسهّلوا السفر البري بين الأمم الاسلامية، وأن ينشؤوا المرافق والأسواق فيه؛ لتقوية اقتصاد الأمة.

رابعاً: نقترح انشاء مراكز أبحاث علمية تعني بتاريخ طرق الحج وحضارتها في كل جامعة ووزارة أوقاف.

خامساً: نوصي بتشجيع الدراسات والأطروحات المتخصصة في تاريخ حضارة الحج وطرقه.

والحمد لله رب العالمين

الملاحق

ملحق رقم (1)

بيان بأسماء سلاطين الدولة المملوكية (648 –784هـ/1250. 1383م[1]

اسم السلطان	فترة الحكم
شجرة الدر	10 صفر 648 هـ / 1250م
المعز أبيك التركماني	30 ربيع الأول 648 هـ / 1250 . 1257 م
المصور علي بن أيبك	26 ربيع الأول 655 – 28 ذي القعدة 658 هـ/ 1257 – 1258 م
المظفر سيف الدين قطز	14 ذي القعدة 657 – 15 ذي القعدة 658 هـ / 1258 – 1260م
الظاهر ركن الدين بيبرس	15 ذي القعدة 658 – 72 محرم 676هـ/ 1260–1277م
السعيد بركة خان ابن بيبرس	26 صفر 676 .10ربيع الآخر 678 هـ / 1277–1279م
العادل سلامش بن بيبرس	7 ربيع الآخر 678 –20 رجب 678 هـ / 1279 م
المنصور سيف الدين قلاوون	20 رجب 678 – 6ذي القعدة 689 هـ/ 1279 –1290م
الأشرف خليل بن قلاوون	7 ذي القعدة 689 –12 محرم 693 هـ/ 1290 –1293م
الناصر محمد بن قلاوون	16 محرم 693–11 محرم 694 هـ/1293 –1294م
العادل زين الدين كتبغا	11محرم 694 – 18 محرم 696 هـ/ 1294– 1296م
المنصور حسام الدين لاجين	27 محرم 696 – 21 ربيع الآخر 698 هـ/1296 –1829م
سلطنة الناصر محمد ابن قلاوون الثانية	6جمادي الأولى 698 –رمضان 708هـ/ 1298 – 1308م
المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكبر	13 شوال 708 – 16 رمضان 709هـ/ 1308 – 1309م

[1] – مصدر معلومات هذا الملحق كتاب سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، لعبد الملك العصامي المكي المتوفي سنة 1111هـ، الجزء الرابع، ص20 –ص61. عبد المحسن رمضان، تاريخ مصر الإسلامية، ص146– ص148.

سلطنة الناصر محمد الثالثة 2شوال709 – 21 ذي الحجة 741 هـ/ 1309 –1341م

المنصور أبو بكر بن محمد قلاوون 21 ذي الحجة 741 –20صفر 742هـ/ 1341م.

الأشرف كجك بن محمد ابن قلاوون . 21 صفر 742– 1شعبان 742هـ/ 1341م.

الناصر أحمد بن محمد ابن قلاوون 10 شوال 742 –21 محرم 734هـ/1342م.

الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون 77محرم 743– 4ربيع الآخر 746هـ/1342–1345م.

الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون 4ربيع الآخر 746–1جمادي الأخرة 747هـ/1345–1346م.

المظفر حاجي بن محمد ابن قلاوون 1جمادي الآخرة 747هـ– 12رمضان/1346–1347م.

الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون 14 رمضان 748–24 جمادي الأخرة 752هـ/1347–1351م.
28 جمادي الآخرة572–2شوال 755هـ/1351–1354م.

سلطنة الناصر حسن الثانية 2شوال 755– 9جمادي الأولى 762هـ/ 1354– 1361م.

المنصور محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون 9جمادي الأولى 762– 15 شعبان 674هـ/ 1361–1363م.

الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون15 شعبان 764–5ذي القعدة 778هـ/ 1363–1376م.

المنصور علي بن شعبان بن حسين 3ذي القعدة 778– 23 صفر783 هـ/1376–1381م.

الصالح حاجي بن شعبان بن حسين 24 صفر 783–19 رمضان 784هـ/ 1381– 1382م.

الظاهر برقوق ين أنص العثماني 19 رمضان 784–5جمادي الآخرة791هـ/1382–1388م.

سلطنة الصالح حاجي الثانية. 791–792هـ/ 1388– 1389م.

سلطنة الظاهر برقوق الثانية 14 صفر 792–15 شوال 801هـ/ 1389– 1398م.

الناصر فرج بن برقوق 15 شوال 801 –25 ربيع الأول 808هـ/1398–1405م.

المنصور عبد العزيز بن برقوق الاثنين 26 ربيع الأول 808هـ/1405م.

سلطنة الناصر فرج الثانية	5جمادي الآخرة 808–16 صفر 815هـ/ 1405–1412م.
الخليفة المستعين بالله العباسي	السبت 5محرم 815– الاثنين 1شعبان 815هـ/ 1412م.
المؤيد شيخ المحمودي	الاثنين 1 شعبان 815–الاثنين 1محرم824هـ/ 1412–1421م.
المظفر أحمد بن شيخ	الاثنين 8 محرم 824 –9 شعبان 824 هـ/1421م
الظاهر ططر الظاهري	29 شعبان824– 24 ذي الحجة 824هـ/1421م
الصالح محمد بن ططر	24 ذي الحجة 824– 8 ربيع الآخر 825هـ/1421–1422م.
الأشرف برسباي الدقماقي	8ربيع الآخر 825–13 ذي الحجة 841هـ/1422–1437م
العزيز يوسف بن برسباي	13 ذي الحجة 841– 19 ربيع الأول 842هـ/1437–1438م
الظاهر جقمق الظاهري	الأربعاء 19 ربيع الأول842–3صفر857هـ/ 1438–1453م
المنصور عثمان بن جقمق	الخميس 11 محرم 857–الجمعة 5ربيع الأول 857هـ/ 1453م
الأشرف أينال العلائي	8ربيع الأول 857– 15 جمادي الاولى 865هـ/ 1453– 1460م
المؤيد أحمد بن أينال	14 جمادي الأولى 865 – السبت 18 رمضان 865هـ 1460م
الظاهر خشقدم الناصري	19رمضان 865– السبت 10 ربيع الأول 872هـ 1490–1467م
الظاهر يلباي الاينالي	10 ربيع الأول 872–7جمادي الأولى 872هـ/1467م
الظاهر تمربغا الظاهري	السبت 7جمادي 872– الاثنين 6رجب 872هـ/ 1467م
الأشرف قايتباي المحمودي	6 رجب 872– السبت 21ذي القعدة 901هـ/ 1467– 1496م
الناصر محمد بن قايتباي	26 ذي القعدة 901– 15 ربيع الأول 902 هـ/ 1496– 1497م
قانصوه خمسمائة	28 جمادي الأولى –1 جمادي الآخرة 902هـ/1498م
سلطنة الناصر محمد بن قايتباي الثانية	902هـ/ 1497–1498م
الظاهر قانصوه الأشرفي	17 ربيع أول904– 29 ذي القعدة 905هـ–1499م

الأشرف جانبلاط 2ذي الحجة 905– 18 جمادي الآخرة 906هـ/ 1499–1500م

العادل طومان باي 1 18 جمادي الأخرة 906 – 1شوال 906 /1516م

الأشرف قانصوه الغورى 1شوال 906–922هـ/1501–1516م

الأشرف طومان باي 922–923هـ/1516–1517م[1]

[1] – مصدر معلومات هذا الملحق كتاب: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، لعبد الملك العصامي المكي المتوفي سنة 1111هـ، الجزء الرابع، ص20 –ص61. عبد المحسن رمضان، تاريخ مصر الإسلامية، ص146– ص148.

الملحق رقم 2

أمراء مكة وولاتها في العصر المملوكي[1]

نظراً لأهمية ولاة مكة ودورهم في تاريخ مواسم الحج فإننا في هذا الملحق نوضح بشيء من الايجاز الولاة والامراء الذين تولوا إمارة مكة في العصر المملوكي.

قبل عام 647هـ تنافس الحكم في مكة الأيوبيين في مصر وأيوبيي اليمن نحو 28 سنة وانتهت بهجوم أحد أولاد قتادة بن ادريس من أشراف مكة وهو الحسن بن علي بن قتادة الذي استولى على مكة سنة 647هـ، وهزم أميرها المعين من قبل أيوبيي اليمن.

انطلق عم الحسن بن علي؛ راجح بن قتادة، والذي كان أميراً على مكة سابقاً الى المدينة ليستنجد بأميرها على الحسن، وهم أخواله فأنجدوه بنحو 700 فارس ليجلي بها الحسن بن علي بن قتادة، ولكن عندما شعر الحسن بن علي بن قتادة بحركة راجح كتب الى ابنه أبي نمي ليقطع الطريق على المهاجمين فنجح في ذلك وهزمهم.

بعد هزيمة راجح دخل أبو نمي مكة، فأكرمه أبوه وأشركه معه في حكم إمارة مكة.

وفي عهد الحسن حج الملك المظفر بن المنصور صاحب اليمن سنة649، ولم يحتك بالحسن ووزّع في مكة صدقات وعطايا كثيرة، وكسا رؤساء الحرم ووصلت أعطياته إلى كل بيت في مكة وشملت أعطياته كثيراً من الحجاج.

وفي سنة 651 هاجم مكة ابن عم الحسن؛ جماز بن الحسن بن قتادة، في عسكر كثير صحبة ركب الحاج الشامي، فتغلب عليه وقتله واستولى على مكة، حيث ساعده أمير الحج الشامي الذي وعده بأن يخطب للملك الايوبي صاحب الشام. وفي نفس السنة 651هـ هاجم راجح بن قتاده السابق ذكره مكة بجيش قوي، واستطاع أن يستولي عليها، وكانت هذه هي المرة الثامنة التي يتولى فيها حكم مكة بعد أن

---

[1] – أخذت معلومات هذا الملحق من الكتب الآتية:

تقي الدين الفاسي، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام.

محمد بن أبي بكر بن ظهيرة، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف.

عبد الحفيظ السالمي، الحياة الدينية في الحجاز، ص10 –ص24. رسالة ماجستير.

تولاها عدة مرات في أيوبيي اليمن. وفي عام 652 انتزع غانم بن راجح الحكم من أبيه بدون قتال حيث تقدمت به السن ووافته المنية بعد سنتين.

وعندما قامت دولة المماليك عام 648هـ كان يحكم مكة المكرمة الشريف حسن بن علي بن قتادة

وقد وصل إلى حكم مكة بعد ان انتزع حكمها من الملك المنصور ملك اليمن عام 647هـ :وقد استمرت الشريف حسن بن علي يحكم مكة حتى قتل سنة 651هـ، وكان قتله على يد أحد أبناء عمومته الطامعين في العرش وهو الشريف جماز بن حسن بن قتادة، الذي استغل قدوم حملة من بلاد الشام تحمي الحجاج فأغرى قائد الحملة بمساعدته على انتزاع حكم مكة من الشريف حسن بن علي مقابل الدعاء لحاكم دمشق الامير الأيوبي فتم له النصر وذلك في رمضان عام 651هـ.

ولكن الشريف جماز لم يستمر في حكم مكة، حيث أجبر على تركها في نفس العام في آخر شهر ذي الحجة، عندما زحف الشريف راجح بن قتادة على مكة وربما كان السبب لعدم وجود مناصرين للشريف جماز بعد خروج حملة الحجاج التي ناصرته إلى ديارها.

ثم نازع الشريف راجح ابنه غانم في حكم مكة فلم يقف الشريف راجح في وجه ابنه بل ترك له حكم مكة وذلك في شهر الأول عام 652هـ.

ولم تصف الأمور لغانم بمكة وذلك لظهور الشريفين أبي نمي، محمد بن حسن بن علي والشريف إدريس بن قتادة وانتزعا حكم مكة منه في شوال عام 653هـ. وفي نفس العام هاجم مكة جيش من اليمن، مما يدل على أن راجحاً وابنه غانماً كانا على علاقة قوية بحكام اليمن، ولم يستسلم الأشراف لتدخل اليمن بل جمع الشريفان أبو نمي وإدريس الجيوش، وانتزعا حكم مكة بعد قتال عنيف قتل فيه العديد من الرجال وذلك في عام 653هـ.

ومع أن الشريف أبا نمي، وإدريس بن قتادة تعاونا في انتزاع حكم مكة وفرضا سيطرتهما عليها إلا أنهما كانا يضمران لبعضهما الغدر، حيث يطمع كل منهما في الانفراد بالسلطة وإقصاء الآخر، وقد حدث بينهما العديد من الحروب والمكايد انتهت بانتصار أبي نمي، وانفراده بالسلطة بعد قتله للشريف إدريس في مواجهة بينهما سنة 669هـ.

وشهد حكم أبي نمي استقرار مكة السياسي، والذي استمر في حكم مكة حتى وفاته عام 701هـ، وبموته بدأت الصراعات بين أبنائه مما أرهق الناس بمكة وضايق الحجاج، وذلك انه بوفاة أبي نمي تولى حكم مكة اثنان من أبنائه وهما حميضة ورميثه ولم يلبثا أن عارضهما اثنان من إخوانهما هما عطيفة وأبو الغيث.

وكان لهذا الخلاف آثاراً كثيرةً على الوضع الأمني بمكة المكرمة حيث انقسم الناس في تأييد الأخوة، وكان بعض قادة الحملات التي تحمي الحجاج يميلون إلى تأييد بعض الأخوة ضد البعض الآخر مما أدى إلى تطور النزاع واستمراره فترةً طويلةً، ومن ذلك تأييد قائد الحملة المصرية عام 701هالأمير بيبرس الجاشنكير للأخوين المعارضين فاستطاعا بمساعدته حكم مكة، والقبض على أخويهما حميضة ورميثة وسجنهما في مصر، واستمرا في حكم مكة عام 704هـ، حيث أطلق أخواهما من سجنهما في مصر وقدما بمرسوم تولية من السلطة لمكة المكرمة وعزل أخويهما عطيفة وأبي الغيث وكانا بصحبة حملة عسكرية تحمي الحجاج وتنفذ أوامر الدولة.

ولم يلبث أن تغير حكام مصر على نائبيهما على مكة الشريف حميضة ورميثة وذلك لما ورد إلى مصر عن فرض حكام الضرائب على الحجاج وما يتعرض له الحجاج من حوادث في طريق الحج والطرق المؤدية إلى المشاعر المقدسة مما يدل على عدم مقدرتهما على حفظ الأمن ، فقررت الدولة عزلهما وتعيين أخيهما أبي الغيث وذلك عام713هـ، حيث قدم بحملة مصرية أجلت الشريفين رميثة وحميضة، وحكم مكة ولكن لم يهدأ له بال حيث أخذ أخواه يثيران ضده الناس ويهاجمانه باستمرار.

وفي عام 714هـ استطاع حميضة انتزاع حكم مكة من أبي الغيث وقتله وذلك بعد خروج القوات المصرية التي كان يعتمد عليها أبو الغيث

وفي هذه الأثناء توجه الشريف رميثة إلى مصر وأعلن الولاء والطاعة والخطبة للسلطان مما جعل السلطة في مصر تؤيده وتمده بقوة استطاع انتزاع حكم مكة من أخيه وذلك عام 715هـ، وقد دفعت مناصرة المماليك للشريف رميثة أن توجه الشريف حميضة إلى حكومة العراق الدولة الإليخانية، حيث أمدته بقوة مقابل الدعاء لحكومة العراق على منابر مكة مما يؤيد تنافس حكام العالم الإسلامي على منبر مكة المكرمة لما له من دور روحي لدى عامة المسلمين.

وقد استطاع حميضة دخول مكة عام 718هـ والدعاء لحكام العراق مما أثار حفيظة المماليك في مصر وعجل بنهاية حكمه لمكة المكرمة حيث جهزت الدولة في مصر الشريف عطيفة على رأس قوة واستطاع دخول مكة وقتل أخاه الشريف حميضة في عام 719هـ.

واستمر الشريف عطيفة يحكم مكة حتى ثار عليه أخوه رميثة وانتزع منه مكة حوالي عام 730هـ واستمر الصراع بين الأخوين مما أثر على الحجاج وسكان مكة تأثيراً كبيراً بانعدام الأمن وقلة المؤن وعندما رأت الدولة أن الشريف رميثة أقدر على استتباب الأمن من أخيه عطيفة أرسلت له تأييداً بتعيينه حاكماً وأمدته بقوة وذلك عام 731هـ.

وكان هذا الإجراء لم يرض الشريف عطيفة الذي استمر على مناوأته لأخيه مما جعل السلطة تشركه مع أخيه في حكم مكة عام 734هـ، ولكن هذا الامر لم يكن بالحل النهائي لطموح كل من الأخوين في الانفراد بالسلطة ولم تستقر الأمور إلا بوفاة الشريف عطيفة في مصر عام 743هـ وبوفاته استقر الامر لرميثة.

واستمر الشريف رميثة يحكم مكة حتى عام 746هـ حيث تنازل لابنه عجلان عن الحكم وأيدته السلطة في مصر وذلك لكبر الشريف رميثة وعجزه ولتجنب إثارة ابنه عجلان الذي ظهر طموحه وتطلعه للحكم منذ عام 744هـ، وما أن تولى الشريف عجلان الحكم حتى نافسه إخوته الثلاثة سند، ومغامس وثقبة، مما حدا بالسلطة في مصر إلى تعيين أخوة عجلان معه في الحكم وإعطائهم نصف الدخل مقابل النصف الآخر للشريف عجلان ، وهذا يدل على أن السلطة في مصر كانت تفضل إضعاف السلطة في مكة حتى لا تستقل عنها وتفقد الدعاء على منابر مكة وذلك إذا التجأ أحد الأخوة إلى سلطة أخرى وطلب مساعدتها ، ولكن هذا الإجراء لم يكتب له النجاح حيث لم يلبث أن دار الصراع بين الأخوة في مكة ولم يصف لعجلان الحكم حتى توفي أخوه ثقبة الذي كان أشد المعارضين له وشاركه في حكم مكة وذلك سنة 762هـ، واستمر عجلان يحكم مكة بعد هذا التاريخ حتى عام 774هـ، أشرك معه ولده أحمد.

وفي عام 777هـ توفي الشريف عجلان وتولى ابنه الشريف أحمد حكم مكة وقد أيدته السلطة في مصر واستمر في الحكم حتى عام 788هـ حيث توفي فتولى ابنه الشريف محمد.

وبعد مقتل الشريف محمد بن أحمد بن عجلان عينت الدولة الشريف عنان بن مغامس حاكماً لمكة في موسم حج سنة 788هـ، ولم يستمر عنان في حكم مكة وذلك لثورة الأشراف غضباً لمقتل الشريف محمد مما حدا بالسلطة في مصر إلى تغيير ولائها وتعيين علي بن عجلان فثارت الحرب بين الأشراف أنفسهم وانقسم الناس إلى فريقين مما أدى اضطراب الامن، وتقاتل الفريقان وأرادت السلطة أن وتقاتل الفريقان، وتوفيقاً بين الأميرين عين المماليك عناناً شريكاً لعلي بن عجلان وذلك لتهدئة الأوضاع في الحجاز ولكن ذلك لم يؤد إلى الهدوء والأمن مما جعل السلطة في مصر تقبض على عنان سنة 794هـ وتبقيه مسجوناً حتى وفاته سنة 805هـ

أما الشريف علي بن عجلان فقد استمر في حكم مكة بتأييد من سلطة المماليك في مصر حتى قتل على يد خصومه من أشراف مكة عام 797هـ، وبمقتله عينت السلطة المملوكية أخاه الشريف حسن الذي كان متواجداً في ذلك الوقت في مصر، فقدم مكة وتسلم زمام الامور بها وقد استطاع بحزمه وقوته أن يعيد الأمن لمكة والمشاعر المقدسة والحد من خطر الخارجين والطامعين من الأشراف.

واستمر الشريف حسن يقود البلاد بأحسن الأحوال حتى وفاته عام 829هـ وقد تخلل فترة حكمه حادثتان أجبرته على ترك مكة، الأولى عام 818 هـ حيث عينت السلطة الشريف رميثة بن محمد بن عجلان ولم يلبث ان أخرجه الشريف حسن عام 819هـ والثانية عام 827هـ عندما عينت السلطة الشريف علي بن عنان ولم يدم حكمه سوى عاماً واحداً حيث عادت السلطة واعترفت بنفوذ الشريف حسن ومقدرته في حكم البلاد وذلك لما تتميز به شخصيته من صفات قيادية.

وبعد وفاته تولى ابنه الشريف بركات، وكان قد تدرب على مهام الحكم وذلك عندما ما أشركه والده معه في سنوات حكمه الأخيرة، وقد أيدت سلطة مصر تولي الشريف بركات، واستمر الشريف بركات في حكم مكة حتى عام 845هـ، حيث نافسه أخوه الشرفي علي بن حسن وذلك عندما استطاع إقناع السلطة في مصر بتعيينه بدلاً من أخيه واستمر الشريف علي في حكم مكة حتى عام 846هـ حيث عزل وعين بدلاً منه أخوه القاسم الذي استمر إلى عام 850هـ حيث عزل وأعيد تعيين الشريف بركات واستمر في حكم مكة حتى وفاته سنة 859هـ وعين بعده ابنه الشرفي محمد بن بركات بموافقة السلطة في مصر وقد استقرت الأمور للشريف محمد بن بركات في حكم مكة حتى وفاته عام 903هـ، وكان يسانده في حكم مكة وينوب عنه ابنه الشريف بركات وقد تولى بعده الحكم بمكة بتأييد من

السلطة في مصر ولكن لم تصف له الأمور حيث نازعه أخوته وكان أولهم نزاعاً له الشريف هزاع منذ سنة 904 هـ بمساعدة الحملة المصرية المرافقة للحجاج ولكنه أجبر على تركها بداية عام 907 هـ ثم عاد ودخلها في جمادي الأولى من نفس العام وأجبر الشريف بركات على الخروج منها ولكنه توفي في شهر رجب من نفس العام.

وبوفاة هزاع خرج الأخ الثاني للشريف بركات ويدعى أحمد الجازاني حيث نادى بنفسه أميراً على مكة فزحف عليه الشريف بركات من جهة اليمن وأجبره على الخروج من مكة في شهر شعبان من عام 907هـ، وعندما رأت السلطة إصرار الشريف بركات، أرسلت بتعيينه حاكماً على مكة أ واستمر الشريف أحمد في مناوأة أخيه وقد كانت الحرب بينهما سجالاً عانت مكة وأهلها والحجاج من ويلات الحرب والفتن وانعدام الأمن، وقد حاولت السلطة إيقاف الصراع بالقبض على الشريف بركات وسجنه في مصر سنة 908هـ' ولكن الشريف أحمد قتل في العام التالي 909هـ، بمكة فظهر الشريف حميضة الاخ الثالث للشريف بركات ونادى بنفسه أميراً على مكة، وفي هذه الأثناء أفلت الشريف بركات من مصر وعاد إلى مكة وجمع الجيوش لمهاجمة أخيه حميضة وأجبر أخاه على ترك مكة فدخلها فلم تجد السلطة في مصر مناصاً من الاعتراف بالشريف بركات وترك مكة له يولي من يريد من الأشراف أو يليها بنفسه، فاختار الشريف بركات لحكم مكة أخاه الشريف قايتباي وأشرك معه ابنه الشريف علي في الوقت الذي احتفظ الشريف بركات بالقيادة العليا للبلاد حيث كان يذكر اسمه في خطبة الجمعة، هذا ولم يلبث أن توفي الشريف علي بن بركات عام 913هـ، فلم يعين بدلاً منه شريكاً للشريف قايتباي، وفي عام 918هـ توفي الشريف قايتباي، وبوفاته باشر الشريف بركات مهام الحكم في مكة بنفسه بتأييد من السلطة في مصر، واستمر إلى أن سقطت الدولة المملوكية وهو حاكماً بمكة عام 923، واستمر في إمارة مكة في العهد العثماني بالشراكة مع ابنه أبي نمي، بأمر العثمانيين، إلى أن توفي بركات سنة 931هـ/1525م، وتولى ابنه أبي نمي بعده[1].

---

[1] – أخذت معلومات هذا الملحق من الكتب الآتية:

تقي الدين الفاسي، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام.

محمد بن أبي بكر بن ظهيرة، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف.

عبد الحفيظ السالمي، الحياة الدينية في الحجاز، ص10 –ص24. رسالة ماجستير.

الملحق رقم 3:

خرائط طرق الحج

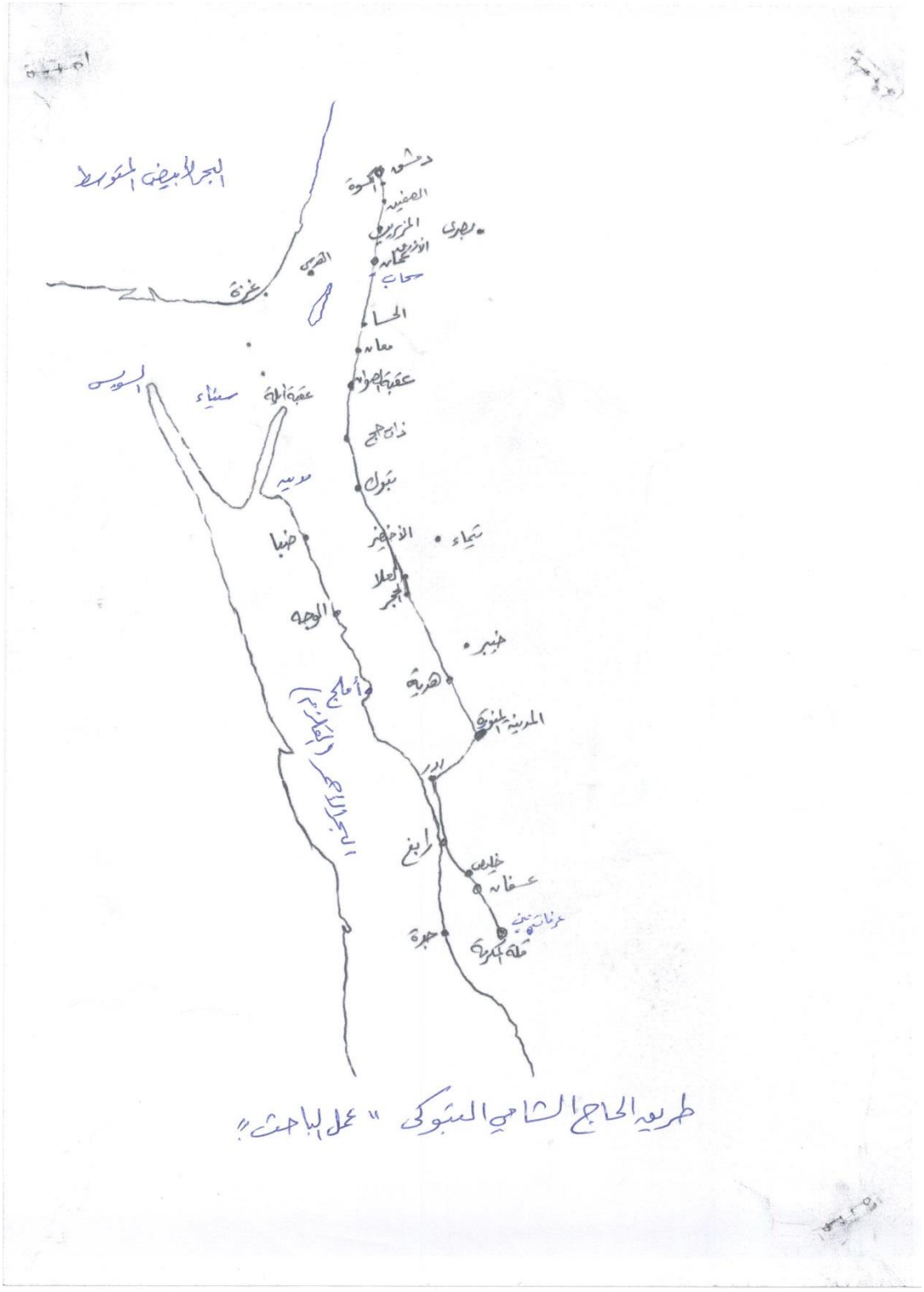

طريق الحاج الشامي التبوكي " عمل الباحث "

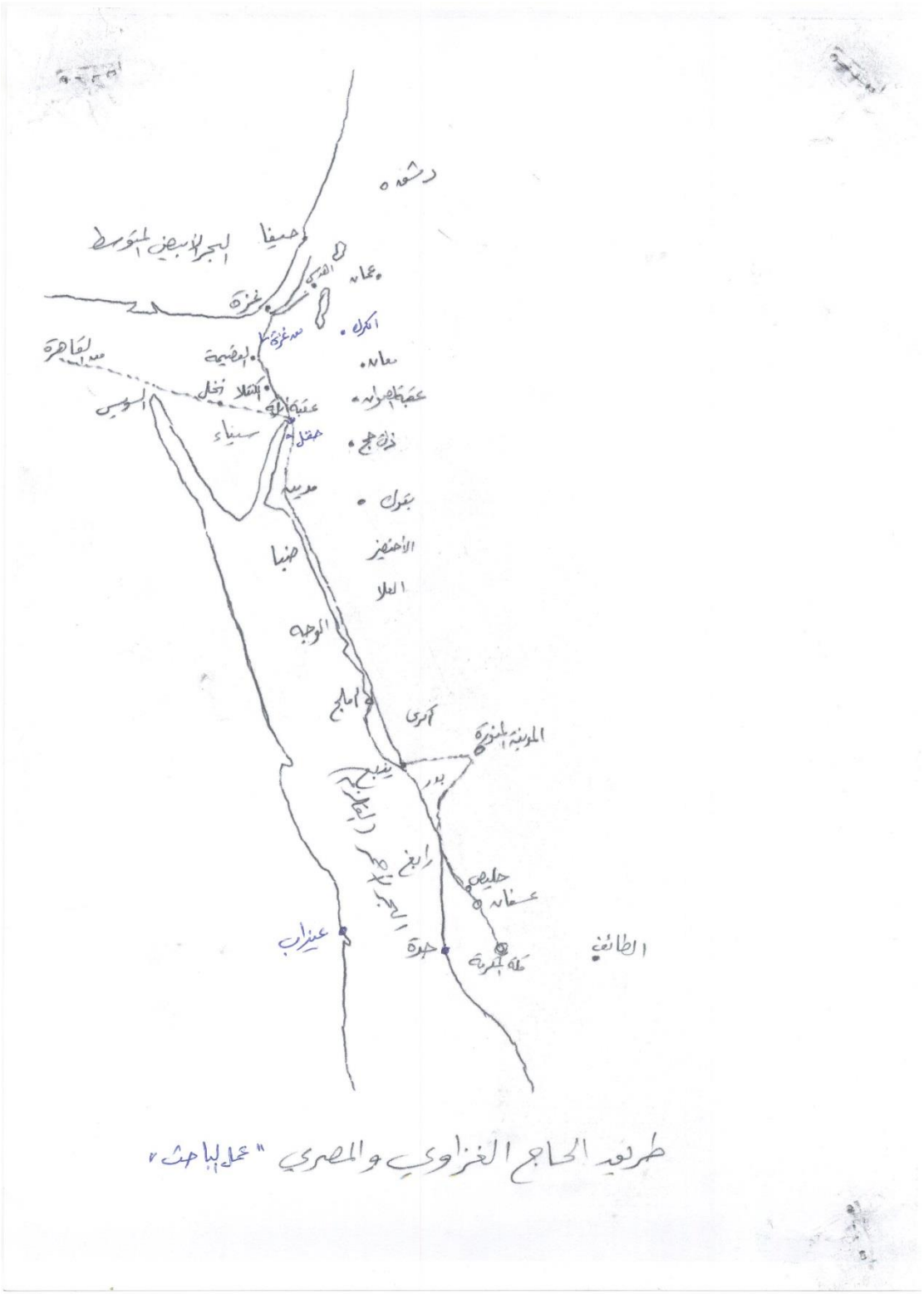

طريق الحاج الغزاوي والمصري "عمل الباحث"

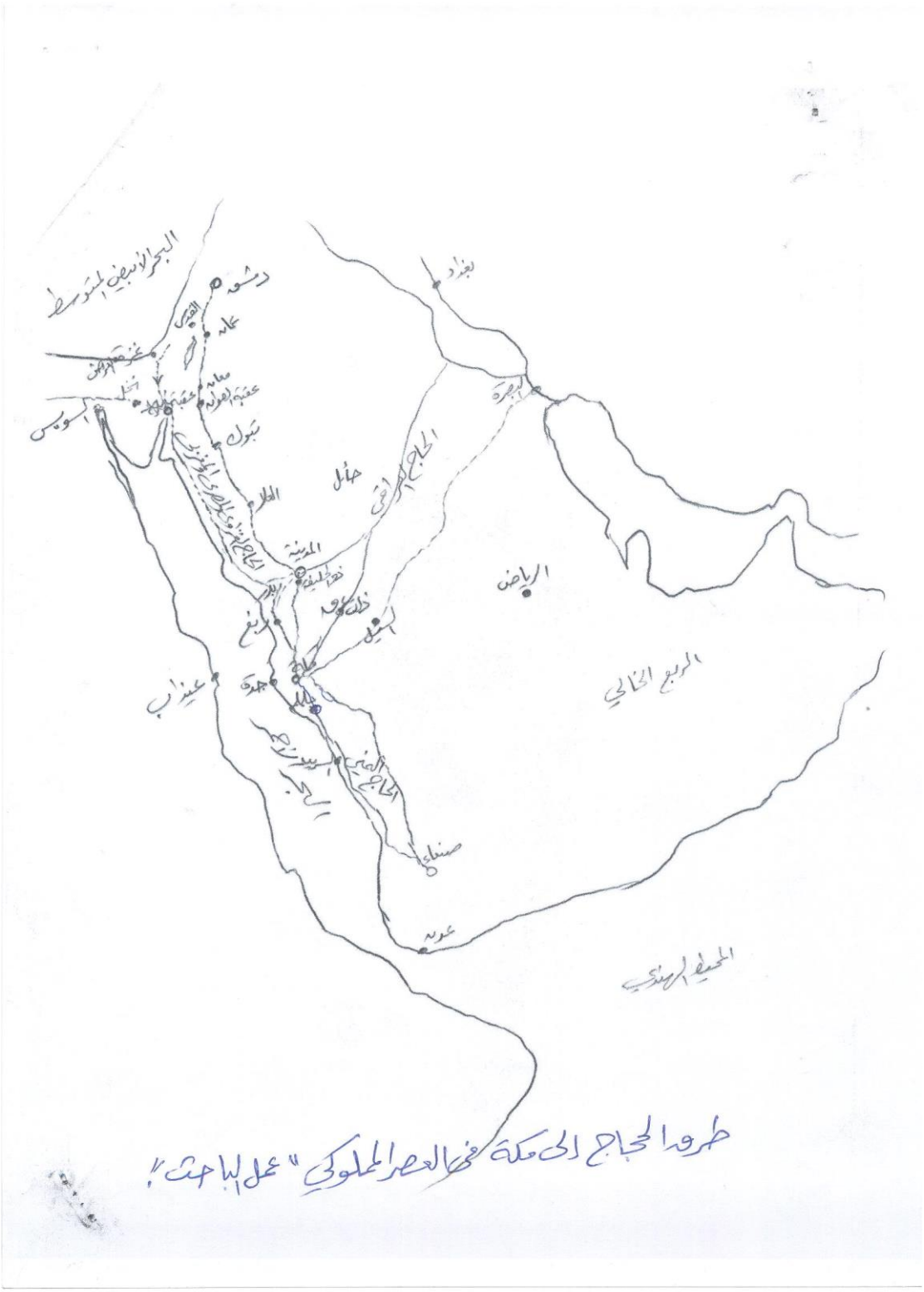

طرق الحجاج الى مكة في العصر المملوكي "عمل الباحث"

الملحق رقم 4:

صور المحمل وصور القوافل وطرق الحج من موقع فريق الصحراء، جزيرة العرب أرضها وتراثها، أبحاث ورحلات وصور. من موقع:www.alsahra.org

من موقع:www.alsahra.org

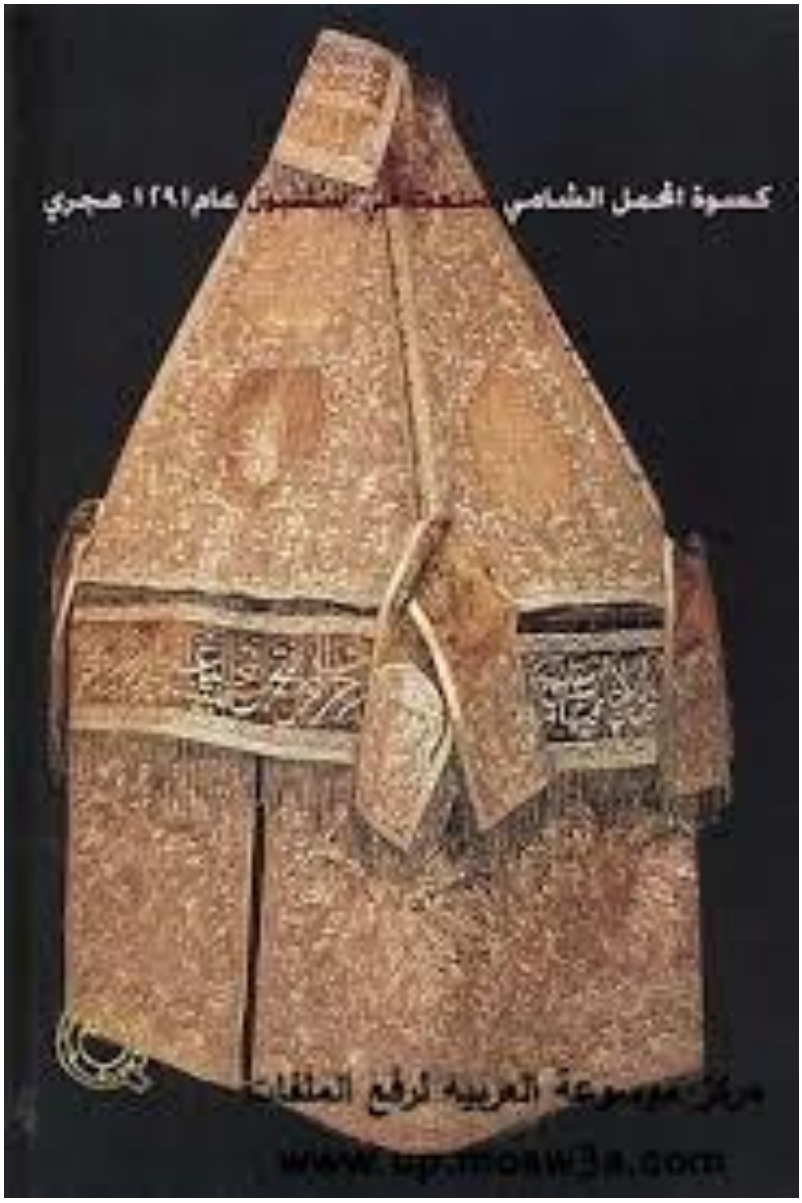

من موقع: www.alsahra.org

صور عن قوافل الحج وطرقها (موقع فريق الصحراء):

صور من موقع: www.alsahra.org

صور لطرق الحج وقد مهدت للسير فيها من موقع:www.alsahra.org

صور من موقع:www.alsahra.org

صورة لطريق الحجاج قديماً من موقع:www.alsahra.org

مركب التختروان يستأجره الحاج الغني. موقع:www.alsahra.org

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم وعلومه.

ثانياً: كتب الحديث والفقه.

ثالثاً: كتب اللغة والقواميس.

رابعاً: كتب الموسوعات.

خامساً: كتب التاريخ العام والتراجم.

سادساً: كتب البلدان والجغرافيا والرحلات.

سابعاً: كتب المراجع والدراسات العربية الحديثة.

المصادر والمراجع[1]

أولاً: القرآن الكريم وعلومه:

- القرآن الكريم.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ):

1) تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – 1419هـ.

- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ/1272م):

2) الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ – 1964م، عدد الأجزاء: 20 جزءاً (في 10 مجلدات).

ثانياً: كتب الحديث والفقه:

أ-كتب الحديث:

- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، (ت 256هـ/879م):

3) الجامع الصحيح المختصر، نشر دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 – 1987، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دمشق، عدد الأجزاء: 6

- مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت261هـ875م):

4) صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى:241هـ – 855م):

5) المسند، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشر دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1416 هـ – 1995 م، عدد الأجزاء: 8 (القسم الذي حققه أحمد شاكر).

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْ جِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ):

[1] رتبت المصادر والمراجع حسب ترتيب الحروف الهجائية لاسم شهرة المؤلف بعد تجريد ال التعريف وأبو وابن.

6) السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م.

- الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ):

7) سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ 4، 5)، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م، عدد الأجزاء: 5 أجزاء.

- ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، المتوفى سنة 852هـ/1448م:

8) فتح الباري شرح صحيح البخاري، نشر دار المعرفة - بيروت، 1379، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عدد الأجزاء: 13.

- الخلّال، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي (المتوفى: 311هـ):

9) السنة، نشر دار الراية – الرياض، الطبعة الأولى، 1410، تحقيق عطية الزهراني، عدد الأجزاء 3.

- الدارقطني، لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي [306 - 385]، نشر دار المعرفة - بيروت، 1386 – 1966.

10) سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، عدد الأجزاء:4.

- أبي داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ).

11) سنن أبي داود تحقيق شعيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م، عدد الأجزاء: 7.

- السيوطي، جلال الدين المتوفي سنة 911هـ/ 1505م:

12) جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطي، المكتبة الشاملة.

- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ):

13) المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد , عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، نشر دار الحرمين – القاهرة، عدد الأجزاء: 10.

- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى303هـ).

14) السنن الكبرى، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ – 2001م، عدد الأجزاء: (10 و 2 فهارس).

ب– كتب الفقه:

- الخطيب الشربيني، محمد الخطيب الشربيني،

15) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، نشر دار الفكر، مكان النشر بيروت، عدد الأجزاء.

- الزُّحَيْلِي، وَهْبَة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ، أستاذ ورئيس قسم الفقه الإسلاميّ وأصوله بجامعة دمشق – كلّيَّة الشَّريعة.

16) الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ (الشَّامل للأدلّة الشَّرعيَّة والآراء المذهبيَّة وأهمّ النَّظريَّات الفقهيَّة وتحقيق الأحاديث النَّبويَّة وتخريجها)، نشر دار الفكر – سوريَّة – دمشق، الطبعة: الرَّابعة المنقَّحة المعدَّلة بالنِّسبة لما سبقها (وهي الطبعة الثانية عشرة لما تقدمها من طبعات مصورة)،عدد الأجزاء: 10.

- السلمان، عبد العزيز بن محمد السلمان، المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض سابقاً.

17) أوضح المسالك إلى أحكام المناسك، معهد دار الدعوة، الرياض.

- ابن الفراء، القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (المتوفى :458هـ/ 1066م):

18) الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر (1357هـ 1938م) .

- الكناني، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: 733هـ):

19) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق قدم له: الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، تحقيق ودراسة وتعليق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، نشر دار الثقافة

بتفويض من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر – قطر/ الدوحة، الطبعة: الثالثة، 1408هـ -1988م.

- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى سنة450هـ/1057م):

20) الأحكام السلطانية، نشر دار الحديث – القاهرة، عدد الأجزاء1.

- ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن نجيم، المعروف بابن نجيم المصري (المتوفى970هـ/ 1562م):

21) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، نشر دار المعرفة، بيروت.

ثالثاً: كتب اللغة والقواميس والمعاجم:

- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ):

22) النهاية في غريب الحديث والأثر، نشر المكتبة العلمية – بيروت، 1399هـ – 1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، عدد الأجزاء: 5.

- الخليل، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ):

23) العين، تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي.

- رينهارت بيتر آن دُوزِي (المتوفى: 1300هـ):

24) تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: جـ 1 – 8: محمَّد سَليم النعَيمي، جـ 9، 10: جمال الخياط، نشر وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة: الأولى، من 1979 – 2000 م، عدد الأجزاء: 11.

- الزبيدي؛ محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (المتوفى:1205هـ/1790م):

25) تاج العروس من جواهر القاموس، نشر دار الفكر– بيروت، الطبعة الأولى/1414هـ، عدد الأجزاء20.

- الفيروز آبادي، مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب (ت823هـ/1420م):

26) القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة، بيروت، د. ت.

- ابن منظور: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (المتوفى711هـ/1311م):

27) لسان العرب، دار صادر بيروت د.ت. الطبعة: الثالثة – 1414هـ، عدد الأجزاء 15.

رابعاً: الموسوعات:

- العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري المتوفي عام749هـ/1348م:

28) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل الجبوري ومهدي نجم، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى سنة 2010م، ثلاثون جزءاً.

- القلقشندى، شهاب الدين أبو العباس احمد بن علي المتوفي عام821هـ/1418م:

29) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة دار الكتب المصرية، المطابع الأميرية 1910–1920م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (المتوفى: 733هـ/1333م):

30) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب فواز وإبراهيم شمس الدين ومفيد قميحة وجماعة آخرون، نشر دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – 1424 هـ – 2004م، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء 33.

خامساً: مصادر التاريخ العام والتراجم:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ):

31) الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ / 1997م.

- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت250هـ/1039م):

32) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: علي عمر، نشر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، عدد المجلدات2.

- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت930هـ –1524م):

33) بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى، دار نشر فرانز شتاينر فيسبادن ألمانيا، ط1975م، بإشراف الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة.

- البرزالي، علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف الأشبيلي البرزالي الدمشقي (المتوفي عام 738هـ/1338م):

34) تاريخ المقتفي على الروضتين " لأبي شامة"، والمسمى بتاريخ البرزالي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، نشر المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى 2006م-1427هـ، المطبوع منه 4أجزاء.

- البصروي، علي بن يوسف بن علي بن أحمد، علاء الدين الدمشقيّ العاتكي الشافعي الشهير بالبصروي (المتوفى: 905هـ).

35) تاريخ البصروي، (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك من سنة 871هـ ولغاية سنة 904هـ) تحقيق أكرم حسن العلبي، نشر دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة: الأولى، 1988،1408م، عدد الأجزاء: 1.

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (المتوفى: 279هـ):

36) فتوح البلدان، نشر دار ومكتبة الهلال- بيروت، عام 1988م.

- ابن تغري بردى، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى 874هـ/1469م):

37) النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، عدد الأجزاء: 16

38) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، عدد الأجزاء: 7.

- التنوخي، المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (المتوفى: 384هـ):

39) الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجى، نشر دار صادر، بيروت، عام النشر: 1398 هـ - 1978 م، عدد الأجزاء: 5.

- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي المؤرخ (المتوفى عام 1237هـ):

40) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، نشر دار الجيل – بيروت، عدد الأجزاء3.

- ابن الجزري، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن أبي بكر الجزري القرشي، (المتوفي عام 739هـ/1339م):

41) تاريخ حوادث الزمان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، نشر المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى 1419هـ-1998م.

- الجزيري، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصاري الجزيري الحنبلي (المتوفي سنة 977هـ/1569م):

42) الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق محمد حسن اسماعيل، نشر محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط سنة 1422هـ/ 2002م.

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى:597هـ – 1200م):

43) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ – 1992 م، عدد الأجزاء19.

- ابن حجر، الإمام / شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى 852هـ):

44) إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ، تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان، نشر دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – 1406هـ – 1986م، الطبعة : الثانية، عدد الأجزاء9.

45) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق مراقبة/ محمد عبد المعيد ضبان، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد/ الهند، الطبعة: الثانية، 1392هـ/1972م، عدد الأجزاء:6.

- ابن حجي، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجي السعدي الحسباني الدمشقي الذي عاش في الفترة من (751هـ– 816هـ/1350م –1413م):

46) تاريخ ابن حجي، حوادث ووفيات من سنة 796هـ– 815هـ، تعليق عبد الله الكندري، دار ابن حزم للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط 1424هـ/2003م، جزأين.

- الحربي، إبراهيم بن إسحاق المتوفى بعد عام 285هـ – 898م:

47) كتاب المناسك وأماكن طرق الحج، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة – الرياض، 1969م.

- الحريري، أبو محمد القاسم بن علي الحريري (المتوفى: 516هـ):

48) المقامات، مقامات الحريري، تحقيق : يوسف بقاعي، دار النشر : دار الكتب اللبناني – بيروت – 1981، الطبعة : الأولى، عدد الأجزاء / 1.

- ابن الحمصي، أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري (841هـ– 934هـ/1437 –1527م):

49) تاريخ حوادث الزمان في وفاة الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز فياض خرفوش، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، ط1421هـ/ 2000م، ثلاثة أجزاء.

- الخزرجي، علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن ابن وهاس الخزرجي الزبيدي، أبو الحسن موفق الدين (المتوفى812هـ – 1409م):

50) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، جـ 1: عُني بتصحيحه وتنقيحه: محمد بسيوني عسل، جـ 2: تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، نشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1403 هـ – 1983 م، عدد الأجزاء: 2.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى463هـ – 1072م).

51) تاريخ بغداد، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ – 2002 م، عدد الأجزاء: 16.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: 808هـ):

52) تاريخ ابن خلدون، المعروف بديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، نشر دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ – 1988م.

- الدِّيار بَكْري؛ حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بَكْري (المتوفى: 966هـ):

53) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، نشر دار صادر – بيروت، عدد الأجزاء: 2.

- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ):

54) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، نشر المكتبة التوفيقية، عدد الأجزاء37.

55) معجم الشيوخ الكبير، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، نشر مكتبة الصديق، الطائف – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1408هـ– 1988 م، عدد الأجزاء2.

- الرشيدي، أحمد الشيخ (ت1178هـ/1764م):

56) حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق ليلى عبد اللطيف أحمد، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1980م.

- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى902هـ/ 1496م):

57) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، نشر دار مكتبة الحياة – بيروت، عدد الأجزاء: 12جزءاً في ستة مجلدات.

58) التبر المسبوك في الذيل على السلوك، تحقيق نجوى كامل، لبيبة مصطفى، مطبعة دار الكتب والوثائق القاهرة، سنة 1423هـ، 2002م.

59) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، تحقيق حامد الفقي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، الطبعة: الاولى 1414هـ/1993م، عدد الأجزاء: 2.

- السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي، نور الدين أبو الحسن السمهودي (المتوفى911هـ/1505م):

60) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، تعليق إبراهيم الفقيه، ط2، جدة، 140هـ/1983م، تحقيق محمد الأمين محمد محمود أحمد الجكين، عدد الأجزاء2.

61) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، نشر دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1419، عدد الأجزاء: 4.

- السنجاري، علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري (المتوفي سنة 1125هـ):

62) منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق جميل عبد الله محمد المصري،6 أجزاء، معهد البحوث العلمية، مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1998.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى911هـ/1505م):

63) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، نشر دار إحياء الكتب العربية، 1387هـ/ 1976م- عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، عدد الأجزاء : 2.

- أبو شامة المقدسي، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (المتوفى 665هـ/1267م):

64) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، نشر مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1418 هـ/ 1997م، عدد الأجزاء5.

- ابن شاهين، زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدين خليل بن شاهين الظاهريّ الملطيّ ثم القاهري الحنفيّ (المتوفى: 920هـ):

65) نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، نشر المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002 م، عدد الأجزاء: 9 (8 أجزاء ومجلد فهارس).

- ابن شداد، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شداد (المتوفى: 632هـ):

66) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثانية، 1415 هـ - 1994 م، عدد الأجزاء:1.

- شيخ الربوة، شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة (654.727هـ/1256. 1327م):

67) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة ليبزج 1923م.

- الصباغ، محمد بن أحمد بن سالم بن محمد المالكي المكي المعروف بالصباغ (1243- 1321هـ):

68) تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، دراسة وتحقيق أ. د / عبد الملك بن عبد الله بن دهيش 1424 هـ - 2004م.

- ابن صصري، محمد بن محمد المتوفي سنة800هـ/1397م:

69) الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، مكتبة بودليان اكسفورد، تحقيق وليام برينز،

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: 764هـ) (ت764هـ/1363م):

70) الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، نشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام1420هـ- 2000م. عدد الأجزاء: 29.

- ابن الصيرفي، علي بن داود، المتوفي سنة900هـ/ 1495م:

71) نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، (3 أجزاء)، تحقيق حسن حبشي، (1970م- 1973م)، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 429.

- الطبري، علي بن عبد القادر، (ت1070هـ/1659م):

72) الأرج المسكي في التاريخ المكي، إشراف سعيد عبد الفتاح، تحقيق أشرف أحمد الجمال، نشر المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط1996م.

- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى 310هـ/922م):

73) تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: 369هـ، نشر دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية – 1387هـ، عدد الأجزاء 11.

- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الدمشقي الصالحي (ت953هـ/1546م):

74) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، نشر دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1418 هـ – 1998م، جزء واحد.

75) إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر دمشق، ط1405هـ/ 1984م.

- ابن ظهيرة القرشي، جمال الدين محمد جار الله بن محمد (ت986هـ/1578م):

76) الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، القاهرة، 1357هـ/1928م.

- ابن عبد الظاهر، القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر (620هـ/1223م–692هـ/1292م):

77) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1976م.

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ):

78) الأوائل، نشر دار البشير، طنطا، الطبعة الأولى 1408هـ، عدد الأجزاء1.

- العصامي؛ عبد الملك بن حسين بن عبد الملك بن عصام العصامي المكي (المتوفى (1111هـ/1700م):

79) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود– علي محمد معوض، نشر دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ – 1998 م، عدد الأجزاء: 4.

- العليمي؛ مجير الدين الحنبلي العليمي المفسر والمؤرخ المتوفي سنة 929هـ–1522م:

80) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، نشر مكتبة دنديس – عمان – 1420هـ – 1999م، عدد الأجزاء 2، تحقيق : عدنان يونس عبد المجيد نباتة.

- ابن العماد، المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ/1678م):

81) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، نشر دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، 1406هـ – 1986م، عدد الأجزاء: 11.

- العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (المتوفى: 749هـ/1348مـ):

82) التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1408 هـ – 1988 م، عدد الأجزاء: 1.

- العيني، محمود بن أحمد بن موسى الحنفى الشهير ببدر الدين العينى (المتوفى: 855هـ/1451م).

83) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، عدد الأجزاء: 4، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب – مركز تحقيق التراث، تاريخ الطبع: 1407هـ – 1987م.

- الفاسي؛ تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (المتوفي سنة 832هـ/1429م):

84) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، القاهرة، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1421هـ–2000م، عدد الأجزاء: 2.

85) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد الطيب حامد الفقي، (ج1) وفؤاد سيد (ج2–7) ومحمود الطناحي (ج8) القاهرة : مطبعة السنة المحمدية، 1959–1969م.

- الفاكهي، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (المتوفى272هـ/885م):

86) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، نشر دار خضر – بيروت، الطبعة : الثانية 1414هـ، عدد الأجزاء 6 أجزاء في 3 مجلدات.

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: 732هـ/ 1332م):

87) المختصر في أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة: الأولى، عدد الأجزاء: 4.

- ابن فهد، عز الدين بن عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي، المتوفي سنة 922هـ/1516م:

88) بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، القسم الثالث، تحقيق عبد الرحمن أبو الخيور، 1422هـ/2001م.

89) غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام تحقيق فهيم شلتوت، منشورات مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط 1406هـ/1986م.

- ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد(المتوفى885هـ/1481م):

90) إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت، 3أجزاء، جدة 1404هـ/1984م.

- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي، 779هـ- 851هـ/ 1377/ 1448م.

91) تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، ط 1994م، نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية –دمشق، أربعة أجزاء.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ):

92) المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة: الثانية، 1992 م، عدد الأجزاء: 1.

93) الجراثيم، تحقيق محمد جاسم الحميدي، قدم له: الدكتور مسعود بوبو، نشر وزارة الثقافة، دمشق، عدد الأجزاء: 2.

- الكتبي، محمد بن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (المتوفى: 764هـ):

94) فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى 1974م.

- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى774هـ/1372م):

95) البداية والنهاية في التاريخ، تحقيق علي شيري، نشر دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1408، هـ - 1988م.

- ابن كنان، محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي (1074 - 1153هـ):

96) المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق ودراسة حكمت إسماعيل، نشر وزارة الثقافة السورية دمشق، طبعة 1992، 1993م.

- الكندي، عمر بن أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المصري المتوفى: بعد 355هـ:

97) فضائل مصر المحروسة، تحقيق: د. علي محمد عمر، نشر مكتبة الخانجي – مصر، الطبعة: الأولى/ 1417هـ – 1997م.

- المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (المتوفى: 346هـ):

98) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: أسعد داغر، عدد الأجزاء: 4، نشر دار الهجرة ، تاريخ النشر: 1409هـ.

- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (المتوفى: 845هـ/1442م):

99) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ – 1997م، عدد الأجزاء: 8.

100) الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1955م.

- النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (المتوفى: 927هـ):

101) الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1410هـ – 1990م.

- النهروالي، قطب الدين أحمد بن محمد الحنفي، (المتوفي عام 988هـ/1579م):

102) كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، طبعة (ليبزج) 1857م.

- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد (ت 213هـ):

103) السيرة النبوية، تحقيق محمد بيومي، نشر مكتبة الإيمان المنصورة، ط1416هـ/ 1995م.

- ابن واصل؛ محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين (المتوفى: 697هـ/1298م):

104) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جـ 1، جـ 2، جـ 3: الدكتور جمال الدين الشيال، جـ 4، جـ 5: الدكتور حسنين محمد ربيع – الدكتور

سعيد عبد الفتاح عاشور، نشر دار الكتب والوثائق القومية – المطبعة الأميرية، القاهرة – جمهورية مصر العربية، عام: 1377 هـ – 1957م، عدد الأجزاء: 5.

- ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي، البكري القرشي، المعري ثم الحلبي (المتوفى : 852هـ):

105) خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور محمود زناتي – كلية التربية ، جامعة عين شمس، الناشر : مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ، 1428 هـ – 2008 م، عدد الأجزاء : 1.

- ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (المتوفى: 749هـ):

106) تاريخ ابن الوردي، نشر دار الكتب العلمية – لبنان بيروت، الطبعة: الأولى، 1417هـ – 1996م، عدد الأجزاء: 2.

- اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (المتوفى: 768هـ):

107) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، نشر دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ – 1997 م.

- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (المتوفى: 726 هـ):

108) ذيل مرآة الزمان، بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة: الثانية، 1413 هـ – 1992 م، عدد الأجزاء 6.

سادساً: كتب البلدان والجغرافيا والرحلات:

كتب الرحلات:

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة (المتوفى 779هـ/1377م):

109) رحلة ابن بطوطة، المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، نشر دار الشرق العربي بيروت، عدد الأجزاء 2.

- ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (المتوفى 614هـ/1217م):

110) رحلة ابن جبير(المسماة: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)، نشر دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت، الطبعة الأولى، 1400هـ/1980م، عدد الأجزاء: 1.

- البلوي؛ خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي، أبو البقاء (المتوفى: بعد 767هـ):

111) رحلة البلوي المسماة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، المكتبة الشاملة.

- ابن رشيد السبتي الأندلسي، المتوفي سنة721هـ/ 1321م:

112) الرحلة المسماة ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة، الجزء الخامس.

- ابن العبدري، محمد بن محمد، المتوفي بعد سنة 700هـ/ 1300م:

113) رحلة العبدري المسماة (الرحلة المغربية)، تحقيق علي ابراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الثانية 2005م.

- العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر (ت1090هـ/ 1679م):

114) الرحلة العياشية "ماء الموائد" دار السويدي للنشر والتوزيع، تحقيق سعيد الفاضلي، سليمان القرشلي.

- القلصادي، أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي (ت 891هـ/1486م):

115) رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1399هـ/ 1978م.

- كبريت، محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي، المعروف بكبريت، (المتوفى: 1070هـ):

116) رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي، نشر المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الثانية 1385هـ، عدد الأجزاء: 1.

- النابلسي، عبد الغني إسماعيل (ت1143هـ/1731م):

117) الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام والحجاز، ج3، قسم الرحلة إلى الحجاز، نسخة مخطوطة بقلم أحفاد المؤلف.

- محمد حسن عقيل الشريف:

118) المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة، ويشتمل على عدة رحلات لكثير من الرحالة العرب والأوروبيين من العهد المملوكي مثل رحلة فارتيما

والورثيلاني وجوزيف بتس وهو عبارة عن أربعة أجزاء، نشر دار الأندلس الخضراء، جدة المملكة العربية السعودية، ط 1421هـ/ 2000م.

- برترندون دي لابركييه، الرحالة الايطالي سنة 829هـ/ 1425م:

119) الرحلة، ترجمة محمود زايد، طبعة مقدمة إلى الجامعة الأمريكية بيروت، سنة 1954م.

كتب البلدان:

- الإصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، المعروف بالكرخي (المتوفى: 346هـ):

120) المسالك والممالك، نشر: دار صادر، بيروت، طبعة 2004م، عدد الأجزاء1.

- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، (المتوفى: 487هـ/1094م):

121) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى الصقر، نشر عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، 1403هـ، عدد الأجزاء 4.

122) الممالك والمسالك، نشر دار الغرب الإسلامي، سنة 1992م، عدد الأجزاء2.

- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميري (المتوفى 900هـ/1495م):

123) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، نشر مؤسسة ناصر للثقافة –بيروت– طبع على مطابع دار السراج، الطبعة: الثانية، 1980م، عدد الأجزاء: 1.

- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة (المتوفى: نحو300هـ – 912م):

124) المسالك والممالك، نشر دار صادر أوفست ليدن، بيروت، عام النشر: 1889م، عدد الأجزاء: 1.

- ابن شاهين، زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدين خليل بن شاهين الظاهريّ الملطيّ ثم القاهري الحنفيّ (المتوفى 920هـ):

125) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، طبع بباريس سنة 1894م.

- المهلبي، المؤلف: الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي (المتوفى: 380هـ):

126) المسالك والممالك، جمعه وعلق عليه ووضع حواشيه: تيسير خلف، عدد الأجزاء1.

- الهمذاني، أحمد بن محمد ابن الفقيه الهمذاني (ت 290هـ/902م):

127) كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن،1885م.

- ياقوت؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، (المتوفى626هـ/1229م):

128) معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995 م، عدد الأجزاء:7.

- اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (المتوفى: بعد 292هـ/ 905 م):

129) كتاب البلدان، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ، عدد الأجزاء 1.

سابعاً: المراجع والدراسات العربية الحديثة:

المراجع العربية:

- ابراهيم حلمي:

130) كسوة الكعبة وفنون الحجاج، نشر مجلة اقرأ العدد 320 يونيو، سنة 1991م، اصدار مؤسسة أخبار اليوم– القاهرة.

- أحمد فؤاد السيد:

131) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، نشر مكتبة مدبولي ودار النهضة العربية للطباعة والنشر القاهرة، ط1996م.

- أيوب صبري باشا:

132) مرآة جزيرة العرب، ترجمة أحمد متولي، نشر دار الآفاق العربية، القاهرة، ط سنة 1999م.

- باسلامة، حسين عبد الله:

133) تاريخ عمارة المسجد الحرام بما أحتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، ط3 (جدة تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي، رقم 16، 1400هـ/1982م).

134) تاريخ الكعبة المشرفة، عمارتها وكسوتها وسدانتها، ط3 (جدة: تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي، رقم 1402،47هـ/1982م).

- البتنوني، محمد لبيب:

135) الرحلة الحجازية، نشر مطبعة الجمالية القاهرة 1329هـ.

- البلادي، عاتق بن غيث البلادي، (1352- 1431هـ):

136) معجم معالم الحجاز، نشر دار مكة، مؤسسة الريان، الطبعة الثانية1431هـ، عدد الأجزاء 10 في 5مجلدات.

137) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، دار اليمامة الرياض ط1 1397هـ/1977م

138) معالم مكة التاريخية والأثرية مكة المكرمة دار مكة 1403هـ/1983م.

- الجوهري، اللواء رفعت:

139) سيناء أرض القمر، الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة، ط1965م.

- حسن إبراهيم حسن:

140) تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل بيروت، الطبعة الرابعة عشر سنة 1996م.

- حمدي عبد المنعم حسين:

141) دراسات في تاريخ الايوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، السويس، ط2000.

- دهمان، محمد أحمد:

142) معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، نشر دار الفكر المعاصر . بيروت . لبنان ، دار الفكر . دمشق . سوريا، الطبعة الأولى 1410 هـ . 1990 م.

- رافق، عبد الكريم:

143) بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام، قافلة الحج الشامي وأهميتها، بدون دار نشر.

- رفعت باشا، إبراهيم:

144) مرآة الحرمين في الرحلات الحجازية، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة الأولى 1344هـ/1925م.

- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ):

145) الأعلام، نشر دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م.

- السباعي، أحمد محمد:

146) تأريخ مكة، دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، نشر الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة سنة على تأسيس المملكة السعودية، الرياض- مكة المكرمة، دار مكة، ط1419هـ/1999م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور:

147) العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية القاهرة، ط1976.

- سليمان عبد الغني المالكي:

148) مرافق الحج والخدمات المدينة للحجاج في الأرضي المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1408هـ/1987م.

- الشريف، محمد حسن عقيل:

149) المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة، دار الأندلس الخضراء، جدة المملكة العربية السعودية، ط1421هـ/ 2000م.

- عبد المحسن طه رمضان:

150) تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها في العصرين الأيوبي والمملوكي، نشر دار الفكر، عمان، ط 2010م.

- عبد الملك بن عبد الله الدهيش:

151) الحرم المكي الشريف والإعلام المحيطة به، دراسة تاريخية ميدانية ط1 (مكة المكرمة مطبعة النهضة الحديثة1415هـ/1995م.

- العظمة، عبد العزيز:

152) مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، تحقيق نجدة فتحي صفوة، رياض الريس للكتب والنشر، سوريا.

- الغازي، العلامة المحدّث المُسنِد المؤرخ، الشيخ عبدالله بن محمد الغازي المكي الحنفي، 1290 - 1365هـ:

153) إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى: بإتمام الكلام، دراسة وتحقيق، عبدالملك بن عبدالله بن دهيش.

- قاسم عبده قاسم:

154) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

- كحالة، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (المتوفى: 1408هـ):

155) قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة، 1414 هـ - 1994 م، عدد الأجزاء: 5.

- الكردي؛ محمد طاهر الكردي المكي:

156) التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، نشر مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة، ودار خضر للطباعة بيروت، الطبعة الأولى 1420هـ/ 2000م، ستة أجزاء.

- لويس المعلوف:

157) المنجد في اللغة والأعلام، نشر دار المشرق بيروت، الطبعة 33، سنة1992م.

- مؤنس، حسين:

158) أطلس تاريخ الإسلام، نشر الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1987م.

- محمد ماهر حمادة:

159) الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة ط2 بيروت1402هـ/1982م.

- مبارك محمد الطراونة:

160) الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، نشر دار جليس الزمان للنشر والتوزيع، عمان، ط2010م.

- مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر، محمد النجار:

161) المعجم الوسيط، نشر دار الدعوة، بإشراف مجمع اللغة العربية، عدد الأجزاء:2.

- المنوني، محمد:

162) من حديث الركب المغربي، نشر مطبعة المخزن، تطوان سنة 1953م.

- نعوم بك شقير:

163) تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى 1991م.

- نقولا زيادة:

164) دمشق في عهد المماليك، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت– نيويورك، 1966م.

- نعيسة، يوسف جميل:

165) مجتمع مدينة دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1986م، جزأين.

الرسائل الجامعية:

- آمنة حسين جلال:

166) طرق الحج ومرافقه في العصر المملوكي 648هـ–923هـ، رسالة دكتوراه في التاريخ الاسلامي، غير منشورة، من جامعة أم القرى، 1407هـ.

- حسين عبد العزيز حسين شافعي:

167) الرباط في مكة المكرمة منذ البدايات وحتى نهاية العصر المملوكي، دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى (1416هـ/1995م).

- خالد محسن حسان الجابري:

168) الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، 1413هـ/ 1993م.

- سليمان صالح كمال:

169) إمارة الحج في العصر العباسي خلال الفترة (132هـ –247هـ)،رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى جامعة أم القرى، مكة المكرمة،1408هـ /1988م.

- عائشة مانع عبيد العبدلي:

170) أمارة الحج في العصر المملوكي، وتأثيراتها على الحجاز، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، سنة 1419هـ/1999م.

- عبد الحفيظ حمدي حامد السالمي:

171) الحياة الدينية في الحجاز خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير في التاريخ الاسلامي، جامعة أم القرى مكة ، 1425هـ.

- لورنس الحسن البرهو السوسي:

172) قافلة الحج الشامي وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في العصر العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، سنة 2007.

- محمد صبحي نهار الشناق:

173) أعراب بلاد الشام في عهد المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 2000م.

- نسيم زريق شلوف:

174) الأوضاع الاجتماعية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاسلامية غزة، 2009م.

الدوريات:

- التهامي، محمد محمد:

175) الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية، مجلة الدارة، الرياض، العدد الأول، شوال سنة 1405هـ.

- فيصل عبدالله محمد بني حمد:

176) الأسواق الشامية الموسمية على طريق الحج في العصر المملوكي، مجلة العرب الرياض، عدد رمضان وشوال 1425هـ.

- فهد ، بدري محمد:

177) تاريخ أمراء الحج، مجلة المورد، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، دار الجاحظ، الجمهورية العراقية، المجلد التاسع، العدد الرابع، عدد خاص بمناسبة القرن الخامس الهجري 1401هـ/1981م، ص 179-210.

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الاهداء	**3**
شكر	**4**
مقدمة	**6**
أهمية الموضوع	**7**
الدراسات السابقة	**8**
منهج وخطة البحث	**10**
دراسة المصادر	11
الفصل الأول	**19**
الفصل الأول: منزلة الحج في الإسلام واهتمام خلفاء المسلمين به	**20**
المبحث الأول: معنى الحج وفضله وتحديد مواقيته	**20**
المبحث الثاني: أمير الحج وشروطه	**28**
المبحث الثالث: اهتمام الخلفاء بالحج وشئونه قبل العهد المملوكي	**32**
الفصل الثاني	**46**
الفصل الثاني: المماليك واهتمامهم بالحج وشئون الحرمين	**47**
توطئة تاريخية	**47**
المبحث الأول: عمل كسوة الكعبة وإرسال المحمل	**52**
كسوة الكعبة	**52**
إرسال المحمل	**62**
المبحث الثاني: تنظيم قيام ركب الحج من مصر والشام وفق مراسم خاصة، وتعيين أميرٍ للحج، والحفاظ على أمن الحجاج في مكة والطرق المؤدية إليها	**65**
تنظيم ركب الحج الخارج من مصر والشام وفق مراسم خاصة، وتعيين أمير الحج	**65**
نشأة الطوافة	**70**
الحفاظ على أمن الحجاج في طرق الحج	**72**

بسط السيطرة على الحجاز والتخلص مما يعيق الحج	**74**
المبحث الثالث: تقديم التسهيلات للحجاج على امتداد الطريق، والقيام بعمل الإصلاحات اللازمة في الحرمين	**80**
تقديم التسهيلات للحجاج على امتداد الطريق في الأراضي الحجازية	**80**
القيام بعمل الإصلاحات اللازمة في الحرمين	**84**
الأعطيات لأهالي الحرمين	**90**
الفصل الثالث	**94**
الفصل الثالث: طرق الحج الشامي وطرق الأمصار الأخرى	**95**
المبحث الأول: طريق ركب الحاج الشامي التبوكي	**100**
المبحث الثاني: طريق الحج الشامي الغزاوي	**110**
المبحث الثالث: طريق الحج المصري والعراقي واليمني	**122**
طريق الحج المصري	**122**
طريق الحج العراقي	**126**
طريق الحج اليمني	**131**
الفصل الرابع	
الفصل الرابع: كيفية تسيير قافلة الحج الشامي في العهد المملوكي والمرافقون لها	**136**
المبحث الأول: كيفية الاستعداد والإعداد لقافلة الحج الشامي	**137**
المبحث الثاني: تسيير وعودة قافلة الحج الشامي	**151**
المبحث الثالث: المرافقون لقافلة الحج الشامي	**164**
الفصل الخامس	
الفصل الخامس: المخاطر والعقبات التي واجهها الحج الشامي	**180**
المبحث الاول: الفتن والصراع السياسي في مكة والحجاز	**181**
المبحث الثاني: اعتداءات العربان على قوافل الحجيج، ومعالجة المماليك لها	**193**

المبحث الثالث: الكوارث والغلاء ومشقات الطريق	**210**
الفصل السادس	
الفصل السادس: أخبار ركب الحج الشامي وأمرائه في العصر المملوكي	**220**
الفصل السابع	
الفصل السابع: الآثار الحضارية للحج الشامي	**261**
المبحث الأول: الأثر الاقتصادي للحج الشامي	**262**
المبحث الثاني: الأثر الثقافي والعلمي	**276**
المبحث الثالث: الأثر الاجتماعي والسياسي والعمراني	**291**
الأثر الاجتماعي	**291**
الأثر السياسي	**301**
الأثر العمراني	**302**
الخاتمة والنتائج والتوصيات	**305**
الملاحق	**308**
ملحق رقم 1: سلاطين المماليك	**309**
ملحق رقم 2: أمراء مكة	**313**
ملحق رقم 3: خرائط طرق الحج	**319**
ملحق رقم 4: صور المحمل والقوافل وصور طرق الحج	**323**
قائمة المصادر والمراجع	**328**
فهرس المحتويات	**352**